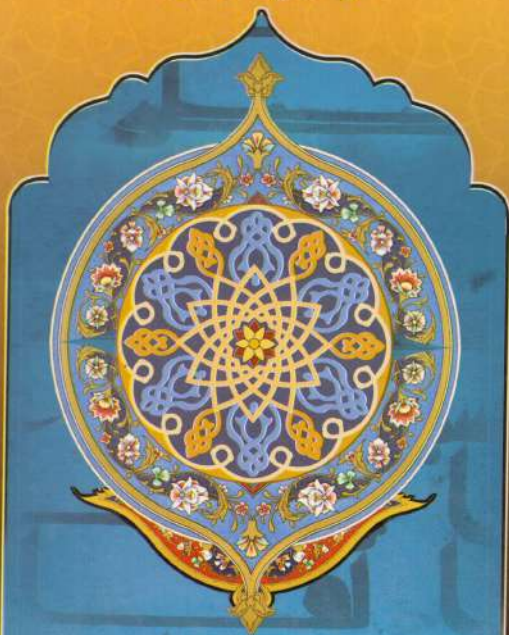


تَلْخِصُ الْأَقْبَامِ

الجزء الأول



طبعة جديدة مصححة ومنقحة

العلامة محمد هادي معرفي

تَلْحِيصُ الْمَرْبُوكَاتِ

الْعَلَامَةُ مُحَمَّدُ هَادِي مُعْرِفَةُ



الجزء الأول



مؤسسة التمهيد

الجمهورية الإسلامية الإيرانية.
قم المقدسة. شارع انقلاب. فرع ١٨. رقم ٤٩
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥٣١٩٥٥

تلخيص التمهيد

الجزء الأول

العلامة محمد هادي معرفة

الطبعة الثانية

١٣٩١ هـ ش. ١٤٣٣ هـ ق. ٢٠١٢ م

الكمية: ١٥٠٠ نسخة

مطبعة ستاره

جميع الحقوق محفوظة

التوزيع:

منشورات ذوي القربى: قم المقدسة،
شارع إرم، بناية القدس التجارية،
هاتف: ٠٠٩٨/٢٥١/٧٧٤٤٦٦٣
موبايل: ٠٠٩٨/٩١٢١٥١٧٧٤٨

ISBN: 978-600-5079-09-8 (Vol. 1)

ISBN: 978-600-5079-11-1 (Vol SET)

سعر الدورة: ١٨٠٠٠ تومان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى محمد وآله الطاهرين

كلمة مؤسسة التمهيد

تلبية لما طلبه بعض المعاهد العلمية لطبع «تلخيص التمهيد» الذي ألفه العلامة آية الله معرفة ﷺ عام ١٤٠٩ هـ وكان تلخيصاً لستة أجزاء من كتابه القيم (التمهيد في علوم القرآن)، رأينا من الأفضل أن ندرج فيه آخر آرائه ونظرياته وبعض ما أضافه في تلك الستة، مثل: القرآن وأسماءه، القراءات وأثرها في التفسير والأحكام، النسخ المشروط، النسخ التدريجي، براعة القسم في القرآن، وتلخص بعض مواضعه المبسوطة دون إخلال. بلوغاً لنيل طلابه ورواده.

وجدير بأن تعلن مؤسسة التمهيد بتحقيق أمانة المؤلف في طبع التمهيد في عشرة أجزاء مع زيادات وآراء مستجدة، محتوية على: «تاريخ القرآن، القراءات، المحكم والمتشابه، الإعجاز القرآني، دلالات إعجاز القرآن البياني والعلمي والتشريعي، شبهات وردود حول القرآن الكريم، صيانة القرآن من التحريف، التفسير والمفسرون».

وكان مجهودنا حسن طباعته وتفتيح مواضيعه، خدمة متواضعة ونيلاً لرضاه تعالى.

إلّا أن المؤلف ﷺ بلغ أمنيته هذه بعد حياته حيث وافته المنية يوم ٢٩ من ذي الحجة سنة ١٤٢٧ هـ. ونسأله عزّ وجلّ أن يدخله في رضوانه بما عمله وساهر طول حياته لأجل القرآن والدفاع عنه.

فهرس مواضيع الكتاب

المقدمة ١٧

الوحي والقرآن

| | |
|---------------------------------|----|
| ظاهرة الوحي | ٢١ |
| الوحي في اللغة | ٢١ |
| الوحي في القرآن | ٢٢ |
| إمكان الوحي | ٢٥ |
| الوحي عند فلاسفة الغرب | ٢٨ |
| أنحاء الوحي الرسالي | ٣١ |
| ١- الرؤيا الصادقة | ٣٢ |
| ٢- نزول جبرائيل ﷺ | ٣٥ |
| ٣- الوحي المباشر | ٣٩ |
| موقف النبي ﷺ من الوحي | ٤٠ |
| النبوة مقرونة بدلائل نيرة | ٤١ |
| قصّة ورقة بن نوفل | ٤٥ |
| الوحي لا يحتمل التباساً | ٤٨ |
| أسطورة الغرائق | ٥١ |
| نقد الحديث سنداً | ٥٣ |

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٥٥ | نقد الحديث مدلولاً |
| ٥٦ | ١- مناقضته مع القرآن |
| ٥٧ | ٢- مناقضته لمقام العصمة |
| ٥٨ | ٣- تهافته مع آي السورة |
| ٦٣ | نزول القرآن |
| ٦٣ | بدء نزول الوحي |
| ٦٩ | بدء نزول القرآن |
| ٧١ | فترة ثلاث سنوات |
| ٧٢ | آراء و تأويلات |
| ٧٩ | تحقيق مفيد |
| ٨٠ | أول ما نزل |
| ٨٣ | آخر ما نزل |
| ٨٥ | المكي والمدني |
| ٨٥ | فوائد معرفة المكي عن المدني |
| ٩١ | ترتيب النزول |
| ٩٥ | آيات مستثنيات |
| ٩٩ | أسباب النزول |
| ٩٩ | معرفة أسباب النزول |
| ٩٩ | قيمة هذه المعرفة |
| ١٠٢ | الطريق إلى معرفة أسباب النزول |
| ١١٠ | سبب النزول أو شأن النزول |
| ١١١ | التنزيل والتأويل |

- ١١٦ هل يجب حضور ناقل السبب؟
- ١١٦ العبارة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد
- ١١٨ نزل القرآن بإتيانك أعني واسمعي يا جارة
- ١١٩ كيف الاهتداء إلى معالم القرآن؟

١٢٣ كُتَابُ الوحي

تاريخ القرآن

- ١٣١ تأليف القرآن
- ١٣٢ نظم كلماته
- ١٣٣ تأليف الآيات
- ١٣٥ ترتيب السور
- ١٣٧ تمحيص الرأي المعارض
- ١٤١ جمع علي بن أبي طالب عليه السلام
- ١٤٣ وصف مصحف علي عليه السلام
- ١٤٧ جمع زيد بن ثابت
- ١٤٨ منهج زيد في جمع القرآن
- ١٥٢ شكوك واعتراضات
- ١٥٤ مصاحف أخرى
- ١٥٥ أمد هذه المصاحف
- ١٥٨ وصف عام عن مصاحف الصحابة
- ١٥٩ وصف مصحف ابن مسعود
- ١٦٦ وصف مصحف أبي بن كعب

| | |
|-----|---|
| ١٦٩ | توحيد المصاحف..... |
| ١٦٩ | اختلاف المصاحف..... |
| ١٧٠ | نماذج من اختلاف العائمة..... |
| ١٧٢ | قدوم حذيفة المدينة..... |
| ١٧٢ | عثمان يأتمر الصحابة..... |
| ١٧٣ | لجنة توحيد المصاحف..... |
| ١٧٤ | موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي..... |
| ١٧٧ | عام تأسيس المشروع..... |
| ١٧٩ | منجزات المشروع..... |
| ١٨٢ | عدد المصاحف العثمانية..... |
| ١٨٦ | تعريف عامّ بالمصاحف العثمانية..... |
| ١٨٦ | ١- الترتيب..... |
| ١٨٨ | ٢- النقط والتشكيل..... |
| ١٩٠ | نشأة الخطّ العربي..... |
| ١٩١ | أوّل من نَقَطَ المصحف..... |
| ١٩٢ | أوّل من شكّل المصحف..... |
| ١٩٤ | تحسينات متأخرة..... |
| ١٩٦ | ٣- مخالفات في رسم الخطّ..... |
| ١٩٩ | نماذج من مخالفات الرسم..... |
| ٢٠٠ | مناقضات في الرسم العثماني..... |
| ٢٠٢ | ٤- اختلاف المصاحف..... |
| ٢٠٧ | القرآن في أطوار الإنافة والتجويد..... |

القراءات في نشأتها وتطورها

| | |
|-----|--------------------------------|
| ٢١٦ | عوامل نشوء الاختلاف |
| ٢١٧ | ١- بداية الخطّ |
| ٢١٩ | ٢- الخلوّ عن النقط |
| ٢٢٠ | ٣- التجريد عن الشكل |
| ٢٢١ | ٤- إسقاط الألفات |
| ٢٢٤ | ٥- تأثير اللهجة |
| ٢٢٦ | ٦- تحكيم الرأي والاجتهاد |

وقفة عند مسألة نواتر القراءات

| | |
|-----|--|
| ٢٢٩ | تصريحات أئمة الفتن |
| ٢٢٩ | كلام الإمام بدر الدين الزركشي |
| ٢٣٠ | كلام الشيخ شهاب الدين (أبو شامة) |
| ٢٣١ | كلام الحافظ ابن الجزري |
| ٢٣٢ | كلام جلال الدين السيوطي |
| ٢٣٢ | كلام الإمام الفخر الرازي |
| ٢٣٣ | كلام الحجّة الإمام البلاغي |
| ٢٣٣ | كلام سيّدنا الإمام الخوئي |
| ٢٣٤ | كلام الشيخ طاهر الجزائري |
| ٢٣٤ | كلام العلامة الزمخشري |
| ٢٣٥ | أدلة في وجه زاعمي التواتر |
| ٢٣٥ | مصطلح التواتر |
| ٢٣٦ | أسانيد تشريفية |

| | |
|-----|--|
| ٢٣٧ | آحاد لا تواتر |
| ٢٣٨ | إنكارات على القراء |
| ٢٤١ | قراءات شاذة من السبعة |
| ٢٤٣ | تعاليل و حجج اجتهادية |
| ٢٤٥ | تناقض في القراءات |
| ٢٤٧ | القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان |
| ٢٥٢ | الأحرف السبعة والقراءات السبع |
| ٢٥٣ | تلخيص البحث |

حديث الأحرف السبعة

| | |
|-----|--|
| ٢٥٥ | الحديث في روايات أهل البيت <small>عليهم السلام</small> |
| ٢٥٦ | الحديث في روايات أهل السنة |
| ٢٥٩ | مناقشة إجمالية في مدلول الحديث |
| ٢٥٩ | اختيار تفسير الأحرف باللهاجات |

القراءات

| | |
|-----|----------------------------------|
| ٢٦٧ | أنواع اختلاف القراءات |
| ٢٧٦ | تدوين القراءات المشهورة |
| ٢٨٠ | حصر القراءات في السبع |
| ٢٨٢ | استنكارات لموقف ابن مجاهد |
| ٢٨٧ | القراء السبعة ورواتهم |
| ٢٩٠ | ملحوظات قصيرة |
| ٢٩٢ | حفص وقراءتنا الحاضرة |
| ٢٩٦ | صلة السبعة بالقرآن الوثيقة |

القراءات بين الصلّة والشذوذ

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٢٩٩ | ضابط قبول القراءة |
| ٣٠١ | تحقيق الأركان الثلاثة |
| ٣٠٥ | مناقشة هذه الأركان |
| ٣١٧ | اختيارنا في ضابط القبول |
| ٣١٨ | تواتر القرآن |
| ٣٢٤ | ملاك صلّة القراءة |
| ٣٣٢ | دفاع منلوم |
| ٣٣٧ | القراءة المختارة |
| ٣٤٢ | فذلكة البحث |
| ٣٤٢ | نصوص ضافية |
| ٣٤٥ | القراءات وأثرها في التفسير والأحكام |

مقارنة نموذجية

بين قراءة حفص وقراءات تخالفها

| | |
|-----|-------------------|
| ٣٥٠ | فمن سورة الفاتحة |
| ٣٥٢ | ومن سورة البقرة |
| ٣٥٨ | ومن سورة آل عمران |
| ٣٥٨ | ومن سورة النساء |
| ٣٥٩ | ومن سورة المائدة |
| ٣٥٩ | ومن سورة الأنعام |
| ٣٦٠ | ومن سورة الأعراف |
| ٣٦٠ | ومن سورة هود |
| ٣٦٠ | ومن سورة النحل |

| | |
|-----|-------------------------|
| ٣٦١ | ومن سورة الكهف |
| ٣٦١ | ومن سورة مريم |
| ٣٦٢ | ومن سورة طه |
| ٣٦٢ | ومن سورة الأنبياء |
| ٣٦٣ | ومن سورة الشعراء |
| ٣٦٤ | ومن سورة الروم |
| ٣٦٤ | ومن سورة لقمان |
| ٣٦٤ | ومن سورة الصافات |
| ٣٦٥ | ومن سورة النجم |
| ٣٦٥ | ومن سورة الواقعة |
| ٣٦٦ | ومن سورة المعارج |
| ٣٦٦ | ومن سورة المذثر |
| ٣٦٦ | ومن سورة القيامة |
| ٣٦٧ | ومن سورة المطففين |
| ٣٦٧ | ومن سورة المسد |
| ٣٦٨ | ومن سورة الإخلاص |

الناسخ والمنسوخ في القرآن

| | |
|-----|-------------------------------------|
| ٣٧١ | النسخ والإصلاحات التشريعية |
| ٣٧١ | سلسلة تدوين هذا العلم |
| ٣٧٢ | خطورة معرفة الناسخ عن المنسوخ |
| ٣٧٥ | التعريف بالنسخ |
| ٣٧٦ | حقيقة النسخ |
| ٣٧٧ | الفرق بين النسخ والبداء |

| | |
|-----|---------------------------------|
| ٣٧٧ | بهتان مفضوح..... |
| ٣٧٨ | الفرق بين النسخ والتخصس..... |
| ٣٧٩ | شروط النسخ..... |
| ٣٨٢ | صنوف النسخ في القرآن..... |
| ٣٨٢ | ١- نسخ الحكم والتلاوة معاً..... |
| ٣٨٦ | ٢- نسخ التلاوة دون الحكم..... |
| ٣٩٠ | ٣- نسخ الحكم دون التلاوة..... |
| ٣٩٢ | النسخ المشروط..... |
| ٣٩٣ | النسخ المتدرج..... |
| ٣٩٨ | شبهات حول النسخ في القرآن..... |
| ٤٠٢ | عرض آيات منسوخة..... |
| ٤٠٢ | ١- آية النجوى..... |
| ٤٠٣ | ٢- آية عدد المقاتلن..... |
| ٤٠٤ | ٣- آية الإمتاع..... |
| ٤٠٦ | ٤- آية جزاء الفحشاء..... |
| ٤٠٧ | ٥- آية الثوارت بالامان..... |
| ٤٠٩ | ٦- آيات الصفح..... |
| ٤١٠ | ٧- آيات المعاهدة..... |
| ٤١١ | ٨- تدريجية تشرع القتال..... |

المحكم والمتشابه وحققة التأول

| | |
|-----|---------------------------------|
| ٤١٥ | المحكم والمتشابه في القرآن..... |
| ٤١٧ | هل في القرآن متشابه؟..... |
| ٤٢٠ | لماذا في القرآن متشابه؟..... |

- ٤٢٩ حقيقة التأويل
- ٤٢٩ ما بين التأويل والتفسير من فرق
- ٤٣٦ المعاني الأربعة للتأويل
- ٤٣٢ آراء شاذة في معرفة التأويل
- ٤٣٦ هل يعلم التأويل إلا الله؟
- ٤٣٨ ماذا يُستفاد من الآية بصورة خاصة؟
- ٤٣٩ شكوك واعتراضات
- ٤٤٤ مزعومة المنكرين
- ٤٤٦ من هم الراسخون في العلم؟

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على نبيه وآله
وعلى رواية سنته وحملته أحاديثه وحَفَظَةَ كلمه

وبعد ، كانت دراستنا لعلوم القرآن - سواء في الأجزاء المطبوعة من التمهيد أم غير المطبوعة ، وهي تربو على سنته مجلّدات - دراسة مستوعبة فيها تفصيل وتبسيط شامل ، كان يتناسب والتحقيق في المسائل القرآنيّة ، شأن أيّ موضوع ذي أهّية بالغة ، ولكنّه كان فوق الحدّ اللازم للدراسات الرتيبة في المعاهد العلمية . ومن ثمّ كنت قد قصدت من أوّل الأمر أن ألخصّها في دروس متناسبة مع المستويات الدراسية في المعاهد ، لولا أنّ متابعة البحوث المتتالية كانت تعوقني عن إنجاز هذه المهّمة . وفي هذا الأخير قد طلبت منّي مديرية شؤون الحوزة العلميّة بقم المقدّسة تحقيق هذا المهمّ ، لاستدعاء ضرورة الدراسات الطلّابية ذلك . فوعدتهم بالإنجاز بعونه تعالى . فاغتنمت فرصة العطلة الصيفية لهذا العام (١٤٠٩ هـ) في قرية «فردو» (من مصايف قم) لإنجاز الوعد وتحقيق تلك الأمنية القديمة ، فجاءت بحمد الله كاملة ووافية بأصول البحث وفروعه بما يشيع نهم المتعلّمين في شؤون القرآن الكريم . فله الشكر على هذا التوفيق ، جعله الله خير رفيق .

قم المقدّسة

محمد هادي معرفة

ذو الحجّة الحرام ١٤٠٩ هـ

الوحي والقرآن

ظاهرة الوحي

الوحي في اللغة

الوحي: إعلام سريع خفي، سواء أكان بإيماءة أو همسة أو كتابة في سرّ، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك في سرعة خاطفة حتى يفهمه فهو وحي، قال الشاعر:

نظرت إليها نظرة فتحيّرت دقائق فكري في بديع صفاتها

فأوحي إليها الطرف أنّي أحبّها فأثر ذلك الوحي في وجناتها

وقال تعالى عن زكريّا: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١). أي أشار إليهم على سبيل الرمز والإيماء.

قال الراغب: أصل الوحي، الإشارة السريعة، ولتضمّن السرعة قيل: أمرٌ وحيٌّ (أي سريع) وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة^(٢).

وقال ابن فارس: و، ح، ي، أصل يدلّ على البقاء علم في إخفاء أو غيره، والوحي: الإشارة، والوحي: الكتاب والرسالة، وكلّ ما ألقيته إلى غيرك حتى علمه فهو وحي. كيف كان^(٣).

ولعلّ هذا التعميم في مفهوم الوحي - عند ابن فارس - كان في أصل وضعه، غير أنّ الاستعمال جاء فيما كان خفياً.

(٢) المفردات للإصهاني: ص ٥١٥.

(١) مريم: ١١.

(٣) معجم مقاييس اللغة: ج ٦ ص ٩٣.

قال أبو إسحاق: أصل الوحي في اللغة كلُّها: إعلام في خفاء، ولذلك سمي الإلهام وحيًا. وقال ابن بري: وحي إليه وأوحى: كلَّمه بكلام يخفيه من غيره. ووحى وأوحى: أوما. قال الشاعر: فأوحت إلينا والأنامل رسلها^(١) أي أشارت بأناملها.

الوحي في القرآن

واستعمله القرآن في معانٍ أربعة:

- ١- نفس المعنى اللغوي: الإيماء الخفية. وقد مرَّ في آية مريم.
- ٢- تركيز غريزي فطري، وهو تكوين طبيعيّ مجعول في جبلَّة الأشياء، استعارة من إعلام قولِي لإعلام ذاتي، بجامع الخفاء في كيفية الإلقاء والتلقّي. فيما أنَّ الوحي إعلام سرّي، ناسب استعارته لكلِّ شعور باطنيّ فطريّ. ومنه قوله تعالى: «وأوحى ربُّك إلى التحلّي أن اتَّخذي من الجبالِ بيوتاً ومن الشجرِ وممّا يعرشون. ثمَّ كلي من كلِّ الثمرات فاسلُكي سُبُلَ ربِّك ذلِّلاً»^(٢). فهي تنتهج وفق فطرتها، وتستوحى من باطن غريزتها، مدلِّلة لما أودع فيها من غريزة العمل المنتظم، ومن ثمَّ فهي لا تحيد عن تلك السبيل.
- ومن ذلك أيضاً قوله تعالى: «وأوحى في كلِّ سماءٍ أمرها»^(٣) أي قدر. وقد استوحى العجاج هذا المعنى من القرآن في قوله:

أوحى لها القرار فاستقرَّت
وشدَّها بالراسيات الثبَّت^(٤)

- ٣- إلهامٌ نفسيّ، وهو شعور في الباطن، يحسّ به الإنسان إحساساً يخفي عليه مصدره أحياناً، وأحياناً يلهمُّه من الله. وقد يكون من غيره تعالى.
- وهذا المعنى هو المعروف عند الروحيين بظاهرة «التلبّاثي: التخاطر من بعيد» وهو خطوط باطنيّ أني لا يعرف مصدره. قالوا: إنَّها فكرة تستقل من ذهن إنسان إلى آخر،

(٢) التحلّي ٦٨٠ و ٦٩.

(١) لسان العرب لابن منظور.

(٤) لسان العرب لابن منظور.

(٣) فضلت: ١٢.

والمسافة بينهما شاسعة. أو إلقاء روعي، من قبل أرواح عالية أو سافلة^(١) وقيل: إنها فكرة رحمانية توحىها الملائكة، تنفتحها في روع إنسان يريد الله هدايته. أو وسوسة شيطانية تلقىها أبالسة الجنّ لغرض غوايته.



ومن الإلهام الرحماني قوله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليمِّ ولا تخافي ولا تحزني إننا رأؤوه إليك وجعلوه من المرسلين»^(٢). قال الأزهري: الوحي هنا: إلقاء الله في قلبها. قال: وما بعد هذا يدلّ - والله أعلم - على أنه وحي من الله على جهة الإعلام، للضمان لها «إننا رأؤوه إليك». وقيل: إن معنى الوحي هنا: الإلهام. قال: وجائز أن يلقي الله في قلبها أنه مردود إليها وأنه يكون مرسلًا، ولكنّ الإعلام أبين في معنى الوحي هنا^(٣).

والشيخ المفيد^(٤) أخذ الوحي هنا بمعنى الإعلام الخفيّ، في كتابه «أوائل المقالات». لكنّه في كتابه «تصحيح الاعتقاد» جعله بمعنى رؤيا أو كلام سمعته أم موسى في المنام. وقال - بصدد إيضاح معنى الوحي -: أصل الوحي هو الكلام الخفيّ، ثمّ قد يطلق على كلّ شيء قصد به إلهام المخاطب على السرّ له عن غيره^(٥).

وأما التعبير بالوحي عن وسواس الشيطان وتسويله خواطر الشرّ والفساد، فجاء في قوله تعالى: «وكذلك جعلنا لكلّ نبيّ عدوًّا شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم إلى بعض زُخرف القول غرورًا»^(٦). وقال: «وإنّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم»^(٧). ويفسره قوله: «من شرّ الوسواس الخناس. الَّذي يوسوس في صدور

(١) راجع مفصل الإنسان روح لا جدرؤوف عبيد: ج ١ ص ٥٤٢.

(٢) القصص: ٧. (٣) لسان العرب لابن منظور.

(٤) راجع أوائل المقالات: ص ٢٩. وتصحيح الاعتقاد: ص ٥٦.

(٥) الأنعام: ١١٢. (٦) الأنعام: ١٢١.

الناس. من الجنة والناس»^(١).

كما جاء التعبير عما يلقيه الله إلى الملائكة من أمره ليفعلوه من فورهم، بالوحي أيضاً في قوله تعالى: «إذ يوحى ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا»^(٢).

وأما التعبير بالوحي عما يلقيه الله إلى نبي من أنبيائه بواسطة ملك أو بغير واسطة لأجل تبليغ رسالة الله. فهو معنى رابع استعمله القرآن وهو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

٤- الوحي الرسالي، وهو معنى رابع استعمله القرآن في أكثر من سبعين موضعاً، معبراً عن القرآن أيضاً بأنه وحي ألقي على النبي ﷺ: «نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن»^(٣). «وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا»^(٤). «واتل ما أوحى إليك من الكتاب»^(٥).

وظاهرة الوحي بشأن رسالة الله، هي أولى سمات الأنبياء، امتازوا بها على سائر الزعماء والمصلحين، أصحاب العبقريات الملهمين. ولم يكن النبي محمد ﷺ بدعاً من الرسل في هذا الاختصاص النبوي ولا أول من خاطب الناس باسم الوحي السماوي، ومن ثم فلا عجب في هذا الاصطفاء ما دام ركب البشرية منذ بداية سيرها لم تزل يرافقها رجال إصلاحيون يهتفون بهذا النداء الروحي، ويدعون إلى الله باسم الوحي وتبليغ رسالة الله:

«أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجلٍ منهم أن أنذِرِ النَّاسَ وبشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ»^(٦).

ودفعاً لهذا الاستنكار الغريب قال: «إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوحٍ والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً. ورُسُلًا قد قصصناهم عليك من قبل ورُسُلًا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً. رُسُلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون

(٢) الأنفال: ٨٢.

(١) الناس: ٤-٦.

(٤) الشورى: ٧.

(٣) يوسف: ٣.

(٦) يونس: ٢.

(٥) المنكوت: ٥٥.

للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً. لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً. إن الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله قد ضلّوا ضلالاً بعيداً»^(١).

والوحي الرسالي لا يعدو مفهومه اللغوي بكثير، بعد أن كان إعلاماً خفياً، وهو اتصال غيبي بين الله ورسوله، يتحقّق على أنحاء ثلاثة، كما جاءت في الآية الكريمة: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء إنّه عليّ حكيم»^(٢).

فالصورة الأولى: إلقاء في القلب ونفث في الروح. والثانية: تكليم من وراء حجاب، بخلق الصوت في الهواء بما يقرع مسامع النبي ﷺ ولا يرى شخص المتكلم. والثالثة: إرسال ملك الوحي فيبلغه إلى النبي، إمّا عياناً يراه، أو لا يراه ولكن يستمع إلى رسالته.

إذاً فالفارق بين الوحي الرسالي وسائر الإحياءات المعروفة هو جانب مصدره الغيبي اتصالاً بما وراء المادة. فهو إحياء من عالم فوق، الأمر الذي دعا بأولئك الذين لا يروهم الاعتراف بما سوى هذا الإحساس المادّي، أن يجعلوا من الوحي الرسالي سبيله إلى الإنكار، أو تأويله إلى وجدان باطني ينشئ من عبقرية واجده، وسنبحث عن ذلك في فصل قادم.

إمكان الوحي

قد يتشبّه البعض - ذريعة لإنكار النبوات - بتباعد ما بين العالم العلوي والعالم السفلي، ذلك متشعشع روحي لطيف، وهذا متكدّر مادّي كثيف. وإذ لا واسطة بين الجانبين، فلا علفة تربط أحد العالمين بالآخر.

هذه شبهة من يرى من عالم الدُّنيا مادياً محضاً، لا تناسب بينه وبين عالم الملكوت الأعلى.

لكن إذا ما عرفنا من هذا الإنسان وجوداً برزخياً ذا جانبيين - هو من أحدهما جسماني كثيف، وفيه خصائص المادة السفلى، ومن جانبه الآخر روحاني لطيف، وهو ملكوتي رفيع - لم يكن موقع لهذه الشبهة رأساً.

الإنسان وراء شخصيته هذه الظاهرة شخصية أخرى باطنة، هي التي تؤهله - أحياناً - للارتباط مع عالم روحاني أعلى، إذ كان مبدأه منه وإليه منتهاه: «إِنَّا اللَّهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ»^(١). هذا هو واقع الإنسان الحقيقي ذو التركيب المزدوج من روح وجسم، ومن ثم فهو برزخ بين عالمي المادة وما وراء المادة. فمن جهة هو مرتبط بالسماء، ومن أخرى مستوثق بالأرض. قال تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكُنُوسًا الْعِظَامَ لَحْمًا» إلى هنا تكتمل خلقة الإنسان المادية، ثم يقول: «ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارِكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»^(٢).

وهذا الخلق الآخر هو وجود الإنسان الروحي، وهو وجوده الأصيل الذي أشارت إليه آية أخرى: «وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ»^(٣).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقًا وَخَلَقَ رُوحًا ثُمَّ أَمَرَ مَلَكًا فَنَفَخَ فِيهِ...»^(٤). فهذا هو الإنسان، مخلوق منركب من جسم هو مادي، وروح هو لا مادي. فبوجوده المادي خلق، وبوجوده اللامادي خلق آخر، وبوجوده هذا الآخر يتأهل الاتصال بالملا الأعلى، لا بوجوده ذلك المادي الكثيف.



نعم، جاءت فكرة إنكار الوحي، نتيجةً للنظرة المادّية البحتة إلى هذا الإنسان، وهي نظرة قاصرة بشأن الإنسان، سادت أوروبا في عصر نشوء الفكرة المادّية عن الحياة، والتي جعلت تقدّم وتوسّع كلّما تقدّمت العلوم الصناعية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وأخذت المقاييس المعنويّة في الحياة تتدهور تراجعاً إلى الوراء، وكادت الموجة تطبق العالم أجمع، لولا أن انتهضت الفكرة الروحية في أمريكا ومنها سرت إلى أوروبا كلّها، فجعلت مسألة الوحي تحيي من جديد.

قال الأستاذ وجدي: كان الغربيّون إلى القرن السادس عشر كجميع الأمم المتديّنة يقولون بالوحي، وكانت كتبهم مشحونه بأخبار الأنبياء، فلمّا جاء العلم الجديد بشكوكه ومادّيّاته ذهبت الفلسفة الغربية إلى أنّ مسألة الوحي هي من بقايا الخرافات القديمة، وتغالت حتّى أنكرت الخالق والروح معاً، وعلّلت ما ورد عن الوحي في الكتب القديمة بأنّه إمّا اختلاق من المتنبّئة أنفسهم لجذب الناس إليهم وتسخيرهم لمشيتهم، وإمّا هذيان مرضي يعترى بعض العصبيّين، فيخثّل إليهم يرون أشباحاً تكلمهم وهم لا يرون في الواقع شيئاً.

راج هذا التعليل في العالم الغربي، حتّى صار مذهب العلم الرسمي، فلمّا ظهرت آية الروح في أمريكا سنة ١٨٤٦ م وسرت منها إلى أوروبا كلّها، وأثبتت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحاني أهل بالعقول الكبيرة والأفكار الناقية، تغيّر وجه النظر في المسائل الروحانية، وحييت مسألة الوحي بعد أن كانت في عداد الأضاليل القديمة، وأعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبيّ المقرّر، لا على أسلوب التقليد الديني، ولا من طريق الضرب في مهامّ الخيالات، فتأدّوا إلى نتائج، وإن كانت غير ما قرّره علماء الدين الإسلامي، إلاّ أنّها خطوة كبيرة في سبيل إثبات أمر عظيم كان قد أُحيل إلى عالم الأمور الخرافية^(١).

خلاصة الكلام: أن الإنسان يملك في وجوده جانين، هو من أحدهما جسماني ومن الآخر روحاني، فلا غرو أن يتصل أحياناً بعالم وراء المادة، ويكون هذا الاتصال مرتبطاً بجانبه الروحي الباطن، وهو اتصال خفي، الأمر الذي يشكل ظاهرة الوحي.

الوحي ظاهرة روحية، قد توجد في آحاد من الناس، يمتازون بخصائص روحية تؤهلهم للاتصال بالملا الأعلى، إما مكاشفة في باطن النفس أو قرعاً على مسامع. يحس به الموحى إليه إحساساً مفاجئاً يأتيه من خارج وجوده، وليس منبعثاً من داخل الضمير، ومن ثم لا يكون الوحي ظاهرة فكرية تقوم بها نفوس العباقرة - كما يزعمه ناكرو الوحي - كلابل إلقاء روحاني صادر من محل أرفع إلى مهبط صالح أمين.

قال تعالى: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ»^(١).

نعم، شيء واحد لا نستطيع إدراكه، وإن كنا نعتبره واقعاً حقاً، ونؤمن به إيماناً صادقاً، وهو: كيف يقع هذا الاتصال الروحي؟ هذا شيء يخفى علينا إذا كنا نحاول إدراكه بأحاسيسنا المادية أو نريد التعبير عنه بمقاييسنا اللفظية الكلامية، إنها ألفاظ وضعت لمفاهيم لا تعدو الحس أو لا تكاد، وكل ما باستطاعتنا إنما هو التعبير عنه على نحو التشبيه والاستعارة أو المجاز والكناية لأكثر، فهو مما يدرك ولا يوصف، فالوحي ظاهرة روحية يدركها من يصلح لها، ولا يستطيع غيره أن يصفها وصفاً بالكنته، ما عدا التعبير عنها بالآثار والعوارض هذا فحسب.

الوحي عند فلاسفة الغرب

أشرنا فيما سبق أن فلاسفة أوروبا - بعد أن عادوا إلى الاعتراف بوجود شخصية باطنة للإنسان تستى بالروح، وعلموا أنها هي التي كوَّنت جسمه في الرحم، وهي التي تحرك جميع عضلاته وأعضائه التي ليست تحت إرادته كالكبد والقلب والمعدة وغيرها، فهو

إنسان بها لابهذه الشخصية العادية - عادوا يعترفون أيضاً بالوحي . الوحي الذي يدّعيه الأنبياء ملائكتهم النازلة المنسوبة إلى السماء .

ولكن فسّروه تفسيراً يختلف عمّا قرّره علماء الدين الإسلامي - على ما سبق تعريفه بأنه إلقاء من خارج الوجود إما قذفاً في قلب أو قرعاً في سمع - .

قالوا: الوحي عبارة عن إلهامات روحية تنبعث من داخل الوجود . أي الروح الواعية هي التي تعطينا تلكم الإلهامات الطيبة الفجائية في ظروف حرجة . وهي التي تنفث في روع الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله . وقد تظهر نفس تلك الروح المستقبعة وراء جسمهم ، متجسدة خارجاً فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء ، وما هي إلا تجلّي شخصيتهم الباطنة . فتعلّمهم ما لم يكونوا يعلمونه من قبل ، وتهدّهم إلى خير الطرق لهداية أنفسهم وترقية أمتهم . وليس ينزل ملك من السماء ليلقي عليهم كلاماً من عند الله . هذا ما يراه العلم الأوروبي التجريبي الحديث في مسألة الوحي .

ودليلهم على ذلك : أن الله أجلّ وأعلى من أن يقابله بشر أو يتّصل به مخلوق . وأنّ الملائكة مهما قيل في روحانيّتهم وتجردهم عن المادّة فلا يعقل أنّهم يقابلون الله أو يستمعون إلى كلامه . لأنّ هذا كلّهُ يقتضي تحيّراً في جانبه تعالى ، ويستدعي عدم التنزيه المطلق اللائق بشأنه جلّ شأنه . ولأنّ الملائكة مهما ارتقوا فلا يكونون أعلى من الروح الإنساني التي هي من روح الله نفسه ، فمثلهم ومثلها سواء .

وبهذه النظرية حاولوا حلّ ما عسى أن يصادفوه في بعض الكتب السماوية من أنواع المعارف المناقضة للعلم الصحيح طبيعياً وإلهياً . فهم لا يقولون بأنّ تلك الكتب قد حرّفت عن أصلها الصحيح النازل من عند الله ، ولكنهم يقولون بأنّ الشخصية الباطنة لكلّ رسول إنّما تؤتي صاحبها بالمعلومات على قدر درجة تجلّيها وعبريّتها . وعلى قدر استعداده لقبول آثارها . ومن ثمّ قد تختلط معارفها العالية بمعارف باطلة آتية من قبل شخصيته العادية ، فيقع في الوحي خلط كثير بين الغتّ والسمين . فترى بجانب الأصول العالية التي لم

يعرفها البشر إلى ذلك الحين، أصولاً أخرى عامة اصطلاح عليها الناس إلى ذلك الزمان^(١).



وبعد، فإذا ما أخضعتهم الحقيقة العلمية، على طريقة تجريبية قاطعة، بأن وجود الإنسان الحقيقي هو شخصيته الثانية القابعة وراء هذا الجسد، وأنه يبقى خالداً بعد فناء الجسد، فما عساهم امتنعوا من الاعتراف بحقيقة الوحي كما هي عند المسلمين؟! لا شك أن ما وصلوا إليه خطوة كبيرة نحو الواقعية، لا نزال نقدرها تقديراً علمياً، لكنّها بلا موجب توقفت أثناء المسير ودون أن تنتهي إلى الشوط الأخير.

إنّ منار العلم وضوء الحقيقة قد هدياهم إلى الدرب اللائح، وكادوا يلمسون الحقيقة مكشوفة بعيان، فوجدوا وراء هذا العالم عالماً آخر مليئاً بالمعقول، ووجدوا من واقع الإنسان شخصية أخرى وراء شخصيته الظاهرة، فهاتان مقدّمتان أذعنوا لهما، وقد أشرفتا بهم على الاستنتاج الصحيح وصاروا منه قاب قوسين أو أدنى، لكنّهم بلا موجب توقّفوا، وأنكروا حقيقة كانوا على وشك لمسها.

فعلى ضوء هاتين المقدّمتين، لا يمرّر لعدم فهم حقيقة اتصال روحي خفي يتحقّق بين ملأ أعلى وجانب روحانية هذا الإنسان، فيتلقّى بروحه إفاضات تأتيه من ملكوت السماء وإشراقات نورية تشعّ على نفسه من عالم وراء هذا العالم المادّي، وليس اتصالاً أو تقارباً مكانياً لكي يستلزم تحيّزاً في جانبه تعالى، وأظنّهم قاسوا من أمور ذلك العالم غير المادّي بمقاييس تخصّ العالم المادّي، مع العلم أنّ الألفاظ هي التي تكون قاصرة عن أداء الواقع، وأنّ التعبير بنزول الوحي أو الملك تعبير مجازي، وليس سوى إشراق وإفاضة قدسية ملكوتية يجدها النبي ﷺ حاضرة نفسه، ملقاة عليه من خارج روحه الكريمة، وليست منبعثة من داخل كيانه هو.

هذا هو حقيقة الوحي الذي نعترف به، من غير أن يقتضي تحيّزاً في ذاته تعالى.

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين، ج ١٠ ص ٧١٥ فيما نقله عن العلامة «سيرس - Myers» من كتابه «الشخصية

أما التعليل الذي يعللون به ظاهرة الوحي، فهو في واقع إنكار للوحي وتكذيب مسنوب للأنبياء بصورة عامّة، كما هم فسروا معجزة إبراء الأكهم والأبرص بظاهرة الهينو توزم (المغناطيسية الحيوانية) فجعلوا من المسيح ﷺ إنساناً مشعوذاً - حاشاه - يستغل من عقول البسطاء مجالاً متسعاً لترويج دعوته، بأساليب خداعة ينسبها إلى البارئ تعالى!

ونحن نقدر ساحة الأنبياء من أيّ مراوغة أو احتيال مسلكي، وحاشاهم من ذلك. وما هي إلا واقعية بنا عليها دعوتهم الإصلاحية العامّة، واقعية يعترف بها العلم سواء في مراحلهم القديمة أو الجديدة الحاضرة. إذ لا مبرر لتأويل ماجاء في كتب الأنبياء من ظاهرة الوحي، اتصلاً حقيقياً بمبدأ أعلى.

نعم! إن ما بقي بأيدي الناس من كتب منسوبة إلى الأنبياء - غير القرآن - لم تبق سالمة من تناول أيدي المحرّفين، ومن ثمّ ففيها من الغثّ والسمن الشيء الكثير، ونحن نرى بعلماء محققين أن يجعلوا من موضوع دراستهم لشؤون الأنبياء ﷺ تلكم الكتب المحرّفة.

أنحاء الوحي الرسالي

قال تعالى: «وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً» أي إلهاماً وقذفاً في روعه، وهو إلقاء في الباطن، يحس به الموحى إليه كأنما كتب في ضميره صفحة لامعة، أو رؤياً في منام، «أو من وراء حجاب» أي يكلمه تكليماً يسمع صوته ولا يرى شخصه. كما كَلَّمَ موسى ﷺ بخلق الصوت في الهواء يخرق مسامعه، ويأتيه من كلّ مكان. وكما كَلَّمَ نبيّنا ﷺ ليلة المعراج.

والتكليم من وراء حجاب كناية أو تشبيه بمن يتكلم محتجباً، أو المراد بالحجاب الحجاب المعنوي، لبعده الفاصلة بين كمال الواجب ونقص الممكن.

«أو يرسل رسولاً» ملكاً من الملائكة «فيوحىّ بإذنه ما يشاء» إمّا إلقاء على السمع أو نقرأ في القلب «إنّه عليّ حكيم».

«وكذلك» أي على هذه الأنحاء الثلاثة: إلهاماً، وتكليماً، وإرسال ملك^(١). «أو حينما إليك روحاً» هي الشريعة أو القرآن «من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ»^(٢). هذه أنحاء الوحي بوجه عام وبصورة إجمالية. أما بالنسبة إلى نبينا محمد ﷺ فكان يأتيه الوحي تارة في المنام، وهذا أكثرها كان في بدء نبوته، وأخرى وحياً مباشراً من جانب الله بلا توسط ملك، وثالثة مع توسط جبرائيل عليه السلام، غير أن الوحي القرآني كان يخص الآخرين إما مباشرة أو على يد ملك. وإليك بعض التفاصيل:

١- الرؤيا الصادقة

كان أول ما يدعى به من الوحي الرؤيا الصادقة، كان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وهو كناية عن تشعشع نوراني كان ينكشف لروحه المقدسة، تمهيداً لإفاضة روح القدس عليه صلوات الله عليه وآله، ثم حَبَّب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنَّث فيه^(٣) الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوَّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فتزوِّده لمثلها^(٤) حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء: جاءه الملك فقال: «اقرأ...»^(٥).

قال علي بن إبراهيم الفمّي: إنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا أُنِيَ لَهُ سَبْعٌ وَثَلَاثُونَ سَنَةً كَانَ يَرَى فِي مَنَامِهِ كَأَنَّ نَبِيًّا يَأْتِيهِ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَضَتْ عَلَيْهِ بَرَهَةٌ مِنَ الزَّمَنِ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ يَكْتُمُهُ، وَإِذَا هُوَ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ يَرَعَى غَنَمًا لِأَبِي طَالِبٍ فِي شَعْبِ الْجِبَالِ إِذْ رَأَى شَخْصًا يَقُولُ لَهُ: يَا

(١) راجع بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٤٦. (٢) الضوري: ٥١ و ٥٢.

(٣) التحنُّث: التحنُّف، وهو الميل إلى الحنيفية. كتابة عن التمهيد للهدى هو مطهرة للعبد، قال ابن هشام: تقول للعرب: التحنَّث والتحنُّف، فيبدلون الفاء من الشاء، كما في جدت وجدفت أي الفير، قال: وحدثني أبو عبيدة أن العرب تقول: فم في موضوع

ثم راجع السيرة: ج ١ ص ٢٥١. (٤) التزوُّد: استصحاب المراد.

(٥) صحيح البخاري: ج ١ ص ٢، صحيح مسلم: ج ١ ص ٩٧، تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٨.

رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل أرسلني الله إليك ليُتخذك رسولاً...^(١).
قال الإمام الباقر عليه السلام: وأما النبي فهو الذي يرى في منامه، نحو رؤيا إبراهيم عليه السلام، ونحو ما كان رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من أسباب النبوة قبل الوحي، حتى أتاه جبرائيل عليه السلام من عند الله بالرسالة...^(٢).

قوله: «قبل الوحي» أي قبل الوحي الرساليّ المأمور بتبليغه، لأنّ هذا البيان تفسير لمفهوم «النبي» قبل أن يكون رسولاً، وهو إنسان أوحى إليه من غير أن يكون مأموراً بتبليغه. فهو يتصل بالملأ الأعلى اتصالاً روحياً، وينكشف له الملكوت كما حصل لنبيينا صلى الله عليه وآله قبيل بعثته المباركة.

قال صدر الدين الشيرازي: يعني أنّه صلى الله عليه وآله اتّصفت ذاته المقدّسة بصفة النبوة، وجاءته الرسالة من عنده الله، باطناً وسراً، قبل أن يتّصف بصفة الرسالة أو ينزل عليه جبرائيل معانياً محسوساً بالكلام المنزل المسموع. وإتّما جاءه جبرائيل معانياً حين جمع له من أسباب النبوة ما جمع للأنبياء الكاملين - كإبراهيم - من الرؤيا الصادقة والإعلامات المتتالية بحقائق العلوم والإحياءات بالمغيبات. والحاصل: أنّ النبي صلى الله عليه وآله استكمل باطنه وسرّه قبل أن يتعدّى صفة الباطن منه إلى الظاهر، فاتّصف القالب بصفة القلب محاكياً له. والأوّل نهاية السفر من الخلق إلى الحقّ، والثاني نهاية السفر من الحقّ بالحقّ إلى الخلق^(٣).



نعم، ربّما كانت الرؤيا الصادقة سبيل الوحي إليه صلى الله عليه وآله فيلقى إليه العلم أحياناً في المنام. قال أمير المؤمنين عليه السلام: رؤيا الأنبياء وحي^(٤) ولكن لم يكن شيء من ذلك قرآناً، إذ لم يعهد نزول قرآن عليه في المنام. نعم، وإن كانت بعض رواه أسباباً لنزول القرآن، كما في قوله

(١) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٤ و ١٩٤.

(٢) الكافي الكليني ج ١ ص ١٧٦. بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٦.

(٣) شرح أصول الكافي لصدر المتألّهين: كتاب، الحجّة العديّة الثالث ص ٤٥٤.

(٤) أمالي الشيخ الطوسي: ص ٢١٥. بحار الأنوار: ج ١١ ص ٦٤.

تعالى: «لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله...»^(١).
فقد رأى النبي ﷺ ذلك عام الحديبية^(٢) وصدقت عام الفتح^(٣). وكما في قوله: «وما جعلنا
الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن»^(٤).

فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن سعيد بن مسيب قال:
رأى رسول الله ﷺ بني أمية على المناير، فساءه ذلك، فأوحى الله إليه: إنما هي دنيا أعطوها
وهي قوله تعالى: «وما جعلنا الرؤيا...» يعني بلاء للناس^(٥).

هذا، وقد ذكر بعضهم أن سورة الكوثر نزلت على رسول الله ﷺ في المنام، لرواية أنس
بن مالك، قال: بينا رسول الله ﷺ بين أظهرنا إذ أغفي إغفاء، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما
أضحكك يا رسول الله؟! فقال: أنزلت عليّ آناً سورة، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم، إنا
أعطيناك الكوثر...» إلخ^(٦).

قال الراجعي: إنهم فهموا من ذلك أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة، لكن الأشبه أنه خطر
له في النوم سورة الكوثر المنزلة عليه قبل ذلك، فقرأها عليهم وفسرها لهم. قال: وقد يحمل
ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي، ويقال لها: برحاء الوحي وهي سبته
شبه النعاس كانت تعرضه من ثقل الوحي.

قال جلال الدين: الذي قاله الراجعي في غاية الاتجاه، والتأويل الأخير أصح من الأول،
لأن قوله «آناً» يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نزلت في تلك الحالة، ولم يكن الإغفاءة
نوم، بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي^(٧) وآنف بمعنى قبيل هذا الوقت.

أقول: لا شك أن سورة الكوثر مكية، وهذا هو المشهور بين المفسرين شهرة تكاد تبلغ

(١) الفتح: ٢٧. (٢) وهي سنة الست من الهجرة.

(٣) وهي سنة الثمان. (٤) الإسراء: ٦٠.

(٥) الدر المنثور للسيوطي: ج ٤ ص ١٩١. تفسير الطبري ج ١٥ ص ٧٧.

(٦) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠١. (٧) الإتيان: ج ١ ص ٢٣.

التواتر . قالوا: نزلت بمكة عندما عابه المشركون بأنه أبتز لا عقب له . أو أنه مبتور من قومه منبوذ.

وهكذا لتألمات ابنه عبدالله مشت قريش بعضهم إلى بعض متباشرين . فقالوا: إن هذا الصابي قد بتر الليلة.

قال ابن عباس: دخل رسول الله ﷺ من باب الصفا وخرج من باب المروة، فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: من استقبلك يا أبا عمرو وأنا؟ قال: ذلك الأبتز - يريد به النبي ﷺ - فأنزل الله جلَّ جلاله سورة الكوثر، تسلياً لنفس نبيه الزكية^(١).

هذا وأنس عند وفاة النبي ﷺ لم يبلغ العشرين، إذ كان عند مقدمه ﷺ المدينة طفلاً لم يتجاوز التسع، وقيل: ثماني سنوات^(٢)، فكيف نتق بحديث منه يخالف إطباق الأمة على خلافه، وأنها نزلت بمكة في قصة جازت حد التواتر؟! الأمر الذي يرجح الوجه الأول من اختيار الإمام الرافعي، أو نجعل من رواية أنس حبلها على غاربها!

نعم، أخرج مسلم والبيهقي هذه الرواية من وجه آخر، ليس فيه «أنزلت علي». قال: أغفى النبي ﷺ إغفاءة، ثم رفع رأسه فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر...» إلخ، ثم فسرها بنهر في الجنة. قال البيهقي: وهذا اللفظ أولى، حيث لا يتنافى وما عليه أهل التفاسير والمغازي من نزول سورة الكوثر بمكة^(٣).

٢- نزول جبرائيل ﷺ

كان الملك الذي ينزل على النبي ﷺ بالوحي هو جبرائيل ﷺ فكان يلقيه على مسامعه الشريفة، فتارة يراه إما في صورته الأصلية - وهذا حصل مرتين - أو في صورة دحية بن خليفة، وأخرى لا يراه. وإنما ينزل بالوحي على قلبه ﷺ «تنزل به الروح الأمين. على

(١) راجع أسباب النزول للمسويطي بهامش الجلالين ج ٢ ص ١٤٤، والدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠١.

(٢) أسد الغابة لابن الأثير: ج ١ ص ١٢٧. (٣) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤٠١.

قلبك»^(١).

قال تعالى: «وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى»: جبرائيل. مثال قدرته تعالى «ذو مِرَّة» أي ذو عقليته جبارة «فاستوى»: استقام على صورته الأصلية. وهذا هو المِرَّة الأولى في بدء الوحي «وهو بالأفق الأعلى»: سدَّ ما بين الشرق والغرب «ثم دنا فتدلى»: فجعل يقرب من النبي ﷺ «فكان قاب قوسين أو أدنى. فأوحى» الله بواسطة جبرائيل «إلى عبده» محمَّد ﷺ «ما أوحى. ما كَذَبَ الْفُؤَادُ: فؤاد محمَّد ﷺ «ما رأني» فكان قلبه ﷺ يصدِّق بصره فيما يرى أنه حقُّ «أفطارونه على ما يرى. ولقد رآه نزلةً أُخرى»: مرَّة ثانية في مرتبة أنزل من الأولى «عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى. عندها جنَّة المأوى. إذ يغشى السدرة ما يغشى. ما زاغ البصر وما طغى»^(٢) فكان الَّذي يراه حقيقة واقعة. ليس وهماً ولا خيالاً.

وقال: «إنه لقول رسول كريم»: جبرائيل «ذي قوَّة عند ذي العرش مكين. مُطَاعٌ ثُمَّ آمين. وما صاحبكم»: محمَّد ﷺ «بمجنون. ولقد رآه»: رأى جبرائيل في صورته الأصلية «بالأفق المبين»^(٣). إشارة إلى المِرَّة الأولى أيضاً.

قال ابن مسعود: إن رسول الله ﷺ لم ير جبرائيل في صورته إلا مرَّتين، إحداهما أنه سأله أن يراه في صورته فأراه صورته فسدَّ الأفق، وأما الثانية فحيث صعد به ليلة المعراج. فذلك قوله: «وهو بالأفق الأعلى»^(٤).

والصحيح أن المرَّتين كانت إحداهما في بدء الوحي بحراء. ظهر له جبرائيل في صورته التي خلقه الله عليها. مالئاً أفق السماء من المشرق والمغرب، فتهبُّه النبي ﷺ تهبُّياً بالغا. فنزل عليه جبرائيل في صورة الآدميين فضمَّه إلى صدره، فكان لا ينزل عليه بعد ذلك إلا في صورة بشر جميل.

والثانية كانت باستدعائه ﷺ الَّذي جاءت به الروايات: «كان لا يزال يأتيه جبرائيل في

(٢) النجم: ٣-١٧.

(١) الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

(٤) الدر المنثور: ج ٦ ص ٢٢٣.

(٣) التكويم: ١٩-٢٣.

صورة الآدميين. فسأله رسول الله ﷺ أن يريه نفسه مرة أخرى على صورته التي خلقه الله، فأراه صورته فسد الأفق. فقولته تعالى: «وهو بالأفق الأعلى» كانت المرّة الأولى، وقوله: «نزلة أخرى» كانت المرّة الثانية^(١).

قال رسول الله ﷺ: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني فأعي ما يقول^(٢). وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إن جبرائيل كان إذا أتى النبي ﷺ لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه فعد بين يديه قعدة العبد»^(٣).

هذا، وكان جبرائيل عليه السلام عندما يتمثل لرسول الله ﷺ يبدو في صورة دحية بن خليفة الكلبي. وتعبير أصح: يبدو في صورة شبيهة بدحية. كما جاء في تعبير ابن شهاب: كان رسول الله ﷺ يشبه دحية الكلبي بجبرائيل، حينما يتصور بصورة بشر^(٤).

وذلك لأن دحية كان أجمل إنسان في المدينة، كان إذا قدم البلد خرجت الفتيات ينظرن إليه^(٥).

والسبب في ذلك أن جبرائيل كان حينما يتمثل بشراً، يتمثل صورة إنسان خلقه الله على الفطرة الأولى، والإنسان في أصل خلقته جميل، فكان يتمثل جبرائيل في أجمل صورة إنسانية. وبما أن دحية كان أجمل إنسان في المدينة كان الناس يزعمون من جبرائيل - وهو يتمثل بشراً - أنه دحية الكلبي، ومن ثم كان العكس هو الصحيح. قال رسول الله ﷺ: كان جبرائيل يأتيني على صورة دحية الكلبي، وكان دحية رجلاً جميلاً.

والظاهر أن الجملة الأخيرة هي من كلام أنس، راوي الحديث^(٦) أي على صورة تشبهها صورة دحية. وكان الصحابة يزعمونه دحية حقيقة، ومن ثم نهاهم رسول الله ﷺ أن يدخلوا

(١) مجمع البيان للطبرسي: ج ٩ ص ١٧٣ و ١٧٥ و ج ١٠ ص ٤٤٦، تفسير الصافي: ج ٢ ص ٦١٨.

(٢) صحيح البخاري: ج ١ ص ٣. (٣) كمال الدين للشيخ الصدوق: ص ٨٥.

(٤) الاستيعاب (بهاشم الإصابة): ج ١ ص ٤٧٤. (٥) الإصابة لابن حجر: ج ١ ص ٤٧٣.

(٦) الإصابة: ج ١ ص ٤٧٣. أمد القابلة: ج ٢ ص ١٣٠.

عليه إذا وجدوا دحية عنده . قال : إذا رأيتم دحية الكلبي عندي فلا يدخلن عليّ أحد^(١) .

وكان جبرائيل قد يتمثل للصحابة أيضاً بصورة دحية ، كما في غزوة بني قريظة سنة خمس من الهجرة شاهده الصحابة على بلغة بيضاء^(٢) .

وشاهده أيضاً عليّ عليه السلام دفعات بمحضر النبي صلى الله عليه وآله وتكلم معه ، والنبي صلى الله عليه وآله راقد^(٣) .

وأما نزول الملك عليه بالوحي من غير أن يراه فكثير أيضاً ، إما إلقاء على مسامعه وهو يصفي إليه ، أو الإهاماً في قلبه فيعيه بقوة . قال تعالى : «وإنه لتنزيلُ ربِّ العالمين . نزل به الروحُ الأمينُ . على قلبك لتكونَ من المنذرين . بلسانٍ عربيٍّ مبين»^(٤) .

كان صلى الله عليه وآله في أوائل نزول الملك عليه بالوحي يخشى أن يفوته اللفظ ، ومن ثم كان يحرك لسانه وشفته ليستذكره ولا ينساه . فكان يتابع جبرائيل في كل حرف يلقيه عليه ، فنهاه تعالى عن ذلك ووعد بالحفظ والرعاية من جانبه تعالى ، قال : «لا تحرك به لسانك لتعجل به . إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه»^(٥) .

وربما كان صلى الله عليه وآله يقرأ على أصحابه فور قراءة جبرائيل عليه ، وقبل أن يستكمل الوحي أو تنتهي الآيات النازلة ، حرصاً على ضبطه وتبته ، فنهاه تعالى أيضاً وقال : «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه وقل رب زدني علماً»^(٦) . فاطمأنه تعالى بالحفظ والرعاية الكاملة . فكان رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له . فإذا انطلق قرأه كما قرأه^(٧) . قال تعالى : «ستقرئك فلا تنسى»^(٨) .

(١) بحار الأنوار: ج ٢٠ ص ٢١٠ و ج ٢٢ ص ٢٢٢ . مجمع البيان: ج ٨ ص ٣٥١ .

(٢) سيرة ابن هشام: ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٣) بحار الأنوار: ج ٣٧ ص ٣٢٦ عن كتاب حمة التفصيل لابن الأثير .

(٤) الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥ . (٥) القامه: ١٦ - ١٩ .

(٦) طه: ١١٤ . (٧) طبقات ابن سعد: ج ١ ص ١٢٢ .

(٨) الأعلى: ٦ .

وإشارة إلى هذا النحو من الوحي الذي هو نكت في القلب قال عليه السلام: «إنَّ روح القدس نكت في روعي»^(١) وهو سواد القلب، كناية عن السرِّ الباطن، والمقصود روحه الكريمة.

٣- الوحي المباشر

ولعلَّ أكثرية الوحي كان مباشراً لا يتوسطه ملك، على ما جاء في وصف الصحابة حالته عليه السلام ساعة نزول الوحي عليه، كان ذا وطء شديد على نفسه الكريمة، يجهد من قواه وتعتريه غشوة منهكة، فكان ينكس رأسه ويتربَّد وجهه ويتصبَّب عرقاً، وتسطو على الحضور هيئة رهيبة، ينكسون رؤوسهم صموداً، من روعة المنظر الرهيب. قال تعالى: «إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا»^(٢).

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان ذلك إذا جاءه الوحي وليس بينه وبين الله ملك. فكانت تصيبه تلك السبته^(٣) ويغشاه ما يغشاه لثقل الوحي عليه، أمّا إذا أتاه جبرائيل بالوحي فكان يقول: هو ذا جبرائيل، أو قال لي جبرائيل...^(٤).

قال الشيخ أبو جعفر الصدوق: إنَّ النبي عليه السلام كان يكون بين أصحابه فيغصم عليه وهو يتصبَّب عرقاً، فإذا أفاق قال: قال الله تعالى كذا وكذا وأمركم بكذا ونهاكم عن كذا. قال: وكان يزعم أكثر مخالفينا أنَّ ذلك كان عند نزول جبرائيل، فستل الإمام الصادق عليه السلام عن الغشبية التي كانت تأخذ النبي عليه السلام أكانت عند هبوط جبرائيل؟ فقال: لا، إنَّ جبرائيل كان إذا أتى النبي عليه السلام لم يدخل حتى يستأذنه، وإذا دخل عليه قعد بين يديه قعدة العبد، وإنَّما ذاك عند مخاطبة الله عزَّ وجلَّ إتياءه بغير ترجمان وواسطة^(٥).

(١) الإتيان: ج ١ ص ٤٤. (٢) المزمَّل: ٥.

(٣) هي إغماء تشبه النمسة.

(٤) المحاسن للرفعي: ص ٣٣٨، أمالي الشيخ: ص ٣٦، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٧١ و ص ٢٦٨.

(٥) كمال الدين: ص ٨٥، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٠.

موقف النبي ﷺ من الوحي

هنا موضوعان لهما أهمية كبيرة بشأن رسالة الأنبياء وصدق دعوتهم إلى الله. لا بد من معالجتها بصورة علمية مقبولة. وقد تكلم فيهما عامة أهل السنّة بطريقة غير مألوفة، وربما لا يستيفها العقل القطري في شيء. أما علماؤنا الإمامية فتكلّموا فيهما بطريقة عقلية على أساس الاستدلال البرهاني مدعماً بالنقل المأثور عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام.

الأوّل: كيف عرف النبي ﷺ أنه مبعوث؟ ولم لم يشك في أن الذي أتاه شيطان، واطمأن أنه جبرائيل عليه السلام؟

الثاني: هل يجوز على النبي ﷺ أن يخطأ فيما يوحى إليه، فيلتبس عليه تخيلات باطلة في نفسه لتبدو له بصورة وحي، أو يلقي عليه إبليس ما يظنّه وحيّاً من الله؟ والأكثر في الموضوع الأوّل جعلوا من النبي ﷺ مرتاعاً في أوّل أمره، خائفاً على نفسه من مسّ جنون، عائداً إلى أحضان زوجة الوفية، لتستجد هي بدورها إلى ابن عمّها ورقة بن نوفل، فيطمئنّه هذا بأنه نبيّ، ويؤكد عليه ذلك حتّى يطمئنّ ويستريح باله.

أما الموضوع الثاني فقد أجازوا لإبليس أن يتلاعب بوحى السماء فيلقي على النبي ﷺ ما يظنّه وحيّاً - كما في حديث الغرائق - لولا أن يتداركه جبرائيل فيذهب بكيد الشيطان.

وقد ذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام في كلا الموضوعين مذهباً زهيراً، وجعلوا من النبي ﷺ أكرم على الله من أن يتركه إلى إنسان غيره ولا ينير عليه الدلائل الواضحة على نبوّته الكريمة في تلك الساعة الحرجة. كما لا يدع للشيطان أن يستحوذ على مشاعر نبيّه الكريم: «واصبر لحكم ربّك فإنك بأعيننا وسيح بحمد ربّك حين تقوم»^(١).

هذا، ويجدر بنا ونحن نحاول تنزيه جانب رسول الله ﷺ ممّا ألقوه بكرامته، أن نتكلّم في كلا المجالين بصورة مستوفاة، كلاً على حدة.

النبوّة مقرونة بدلائل نيرة

يجب على الله - وجوباً منبثقاً من مقام لطفه ورأفته بعباده - أن يقرن تنبيئه إنساناً بدلائل نيرة لا تدع لمسارب الشك مجالاً في نفسه. كما أرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض. ليكون من الموقنين^(١). وكما «نودي يا موسى. إني أنا ربك»^(٢). «يا موسى إنّه أنا الله العزيز الحكيم... يا موسى لا تخف إني لا يخاف لديّ المرسلون»^(٣).

هذا هو مقتضى قاعدة اللطف. وقد بحث عنها علماء الكلام^(٤). وتلخّص في تمهيد سبيل الطاعة. فواجب عليه تعالى أن يمهد لعباده جميع ما يقربهم إلى الطاعة ويبعدهم عن المعصية. وهذا الوجوب منبثق من مقام حكمته تعالى إذا كان يريد من عباده الانقياد. وإلا كان نقضاً لغرضه من التكليف. ومن ثمّ وجب عليه تعالى أن يبعث الأنبياء وينزل الشرائع ويجعل في الأمم ما ينير لهم درب الحياة. إمّا إلى سعادة فباختيارهم. أو إلى شقاء فباختيارهم أيضاً^(٥).

وطبقاً لهذه القاعدة لا يدع تعالى مجالاً لتدليس أهل الزيغ والباطل. إلا ويقضهم من فورهم «ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثمّ لقطعنا منه الوتين»^(٦) فالحقّ دائماً يعلو ولا يُعلَى عليه. والحقّ والباطل دائماً على وضوح الجلاء. لا يكدر وجه الحقّ غبار الباطل أبداً «بل تَعْدِفُ بالحقّ على الباطلِ فَيَدْمَعُهُ فإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»^(٧). «إنّا لننصر رسلنا والَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»^(٨) وهذا إنّما هو نصر واعتلاء مبدئي. فالحقّ دائماً ظاهر منصور. وإنّ رسالة الأنبياء دائماً تكون هي الغالبة الظاهرة «ولقد سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا

(١) مقتبس من الآية ٧٤ من سورة الأنعام. (٢) طه: ١١ و١٢.

(٣) النمل: ٩ و ١٠.

(٤) علم منسحب عن الفلسفة الحكيمية. يبحث عن أحوال العبد والمعاد في ضوء العقل وإرشاد الشريعة.

(٥) راجع شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحليّ: ص ١٨١. (٦) العنقبة: ٤٤-٤٦.

(٧) الأنبياء: ١٨. (٨) غافر: ٥٦.

لعبادنا المرسلين. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ»^(١) نعم «إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً»^(٢).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «أبَى اللَّهُ أَنْ يَعْرِفَ بَاطِلاً حَقّاً، أَوْ أَنَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ الْحَقَّ فِي قَلْبِ الْمُؤْمِنِ بَاطِلاً لَا شَكَّ فِيهِ، وَأَبَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ الْبَاطِلَ فِي قَلْبِ الْكَافِرِ الْمَخَالَفَ حَقّاً لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَوْ لَمْ يَجْعَلْ هَذَا هَكَذَا مَا عَرَفَ حَقٌّ مِنْ بَاطِلٍ»^(٣).

وقال عليه السلام: «لَيْسَ مِنْ بَاطِلٍ يَقُومُ بِإِزَاءِ الْحَقِّ، إِلَّا غَلَبَ الْحَقُّ الْبَاطِلَ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ»^(٤).

هذا، وقد سأل زرارة بن أعين الإمام أبا عبد الله الصادق عليه السلام عن نفس الموضوع. قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف لم يخف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يأتيه من قِبَلِ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ مِمَّا يَنْزِعُ بِهِ الشَّيْطَانُ؟ فقال عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْدًا رَسُولًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالْوَقَارَ - أَيِ الطَّمَأْنِينَةَ وَالْإِتْرَانَ الْفِكْرِي - فَكَانَ الَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ مِثْلَ الَّذِي يَرَاهُ بَعَيْنُهُ»^(٥) أي يجعله في وضوح الحق، لا غبار عليه أبداً. فيرى الواقع ناصعاً جليلاً لا يشك ولا يضطرب في رأيه ولا في عقله.

وقد أوضح الإمام عليه السلام ذلك في حديث آخر، سئل عليه السلام: كيف علمت الرسل أنها رسل؟ قال: كشف عنهم الغطاء»^(٦).

قال العلامة الطبرسي: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُوحِي إِلَى رَسُولِهِ إِلَّا بِالْبُرَاهِينِ النَّبِيَّةِ وَالآيَاتِ الْبَيِّنَةِ، الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ مَا يُوحَى إِلَيْهِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ سِوَاهَا، وَلَا يَفْرَعُ وَلَا يُفْرَعُ»^(٧).

(١) الصافات: ١٧١ - ١٧٣.

(٢) النساء: ٧٦.

(٣) المحاسن للبرقي: كتاب مصابيح الظلم حديث ٣٩٤ ص ٢٢٢.

(٤) المصدر: حديث ٣٩٥.

(٥) تفسير العتاشي: ج ٢ ص ٢٠١، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٦٢.

(٦) بحار الأنوار: ج ١١ ص ٥٦.

(٧) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٢٨٤.

وقال القاضي عياض: لا يصح - أي في حكمته تعالى، وهو إشارة إلى قاعدة اللطف - أن يتصور له الشيطان في صورة الملك، ويلبس عليه الأمر. لا في أول الرسالة ولا بعدها. والاعتماد - أي اطمئنان النبي - في ذلك دليل المعجزة. بل لا يشك النبي ﷺ أن ما يأتيه من الله هو الملك ورسوله الحقيقي، إما يعلم ضروريً يخلقه الله له، أو يبرهان جلبي يظهره الله لديه. لتسم كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلمات الله^(١).

إذاً فلا بد أن يكون النبي ﷺ حين اتباعه نبياً على علم يقين، بل عين يقين من أمره، لا يشك ولا يضطرب، مستيقناً مطمئناً بالله، مرعياً بعناية الله تعالى ولطفه الخاص، منصوراً مؤيداً، ولا سيما في بدء البعثة فيأتيه الناموس الأكبر وهو الحق الصراح معانياً مشهوداً، وهي موقعية حاسمة لا ينبغي لنبي أن يتزلزل فيها أو يتروّع في موقفه ذلك الحرج العصيب: «إني لا يخاف لدي المرسلون»^(٢).



وأيضاً فإن النبي ﷺ لم يختره الله لنبوته إلا بعد أن أكمل عقله وأدبه فأحسن تأديبه، وعرفه من أسرار ملكوت السماوات والأرض ما يستأهله للقيام بهمة السفارة وتبليغ رسالة الله إلى العالمين. كما فعل بإبراهيم الخليل عليه السلام.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ولقد قرن الله به من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته، يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره..^(٣)
وقال الإمام العكسري عليه السلام: إن الله وجد قلب محمد ﷺ أفضل القلوب وأوعاها فاختره لنبوته..^(٤)

قال العلامة المجلسي عليه السلام: منذ أن أكمل الله عقله لم يزل مؤيداً بروح القدس، يكلمه ويسمع صوته ويرى الرؤيا الصادقة، حتى بعثه الله نبياً رسولاً^(٥).

(٢) النمل: ١٠.

(١) رسالة الشفا: ج ٢ ص ١١٢.

(٤) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٠٦.

(٣) نهج البلاغة: ج ١ ص ٣٩٢ الخطة الفاصدة.

(٥) المصدر: ص ٢٧٧.

والدلائل على أنه ﷺ منذ بدايته كان مورداً لطفه تعالى وعنايته الخاصة كثيرة، وقد عرف قومه فيه النبوغ والجدارة الذاتية، ولمسوا فيه الصدق والأمانة والذكاء والفظنة، فوجدوه مزيجاً من الاستقامة وحصافة العقل، حتى حَبَّبَ إلى الناس جميعاً ولقَّبوه بالصادق الأمين، أميناً في رأيه، وأميناً في سلوكه.

وكان قُبيل بعثته تظهر له علامات النبوة، فقد ظهرت آياتها قبل ثلاث سنوات من بعثته وهو في سنِّ السابع والثلاثون - كما في رواية عليِّ بن إبراهيم القمي^(١) - فكان يرى الرؤيا الصادقة، وكان يختلي بنفسه في غار حراء، متفكراً في أسرار الملكوت، متعمقاً في ذات الله، متطلعاً سرِّ الخليقة، حتى فجاءه الحقُّ وقد بلغ سنِّ الأربعين. فقد كان مهتماً بنفسه لذلك، عارفاً بسمات أمر قد أشرفت طلائعه منذ حين. وهكذا إنسان لا يفزع ولا يفرق ولا يظنُّ بنفسه الجِنَّة أو عارضة سوء، ليلتجئ إلى امرأة لا عهد لها بأسرار النبوات أو رجل^(٢) كان حظُّه من العلم أن قرأ كتباً محرَّفة وأثاراً بائدة، لم يثبت آنذاك أنه لمس حقائق ومعارف من الملك والملكوت كانت موجودة فيها لحدِّ ذلك غير ممسوخة عن فطرتها الأولى.

على أنَّ النبي محمداً ﷺ كان أشرف الأنبياء وأفضل المرسلين وخاتم سفراء ربِّ العالمين، فكان أكرم عليه تعالى من أن يتركه ونفسه يتلوى في أحضان القلق والاضطراب، خائفاً على نفسه من جنون أو الاستحواذ على عقله الكريم على ما جاءت في روايات آتية لا قيمة لها عندنا.

إذاً فقد كان موقف النبي ﷺ تجاه نزول الحقِّ عليه - في بدء البعثة - موقف إنسان واعٍ بجليِّ الأمر، عارف بحقيقة الحقِّ النازل عليه، في اطمئنان بالغ وسكون نفس وانسراح صدر، لم يتردد ولم يشكَّ ولم يضطرب، كما لم يفزع ولم يفرق. وسنذكر قصَّة بدء البعثة على ما جاءت في روايات أهل البيت عليه وهي تشرح جوانب من موقف النبي ﷺ آنذاك ملوِّها عظمة وإكبار وأبهة وجلال.

(١) المصدر: ص ١٨٤.

(٢) هو ورقة بن نوفل ابن عم خديجة. تأتي قصته في الصفحة القادمة.

قصة ورقة بن نوفل

تلك كانت قصة البعثة . وفق ما جاءت في أحاديث أهل البيت عليهم السلام . وهم أدري بما في البيت . وإليك الآن حديثاً آخر عن بعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله على ما جاءت في روايات غيرهم :
 روى البخاري ومسلم وابن هشام والطبري وأضرابهم : بينما كان النبي صلى الله عليه وآله مختلياً بنفسه في غار حراء إذ سمع هائفاً يدعو . فأخذه الروع ورفع رأسه وإذا صورة رهيبة هي التي تناديه ، فزاد به الفزع وأوقفه الرعب مكانه . وجعل يصرف وجهه عنها يرى ، فإذا هو يراه في آفاق السماء جميعاً ويتقدم ويتأخر فلا تنصرف الصورة من كل وجه يتجه إليه . وأقام على ذلك زمناً ، ذاهلاً عن نفسه . وكاد أن يطرح بنفسه من حائق من جبل ، من شدة ما ألم به من روعة المنظر الرهيب . وكانت خديجة قد بعثت أثناءه من يلتمس النبي صلى الله عليه وآله في الغار فلا يجده ، حتى إذا انصرفت الصورة عاد هو راجعاً وقلبه مضطرب ممتلئاً رعباً وهلعاً ، حتى دخل على خديجة وهو يرتعد فرقاً كأن به الحمى ، فنظر إلى زوجه نظرة العائد المستنجد ، قائلاً : يا خديجة : مالي؟! وحدتها بما رأى . وأفضى إليها بمخاوفه أن تخدعه بصيرته . قال : لقد أسفقت على نفسي ، وما أراني إلا قد عرض لي ^(١) وقال : إن الأبعد - يعني نفسه الكريمة - لكاهن أو مجنون!

فرت إليه زوجه الوفيّة بنظرة الإشفاق ، وقالت : كلاً يا ابن عمّ ، أبشّر واثبت ، والله لا يخزيك أبداً ، فوالذي نفس خديجة بيده إنني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة ، إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتقري الضيف ، وتعين على النوايب ، وما أوتيت بفاحشة قط . وهكذا طمأنته بحديثها المرفف .

ثم قامت بتجربة ناجحة ، قالت : يا ابن عمّ ، أستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك؟ قال : نعم . قالت : فإذا جاءك فأخبرني به . فجاءه الملك كما كان يأتيه . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا خديجة ، هذا هو قد جاءني . فقالت : نعم ، فقم يا ابن عمّ واجلس على فخذي

(١) قال ابن الأثير : أي أصابني من من اللجن .

اليسرى . فقام رسول الله ﷺ فجلس عليها . فقالت : هل تراه؟ قال : نعم . قالت : فتحول واقعد على فخذي اليمنى . فتحول رسول الله ﷺ فجلس عليها . فقالت : هل تراه؟ قال : نعم . قالت : فتحول واجلس في حجري . فتحول وجلس في حجرها ، ثم تحشرت^(١) وألقت خمارها ، ورسوله الله ﷺ جالس في حجرها . فقالت : هل تراه يا ابن عم؟ قال : لا . فقالت : يا ابن عم ، أبشر وانبت ، فوالله إنه لملك وما هو بشيطان .

ثم توكيداً لما استنتجته من تجربتها ، انطلقت إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان متنصراً قارئاً للكتب ، فقصت عليه خبر ابن عمها محمد ﷺ ، فقال ورقة : قدوس قدوس . لئن كنت صدقتني يا خديجة ، فقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى . فقولي له : فليثبت . وأنه لنبي هذه الأمة . ولوددت أن أدرك أيامه فأؤمن به وأنصره . فعادت خديجة إلى رسول الله ﷺ وأخبرته بما قال ، فعند ذلك اطمأنَّ باله ، وذهبت روعته . وأيقن أنه نبي^(٢) .



قلت : لا شك أن قصة ارتياح النبي ﷺ بتلك الصورة الفظيعة أسطورة خرافة حاكتها عقول ساذجة جاهلة بمقام أنبياء الله الكرام . ومن ثم فهي إزراء بشأنهم الرفيع ، وخط من منزلتهم الشامخة . إن لم تكن ضعيفة بأقوى دعامة رسالة الله .

أولاً : النبي ﷺ أكرم على الله من أن يروعه في ساعة حرجة هي نقطة حاسمة في حياة رسوله الكريم ، هي نقطة تحول عظيم ، من إنسان كامل كان مسؤول نفسه ، إلى إنسان رسول هو مسؤول أمته بأجمعها ، كان قبل أن يصل إلى موقفه هذا العصيب يسير قُدماً إلى قِمة الاكتمال الإنساني الأعلى . في سفرة خطيرة كان مبدأها الخلق ومنتهائها الحق تعالى . فكان يسير من الخلق إلى الحق . والآن وقد وصل القِمة ، فعاد من الحق . حاملاً للحق إلى

(١) أي كشفت عن نفسها .

(٢) راجع سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٥ . صحيح البخاري : ج ١ ص ٣ - ٤ ، صحيح مسلم : ج ١ ص ٩٧ - ٩٩ ، تاريخ

الطبري : ج ٢ ص ٢٩٨ - ٣٠٣ ، تفسيره : ج ٣٠ ص ١٦١ ، حياة محمد لهيكل : ص ٩٥ - ٩٦ .

الخلق^(١١).

فساعة البعثة هي الفترة الحاسمة ، وهي الحلقة الواصلة بين السفرتين الذاهبة والراجعة ، وهي موقف حرج ، حاشئ لله أن يترك حبيبه يكابد الأمرين حينما بلغ قمة اللقاء ، والآن يريد أن يختاره رسولاً إلى الناس ، فيتركه يتلوى في هواجس مخطرة ، ويروعه بتلك الصورة الفظيعة التي تكاد تذهب بنفسه الكريمة أو تستحوذ على عقله روعة المنظر الرهيب!!

أليس محمد ﷺ أكرم على الله من إبراهيم الخليل وموسى الكليم وغيرهما من أنبياء عظام ، لم يتركهم في ساعة العسرة ، ليلتجئوا إلى إنسان غيره ، حاشاه من ربّ رؤوف رحيم!!

ثانياً : إننا لنربأ بعلماء - هم أهل تحقيق وتمحيص - أن يفضلوا عقلية امرأة لا شأن لها وأسرار النبوات على عقلية إنسان كامل كان قد بلغ القمة التي استأهلته لحمل رسالة الله ، ثم تقوم هي بتجربة حاسمة يجهلها رسول ربّ العالمين ، ليطمئن إلى قولتها ، أو قولة رجل كان شأنه أن كان قارئاً للكذب ، وليس لذلك العهد كتب فيها حقائق ومعارف غير محرّفة قطعياً . ولم نعرف ما الذي وجدته رسول الله ﷺ في قولتهما ، فكان منشأ اطمئنانه ، لم يجده في الحقّ النازل عليه من عند الله العزيز الحكيم .

ألم تكن الرؤى الصادقة التي سبقت البعثة ، ولم يكن تسليم الملك النازل عليه حينها : السّلام عليك يا رسول الله وتسليم الشجر والحجر كلّما مرّ بهما في طريقه راجعاً إلى بيت خديجة ، ولم يكن عرفانه الذاتي الذي كان يتعمّقه مدّة اختلاطه بحراء ، كلّ ذلك لم يستوجب استيقانه بالأمر ، ليستيقن من طمأننة امرأة أو رجل متنصر؟! إن هذا إلا إضرار فظيع بمقام رسالة الله ، إن لم يكن مسأ شنيعاً بكرامة رسول الله ﷺ المنيعة .

ثالثاً : اختلاف سرد القصة ، بما لا يلتئم مع بعضها البعض ، لدليل على كذبها رأساً . ففي رواية : «انطلقت خديجة لوحدها إلى ورقة ، فأخبرته بما جرى» وفي أخرى : «انطلقت بي إلى ورقة وقالت : اسمع من ابن أخيك . فسألني فأخبرته . فقال : هذا الناموس الذي أنزل

(١١) على ما جاء في تعبير الفيلسوف الإلهي الحكيم صدر الدين الشيرازي تقدّم كلامه في «الرؤيا الصادقة».

على موسى» وفي ثالثة: «لقيه ورقة بن نوفل وهو يطوف بالبيت فقال: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت. فأخبره رسول الله ﷺ، فقال له ورقة: «والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولن أدركت ذلك لأنصرك الله نصراً يعلمه». وفي رابعة: «عن ابن عباس، عن ورقة بن نوفل، قال: قلت: يا محمد أخبرني عن هذا الذي يأتيك - يعني جبرائيل عليه السلام - يأتيني من السماء، جناحاه لؤلؤ وباطن قدميه أخضر»^(١). وهذا ليس في روايات خديجة مع ورقة، على ما جاءت في الصحاح المتقدمة. وفي خامسة: «إن أبا بكر دخل على خديجة، فقالت: انطلق بمحمد إلى ورقة، فانطلقنا فقصا عليه...»^(٢).

ثم لو صححت القصة فلماذا لم يؤمن به ورقة حينذاك وقد علم أنه نبي مبعوث؟! فقد صح أنه مات كافراً لم يؤمن به. وقضية رؤيا النبي ﷺ: «كان ورقة في ثياب بيض» أيضاً مكذوبة وسندها مقطوع، وإلا لسجل اسمه فيمن آمن به. قال ابن عساکر: لا أعرف أحداً قال إنه أسلم^(٣).

هذا وقد عاش ورقة إلى زمن بعد البعثة، فقد روي أنه مرَّ بلال وهو يعدب^(٤). قال ابن حجر: وهذا يدل على أنه عاش حتى ظهرت دعوته ﷺ ودعا بلالاً فأسلم. إذاً فلم يبق على كفره ولم يسلم كما أسلم الآخرون؟ ولم ينصره كما نصره آخرون؟ وقد خالف هذه كما جاء في الأسطورة.

الوحي لا يحتمل التباساً

هذا هو الموضوع الثاني - فيما أشرنا سابقاً -: النبي ﷺ لا يخطأ فيما يوحي إليه، ولا يلتبس عليه الأمر قط. النبي كان عندما يوحي إليه يكشف عن عينه الغطاء، فيرى الواقعة فيما يتصل بجانب روحه الملكوتي، منقطعاً عن صوارف المادة. إنه ﷺ حينذاك يلمس

(١) أمد الغاية لابن الأثير: ج ٥ ص ٨٨ والرواية ضعيفة بروح بن مسافر، ولم يدرك ابن عباس ورقة.

(٢) الإصابة: ج ٣ ص ٦٣٣.

(٣) الإفتان: ج ١ ص ٢٤.

(٤) المصدر.

تجليات وإشراقات نورية تغشاه من عالم الملكوت، لينصرف بكليته إلى لقاء روح الله وتلقي كلماته، فيرى حقيقة الحق النازل عليه بشعورٍ واعي وبصيرةٍ نافذة، كمن يرى الشمس في وضوح النهار، لا يحتمل خطأً في إحصاره ولا التباساً فيما يعيه.

وهكذا الوحي، إذ لم يكن فكرة نابعة من داخل الضمير، ليحتمل الخطأ في ترتيب مقدمات استنتاجها، أو إحصاراً من بعيد ليحتفل التباساً في الانطباق^(١١). بل هي مشاهدة حقيقة حاضرة بعين نافذة، فاحتمال الخطأ فيه مستحيل.



تلك طريقة علمية فلسفية^(١٢) تهدينا إلى الاعتراف بعدم احتمال الوحي الخطأ أبداً. ومن ثم فإنَّ شريعة الله النازلة على أيدي رسله الأئمة مصونة عن احتمال الخطأ رأساً.

وهناك طريقة أخرى عقلية تحتم لزوم عصمة الأنبياء فيما يبلغون من شرائع الله، بفضلها علماء الكلام. وتتلخص في أنَّ النبي المبلِّغ عن الله يجب - في ضوء قاعدة اللطف - أن ينعم بصحة كاملة في أجهزة إحساسه، وسلامة تامة في قوى مشاعره، وفي مقدرته العقلية، فيكون مستقيماً في آرائه ونظرياته، معتدلاً في خلقه وسيرته، مستوياً في خلقته وصورته. وبكلمة جامعة: يجب أن يختار الله لرسالته إنساناً كاملاً في خلقه وخلقته، كي لا يتفتر الناس من معاشرته، وبطمئنوناً إلى ما يبلغه عن الله، وإلا كان نقضاً لغرض التشريع.

(١١) الخطأ إنما يحتمل في مجالين: إما في مجال التفكير أو في مجال الإبصار الخارجي - مثلاً - وذلك لأن الاستنتاج الفكري شرائطاً وأحكاماً، إذا ما أهلها المتفكر فسوف يقع في خطأ التفكير. وكذلك إحصار العين الخارجية إذا كان من بعيد. فربما يقع الخطأ فيه من ناحية تطبيق ما عند النفس من مرتكرات و معلومات على خصوصيات يراها موجودة في العين الخارجية، فالخطأ إنما هو في هذا التطبيق النفسي لا في العين المشاهدة، لأنَّ الإبصار عبارة عن انطباق صورة الخارج - وهي واقعية لا تنفیر - في الشبكة العصبية خلف بؤرة العين. وهذه ظاهرة طبيعية تتحقق ذاتياً إذا ما تعققت شرائطها. نعم، كأنَّ النفس هي التي تحكم على ما شاهده العين بأنه كذا وكذا، والخطأ إنما هو في هذا الحكم لا في ذلك الإبصار الطبيعي. إذاً فيما أن الوحي خارج عن الأمرين، لا تفكير ولا إحصار من بعيد - مثلاً - وإنما هو ليس حقيقة حاضرة فلا موقع للخطأ فيه أصلاً.

(١٢) راجع ما كتبه الأستاذ العلامة الطباطبائي بهذا الصدد في رسالة الوحي «وحي يا شعور مرموز»: ص ١٠٤.

فالنبي معصوم من الخطأ والنسيان، ولا سيّما فيما يخصّ تبليغ أحكام الشريعة. وهذا إجماع من المسلمين ومن غيرهم من عقلاء أذعنوا برسالة الأنبياء، ولولاه لكان الالتزام بشرائع الدين سفهاً ياباه العقل^(١).



هذا مضافاً إلى ما عهد الله لنبيه بالرعاية والحفظ: «ستقرئك فلا تنسى»^(٢) كان ﷺ في بدء نزول القرآن يخشى أن يفوته شيء، فكان يسأق جبرائيل فيما يلقي عليه كلمة بكلمة، فنهى عن ذلك: «لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه»^(٣). «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحياً وقل رب زدني علماً»^(٤).

قال ابن عباس: «فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبرائيل استمع له، فإذا انطلق قرأ كما قرأه»^(٥).

وأخيراً فإن قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٦) يقطع أي احتمال الدس والتزوير في نصوص القرآن الكريم.

وأما احتمال تلييس إبليس ليتدخل فيما يوحي إلى النبي ﷺ ويجعل من تسويلاته الشيطانية في صورة وحي ويلبسه على النبي ﷺ ليزعمه وحياً من الله فهو أمر مستحيل، لأن الشيطان لا يستطيع الاستحواذ على عقلية رسل الله وعباده المكرمين: «إن عبادي ليس لك عليهم سلطان»^(٧)، ومتنافٍ مع قوله تعالى: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين»^(٨) وقوله تعالى: «وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. علمه شديد

(١) راجع مباحث العصمة من شرح تجريد الاعتقاد: المسألة الثالثة من المفصل الرابع من مباحث النبوة العامة ص ١٩٥.

(٢) الأعلى: ٦. (٣) القیامة: ١٦-١٩.

(٤) طه: ١١٤. (٥) طبقات ابن سعد: ج ١ ص ١٢٢.

(٦) الحجر: ٩. (٧) الإسراء: ٦٥.

(٨) الحاقة: ٤١-٤٥.

القُوَى»^(١)، وقد قال الشيطان: «وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي»^(٢)، ومتناهي مع قاعدة اللطف الآتفة. ومتناقض مع حكمته تعالى في بعث الأنبياء في شرح سبق تفصيله.

نعم، ذهب أصحاب الحديث من العائمة إلى إمكان استحواذ الشيطان على عقلية الرسول ﷺ كما جاءت رواياتهم لقصة الغرائق^(٣)، الأمر الذي نراه مستحيلاً إطلاقاً، ومن ثمّ فهي أسطورة وضعها من يريد الامتهان بمقام الرسالة، ليعبّر بها على عقول البسطاء. فكانت غنيمة بأيدي أعداء الإسلام. وإليك نصّ الأسطورة ونقدها تبعاً:

أسطورة الغرائق

روي ابن جرير الطبري بإسناد زعمها صحيحة، عن محمّد بن كعب، ومحمّد بن قيس، وسعيد بن جبيرة، وابن عباس، وغيرهم: أنّ النبي ﷺ كان في حشد من مشركي قريش، يفتاء الكعبة، أو في نادٍ من أنديةهم، وكانت تساوره نفسه لو يأتيه شيء من القرآن يقارب بينه وبين قومه الألداء، إذ كان يتألّم من مباحثتهم، وكان يرجو الائتلاف معهم مهما كلف الأمر، وإذا نزلت عليه سورة النجم، فجعل يتلوها حتّى إذا بلغ: «أفرأيتم اللات والعزرى ومناة الثالثة الأخرى»^(٤) ألقى عليه الشيطان: «تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهنّ لترجى» فحسبها وحياً، فقرأها على ملاّ من قريش، ثمّ مضى وقرأ بقية السورة. حتّى إذا أكملها سجد وسجد المسلمون، وسجد المشركون أيضاً، تقديراً بما وافقهم محمّد ﷺ في تعظيم آلهتهم ورجاء شفاعتهم. وطار هذا النبا حتّى بلغ مهاجري الحبشة، فجعّلوا يرجعون إلى بلدهم مكّة فرحين بهذا التوافق المفاجئ، كما فرح النبي ﷺ أيضاً بتحقيق أمنيته القديمة على

(١) النجم: ٥-٣. (٢) إبراهيم: ٢٢.

(٣) الغرائق: جمع الغرثوق. وهو الشاب الناعم الأبيض. وفي الأصل: اسم لظن الماء (مالك الحزين) وهو تشبيه آلهة

المشركين بظهور بيض متعلّقة في أجواء السماء، كتابة عن فرهم من الله.

(٤) النجم: ١٩ و ٢٠.

انتلاف قومه.

ويقال: إِنَّ شَيْطَانًا أَيْضَ هُوَ الَّذِي تَمَثَّلَ لِلنَّبِيِّ فِي صُورَةِ جِبْرَائِيلَ وَأَلْقَى عَلَيْهِ تِينَكَ الْكَلِمَتَيْنِ.

ويقال: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصَلِّيَ عِنْدَ الْمَقَامِ إِذْ نَعَسَ نَعْسَةً فَجَرَّتْ عَلَيَّ لِسَانَهُ هَاتَانِ الْكَلِمَتَانِ مِنْ غَيْرِ شَعُورٍ بِهِمَا.

ويقال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِمَا مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ حَرَصًا عَلَيَّ ائْتِلَافَ قُلُوبِ الْمُشْرِكِينَ. ثُمَّ نَدِمَ مِنْ فَعْلِهِ هَذَا الَّذِي كَانَ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ! ويقال: إِنَّ الشَّيْطَانَ أَجْبَرَهُ عَلَى النُّطْقِ بِهَذَا الْكَلَامِ... الخ.

ثُمَّ لَمَّا أَمْسَى اللَّيْلُ أَنَاءَ جِبْرَائِيلَ، فَقَالَ لَهُ: أَعْرَضَ عَلَيَّ السُّورَةَ. فَجَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يَقْرَأُهَا عَلَيْهِ حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْكَلِمَتَيْنِ قَالَ جِبْرَائِيلُ: مَه، مِنْ أَيْنَ جِئْتَ بِهَاتَيْنِ الْكَلِمَتَيْنِ؟ فَتَنَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: لَقَدْ افْتَرَيْتَ عَلَى اللَّهِ، وَقُلْتَ عَلَى اللَّهِ مَا لَمْ يَقُلْ؟! فَحَزَنَ حَزْنًا شَدِيدًا، وَخَافَ مِنْ اللَّهِ خَوْفًا كَبِيرًا.

ويقال: إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِجِبْرَائِيلَ: إِنَّهُ أَتَانِي آتٍ عَلَى صُورَتِكَ فَأَلْقَاهَا عَلَيَّ لِسَانِي. فَقَالَ جِبْرَائِيلُ: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَكُونَ أَقْرَأَتَكَ هَذَا... فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَتَزَلَّتْ: «وَأِنْ كَادُوا لِيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَةً وَإِذًا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا. وَلَوْلَا أَنْ تُؤْمِنَنَا كَلَفْنَاكَ لَدَى كِدَاتٍ تَرُكُنَّ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا. إِذًا لَا ذُقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا»^(١).

فاشتدَّ حزن رسول الله ﷺ على هذه البادرة المباغته. ولم يزل مغموماً مهموماً حتى نزلت عليه: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ»^(٢). وكانت تسليئة لقلبه الحزين، فعند ذلك سرى عنه الهم وطابت نفسه^(٣).

(٢) المعج: ٥٢.

(١) الإسراء: ٧٣-٧٥.

(٣) تفسير الطبري: ج ١٧ ص ١٣٦-١٣٤. الدرر المنتورة: ج ٤ ص ١٩٤ و ص ٢٦٦-٢٦٨. فتح الباري بشرح البخاري: ج ٨

نقد الحديث سنداً

تلك أسطورة الغرائق، مفتراة على النبي الكريم ﷺ، وقد أولع المستشرقون والطاقعون في الدين الإسلامي الحنيف بهذه الأسطورة المصطنعة وأذاعوها وأثاروا حولها عجاجة من القول البذيء^(١) في حين أنها كذوبة مفتعلة، صنعتها قرائح القصاصين، ونسبها إلى بعض التابعين ومن الصحابة إلى ابن عباس، ودلائل الكذب والافتراء بادية على مُحياها القدر. أولاً: لم يتصل تسلسل سند الحديث إلى صحابي إطلاقاً، وإنما أسند إلى جماعة من التابعين ومن لم يدرك حياة رسول الله ﷺ، وعليه فالحديث مرسل غير موصل السند إلى من شاهد القضية - فرضاً -.

وأما النسبة إلى ابن عباس فلا تقل عن غيرها، بعد أن كانت ولادة ابن عباس في السنة الثالثة قبل الهجرة، فلم يشهد القصة بتاتاً، وإنما نقلت إليه.

فالرواية من جميع وجوهها غير موصولة الإسناد إلى شهود القصة لو صحّت الواقعة. وقواعد فنّ التمهيص في إسناد الروايات تأبى جواز الاحتجاج بمثل هذا الحديث المرسل.

ثانياً: شهادة جليل أئمة الحديث بكذب هذا الخبر، وأنَّ الطرق إليه ضعاف واهية، فهو فيما يشتمل عليه من السند أيضاً ساقط في نظر الفنّ.

قال ابن حجر: وجميع الطرق إلى هذه القصة - سوى طريق ابن جبير - إما ضعيف (يكون الراوي غير موثوق به أو مرمياً بالوضع والكذب) أو منقطع (أي كانت حلقة الوصل بين الراوي الأوّل والراوي الأخير مفقودة)^(٢). وسنذكر أن بلاء طريق ابن جبير هو الإرسال والضعف أيضاً.

وقال أحمد بن الحسين البيهقي - أكبر أئمة الشافعية - مشهوراً بدقّة النقد والتّمهيص -: هذا الحديث من جهة النقل غير ثابت ورواته مطعون فيهم^(٣).

(١) أنظر تاريخ الشعوب الإسلامية لكارل بروكلمان: ص ٣٤.

(٢) فتح الباري شرح البخاري: ج ٨ ص ٣٣٣. (٣) تفسير الرازي: ج ٢٣ ص ٥٠.

وقال أبو بكر ابن العربي: كلُّ ما يرويه الطبري في ذلك باطل لا أصل له^(١).
وصنَّف محمَّد بن إسحاق بن خزيمة رسالةً فنَّد فيها هذا الحديث المفتعل، ونسبه إلى
وضع الزنادقة^(٢).

وقال القاضي عياض: هذا الحديث لم يخرج له أحد من أهل الصحَّة، ولا رواه ثقة بسند
سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسِّرون والمؤرِّخون المولعون بكلِّ غريب، المتلقِّفون
من الصحف كلِّ صحيح وسقيم. وقال: وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد
بلي المسلمون ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلَّقوا بذلك الملحدون مع ضعف نقلته
واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته^(٣).

وأما طريق ابن جبير فذكر أبو بكر البرزاز أنَّ هذا الحديث لم يسنده عن شعبة إلا أمية بن
خالد وغيره، يرسله عن سعيد بن جبير، وإنما يعرف عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن
عبَّاس. ثمَّ يذكر شكَّه في صحَّة الإسناد إلى ابن عبَّاس أيضاً فيما أسند إلى ابن جبير^(٤). وأما
طريق الكلبي إلى ابن عبَّاس عن طريق أبي صالح فموهون بالاتِّفاق، قال جلال الدين
السيوطي: هي أوهى الطرق^(٥).

ثالثاً: اتَّفاق كلمة المحقِّقين من علماء الإسلام قديماً وحديثاً على أنَّه حديث مفترى،
وحكموا عليه بالكذب الفاضح، غير آبهين بجانب السند، متَّصل أم منقطع، صحيح أم
سقيم، لأنَّه قبل كلِّ شيء، متناقض مع صريح القرآن الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه
ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد»^(٦)، وهادم لأقوى أسس الشريعة وأقوم دعائمه
الرصينة.

قال الشريف المرتضى: فأما الأحاديث المروية في هذا الباب فلا يلتفت إليها، من
حيث إنَّها تضمَّنت ما قد نرَّهت العقول الرُّسل عنه. هذا لولم تكن في أنفسها مطعونة ضعيفة

(٢) تفسير الرازي: ج ٢٣ ص ٥٠.

(١) فتح الباري: ج ٨ ص ٣٣٣.

(٤) المصدر: ص ١٨٨.

(٣) المشفا للقاضي عياض: ص ١١٧.

(٦) فضلت: ٤٢.

(٥) الإنفان: ج ٢ ص ١٨٩.

عند أصحاب الحديث. وكيف يجوز ذلك على النبي ﷺ من يسمع قول الله تعالى: «كذلك لنبئت به فؤادك»^(١). وقوله: «ولو تقول علينا بعض الأقاويل»^(٢). وقوله: «سنفرتك فلاتسى»^(٣)... ثم أخذ في توضيح الاستدلال^(٤).

وقال الإمام الفخر: هذه رواية عامة المفسرين الظاهرين، وأما أهل التحقيق فيرونها باطلة موضوعة، واحتجوا عليها بوجوه من العقل والنقل^(٥).

وقال السيد الطباطبائي: الأدلة القطعية على عصمة النبي ﷺ تكذب متن الحديث، وإن فرضت صحة إسناده. فمن الواجب تنزيه جانب قدسية النبي ﷺ عن أمثال هذه الرذائل التي تسمى كرامة الأنبياء^(٦).

وتكلم القاضي عياض في تنفيذ هذا الحديث بوجوه عديدة اقتبسنا منها فصلاً في هذا العرض. وأخيراً أخذ الدكتور حسين هيكل في تنفيذ القصة بأسلوب حديث لخصناه في نهاية المقال.

نقد الحديث مدلولاً

هذا الحديث، فضلاً عن سنده الموهون، فإن مضمونه باطل على كل تقدير: أولاً: مناقضته الصريحة مع كثير من نصوص القرآن الكريم في شتى الجهات. ثانياً: منافاته الظاهرة مع مقام عصمة الأنبياء، الثابتة بدليل العقل والنقل المتواتر والإجماع.

ثالثاً: عدم إمكان التناهم مع سائر آيات السورة نفسها، لحنأ وأسلوباً. بحيث لا يمكن التباس هذا الجانب على من يعرف أساليب الكلام الفصيح، وبالأحرى أن لا يلتبس الأمر على أفصح من نطق بالضاد، وعلى أولئك الحضور، وهم صناديد قريش وأفلاذ العرب.

(٢) العاقبة: ٤٤.

(١) الفرقان: ٣٢.

(٤) تنزيه الأنبياء: ص ١٠٧-١٠٩.

(٣) الأعلى: ٦.

(٦) تفسير الميزان: ج ١٤ ص ٤٣٥.

(٥) التفسير الكبير: ج ٢٣ ص ٥٠.

وتوضيحاً لهذه الجوانب الثلاثة الخطيرة نستعرض مايلي:

١- مناقضته مع القرآن

إننا لنربأ بمسلم نابه - فضلاً عن ناقد خبير كابن حجر - أن يتسلم صدق هذا الحديث المفتعل . نظراً لما زعمه من صحة أسناده المراسيل ، ثم لا يتدبر في متنه الفاسد ، الظاهر التنافي مع كثير من نصوص الكتاب العزيز . وإليك طرفاً من ذلك :

أ - تبدأ السورة بقوله تعالى : «والنجم إذا هوى . ما ضلَّ صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحىٌ يُوحى . علَّمه شديد القوى»^(١) . وهي شهادة صريحة من الله بأن محمداً ﷺ لا يضل ولا يغوى ولا ينطق إلا عن وحى من الله . يعلمه الروح الأمين .

فلو صح ما ذكره في رأس الآية العشرين لكان تكذيباً فاضحاً لهذه الشهادة . وتغليباً لجانب الشيطان على جانب الرحمان ، وهو القائل تعالى : «إن كيد الشيطان كان ضعيفاً»^(٢) ، والقائل : «كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قويٌ عزيز»^(٣) .

فكيف - ياترى - يتغلب إبليس على ضمان بضمنه الله تعالى فيطله صريحاً قبل أن يفرغ من كلامه عز شأنه؟! وهل يتغلب ضعيف في كيدته على قوي في إرادته؟! وهل هذا إلا تهافت باهت وكلام فارغ لا يستطيع عاقل تصديقه!؟

ب - وأيضاً فإنه تعالى يقول : «ولو تقول علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين»^(٤) كناية عن أن أحداً لا يستطيع التقول على الله تليساً للحقيقة إلا ويهلكه الله من فورهِ ، الأمر الذي تفتضيه حكمته تعالى جرياً مع قاعدة اللطف ، وقد سبقت الإشارة إليها .

أفهل ترى - بعد هذا التأكيد - يستطيع إبليس ، وهو صاحب الكيد الضعيف ، أن يتقوّل على الله ، ويلبس الأمر على رسول الله ﷺ بما يحسه وحيماً أتياً به جبرائيل الأمين؟! إذاً

(٢) النساء : ٧٦ .

(١) النجم : ١ - ٥ .

(٤) الحاقة : ٤٤ - ٤٦ .

(٣) المجادلة : ٢٦ .

فَأَيْنَ الضَّمانِ الَّذِي ضَمَنَهُ اللهُ تَعَالَى الْغالبِ عَلى أَمْرِهِ، وَتَعَهَّدَهُ عَلى نَفْسِهِ فِي الآيَةِ الْمَذكُورَةِ؟!

ج - وقال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لِحَافِظُونَ»^(١). فقد ضمن تعالى سلامة القرآن من تلاعب أيدي المبطلين، وحفظه عن دسائس المعاندين، أفهل يعقل - بعد ذلك - أن يترك إبليس وشأنه في سبيل التلاعب بالذكر الحكيم فور نزوله على رسوله الكريم؟! وهل هذا إلا تهافت في الرأي وإبطال لضمان الله؟! ومعه لا تبقى ثقة بما وعد الله المؤمنين من النَّصر والغلبة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!

د - وقال تعالى: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»^(٢). وقال: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكفى بِرَبِّكَ وَكِيلاً»^(٣) فكيف نجوز - بعد هذا الضمان الصريح المؤكد - أن يتسلط إبليس على أخلص عباد الله المكرمين، فيلبس عليه ناموس الكبرياء، وفي أمس شؤون رسالته المضمونة؟!

على أن القرآن يصرِّح أن لا سلطة لإبليس على أحد إطلاقاً، سوى وسوسته الخداعة ودعوته إلى شرور، أما التدخُّل عملياً في شؤون الخلق أو الخالق فهذا لا سبيل لإبليس إليه إطلاقاً، وقد حكى الله سبحانه عن لسان إبليس: «وما كان لي عليكم من سلطانٍ إلا أن أدعوتكم فاستجبتم لي»^(٤).

٢ - منافاته لمقام العصمة

قال القاضي عياض: وقد قامت الحجَّة وأجمعت الأُمَّة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، إمَّا تمنَّيه أن ينزل عليه مثل هذا - من مدح آلهة غير الله - وهو كفر، أو أن تسوَّر عليه الشيطان ويشبَّه عليه القرآن حتَّى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن من القرآن ما ليس منه حتى ينتهه جبرائيل وذلك كلُّه ممتنع في حقِّه ﷺ.

(١) التحل: ٩٩.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) الإسراء: ٦٥.

أو يقول النبي ذلك من قبل نفسه عمداً وذلك كفر، أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله.
وقد قرّرنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على قلبه أو لسانه، لا عمداً
ولا سهواً.

أو أن يتشبه عليه ما يلقيه الملك ممّا يلقي الشيطان، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو
يتقوّل على الله ما لم ينزل عليه، وقد قال تعالى: «ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل...»^(١)،
وقال تعالى: «إذاً لأذقنك ضعف الحياة و ضعف الممات...»^{(٢) (٣)}.

وأيضاً فلولا العصمة الملحوظة في أداء رسالة الله لزالّت الثقة بالدين، ولأخذت
الشكوك مواضعها من أحكام وتكاليف وشرائع يبلغها النبي ﷺ عن الله تعالى.

وامتداداً لجانب عصمته ﷺ وأن لا سبيل لإبليس إلى شأن من شؤونه المعصمة بعصمة
الله تعالى قال: من رأي فقد رأي فإن الشيطان لا يتمثل بي^(٤).

وقد فهم العلماء من هذا الحديث قاعدة كئيبة: لا يستطيع إبليس التمثّل بأيّ ولي من
أولياء الله العباد المخلصين، وبالأحرى عدم استطاعته التمثّل بجبرائيل، ملك الوحي
المقرب الأمين.

إذاً فأتى لإبليس التلاعب بوحى السماء، أو أن ينتحل صورة رسول من رسل الله
الأكرميين؟ كلا! «لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويُعدّون من كل جانب»^(٥).

٣- تهافتة مع أيّ السورة

قال القاضي عياض أيضاً: ووجه ثانٍ وهو استحالة هذه القصّة نظراً وعرفاً، وذلك أنّ
هذا الكلام لو كان - كما روي - لكان بعيد اللثام، متناقض الأقسام، ممتزج المدح بالذم،
متخاذل التأليف والنظم، ولما كان النبي ﷺ ولا من حضرته من المسلمين وصناديد

(٢) الإسراء: ٧٥.

(١) العنق: ٤٤.

(٤) صحيح مسلم: ج ٧ ص ٥٧.

(٣) الشفا للقاضي عياض: ج ٢ ص ١١٨ - ١١٩.

(٥) الصادقات: ٨.

المشركين ممن يخفى عليه ذلك. وهذا لا يخفى على أدنى متأمل. فكيف بمن رجح حلمه وأتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه^(١).

أفهل يتصور بشأن النبي محمد ﷺ - وهو العارف بمواقع الكلام، الناقد لأفصح أقوال العرب الفصحاء - أن يلتبس عليه شأن كلام ساقط، لا يتناسب وسائر جمل وآيات كانت تنزل عليه حينذاك؟! أم كيف ينسجم ما ذكره مع قوله تعالى: «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان»^(٢)! أم كيف يقتنع المشركون - وهم أهل نقد وفصاحة - بتلك المجاملة المفضوحة، يقترن مدح مشكوك، بذلك القدر الصارم، ليأخذوه تقارباً مبدئياً بين إشراكهم والدعوة التي قام بها محمد ﷺ والتي قامت على محق الشرك وإخلاص الدين الحنيف. ولا سيما مع تعقيبها بقوله أيضاً: «وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً»^(٣) أفهل يلتئم هذا الكلام التوحيدى الخالص مع تلك الأكذوبة: «وإن شفاعتهم لترتجى»؟!



وأخيراً، فلو صحّت الحكاية لشاعت وذاعت، ولأخذها المشركون مستمسكاً في وجه المسلمين طول الدعوة، ولم يصدّقوا النبي ﷺ في دعواه النسخ مهما كلف الأمر. هذا في حين أنّ التاريخ لم يضبط من تلك الأقصوصة المفتعلة سوى حكايتها عن أناس تأخروا عن ظرفها بزمان بعيد ولم يسجل التاريخ من يقول: حضرتها! الأمر الذي يجعلنا قاطعين بكذبها. ولعلها من الإسرائيليات المفضوحة التي نسجتها أيدي النكاة بالإسلام، في عهد سطو المظالم على أرجاء البلاد الإسلامية، في ظل حكومة بني أمية أعداء الدين والقرآن. وهذا هو الأرجح في نظرنا. وفي فصول هذا الكتاب الآتية يتضح موقف هذه الفئة الباغية على الإسلام أكثر.



قال الأستاذ هيكل : حديث الغرائق حديث ظاهر التهافت ، ينقضه قليل من التمهيص ، وهو بعد حديث ينقض ما لكل نبيٍّ من العصمة في تبليغ رسالات ربه . فمن عجب أن يأخذ به بعض كتاب السيرة وبعض المفسرين المسلمين . ولذلك لم يتردد ابن إسحاق حين سئل عنه في أن قال : إنَّه من وضع الزنادقة . لكن بعض الذين أخذوا به حاولوا تبرير أخذهم هذا ، فاستندوا إلى قوله تعالى : «وإن كادوا ليفتنونك»^(١١) ، وإلى قوله «إلا إذا تمنى ألقى الشيطان»^(١٢) . وبضيف «سير وليم مور» : أن مرجع المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة بعد ثلاثة أشهر من إقامتهم هناك لدليل قاطع على صحَّة هذه القصة .

وهذه الحجج التي يسوقها القائل بصحَّة حديث الغرائق حجج واهية لانتقوم أمام التمهيص . أمَّا رجوع المسلمين فكان سببه اضطراباً سياسياً عمَّ أرجاء الحبشة على أثر ثورة جديدة قامت فيها .

أمَّا الاحتجاج بالآيات فاحتجاج مغلوب . لأن الآية الأولى لا تشي بوقوع الأمر : «ولولا أن نبئناك لقد كدت تركن إليهم»^(١٣) . فالآية تقول : إنَّ الله نبَّئته فلم يفعل .

وأما آية التمني فلا صلة لها بحديث الغرائق . وقد تقدَّم شأنها . ودليل آخر أقوى وأقطع : سياق السورة وعدم احتمالها لمسألة الغرائق . فإنها ذم صريح ، ولهجة تفرع لا ينسجم وإدراج هكذا جملة . الأمر الذي لا يكاد يخفى على العرب آنذاك .

وأيضاً فإنَّ وصف آلهة قريش بالغرائق لم يأت في نظمهم هم ولا في خطبهم ولا شيء من معنى الفرنوق بلانم معنى الآلهة التي وصفها العرب - كما قاله الشيخ محمَّد عبده - . وبقيت حجة قاطعة نسوقها للدلالة على استحالة قصة الغرائق هذه . من حياة محمَّد نفسه . فهو منذ طفولته وصباه وشبابه لم يجرب عليه الكذب قط ، حتَّى سمي الأمين . وكان صدقه أمراً مسلماً به من الناس جميعاً ، فكيف يصدِّق إنسان أنه يقول على ربه ما لم يقل .

ويخشى الناس والله أحق أن يخشاه! هذا أمرٌ مستحيل . يدرك استحاله الذين درسوا هذه النفوس القوية الممتازة التي تعرف الصلابة في الحق ولا تداجي فيه لأي اعتبار^(١).



أما الآية من سورة الإسراء: «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً» فهي - كما أشار إليه هيكل - صريحة في أنه ﷺ لم يفعل ، بدليل «لولا» الامتناعية . فهي إن دلت فإثماً تدلّ على أن مقام عصمته ﷺ التي هي عناية من الله خاصة بأوليائه المنتجبين هي التي تحول دائماً دون ارتكاب أيّة رذيلة مهما كانت صغيرة أو كبيرة.

وكم حاول أهل الزيف والفساد أن يميلوا بمنهج الإسلام العتيم ، سواء بدسانهم حال حياة الرسول ﷺ أم بعد وفاته ، ولكن «أتى لهم التناؤش من مكان بعيد»^(٢) . «إننا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون»^(٣).

فالآية تضمين بسلامة هذه الشريعة دون تحريف المبطلين ، وكاف الخطاب إنما وردت من باب «إيّاك أعني واسمعي يا جارة» كما ورد في التفسير . وليكون ذلك اعتباراً لأولياء المسلمين طول عهد التاريخ أبداً ..

وكذا الآية من سورة الحج: «وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته»^(٤) لا أساس لها بفضة الغرائق ، بعد أن كانت تشير إلى ظاهرة طبيعية كانت تخالغ نفوس كبار المصلحين أبداً ، وهي : تحكيم مباني دعوتهم الإصلاحية ، وتدعيم أسسها وقوائمها دون تضعضع أو ضياع أو فساد ، وأن تطبق شريعة الله عائته الخلائق وكافة الأمم . وأن تزدهر معالمها وترهق أنوارها في أرجاء العالم المعمور . هذه هي أمنيّة كلّ رسول أو نبي ، بل وكلّ قائم بالإصلاح خالصاً مخلصاً له الدين . غير أنّ دسائس أهل الزيف والفساد قد تحول دون تحقّق هذه

(١) حياة محمد لمحمد حسين هيكل : ص ١٢٤ - ١٢٩ . (٢) أ : ٥٢ .

(٤) الحج : ٩٢ .

(٣) الحجر : ٩ .

الأمنيَّة . لكنَّه حوول لا قرار له .. لأنَّه من كيد الشيطان ، و«إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا»^(١) .
 وقد «كتب الله لأغلبنَّ أنا ورسلي»^(٢) ، «إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا»^(٣) ، «إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ»^(٤) ، «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ
 زَاهِقٌ»^(٥) ، «فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتُ فِي الْأَرْضِ»^(٦) فهذه الآية
 أيضاً ضمان لبقاء هذا الدين وسلامته عن تطاول أيدي المحرِّفين «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا
 لَهُ لِحَافِظُونَ»^(٧) .

(٢) المجادلة : ٢٦ .

(١) النساء : ٧٦ .

(٤) الحديد : ٢٥ . المجادلة : ٢٦ .

(٣) غافر : ٥١ .

(٦) الرعد : ١٧ .

(٥) الأنبياء : ١٨ .

(٧) الحجر : ٩ .

نزول القرآن

هناك مسألة ذات أهمية تمس جانب نزول الوحي قرآناً، وارتباطه مع بدء الرسالة، حيث اقترنت البعثة - وكانت في شهر رجب - بنزول شيء من القرآن (خمس آيات من أول سورة العلق) في حين تصريح القرآن بنزوله في ليلة القدر من شهر رمضان، فما وجه العلاج؟ وهكذا تعيين المدة التي نزل القرآن خلالها تدريجاً، والسور التي نزلت قبل الهجرة لتكون مكّية - اصطلاحاً - والتي نزلت بعدها لتكون مدنية، وهل هناك استثناء لآيات على خلاف السور التي ثبتت فيها؟ والأرجح أن لا استثناء، وأن السورة إذا كانت مكّية فجميع آياتها مكّية، وهكذا السور المدنية. إذ لا دليل على الاستثناء على ما سنبيّن. وإليك تفصيل هذه الجوانب:

بدء نزول الوحي

قال الشيخ الجليل الثقة علي بن إبراهيم القمي: إن النبي ﷺ لما أتى له سبع وثلاثون سنة كان يرى في منامه كأنّ آتياً يأتيه فيقول: يا رسول الله! ومضت عليه برهة من الزمان وهو على ذلك يكتمه، وإذا هو في بعض الأيام يرعى غنماً لأبي طالب في شعب الجبال، إذ رأى شخصاً يقول له: يا رسول الله! فقال له: من أنت؟ قال: أنا جبرائيل، أرسلني الله إليك لبتخذك رسولاً، فجعل يعلمه الوضوء والصلاة. وذلك عندما تمّ له أربعون سنة. فدخل عليّ ﷺ وهو يصلي. قال: يا أبا القاسم ما هذا؟ قال: هذه الصلاة التي أمرني الله بها، فجعل يصلي معه، وكانت خديجة ثالثتهما. فكان عليّ ﷺ يصلي إلى جناح رسول الله الأيمن،

وخديجة خلفه، فأمر أبو طالب ابنه جعفرًا أن يصلّي إلى جناح رسول الله الأيسر. وكان زيد بن حارثة عتيق رسول الله ^(١) قد أسلم عندما نُبئ رسول الله ﷺ، فكان يصلّي معهم أيضاً، وبهذا الجمع انعقدت نطفة الإسلام ^(٢).

وفي تفسير الإمام: كان رسول الله ﷺ يغدو كلَّ يوم إلى حراء، وينظر إلى آثار رحمة الله، متمتعاً في ملكوت السماوات والأرض، ويعبد الله حقَّ عبادته، حتّى استكمل سنُّ الأربعين، ووجد الله قلبه الكريم أفضل القلوب وأجلّها وأطوعها وأخشعها. فأذن لأبواب السماء ففتحت، وأذن للملائكة فنزلوا، ومحمّد ﷺ ينظر إلى ذلك، فنزلت عليه الرحمة من لدن ساق العرش، ونظر إلى الروح الأمين جبرائيل مطوّقاً بالنور، هبط إليه وأخذ بضيقه وهزّه. فقال: يا محمّد! اقرأ. قال: وما أقرأ؟ قال: يا محمّد! «اقرأ باسم ربِّك الذي خلق. خلَقَ الإنسانَ من عَلَقٍ. اقرأ وربُّك الأكرم. الذي عَلَّمَ بالقلم. عَلَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلم» ^(٣). ثم أوحى إليه ما أوحى وصعد جبرائيل إلى ربّه، ونزل محمّد ﷺ من الجبل وقد غشيه من عظمة الله وجلال أنبته ما ركبه الحمى النافضة ^(٤) وقد اشتدَّ عليه ما كان يخافه من تكذيب قريش ونسبته إلى الجنون، وقد كان أعقل خلق الله وأكرم بريته. وكان أبغض الأشياء إليه الشيطان وأفعال المجانين، فأراد الله أن يشجّع قلبه ويشرح صدره، فجعل كلما يمرُّ بحجرٍ وشجرٍ ناداه: السلام عليك يا رسول الله ^(٥).

(١) قيل: اشتراه رسول الله ﷺ لخديجة، فلما تزوجها وهبته له، فأعتقه رسول الله ﷺ وقيل: استوهبته خديجة من ابن أخيها حكيم بن حزام بن خويلد، عندما قدم مكة برقيق فيهم زيد وصف أي غلام لم يراقق، فقال لها: يا عمّة! اختاري أي هؤلاء الغلمان شئت، فاختارت زيدا، ثم وهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه رسول الله ﷺ.

(٢) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٤ و ١٩٤. (٣) الملق: ١ - ٥.

(٤) وهي الشديدة.

(٥) تفسير الإمام: ص ١٥٧ وهو منسوب إلى الإمام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري عليه السلام وقد طعن بعض المحققين في نسبه إلى الإمام عليه السلام لما فيه من منكر، لكن لو كان المقصود أنه من تأليف الإمام بقلمه وإنشائه الخاص فهذا شيء لا يمكن قوله باتّفاقاً. وأمّا إذا كانت النسبة بملاحظة أن الراوي كان يحضر مجلس الإمام ويسأله عن أشياء متعلّقة بتفسير

وفي شرح النهج: إنَّ بعض أصحاب أبي جعفر محمَّد بن عليّ الباقر عليه السلام سأله عن قول الله عزَّ وجلَّ: «إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا»^(١) فقال: يوكل الله تعالى بآبائنا ملائكة يحصون أعمالهم. ويؤدِّون إليه تبليغهم الرسالة. ويوكل بمحمَّد عليه السلام ملكاً عظيماً منذ فصل عن الرضاع يرشده إلى الخيرات ومكارم الأخلاق. ويصدّه عن الشرِّ ومساوئ الأخلاق، وهو الَّذي كان يناديه: السلام عليك يا محمَّد يا رسول الله! وهو شابٌّ لم يبلغ درجة الرسالة بعد، فيظنُّ أنَّ ذلك من الحجر والأرض، فيتأمل فلا يرى شيئاً^(٢).

قال اليعقوبي: كان جبرائيل يظهر له ويكلِّمه أو ربَّما ناداه من السماء ومن الشجر ومن الجبل. ثمَّ قال له: إنَّ ربك يأمرك أن تجتنب الرجس من الأوثان، فكان أوَّل أمره. فكان رسول الله يأتي خديجة ابنة خويلد ويقول لها ما سمع وتكلِّم به، فتقول له: استر يا ابن عمِّ! فوالله إنِّي لأرجو أن يصنع الله بك خيراً^(٣).



وكان عليه السلام يوم بعث قد استكمل الأربعين، لعشرين مضيئ من ملك كسرى ابرويز بن هرمز بن انوشروان^(٤).

قال اليعقوبي: كان مبعثه عليه السلام في شهر ربيع الأوَّل. وقيل: في رمضان. ومن شهور العجم: في شباط. قال: وأتاه جبرائيل ليلة السبت وليلة الأحد، ثمَّ ظهر له بالرسالة يوم الاثنين^(٥). قال ابن سعد: نزل الملك علي رسول الله عليه السلام بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من

→ أي القرآن. ثمَّ عندما يرجع إلى داره يسجِّله حسب ما حفظه ورواه. وربَّما يزيد عليه أشياء أو ينقص. وفق معلوماته العاشية أيضاً. فهذا شيء لا سبيل إلى إنكاره. ونحن نقول بذلك. ومن ثمَّ نعتمد على كثير ممَّا جاء في هذا التفسير، ممَّا يوافق سائر الآثار الصحيحة. وراجع أيضاً بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٠٦. وتفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٧٨.

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢٠٧. وراجع الخطبة القاصفة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام بهذا الشأن. وقد نقلنا فيما سبق شطراً منها، وهي الخطبة رقم: ٢٢٨ في شرح النهج لابن أبي الحديد.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧ طبعة النجف الثانية.

(٣) للجن: ٢٧.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٧-١٨.

(٥) الكامل لابن الأثير: ج ٢ ص ٣١.

شهر رمضان^(١).

قال أبو جعفر الطبري: وهذا - أي نزول الوحي عليه بالرسالة يوم الاثنين - مما لا خلاف فيه بين أهل العلم وإنما اختلفوا في أي الأثنين كان ذلك؟ فقال بعضهم: نزل القرآن على رسول الله ﷺ لثمانية عشرة خلت من شهر رمضان. وقال آخرون: لأربع وعشرين خلت منه. وقال آخرون: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان. واستشهدوا لذلك.

بقوله تعالى: «وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان»^(٢). وذلك ملتقى رسول الله ﷺ والمشركين ببدر، وكان صبيحة سبع عشرة من رمضان^(٣).

لكن لا دلالة في الآية على أن مبعثه كان مصادفاً لذلك اليوم؛ أولاً: لأن المقصود ما أنزل عليه ذلك اليوم من دلائل الحق وآيات النصر، لا القرآن كله ولا مبدأ نزوله.

وثانياً: سوف نذكر أن مبدأ نزول القرآن - بعنوان كونه كتاباً سماوياً - كان متأخراً عن يوم مبعثه بالرسالة، فقد بعث ﷺ رسولاً إلى الناس في ٢٧ رجب. وأنزل عليه القرآن في شهر رمضان ليلة القدر، وربما كان بعد فترة ثلاث سنين كما يأتي.

وثالثاً: معنى يوم الفرقان، اليوم الذي فرّق فيه بين الحقّ والباطل، وغلب الحقّ على الباطل فكان زهوقاً، وكان يوماً حاسماً في حياة المسلمين، وقد أيس الشيطان فيه أن يعبد أو يطاع إلى الأبد^(٤).

قال السعودي: أول ما نزل عليه ﷺ من القرآن: «اقرأ باسم ربك». وأتاه جبرائيل في ليلة السبت، ثم في ليلة الأحد. وخاطبه بالرسالة يوم الاثنين. وذلك بحراء، وهو أوّل موضع نزل فيه القرآن، وخاطبه بأوّل السورة إلى قوله: «علّم الإنسان ما لم يعلم» ونزل تمامها بعد ذلك. وكان ذلك بعد بنیان الكعبة بخمس سنين، على رأس عشرين سنة من ملك

(٢) الأنفال: ٤١.

(١) طبقات ابن سعد: ج ١ ص ١٢٩.

(٤) راجع تفسير شبرا: ص ١٩٥.

(٣) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٩٤.

كسرى ابرويز، وعلى رأس مائتي سنة من يوم التحالف بالريذة^(١).
وكانت سنة ستمائة وتسع من تاريخ ميلاد المسيح ﷺ^(٢).



والصحيح عندنا في تعيين يوم مبعثه ﷺ أنه اليوم السابع والعشرون من شهر رجب الأصب، على ما جاء في روايات أهل البيت عليهم السلام، ويستحب صيامه والقيام بأدب وعبادات تخصه، تلتزم بها الشيعة الإمامية كل عام تقدساً لهذا اليوم المبارك، الذي أنزلت الرحمة فيه على الناس جميعاً، وافتتحت أبواب البركة العائمة على أهل الأرض، إذ بعث النبي ﷺ رحمة للعالمين، فياله من يوم مبارك!

قال الإمام الصادق عليه السلام: في اليوم السابع والعشرين من رجب نزلت النبوة على رسول الله ﷺ^(٣).

وقال: لا تدع صيام يوم سبع وعشرين من رجب، فإنه اليوم الذي نزلت فيه النبوة على محمد ﷺ^(٤).

وقال الإمام الرضا عليه السلام: بعث الله عز وجل محمداً ﷺ رحمة للعالمين في سبع وعشرين من رجب، فمن صام ذلك اليوم كتب الله له صيام ستين شهراً^(٥).

والروايات بهذا الشأن من طرق أهل البيت عليهم السلام كثيرة^(٦).

وهكذا وردت روايات من طرق أهل السنة، بتعيين نفس اليوم.

أورد الحافظ الدمياطي في سيرته عن أبي هريرة، قال: من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً، وهو اليوم الذي نزل فيه جبرائيل على النبي ﷺ.

(١) مروج الذهب للمسعودي: ج ٢ ص ٢٨٢. (٢) تاريخ الصدق الإسلامي لجرجي زيدان: ج ١ ص ٤٣.

(٣) أمالي ابن الشيخ: ص ٢٨، بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٨٩.

(٤) الكافي: ج ٤ ص ١٤٩. (٥) المصدر.

(٦) راجع رسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي: كتاب الصوم باب ١٥ من أبواب الصوم المتدوب.

بالرسالة وأوّل يوم هبط فيه جبرائيل^(١).

وروى البيهقي في شعب الإيمان، عن سلمان الفارسي، قال: في رجب يوم وليلة، من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة كان كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، وهو لثلاث بقين من رجب، وفيه بعث الله محمداً ﷺ^(٢).

وروى صاحب المناقب عن ابن عباس، وأنس بن مالك، أنّهما قالوا: أوحى الله إلى محمداً ﷺ يوم الاثنين السابع والعشرين من رجب، وله من العمر أربعون سنة^(٣).



قال العلامة المجلسي^(٤): اختلفوا في اليوم الذي بعث فيه النبي محمداً ﷺ على خمسة أقوال:

الأوّل: سابع عشر شهر رمضان. الثاني: ثامن عشر شهر رمضان. الثالث: أربع وعشرون شهر رمضان. الرابع: ثاني عشر ربيع الأوّل. الخامس: سابع وعشرون شهر رجب. قال: وعلى الأخير اتفاق الإمامية^(٥).

أقول: وهناك قول سادس: ثامن ربيع الأوّل. وقول سابع: ثالث ربيع الأوّل. ذكرهما ابن برهان الحلبي في سيرته. ثم ذكر القول بأنّه الثاني عشر من ربيع الأوّل، يوم مولده الشريف، ليوافق القول بأنّه بعث على رأس تمام الأربعين^(٥).

وسنذكر أنّ أكثرية القائلين ببعثته ﷺ في شهر رمضان لعلّه قد اشتبه عليهم مبدأ حادث النبوة بمبدأ حادث نزول القرآن كتاباً فيه تبيان كل شيء. وهذا الاشتباه يبدو من استدلالهم على تعيين يوم البعثة بما دلّ على أنّ القرآن نزل في ليلة القدر من شهر رمضان. وستتحقّق أن لا صلة بين الحادثين. فقد بعث ﷺ في ٢٧ رجب، ولكنّ القرآن بسّمته كتاباً مفصلاً بدأ نزوله على النبي ﷺ في شهر رمضان ليلة القدر. بعد ثلاث سنين من نبوّته ﷺ، فكانت مدّة

(١) السيرة الحلبيّة: ج ١ ص ٢٢٨. (٢) منتخب كنز العمال (بهاشم المسند): ج ٣ ص ٣٦٢.

(٣) للمناقب لابن شهر آشوب: ج ١ ص ١٥٠. بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٠٤.

(٤) السيرة الحلبيّة: ج ١ ص ٢٢٨. (٥) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٩٠.

نبؤته ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة. ولكن فترة نزول القرآن مفترقاً استغرقت عشرين عاماً. بدأت بدخول السنة الرابعة من البعثة، وختمت في عاشر الهجرة بوفاته ﷺ.

بدء نزول القرآن

لا شك أن القرآن نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، لقوله تعالى: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن»^(١). وقوله: «إنا أنزلناه في ليلة مباركة»^(٢). وقوله: «إنا أنزلناه في ليلة القدر»^(٣).

وليلة القدر - عندنا - مردهً بين ليلتين في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك: إحدى وعشرين أم ثالثة وعشرين؟ والأرجح أنها الثانية، لحديث الجهني^(٤). وقال الصدوق^(٥): اتفق مشايخنا على أنها ليلة ثلاث وعشرين^(٥).

والكلام في تعيين ليلة القدر ليس من مبحثنا الآن، وإنما يهتمنا التعرّض لجوانب من هذا التحديد، أي نزول القرآن في ليلة واحدة - هي ليلة القدر - من شهر رمضان.

أولاً: منافاته - ظاهراً - مع ما أسلفناه من اتفاق الإمامية وعدد من أحاديث غيرهم، على أن البعثة كانت في رجب، ولا شك أن البعثة كانت مقرونة بنزول أي من القرآن، خمس آيات من أوّل سورة العلق. فكيف يتم ذلك مع القول بنزول القرآن - كله أو بدء نزوله - في شهر رمضان في ليلة القدر؟

ثانياً: ماذا يكون المقصود من نزول القرآن في ليلة واحدة هي ليلة القدر؟ هل نزل القرآن كله جملة واحدة تلك الليلة؟ مع العلم أن القرآن نزل نجوماً لفترة عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً، حسب المناسبات والظروف المختلفة، ودعيت باسم «أسباب النزول». فكيف ذلك؟

(١) البقرة: ١٨٥.

(٢) الدخان: ٣.

(٣) القدر: ١.

(٤) راجع وسائل الشريعة: باب ٣٢ من أبواب أحكام شهر رمضان حديث ١٦ ج ٧ ص ٢٦٢.

(٥) الخصال للشيخ الصدوق: ج ٢ ص ١٠٢.

نالتاً: ما هي أوّل آية أو سورة نزلت من القرآن؟ فإن كانت هي سورة العلق أو آي منها فلم سُمّيت سورة الحمد بفاتحة الكتاب؟ إذ ليس المعنى أنها كتبت في بدء المصحف! لأنّ هذا الترتيب شيء حصل بعد وفاة النبي ﷺ أو لا أقلّ في عهد متأخّر من حياته - فرضاً - في حين أنّها كانت تسمّى بفاتحة الكتاب منذ بداية نزولها: «لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب»^(١) حديث مأثور عن لسان النبي ﷺ.

وللإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة - بصورة إجمالية - نقول:

إنّ بدء البعثة يختلف عن بدء نزول القرآن ككتاب سماوي. لأنّه ﷺ نُسّي ولم يؤمر بالتبليغ العامّ إلا بعد ثلاث سنوات، كان خلالها يدعو في اختفاء حتّى نزلت آية «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين»^(٢) ومن هذا الحين جعل القرآن ينزل تبعاً، بسمه كونه كتاباً أنزل من السماء وكان يسجّل على العصب والخفاف، يكتبه من كان يعرف الكتابة من المؤمنين، وهم عدد قليل، خلال عشرين عاماً.

وقد كان بدء نزول القرآن - بعد تلك الفترة - في ليلة القدر من شهر رمضان، وبهذا الاعتبار صحّ التعبير بأنّ القرآن نزل في ليلة القدر، وإن كان نزوله تبعاً استغرق عشرين عاماً. إذ كلّ حدث خطير تكون له مدّة وامتداد، فإنّ تاريخه يسجّل حسب مبدأ شروعه، كما سنفصل الكلام عنه.

أما أوّل آية نزلت فهي الآيات الخمس من أوّل سورة العلق، ونزلت بقبّتها في فترة متأخّرة. غير أنّ أوّل سورة كاملة نزلت من القرآن هي سورة الحمد، ومن ثمّ سُمّيت بفاتحة الكتاب.

هذا إجمال الكلام حول هذه المواضع الثلاثة. وأمّا التفصيل فهو كما يلي:

(١) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٩، منتخب كنز العمال (بهاشم السندي): ج ٣ ص ١٨٠.

(٢) العجبر: ٩٤.

فترة ثلاث سنوات

ولنفرض أن البعثة كانت في رجب، حسب رواية أهل البيت عليهم السلام ولفيف من غيرهم، لكن القرآن - بسببه كونه كتاباً سماوياً ودرستوراً إلهياً خالداً - لم ينزل عليه إلا بعد فترة ثلاث سنين، كان النبي صلى الله عليه وآله خلالها يكتب أمره من ملائكة الناس، ويدعو إلى الله سرّاً، ومن ثم لم يكن المشركون يتعرّضون أذاه، سوى طعنات لسنية، حيث لا يرون من شأنه ما يخشى على دينهم.

وكان يصلي إذ ذاك مع رسول الله صلى الله عليه وآله أربعة: عليّ وجعفر وزيد وخديجة. وكلّما مرّ بهم ملأ من قريش سخرها منهم.

قال عليّ بن إبراهيم القمي: فلما أتى لذلك ثلاث سنين، أنزل الله عليه: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين. إنا كفيناك المستهزئين». قال: وكان ذلك بعد أن نبيء بثلاث سنين^(١).

وقال اليعقوبي: وأقام رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة ثلاث سنين، يكتب أمره^(٢).

قال الإمام الصادق عليه السلام: مكث رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة بعدما جاءه الوحي عن الله تبارك وتعالى ثلاث عشرة سنة، منها ثلاث سنين مختفياً خائفاً لا يظهر أمره، حتى أمره الله أن يصدع بما أمر به، فأظهر حينئذ الدعوة^(٣).

وهذه الروايات إذا لاحظناها مع روايات قائله إن فترة نزول القرآن على النبي صلى الله عليه وآله استغرقت عشرين عاماً تعطينا أن مبدأ نزول القرآن كان متأخراً عن البعثة بثلاث سنوات، إذ لا شك أن القرآن كان ينزل عليه صلى الله عليه وآله حتى عام وفاته. وبذلك يلتزم القول بأن بدء نزول القرآن كان في شهر رمضان، ليلة القدر، كما نصّ عليه القرآن الكريم.

قال الإمام الصادق عليه السلام: ثم نزل القرآن في طول عشرين عاماً - كما جاء في رواية

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٩.

(١) الحجر: ٩٤ و ٩٥.

(٣) الفية للشيخ الطوسي: ص ٢١٧. كمال الدين للشيخ الصدوق: ص ١٩٧. بحار الأنوار: ج ١٨ ص ١٧٧.

الكليني^(١) والعياشي^(٢) وأشار إليه الصدوق^(٣) والمجلسي^(٤). والنص على تحديد فترة نزول القرآن بعشرين عاماً كثر^(٥).

وإلى هذا المعنى تشير الرواية عن سعيد بن المسيّب، قال: أنزل على النبي ﷺ وهو ابن ثلاث وأربعين^(٦) أي أنزل عليه القرآن عند ذلك. إذ لا شك أنّ النبوة نزلت عليه ﷺ عند اكتمال الأربعين، وهذا إجماع الأمة، وعليه اتفاق كلمتهم. فكيف يخفى على مثل سعيد؟! وأوضح من ذلك ما رواه الإمام أحمد بسند متصل إلى عامر الشعبي: أنّ رسول الله ﷺ نزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين سنة، فقرن بنبوته إسرائيل ثلاث سنين، فكان يعلمه الكلمة والشيء، ولم ينزل القرآن. فلما مضت ثلاث سنين، قرن بنبوته جبرائيل. فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة، عشراً بمكة وعشراً بالمدينة، فمات ﷺ وهو ابن ثلاث وستين سنة. قال ابن كثير: وهو إسناد صحيح إلى الشعبي^(٧).

وهذه الرواية وإن كانت فيها أشياء لا نعرفها - ولعلها من اجتهاد الشعبي الخاص - لكنّ الذي نريده من هذه الرواية هو جانب تحديد نزول القرآن في مدة عشرين عاماً، وأنّ نزوله تأخر عن البعثة بثلاث سنين، وهذا شيء متفق عليه.

آراء وتأويلات

وأما تأويل نزول القرآن في ليلة القدر من شهر رمضان - مع العلم أنّ القرآن نزل منجماً طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً في فترات ومناسبات خاصة تدعى بأسباب النزول - فللعلماء في ذلك آراء وتأويلات:

(١) الكافي: ج ٢ ص ٦٢٩. (٢) تفسير العياشي: ج ١ ص ٨٠.

(٣) الاعتقادات: ص ١٠١. (٤) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٥٠ و ٢٥٣.

(٥) راجع الإتيان: ج ١ ص ٤٠. وتفسير سمر: ص ٣٥٠ عند تفسير آية ٣٢ من سورة الفرقان.

(٦) مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٦١٠.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٣ ص ٤. الإتيان: ج ١ ص ٤٥. اللطائف: ج ١ ص ١٢٧.

١- إنَّ بدء نزوله كان في ليلة القدر من شهر رمضان.

وهذا اختيار محمد بن إسحاق^(١) والشعبي^(٢). قال الإمام الرازي: وذلك لأنَّ مبادئ الملل والدول هي التي تؤرَّخ بها، لكونها أشرف الأوقات. ولأنَّها أيضاً أوقات مضبوطة معلومة^(٣). وهكذا فسَّر الزمخشري الآية بذلك، قال: ابتدئ فيه إنزاله^(٤).

وهو الذي نرتأيه، نظراً لأنَّ كلَّ حادث خطير، إذا كانت له مدَّة وامتداد زمني فإنَّ بدء شروعه هو الذي يسجَّل تاريخياً، كما إذا سئل عن تاريخ دولة أو مؤسسة أو تشكيل حزبي، أو إذا سئل عن تاريخ دراسة طالب علم أو تلبَّسه الخاص وأمثال ذلك، فإنَّ الجواب هو تعيين مبدأ الشروع أو التأسيس لا غير.

وأيضاً: فإنَّ قوله تعالى: «أنزل فيه القرآن» والآيات الأخر، حكاية عن أمر سابق لا يشمل نفس هذا الكلام الحاكمي، وإلا لكان اللفظ بصيغة المضارع أو الوصف. فنفس هذا الكلام دليل على أنَّ من القرآن ما نزل متأخراً عن ليلة القدر، اللهمَّ إلا يضرب من التأويل غير المستند، على ما سيأتي.

كما أنَّ اختلاف مناسبات الآيات - حسب الظروف والدواعي - أكبر دليل على اختلاف مواقع نزولها، إذ يربط ذلك كلَّ آية بحادثة في قيد وقتها، وهذا في كلَّ آية نزلت بشأن حدث أو واقعة وقعت في وقتها الخاص. وجاءت آية تعالجها في نفس الوقت. كلَّ ذلك دليل على أنَّ القرآن لم ينزل جملة واحدة، وإلا لما كان موقع لقوله المشركين: «لولا نَزَّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جَمَلَةً وَاحِدَةً» قال تعالى -رداً على هذا الاعتراض-: «كَذَلِكَ لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً»^(٥) أي كان نزول القرآن تياً وفي فترات مناسبة أدم لاطمئنان قلبك، حيث الشعور بعناية الله المتواصلة في كلَّ آوثة ومناسبة^(٦).

وذهب إلى هذا الرأي - أيضاً - ابن شهر آشوب في المناقب. قال: «شهر رمضان الذي

(٢) الإنعان: ج ١ ص ٤٠.

(١) مجمع البيان ج ٢ ص ٢٧٦.

(٤) الكشاف: ج ١ ص ٢٢٧.

(٣) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٥.

(٦) راجع الإنعان: ج ١ ص ٤١.

(٥) الفرقان: ٣٢.

أُنزل فيه القرآن» أي ابتداء نزوله^(١).

وقال في متشابهات القرآن: والصحيح أنَّ القرآن في هذا الموضع لا يفيد العموم، وإنما يفيد الجنس، فأَيُّ شيء نزل فيه فقد طابق الظاهر^(٢).

٢- كان ينزل على النبي ﷺ في كلِّ ليلة قدر من كلِّ عام ما كان يحتاج إليه الناس في تلك السنة من القرآن، ثمَّ ينزله جبرائيل حسب مواقع الحاجة شيئاً فشيئاً بما يأمره الله تعالى. فيكون المقصود من شهر رمضان هو النوع، لا رمضان خاصٌّ - وهو احتمال الإمام الرازي أيضاً -^(٣).

وهذا اختيار ابن جريج^(٤) والسدي، وأسنده الأخير إلى ابن عباس أيضاً^(٥). ونقله القرطبي عن مقاتل بن حيان. ووافقه الحلبي والماوردي وغيرهما^(٦).

غير أنَّ هذا الاختيار يخالفه ظاهر قوله تعالى: «أُنزل فيه» أو «أُنزلناه» حكاية عن حدث سابق، فلو صحَّ هذا القول لكان المناسب أن يقول: «نزله» صفة للحال!

وأيضاً يرده ما استبعدناه على الرأي الخامس الآتي: ما هي الفائدة المتوخَّاة من نزول قرآن قبل الحاجة إليه، ولا سيَّما في صيغة جملة الماضي أو الحال، المستدعية كونها نزلت لمناسبة وقتية. لا موقع لنزولها قبل ذلك، حسب التعبير اللفظي؟!

٣- شهر رمضان الذي نزل في شأنه القرآن، أي في فرض صيامه، كما يقال: نزل في فلان، أو في مناسبة كذا قرآن. والمراد من القرآن آية أو آيات منه^(٧).

قال الضحاك: «شهر رمضان الذي أُنزل فيه القرآن» أي الذي أُنزل صومه في

(١) مناقب آل أبي طالب: ج ١ ص ١٥٠.

(٢) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٥.

(٣) مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٧٦.

(٤) الإنفاق: ج ١ ص ٤٠.

(٥) مجمع البيان: ج ١ ص ٢٧٦، الكشاف: ج ١ ص ٢٢٧.

(٦) متشابهات القرآن: ج ١ ص ٨٣.

(٧) الدرر المنتورة: ج ١ ص ١٨٩.

القرآن^(١).

قال سفيان بن عيينة: معناه: أنزل في فضله القرآن. واختاره الحسين بن الفضل وابن الأنياري^(٢).

لكن هذا الوجه يخص آية البقرة، ولا يجري في آيتي الدخان والقدر، كما لا يخفى. فضلاً عن أنه تأويل في اللفظ لا مبرر له ولا مستند.

٤- إنَّ معظمه نزل في شهر رمضان، ومن ثمَّ صحَّت نسبة الجميع إليه.

وهذا احتمال ثانٍ احتملها سيّد قطب، قال: الشَّهر الَّذي أنزل فيه القرآن إمَّا بمعنى أنَّ بدء نزوله كان في رمضان، أو أنَّ معظمه نزل في أشهر رمضان^(٣).
لكن لا دليل على أنَّ معظم آيات القرآن نزلت في أشهر رمضان وفي ليلة القدر بالخصوص. ولعلَّ الواقعية تأبى هذا الاحتمال رأساً.

٥- القرآن نزل جملةً واحدةً في ليلةٍ واحدةٍ هي ليلة القدر، إلى بيت العزّة أو البيت المعمور، ثمَّ نزل على رسول الله ﷺ في فترات ومناسبات، طول عشرين أو ثلاثة وعشرين عاماً.

ذهب إلى هذا القول جماعة من أرباب الحديث، نظراً لظاهر أحاديث رويت في ذلك: قال الشيخ الصدوق عليه الرحمة: نزل القرآن في شهر رمضان في ليلة القدر، جملةً واحدةً إلى البيت المعمور في السماء الرابعة، ثمَّ نزل من البيت المعمور في مدّة عشرين سنة. وإنَّ الله أعطى نبيّه العلم جملةً واحدةً ثمَّ قال له: «ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحْيُه»^(٤).

قال العلامة المجلسي - تعقيباً على هذه الكلام -: قد دلَّت الآيات على نزول القرآن في

(٢) التفسير الكبير: ج ٥ ص ٨٠.

(١) الدرر السننور: ج ١ ص ١٩٠.

(٤) الاعتقادات: ص ١٠١ والآية ١١٤ من سورة طه.

(٣) في خلال القرآن لسيد قطب: ج ٢ ص ٧٩.

ليلة القدر والظاهر نزوله جميعاً فيها. ودلت الآثار والأخبار على نزول القرآن في عشرين^(١) أو ثلاث وعشرين سنة^(٢). وورد في بعض الروايات أن القرآن نزل في أول ليلة من شهر رمضان^(٣). ودل بعضها على أن ابتداء نزوله في المبعث^(٤). فيجمع بينها بأن في ليلة القدر نزل القرآن جملةً من اللوح المحفوظ إلى السماء الرابعة (البيت المعمور) لينزل من السماء الرابعة إلى الأرض تدريجياً. ونزل في أول ليلة من شهر رمضان جملة القرآن على النبي ﷺ ليعلمه هو ولا يتلوه على الناس ثم ابتدأ نزوله آية آية وسورة سورة في المبعث أو غيره ليتلوه على الناس^(٥).

وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس، قال: أنزل القرآن ليلة القدر جملةً واحدةً إلى السماء الدنيا، ووضع في بيت العزة، ثم أنزل نجومًا على النبي ﷺ في عشرين سنة. قال جلال الدين: وهذا هو أصح الأقوال وأشهرها. وروى في ذلك روايات كثيرة، حكم على أكثرها بالصحة، رواها عن الحاكم والطبراني والبيهقي والنسائي وغيرهم^(٦). وروى الطبري بسنده عن وائلة بن الأسقع عن النبي ﷺ قال: أنزلت صحف إبراهيم أول ليلة من شهر رمضان، وأنزلت التوراة لست مضمين من رمضان. وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة خلت منه، وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان^(٧).

ومن طرقنا روى العياشي عن إبراهيم، أنه سأل الإمام الصادق ﷺ عن قوله تعالى: «شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن»^(٨) كيف أنزل فيه القرآن. وإنما أنزل القرآن في طول عشرين سنة. من أوله إلى آخره؟! فقال الإمام ﷺ: نزل القرآن جملةً واحدةً في شهر رمضان إلى

(١) الكافي: كتاب فضل القرآن ج ٢ ص ٦٢٩.

(٢) هي مدة نبوته ﷺ بناءً على ابتداء نزول القرآن بيوم مبعثه واختتامه بوفاته ﷺ.

(٣) الكافي: كتاب الصيام. باب فضل شهر رمضان ج ٤ ص ٦٦.

(٤) وهي روايات دلت على أن أول سورة نزلت هي سورة العلق. نزلت في بدء البعثة في يوم ٢٧ رجب. راجع بحار الأنوار: ج

(٥) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٦) ج ١٨ ص ٢٠٦.

(٧) تفسير الطبري: ج ٢ ص ٨٤.

(٨) الإغان: ج ١ ص ٣٩ - ٤٠.

البيت المعمور ، ثم أنزل من البيت المعمور في طول عشرين سنة . ثم قال : قال النبي ﷺ :
 نزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من شهر رمضان . وأنزلت التوراة لست مضي من شهر
 رمضان . وأنزل الإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر رمضان . وأنزل الزبور لثمانية
 عشرة من رمضان . وأنزل القرآن لأربع وعشرين من رمضان^(١) .

وجاء الحديث في الكافي ، إلا أن في آخره : « وأنزل القرآن في ثلاث وعشرين من شهر
 رمضان » ، والرواية عن الحفص بن غياث^(٢) .

وفي التهذيب جاء قسم من الحديث برواية أبي بصير ، وفي آخره : « وأنزل الفرقان في
 ليلة القدر »^(٣) .

هذه جملة من روايات مأثورة ، تفسر نزول القرآن جملة واحدة في ليلة واحدة ، إما إلى
 البيت المعمور في السماء الرابعة ، كما في روايات الخاصة ، أو إلى بيت العزة في السماء
 الدنيا ، كما في بعض روايات العامة ، ثم منها نزل آياته مفرقة على رسول الله ﷺ حسب
 الظروف والمناسبات رسلاً رسلاً .

وقد أخذ الظاهريون من أصحاب الحديث بظاهر هذه الروايات ، مستريحين بأنفسهم
 إلى مدلولها الظاهري تبعداً محضاً .

أما المحققون من العلماء فلم يرفههم الأخذ بما لا يمكن تعقله ، ولا مقتضى للتعبد بما لا
 يرجع إلى أصول العباديات ، ومن ثم أخذوا ينتقدون هذه الأحاديث نقداً علمياً ، متسانلين :
 ما هي الفائدة الملحوظة من وراء نزول القرآن جملة واحدة في إحدى السماوات العلى ، ثم
 ينزل تدريجياً على رسول الله ﷺ ؟!



وإجابة على هذا السؤال ، قال الفخر الرازي : ويحتمل أن يكون ذلك تسهلاً على
 جبرائيل أو لمصلحة النبي ﷺ في توقع الوحي من أقرب الجهات^(٤) .

(١) الكافي : ج ٢ ص ٦٢٩ .

(١) تفسير الميثاق : ج ١ ص ٨٠ .

(٤) تفسير الرازي : ج ٥ ص ٨٥ .

(٢) تهذيب الأحكام : ج ٤ ص ١٩٤ .

وهذا الجواب غاية في الوهن والسقوط، مضافاً إلى أنه تخرّص بالغيب، ونستغرب صدور مثل هذا الكلام الفارغ من مثل هذا الرجل المظلم بالتحقيق!!
وقال المولى الفيض الكاشاني: وكأنه أريد بذلك نزول معناه على قلب النبي ﷺ كما قال تعالى: «نزل به الروح الأمين. على قلبك»^(١). ثم نزل طول عشرين سنة نجومياً من باطن قلبه إلى ظاهر لسانه كلما أتاه جبرائيل ﷺ بالوحي وقرأه عليه بألفاظه^(٢).
فقد أوّل ﷺ البيت المعمور إلى قلب رسول الله ﷺ. وربما أراد الصدوق ﷺ أيضاً هذا المعنى من قوله: وأعطى نبيّه العلم جملةً واحدةً.

وهكذا وقع اختيار الشيخ أبي عبد الله الزنجاني في تأويل هذه الرواية، قال: ويمكن أن نقول بأن روح القرآن - وهي أغراضه الكلية التي يرمي إليها - تجلّت لقلبه الشريف في تلك الليلة «نزل به الروح الأمين. على قلبك» ثم ظهرت بلسانه الأطهر مفرقة في طول سنين «وقرآناً قرّناه على الناس على مكثٍ ونزلناه تنزيلاً»^{(٣) ... (٤)}.

وقد أخذ العلامة الطباطبائي ﷺ هذا التأويل وزاد عليه تحقيقاً، قال: إن الكتاب ذو حقيقة أخرى وراء ما نفهمه بالفهم العادي، وهي حقيقة ذات وحدة متماسكة لا تقبل تفصيلاً ولا تجزئة، لرجوعها إلى معنى واحدٍ لا أجزاء فيه ولا فصول. وإنما هذا التفصيل المشاهد في الكتاب طراً عليه بعد ذلك الإحكام، قال تعالى: «كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير»^(٥). وقال تعالى: «إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون. لا يسسه إلا المطهرون»^(٦). وقال: «ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم»^(٧) إذا فالمراد بإنزال القرآن في ليلة القدر، إنزال حقيقة الكتاب المتوحّدة إلى قلب رسول الله ﷺ دفعةً، كما أنزل القرآن

(١) الشعراء: ١٩٣ و ١٩٤.

(٢) تفسير الصافي للفيض الكاشاني: ج ١ ص ٤٢ المقدمة التاسعة.

(٤) تاريخ القرآن: ص ١٠.

(٣) الإسراء: ١٠٦.

(٦) الواقعة: ٧٧-٧٩.

(٥) هود: ١.

(٧) الأعراف: ٥٢.

المفصل في فواصل وظروف على قلبه ﷺ أيضاً تدرجياً في مدة الدعوة النبوية^(١).
 أقول: سامح الله التأويل. ما أسهله طريقاً إلى التخلّص عن مآزق البحوث النظرية.
 ونحن إذ لا نرى مبرراً لهذا نأويلات غير مستندة إلى دليل، نتساءل هؤلاء الأعلام: بِمِ
 أوَلْتُم البيت المعمور الَّذِي هو في السماء الرابعة (حسب روايات الخاصّة) أو بيت العزّة
 (حسب روايات العامّة) إلى قلب رسول الله ﷺ؟! ولم هذا التعبير جاء في هذا اللفظ؟!
 وسوف تناقش السيّد العلامة في اختيار وجود آخر للقرآن بسيط، وراء هذا الوجود
 المفصل، أخذه عن أحمد بن عبد الحلّيم وحقّقه تحقّقاً دقيقاً، ولكننا رفضناه رأساً،
 وسيأتي ذلك في فصل قادم إن شاء الله.

تحقيق مفيد

قال المحقّق العلامة الشيخ أبو عبدالله المفيد: الَّذِي ذهب إليه أبو جعفر ﷺ في هذا
 الباب. أصله حديث واحد - أي ليس من المتواتر المقطوع به - لا يوجب علماً ولا عملاً.
 ونزول القرآن على الأسباب الحادثة حالاً فحالاً يدلّ على خلاف ما تضمّنه هذا الحديث.
 وذلك أن القرآن قد تضمّن حكم ما حدث وذكر ما جرى على وجهه، وذلك لا يكون على
 الحقيقة إلا لوقت حدوثه عند السبب.

مثلاً قوله تعالى: «قد سمع الله قولَ التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله
 يسمع تحاوركما»^(٢)، نزلت هذه الآية بشأن خولة بنت خويلد جاءت تشتكي زوجها أوس
 بن الصامت الَّذِي كان قد ظاهرها، وكان ذلك طلاقاً في الجاهلية^(٣).

وقوله تعالى: «وإذا رأوا تجارةً أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً»^(٤).

(١) تفسير الميزان: ج ٢ ص ١٥، ١٦.

(٢) نقلنا كلامه سابقاً. وكلام المفيد هنا ردّ عليه وعلى كلّ من ذهب مذهبه من اختيار ظاهر تلكم الأحاديث.

(٣) المجادلة: ١. (٤) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٤٦.

وقوله: «رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فينبههم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً»^(١).

وكثير في القرآن لفظة «قالوا» و«قال» و«جاؤوا» و«جاء» - بلفظ الماضي - كما أن فيه ناسخاً ومنسوخاً... كل ذلك لا يتناسب ونزوله جملةً واحدةً في وقتٍ لم يحدث شيء من ذلك.

قال ﷺ: ولو تتبعنا قصص القرآن لجاهاً لجاهاً ما ذكرناه كثيراً لا يتسع به المقال. وما أشبهه ما جاء به هذا الحديث بمذهب المشبهة الذين زعموا أن الله سبحانه لم يزل منكلماً بالقرآن - أي القول بقدم القرآن - ومخبراً عما سيكون بلفظ كان، وقد رد عليهم أهل التوحيد بنحو ما ذكرناه.

قال: وقد يجوز في الخبر الوارد بنزول القرآن جملةً في ليلة القدر أنه نزلت جملةً منه ليلة القدر، ثم تلاه ما نزل منه إلى وفاة النبي ﷺ، فأما أن يكون نزل بأسره وجميعه في ليلة القدر فهو بعيد عما يقتضيه ظاهر القرآن، والمتواتر من الأخبار، وإجماع العلماء على اختلافهم في الآراء...^(٢). أضف إلى ذلك ما ذكرناه في اختيار الوجه الأول...

أول ما نزل

اختلف الباحثون في شؤون القرآن، في أن أي آياته أو سوره نزلت قبل؟ والأقوال في ذلك ثلاثة:

١ - سورة العلق، لأن نبوته ﷺ بدأت بنزول ثلاث أو خمس آيات من أول سورة العلق. وذلك حينما فجأه الحق وهو في غار حراء، فقال له الملك: اقرأ، فقال: ما أنا بقارئ. فغطه غطاً ثم قال له: «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم»^(٣). الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم»^(٤).

(٢) شرح عقائد الصدوق (تصحیح الاعتقاد): ص ٥٨.

(١) الأحراب: ٢٣.

(٤) صحيح مسلم: ج ١ ص ٩٧.

(٣) صحيح البخاري: ج ١ ص ٣.

وفي تفسير الإمام: هبط إليه جبرائيل وأخذ بضميه وهزّه، فقال: يا محمّداً اقرأ، قال: وما أقرأ؟ يا محمّداً! «اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علّم بالقلم. علّم الإنسان ما لم يعلم»^(١).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «أول ما نزل على رسول الله ﷺ «بسم الله الرحمن الرحيم. اقرأ باسم ربك». وآخر ما نزل عليه: «إذا جاء نصر الله»^(٢).

٢- سورة المدثر، لما روي عن ابن سلمة، قال: سألت جابر بن عبد الله الأنصاري: أي القرآن أنزل قبل؟ قال: «يا أيها المدثر». قلت: أو «اقرأ باسم ربك»؟ قال: أحدثكم ما حدثنا به رسول الله، قال ﷺ: إنني جاورت بحراء، فلما قضيت جواربي نزلت فاستبطنت الوادي، فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وشمالي - ولعلّه سمع هاتفاً - ثم نظرت إلى السماء فإذا هو - يعني جبرائيل - فأخذتني رجفة، فأتيت خديجة، فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله: «يا أيها المدثر. قم فأنذر»^(٣).

هذا، ولعلّ جابراً اجتهد من نفسه أنّها أول سورة نزلت، إذ ليس في كلام رسول الله ﷺ دلالة على ذلك، والأرجح أن ما ذكره جابر كان بعد فترة انقطاع الوحي، فظنّه جابر بدء الوحي^(٤). وإليك حديث فترة انقطاع الوحي برواية جابر أيضاً:

قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي، قال: بينما أنا أمشي إذ سمعت هاتفاً من السماء، فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فجئنت منه فرقاً - أي فزعته - فرجعت، فقلت: زملوني زملوني فدثروني، فأنزل الله تبارك وتعالى: «يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. وثيابك فطهر».

(١) تفسير الإمام: ص ١٥٧، وراجع أيضاً بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٢٠٦. وتفسير البرهان: ج ٢ ص ٤٧٨، والآيات ١-٥ من سورة العلق.

(٢) الكافي: ج ٢ ص ٦٢٨، عيون أخبار الرضا: ج ٢ ص ٦، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٩، البرهان: ج ١ ص ٢٩.

(٣) صحيح مسلم: ج ١ ص ٩٩. (٤) راجع البرهان ليدر للدين الزركشي: ج ١ ص ٢٠٦.

والرُّجُزُ فَاهْجُرُ» وهي الأوتان . قال عليه السلام : ثُمَّ تَتَابَعُ الْوَحْيُ ^(١)

٣- سورة الفاتحة ، قال الزمخشري : أكثر المفسرين على أن الفاتحة أول ما نزل ^(٢) .

وروى العلامة الطبرسي عن الأستاذ أحمد الزاهد في كتابه «الإيضاح» بإسناده عن سعيد بن المسيب . عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال : سألت النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ثواب القرآن . فأخبرني بثواب سورة سورة على نحو ما نزلت من السماء ، فأول ما نزل عليه بمكة : فاتحة الكتاب . ثم : «اقرأ باسم ربك» . ثم : «ن وَالْقَلَمِ...» ^(٣) .

وروى الواحدي في أسباب النزول بسنده عن أبي مسيرة عمرو بن شرحبيل . قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا خَلَى وحده سمع نداء فيفزع له . وللمرأة الأخيرة ناداه الملك : يا محمداً ! قال : لبيك . قال : قل : «بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين...» حتى يبلغ : «ولا الضالين» ^(٤) .

قلت : لا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلي منذ بعثته ، وكان يصلي معه علي وجعفر وزيد بن حارثة وخديجة ^(٥) ولا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب ^(٦) فقد ورد في الأثر : «أول ما بدأ به جبرائيل أن علمه الوضوء والصلاة» ^(٧) فلا بد أن سورة الفاتحة كانت مقرونة بالبعثة . قال جلال الدين السيوطي : لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير فاتحة الكتاب ^(٨) .



وبعد ، فلا نرى تنافياً جوهرياً بين الأقوال الثلاثة . نظراً لأن الآيات الثلاث أو الخمس من أول سورة العلق إنما نزلت تبشيراً بنبوته صلى الله عليه وآله وسلم ، وهذا إجماع أهل الملة . ثم بعد فترة جاءته

(١) صحيح مسلم : ج ١ ص ٩٨ . صحيح البخاري : ج ١ ص ٤ وفيه «فعمى الوحي وتتابع» .

(٢) الكشاف : ج ٤ ص ٧٧٥ . وناقشه ابن حجر مناقشة سطحية لا مجال لها بعد توضيحنا الآتي في وجه الجمع بين الأقوال

الثلاثة . راجع فتح الباري : ج ٨ ص ٥٤٨ . (٣) مجمع البيان : ج ١ ص ٥ - ٤ .

(٤) أسباب النزول للواحدي : ص ١١ . (٥) راجع تفسير القفطي : ص ٢٥٣ .

(٦) مستدرک الحاكم : ج ١ ص ٢٢٨ و ٢٢٩ . صحيح مسلم : ج ٢ ص ٩ .

(٧) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ٢٦٠ و ٢٦١ ، بحار الأنوار : ج ١٨ ص ١٨٤ و ١٩٤ .

(٨) الإنفان : ج ١ ص ١٢ من الطبعة الأولى . ومن الثانية : ص ٣٠ .

آيات أيضاً من أول سورة المدثر، كما جاء في حديث جابر ثانياً. أما سورة الفاتحة فهي أول سورة نزلت بصورة كاملة، وبسعة كونها سورة من القرآن كتاباً سعادياً للمسلمين، فهي أول قرآن نزل عليه ﷺ بهذا العنوان الخاص، وأما آيات غيرها سبقها نزولاً فهي إنما نزلت لغايات أخرى، وإن سجلت بعدن قرآناً ضمن آياته وسوره.

ومن هنا صحَّ التعبير عن سورة الحمد بسورة الفاتحة، أي أول سورة كاملة نزلت بهذه السمة الخاصة. وهذا الاهتمام البالغ بشأنها في بدء الرسالة، واختصاص فرضها في الصلوات جميعاً، جعلها - في الفضيلة - عدلاً للقرآن العظيم: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»^(١) فقد امتنَّ الله على رسوله بهذا النزول الخاص تجاه سائر القرآن. نعم، لو اعتبرنا السور باعتبار مفتحتها فسورة الحمد تقع الخامسة. كما جاء في رواية جابر بن زيد^(٢) الآتية.

آخر ما نزل

جاء في رواياتنا أن آخر ما نزل هي سورة النصر. روي أنها لما نزلت وقرأها ﷺ على أصحابه فرحوا واستبشروا، سوى العباس بن عبد المطلب فإنه بكى. قال ﷺ: ما يبكيك يا عم! قال: أظنُّ أنه قد نعت إليك نفسك يا رسول الله، فقال: إنه لكما نقول. فعاش ﷺ بعدها سنين^(٣).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «وآخر سورة نزلت: «إذا جاء نصر الله والفتح»^(٤) وأخرج مسلم عن ابن عباس، قال آخر سورة نزلت: «إذا جاء نصر الله والفتح»^(٥). وروي أن آخر سورة نزلت: براءة. نزلت في السنة التاسعة بعد عام الفتح عند مرجعه ﷺ من غزوة تبوك، نزلت آيات من أولها، فبعث بها النبي مع علي عليه السلام ليقرأها على ملا من

(١) الإتيان: ج ١ ص ٢٥.

(٢) الحجر: ٨٧.

(٣) تفسير البرهان للبحراني: ج ١ ص ٢٩.

(٤) مجمع البيان للطبرسي: ج ١٠ ص ٥٥٤.

(٥) الإتيان: ج ١ ص ٢٧.

وروي أن آخر آية نزلت: «وأتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون»^(١). نزل بها جبرائيل، وقال: ضمها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة. وعاش الرسول ﷺ بعدها أحدًا وعشرين يوماً، وقيل سبعة أيام^(٢).

قال ابن واضح البقوي: وقد قيل: إن آخر ما نزل عليه ﷺ «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً»^(٣) قال: وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة. وكان نزولها يوم النصف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بغدير خم^(٤).

أقول: لاشك أن سورة النصر نزلت قبل براءة، لأنها كانت بشارة بالفتح، أو بمكة عام الفتح^(٥) وبراءة نزلت بعد الفتح بسنة. فطريق الجمع بين هذه الروايات: أن آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر، فقال ﷺ: «أما إن نفسي نعيم إلي»^(٦). وآخر سورة نزلت باعتبار مفتحتها هي سورة براءة. وأما آية «وأتقوا يوماً تُرجعون فيه إلى الله» فإن صح أنها نزلت بمضى يوم النحر في حجة الوداع كما جاء في رواية الماوردي^(٧). فأخر آية نزلت هي آية الإكمال، كما ذكرها البقوي، لأنها نزلت في مرجعه ﷺ من حجة الوداع ثامن عشر ذي الحجة. وإلا فلو صح أن النبي ﷺ عاش بعد آية «وأتقوا...» أحدًا وعشرين يوماً أو سبعة أو تسعة أيام فهذه هي آخر آية نزلت عليه ﷺ.

والأرجح عندنا هو ما ذهب إليه البقوي، نظراً لأنها آية الإعلام بكمال الدين. فكانت إنذاراً بانتهاء الوحي عليه ﷺ بالبلاغ والأداء. فلعل تلك الآية كانت آخر آيات الأحكام، وهذه آخر آيات الوحي إطلافاً.

وهناك أقوال وآراء أخر لا قيمة لها، إنها غير مستندة إلى نص معصوم. قال القاضي أبو بكر - في الانتصار -: وهذه الأقوال ليس في شيء منها ما رفع إلى النبي ﷺ، ويجوز أن

(١) البقرة: ٢٨٦. (٢) تفسير شتر: ص ٨٣.

(٣) السائدة: ٣. (٤) تاريخ البقوي: ج ٢ ص ٣٥.

(٥) أسباب النزول بهاسن الجلالين: ج ٢ ص ١٤٥. (٦) مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٩٤.

(٧) البرهان للزركشي: ج ١ ص ١٨٧.

يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وتغليب الظن، وليس العلم بذلك من فرائض الدين حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضغط. ويحتمل أن كلاً منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله ﷺ، وغيره سمع منه بعد ذلك. ويحتمل - أيضاً - أن تنزل الآية التي هي آخر آية تلاها الرسول ﷺ مع آيات نزلت معها، فيؤمر برسم ما نزل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرها وتلاوته، فيظنّ سامع ذلك أنه آخر ما نزل في الترتيب^(١).

المكّي والمدني

لمعرفة المكّي من المدني - سواء أكانت سورة أم آية - فائدة كبيرة تمسّ جوانب أسباب النزول. وتمدّد المفسّر والفقهاء في تعيين اتجاه الآية، وفي مجال معرفة النسخ من المنسوخ، والخاص من العام، والتحديد من الإطلاق، وما أشبه. ومن ثمّ حاول العلماء جهدهم في تعيين المكيات من المدنيات، ووقع إجماعهم على قسم كبير، واختلفوا في البقية. كما استنتجوا آيات مدنية في سور مكية أو بالعكس، ولذلك تفصيلاً ذكرناه في تفصيل التمهيد. واليك بعض فوائد معرفة المكّي عن المدني.

فوائد معرفة المكّي عن المدني

لمعرفة السور المكية عن المدنية فوائد جمّة نشير إلى بعضها:

أولاً: الجهة التاريخية لنزول الآيات، ووجه الخطاب فيها، والبيئة التي أحاطت نزولها في كلّ حين، هي غاية تاريخية يبتغيها رواد العلم والمعرفة في جميع القضايا التاريخية، ولا سيّما المهمة منها، ومن أهمّها قضية نزول السور وآيات القرآن. وترتّب على معرفة تاريخ الحوادث زمنياً فوائد متصاعدة يعرفها أهل العلم بالتاريخ.

ثانياً: تأثيره في فهم محتوى الآيات، ولا سيّما في مجالات الفقه والاستنباط. فربما كان ظاهر الآية في شيء، وبترتّب عليه حكم شرعي، لولا إرادة خلاف هذا الظاهر البدائي بعد التعمّق في محتوى الآية، ولا سيّما تاريخ نزولها.

مثلاً كانت مسألة تكليف الكفار بالفروع . مما أثار البحث والجدل العريض بين الفقهاء ، فمن مثبتٍ وآخر نافي . والمثبت ربما استدلّ بظاهر قوله تعالى : «وويلٌ للمشركين . الذين لا يُؤتونَ الزكاةَ وهم بالأخرةِ هم كافرون»^(١) فإنها عتاب للمشرك حيث لا يؤدي زكاة ماله ، ولا عتاب إلا بعد تكليف .

لكن الشيء المغفول عنه هنا هو أنّ الآية في سورة مكية ولم يستثنها أحد . والزكاة لم تكن مفروضة على المسلمين آنذاك فكيف بالمشركين؟!

قال الإمام الصادق عليه السلام : «أرى أنّ الله عزَّ وجلَّ طلب من المشركين زكاة أموالهم وهم يشركون به . حيث يقول : «وويلٌ للمشركين . الذين لا يُؤتونَ الزكاةَ وهم بالأخرةِ هم كافرون»؟ فقال : إنّما دعا الله تعالى العباد إلى الإيمان به . فإذا آمنوا بالله وبرسوله افترض عليهم الفرائض .

قال المحقق الفيض الكاشاني : هذا الحديث (وهو صحيح الإسناد) يدلّ على ما هو التحقيق من أنّ الكفار غير مكلفين بالأحكام الشرعية ماداموا على الكفر^(٢) .

ومن ثم فقد أوّلت الآية تأويلات : (منها) ما عن ابن عباس : أنّها زكاة النفس ، أي لا يطهرون أنفسهم من درن الشرك . (ومنها) : أنّ المقصود بالزكاة مطلق الصدقات والقربات لوجه الله ، حيث الكافر بالله لا يستطيع - وهو على كفره - أن يتصدق بقربة . (ومنها) أنّ المراد حرمان أنفسهم من تكاليف الشريعة التي هي بمجموعتها تطهير للنفوس ، وذلك بسبب بقائهم على الكفر والجحود .

ثالثاً : فائدة كلامية ولا سيما في بحث الإمامة والاستنادات الواقعة كثيراً في كثير من الآيات ، وهي موقوفة في الأغلب على معرفة المكّي عن المدني .

مثلاً : سورة الدهر فيها الآيات بشأن فضيلة من أكبر فضائل أهل بيت النبوة ، في قضية النذر لشفاء الحسين عليه السلام .

ذكر الطبرسي : أنّ الحسن والحسين عليهما السلام مرضا ، فعادهما جدهما عليه السلام في نفر من وجوه العرب . فقالوا : يا أبا الحسن لو نذرت علي ولديك نذراً . فنذر صوم ثلاثة أيام ، ونذرت

فاطمة كذلك ... فبرءا، فأخذ عليٌّ عليه السلام أصوعاً من الشعير وجاء بها إلى فاطمة لتهيئها خبزاً لإفطارهم.. فلما كان مساء اليوم الأول أتاهم مسكين يسألهم طعاماً فأعطوه الخبز. وكذلك في اليوم الثاني أتاهم يتيم، وفي الثالث أسير فلما كان اليوم الرابع وقضوا نذورهم أتوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبهم ضعف، فلما رآهم النبي على تلك الحالة رقى لهم قلبه. ونزل جبرئيل حينذاك بسورة هل أتى.

وذكر الطبرسي روايات أخر بمختلف الطرق والمضامين، كلّها تشير إلى سبب نزول السورة بشأن أهل البيت عليهم السلام. وهكذا الحاكم الحسكاني، وغيرهما من الأعلام.

كما جاء الطبرسي هنا - بصدد إثبات كون السورة مدنية - بروايات الترتيب عن أمتهات المصادر الأولى المعتمدة بحيث ينفي كل ريب في الموضوع. وقد صرح مجاهد وقتادة وغيرهما من أعلام المفسرين بكون السورة مدنية.^(١)

نعم، كان مثل عبد الله بن الزبير - ممن يحمل العداء لآل بيت الرسول - يعتبر السورة مكية^(٢). وهكذا سيّد قطب نظراً للحن السورة وسياقتها حسب نظره^(٣).

رابعاً: في كثير من المباحث القرآنية نرى تمام الاستدلال موقوفاً على معرفة السورة مكية أم مدنية. ويكون ذلك حلاً فاصلاً في البحث.

من ذلك مسألة نسخ القرآن بالقرآن، وقد أفرط فيها جماعات، فأنها الآيات المنسوخة إلى أكثر من مأتي آية منسوخة في القرآن، وهذا إفراط مبالغ فيه.

وفي تجاه هؤلاء من كاد ينكر أصل النسخ في القرآن، نظراً للتهافت البائن بين الناسخ والمنسوخ، المتنافي مع قوله تعالى: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٤).

أما السائرون في الوسط فيرون النسخ قليلاً في القرآن في بضع آيات، ذكرناها في الجزء الثاني من التمهيد.

(١) مجمع البيان ج ١٠ ص ٤٠٤-٤٠٥، شواهد النزول، ص ٢٩٩-٣١٥. وراجع التمهيد، ج ١ ص ١٨٤-١٨٥.

(٢) الدر المنثور، ج ٦ ص ٢٩٧. (٣) في ظلال القرآن، ج ٢٩ ص ٢١٥.

ومن الآيات التي زعمها الإفراطيون منسوخة آية الاستمتاع^(١)، زعموها منسوخة بآية حفظ الفرج دون الأزواج والإماء.

قال محمّد بن إدريس الشافعي: إن آية الاستمتاع نسختها آية حفظ الفروج^(٢).

ولكن يقال: إن المتمتع بها زوجة ولكنها منقطعة في مقابلة الزوجة الدائمة، فهي زوجة وإن اختلفت في بعض أحكامها.

وأيضاً، قد غفل القائل بكون الناسخ آية الحفظ، فإنها مكّية، ولم يقل أحد باستثناء هذه الآية، في حين أن آية الاستمتاع مدنيّة، فكيف يتقدّم الناسخ على المنسوخ بأعوام؟!^(٣).



والملاك في تعيين المكّي والمدني مختلف حسب اختلاف الآراء والأنظار في ذلك، وفيما يلي ثلاث نظريات جاءت مشهورة:

الأوّل: اعتبار ذلك بهجرة النبي ﷺ ووصوله إلى المدينة المنورة. فما نزل قبل الهجرة أو في أثناء الطريق قبل وصوله إلى المدينة فهو مكّي، وما نزل بعد ذلك فهو مدني.

والملاك على هذا الاعتبار ملاك زمني، فما نزل قبل وقت الهجرة ولو في غير مكّة فهو مكّي، وما نزل بعد الهجرة ولو في غير المدينة حتى ولو نزل في مكّة عام الفتح أو في حجة الوداع فهو مدني باعتبار نزوله بعد الهجرة. وعلى هذا الاصطلاح فجميع الآيات النازلة في الحروب وفي أسفاره ﷺ بما أنها نزلت بعد الهجرة كلّها مدنيات.

قال يحيى بن سلام: ما نزل بمكّة أو في طريق المدينة قبل أن يبلغ ﷺ فهو مكّي، وما نزل بعد ما قدم ﷺ المدينة أو في بعض أسفاره وحروبه فهو مدني. قال جلال الدين: وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أنّ ما نزل في سفر الهجرة مكّي اصطلاحاً^(٤).

(١) قوله تعالى: «فما استمتعتم به منهنّ فأئوهنّ أجورهنّ» (النساء: ٢٤).

(٢) قال سبعمه: «والذين همّ لئزواجهم حافظون، إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين، فمن استنى

وراء ذلك فأولئك همّ العادون» (المؤمنون: ٥-٧). راجع التمهيد ج ٢ ص ٢٢٢.

(٤) الإيقان: ج ١ ص ٩.

(٣) راجع التمهيد ج ١ ص ٢٢٦ رقم ١٥.

وذلك كقوله تعالى: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ»^(١) قيل: نزلت بالجحفة والنبي ﷺ في طريق هجرته إلى المدينة^(٢).

الثاني: ما نزل بمكة وحواليها ولو بعد الهجرة فهو مكِّي، وما نزل بالمدينة وحواليها فهو مدني، وما نزل خارج البلدين بعيداً عنهما فهو لا مكِّي ولا مدني، كقوله تعالى: «كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَلَوُنَّ عَلَيْهِمُ الَّذِي أُوحِىَ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَانِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ»^(٣) قيل: نزلت بالحديبة حينما صالح النبي ﷺ مشركي قريش، فقال رسول الله ﷺ لعليّ ﷺ: اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو وسائر المشركين: ما نعرف الرحمان إلا صاحب اليمامة - يعنون مسيلمة الكذاب - فنزلت الآية^(٤). وهكذا آية الأنفال^(٥) نزلت في بدر عندما اختصم المسلمون في تقسيم الغنائم^(٦) لا مكِّيَّة ولا مدنيَّة، على هذا الاصطلاح.

الثالث: ما كان خطاباً لأهل مكة فهو مكِّي، وما كان خطاباً لأهل المدينة فهو مدني. وهذا الاصطلاح مأخوذ من كلام ابن مسعود: كل شيء نزل فيه «يا أيها الناس» فهو بمكة، وكل شيء نزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو بالمدينة^(٧). قال الزركشي: لأنَّ الغالب على أهل مكة الكفر، والغالب على أهل المدينة الإيمان^(٨).



وهذا الاختلاف في تحديد المكِّي والمدني أوجب اختلافاً في كثير من آيات وسور أنها مكِّيَّة أم مدنيَّة^(٩). غير أنَّ المعتمد من هذه المصطلحات هو الأوَّل، وهو المشهور الَّذي جرى

(١) القصص: ٨٥. (٢) البرهان للزركشي: ج ١ ص ١٩٧.

(٣) الرعد: ٣٠. (٤) مجمع البيان: ج ٦ ص ٢٩٣.

(٥) قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ...» (الأنفال: ١).

(٦) راجع السيرة لابن هشام: ج ٢ ص ٣٢٢. (٧) مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٨.

(٨) البرهان للزركشي: ج ١ ص ١٨٧.

(٩) كما في آية الأمانات من سورة النساء: ٥٨. رزعاها الفخاس مكِّيَّة لرواية ابن جريح. (راجع مجمع البيان: ج ٣ ص ٦٢).

عليه أكثرية أهل العلم^(١). وكان تحديداً الآتي في نظم السور حسب ترتيب نزولها معتمداً على هذا الاصطلاح.

نعم، الطريق إلى معرفة مواقع النزول أنها كانت بمكة أو بالمدينة أو بغيرهما قليل جداً. لأن الأوائل لم يُعبروا هذه الناحية المهمة اهتماماً معتدلاً به، سوى ما ذكره في عرض الكلام استطراداً، وهي استفادة ضئيلة للغاية ومن ثمَّ يجب لمعرفة ذلك ملاحظة شواهد وقرائن من لفظ الآية أو استفادة من لهجة الكلام. خطاباً مع نوعيّة موقف الموجه إليهم أكان في حرب أم في سلم، وعد أم وعيد، إرشاد أو تكليف. فيما إذا أوجب ذلك علماً أو حلاً قطعياً لمشكلة في لفظ الآية. كما في قوله: «فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^(٢)، فإنَّ مشكلة دلالتها على مطلق الترخيص دون الإلزام والإيجاب تنحل بما أثر في سبب نزولها^(٣). الأمر الذي يوجب الثقة بصحة الأثر، مع غُضُّ النظر عن ملاحظة السند، ومن ثمَّ فهي مدنيّة.

قال الجعبري: لمعرفة المكي والمدني طريقان: سماعي وقياسي. فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما. والقياسي، قال علقمة، عن ابن مسعود: كلُّ سورة فيها «يا أيها الناس» فقط، أو «كلّا»، أو أولها حروف تهجٍ سوى الزهراوين (البقرة وآل عمران) والرعد - في وجه - أو فيها قصّة آدم وإبليس سوى الطولي (البقرة) أو فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية، فهي مكيّة. وكلُّ سورة فيها حدّ أو فريضة، فهي مدنية. وفي رواية: وكلُّ سورة فيها: «يا أيها الذين آمنوا» فهي مدنيّة.

قال الزركشي: وهذا القول - الأخير - إن أخذ على إطلاقه فيه نظر، فإنَّ سورة البقرة مدنية وفيها: «يا أيها الناس اعْبُدُوا رَبَّكُمْ»^(٤) وفيها: «يا أيها الناس كلُّوا مما في الأرض

(١) راجع البرهان للزركشي: ج ١ ص ١٨٧، والإيمان: ج ١ ص ٩.

(٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) كان المسلمون يتخرجون المعنى بين الصفا والمروة، زعماً أنها عادة جاهلية نكرباً بمقام أساف وثائلة، فنزلت الآية

دفعاً لهذا الوهم. (راجع مجمع البيان: ج ١ ص ٤٢٠، (٤) البقرة: ٢١).

حلالاً طيباً»^(١) وسورة النساء مدنيّة وفيها: «يا أيها الناس اتقوا ربكم»^(٢). وفيها: «إن يشأ يذهبكم أيها الناس»^(٣) فإن أراد المفسرون أن الغالب ذلك فهو صحيح. ولذا قال مكّي بن حموش: هذا إمّا هو في الأكثر وليس بعام، وفي كثير من السور المكيّة «يا أيها الذين آمنوا»^(٤).

ترتيب النزول

اعتمدنا في هذا العرض على عدّة روايات متّفق عليها، وثق بها العلماء أكثرياً، وعمدتها رواية ابن عبّاس يترك وأسانيد اعترف بها أئمّة الفن^(٥).

قال الإمام بدر الدين الزركشي: وعلى هذا الترتيب استقرت الرواية من التفات^(٦). وقد أخذناها الأصل الأوّل في هذا العرض، وأكملنا ما سقط منها على رواية جابر بن زيد وغيره، وكذا نصوص تاريخية معتمدة^(٧). نعم، كان بينها بعض الاختلاف إمّا للاختلاف في تحديد المكي والمدني، أو في عدد المكيّات من المدنيّات. ومن ثمّ جاء اختلافهم في بيّن وثلاثين سورة أنّها مكيّات أم مدنيّات. والنظر في هذا العرض كان إلى مفتاح السور، فالسورة إذا نزلت من أولها بضع آيات، ثمّ نزلت أخرى، وبعدها اكتملت الأولى، كانت الأولى متقدّمة على الثانية في ترتيب النزول، حسب هذا المصطلح. وإليك قائمة السور المكيّة، وعددها: ستّ وثمانون سورة، متقدّمة على السور المدنيّة، وعددها: ثمان وعشرون سورة، مع غضّ النظر عن سور مختلف فيها.

(١) البقرة: ١٦٨. (٢) النساء: ٦.

(٣) النساء: ١٣٣.

(٤) لم تعد في سورة مكيّة «يا أيها الذين آمنوا». نعم، فيها كثير ذكر «الذين آمنوا» بلا خطاب، كما في سورة ص والزرّ وغانم وفصّلت وغيرها.

(٥) نعم، ذكر الزركشي مثلاً لذلك قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا» سورة الحج: ٧٧. فزعمها مكيّة، لكنّ الصحيح أنّها مدنيّة.

(٦) راجع مجمع البيان للعلامة الطبرسي: ج ١٠ ص ٤٠٥ و ٤٠٦، والإتيان لجلال الدين السيوطي: ج ١ ص ١٠ و ١١ و ٢٥.

(٧) البرهان للزركشي: ج ١ ص ١٩٣ - ١٩٤.

(٨) راجع الفهرست لابن اللدّيم: ص ٢٨، وتاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٨.

السور المكيّة (٨٦)

| ترتيب المصحف | السورة | ترتيب النزول | ترتيب المصحف | السورة | ترتيب النزول |
|--------------|----------|--------------|--------------|----------------------|--------------|
| ١١٣ | الفلق | ٢٠ | ٩٦ | العلق | ١ |
| ١١٤ | الناس | ٢١ | ٦٨ | القلم | ٢ |
| ١١٢ | التوحيد | ٢٢ | ٧٣ | المزمل | ٣ |
| ٥٣ | النجم | ٢٣ | ٧٤ | المدثر | ٤ |
| ٨٠ | عبس | ٢٤ | ١ | الفاتحة ^١ | ٥ |
| ٩٧ | القدر | ٢٥ | ١١١ | المسد | ٦ |
| ٩١ | الشمس | ٢٦ | ٨١ | التكوير | ٧ |
| ٨٥ | البروج | ٢٧ | ٨٧ | الأعلى | ٨ |
| ٩٥ | النين | ٢٨ | ٩٢ | الليل | ٩ |
| ١٠٦ | قريش | ٢٩ | ٨٩ | الفجر | ١٠ |
| ١٠١ | الفارعة | ٣٠ | ٩٣ | الضحى | ١١ |
| ٧٥ | القيامة | ٣١ | ٩٤ | الشرح | ١٢ |
| ١٠٤ | الهمزة | ٣٢ | ١٠٣ | العصر | ١٣ |
| ٧٧ | المرسلات | ٣٣ | ١٠٠ | العاديات | ١٤ |
| ٥٠ | ق | ٣٤ | ١٠٨ | الكوثر | ١٥ |
| ٩٠ | البلد | ٣٥ | ١٠٢ | التكاثر | ١٦ |
| ٨٦ | الطارق | ٣٦ | ١٠٧ | الماعون | ١٧ |
| ٥٤ | القمر | ٣٧ | ١٠٩ | الكافرون | ١٨ |
| ٢٨ | ص | ٣٨ | ١٠٥ | الفيل | ١٩ |

١ - سقطت الفاتحة من رواية ابن عباس، فأثبتناها على رواية جابر بن زيد. راجع: الإتيان، ج ١، ص ٢٥ وعلى نص تاريخ العقوي، ج ٢، ص ٢٦.

| ترتيب التزول | السورة | ترتيب المصحف | ترتيب التزول | السورة | ترتيب المصحف |
|--------------|---------|--------------|--------------|----------|--------------|
| ٣٩ | الأعراف | ٧ | ٦٣ | الزخرف | ٤٣ |
| ٤٠ | الجن | ٧٢ | ٦٤ | الدخان | ٤٤ |
| ٤١ | يس | ٣٦ | ٦٥ | الجاثية | ٤٥ |
| ٤٢ | الفرقان | ٢٥ | ٦٦ | الأحقاف | ٤٦ |
| ٤٣ | فاطر | ٣٥ | ٦٧ | الذاريات | ٥١ |
| ٤٤ | مريم | ١٩ | ٦٨ | الفاشية | ٨٨ |
| ٤٥ | طه | ٢٠ | ٦٩ | الكهف | ١٨ |
| ٤٦ | الواقعة | ٥٦ | ٧٠ | النحل | ١٦ |
| ٤٧ | الشعراء | ٢٦ | ٧١ | نوح | ٧١ |
| ٤٨ | النمل | ٢٧ | ٧٢ | إبراهيم | ١٤ |
| ٤٩ | القصص | ٢٨ | ٧٣ | الأنبياء | ٢١ |
| ٥٠ | الإسراء | ١٧ | ٧٤ | المؤمنون | ٢٣ |
| ٥١ | يونس | ١٠ | ٧٥ | السجدة | ٣٢ |
| ٥٢ | هود | ١١ | ٧٦ | الطور | ٥٢ |
| ٥٣ | يوسف | ١٢ | ٧٧ | الملك | ٦٧ |
| ٥٤ | الحجر | ١٥ | ٧٨ | الحاقة | ٦٩ |
| ٥٥ | الأنعام | ٦ | ٧٩ | المعارج | ٧٠ |
| ٥٦ | الصافات | ٣٧ | ٨٠ | النبأ | ٧٨ |
| ٥٧ | لقمان | ٣١ | ٨١ | النازعات | ٧٩ |
| ٥٨ | سبا | ٣٤ | ٨٢ | الانفطار | ٨٢ |
| ٥٩ | الزمر | ٣٩ | ٨٣ | الانشقاق | ٨٤ |
| ٦٠ | غافر | ٤٠ | ٨٤ | الروم | ٣٠ |
| ٦١ | فضلت | ٤١ | ٨٥ | العنكبوت | ٢٩ |
| ٦٢ | الشورى | ٤٢ | ٨٦ | المطففين | ٨٣ |

السور المدنية

(٢٨)

| ترتيب النزول | السورة | ترتيب المصحف | ترتيب النزول | السورة | ترتيب المصحف |
|--------------|-----------|--------------|--------------|------------------------|--------------|
| ٨٧ | البقرة | ٢ | ١٠١ | الحشر | ٥٩ |
| ٨٨ | الأنفال | ٨ | ١٠٢ | النصر | ١١٠ |
| ٨٩ | آل عمران | ٣ | ١٠٣ | النور | ٢٤ |
| ٩٠ | الأحزاب | ٣٣ | ١٠٤ | الحج | ٢٢ |
| ٩١ | المتحنة | ٦٠ | ١٠٥ | المنافقون | ٦٣ |
| ٩٢ | النساء | ٤ | ١٠٦ | المجادلة | ٥٨ |
| ٩٣ | الزُّلزال | ٩٩ | ١٠٧ | الحجرات | ٤٩ |
| ٩٤ | الحديد | ٥٧ | ١٠٨ | التحریم | ٦٦ |
| ٩٥ | محمد | ٤٧ | ١٠٩ | الجمعة | ٦٢ |
| ٩٦ | الرعد | ١٣ | ١١٠ | التغابن | ٦٤ |
| ٩٧ | الرحمان | ٥٥ | ١١١ | الصف ^(١) | ٦١ |
| ٩٨ | الإنسان | ٧٦ | ١١٢ | الفتح | ٤٨ |
| ٩٩ | الطلاق | ٦٥ | ١١٣ | المائدة ^(٢) | ٥ |
| ١٠٠ | البيّنة | ٩٨ | ١١٤ | براءة | ٩ |

١- جعل الزركشي في البرهان سورة الصف بعد التحريم وقبل الجمعة.

٢- قدّم الزركشي في البرهان البراءة على المائدة، وجعل هذه الأخيرة آخر السور.

آيات مستثنيات

تعرض الأوائل لاستثناء آيات من سور تخالفها في النزول، فرب سورة مكية فيها آيات مدنية أو بالعكس، واستقصى ذلك جلال الدين السيوطي في «الإتقان» مستوعباً، غير أنه اعتمد في الأكثر على روايات ونقول ضعيفة، ثم جاء المتأخرون ليأخذوا بذلك تقليداً من غير تحقيق^(١) في حين أن غالبية القائلين بهذه الاستثناءات قالوا بها عن حدس أو اجتهاد في الرأي، من غير أن يستندوا إلى نص صحيح مأثور. قال ابن الحصار: إن من الناس من اعتمد في الاستثناء على الاجتهاد دون النقل^(٢).

ونحن إذ نستطرق هذا الباب نضرب عن كل ما قالوه بهذا الشأن صفحاً إذا لم يكن مستنداً إلى دليل مقبول، إذ لا شك أن الآيات كانت تسجل تبعاً في كل سورة بعد نزول بسماتها - واحدة تلو أخرى - ترتيباً طبيعياً حسب النزول. أمّا أن تبقى آية مكية غير مسجلة في سورة حتى تنزل سورة بالمدينة ثم تسجل فيها فهذا أمر غريب خارج عن طريقة الثبوت المعروف. كما أن آية مدنية تسجل في سورة مكية بحاجة إلى نص صريح

(١) جاءت في المصحف الأميري - المطبوع بالقاهرة بإذن مطبعة الأزهر وبإشراف لجنة مراقبة البحوث الإسلامية - استثناءات بأرقام كبيرة، لكنه تقليد محض لا أصل لأكثرها الساقطة. وهكذا سجلها من غير تحقيق الشيخ أبو عبد الله الزنجاني في تاريخ قرآنه.

أضف إلى ذلك تناقضات جاءت في هكذا اختيارات تقليدية.

مثلاً: جاء في المصحف الأميري أن سورة ألم تنزيل (السجدة) نزلت بعد سورة المؤمن، وأن سورة حم تنزيل (فصلت) نزلت بعد سورة غافر! في حين أن المؤمن وغافر اسمان لسورة واحدة؛ وأثبت أبو عبد الله في تاريخ قرآنه عانين بشأن ترتيب نزول السور، فذكر في القائمة الأولى أن سورة الأنعام نزلت بعد العنكبوت، وفي الثانية أنها نزلت بعد الكهف؛ كما ذكر في الأولى أن الأعراف نزلت بعد ص. وفي الثانية نزلت بعد الأنفال؛ وذكر أن السور المكتبة: ٨٥، والسور المدنية: ٢٨، ولم يلفت أنها تنقص مجموع سور القرآن بواحدة؛ وأظنه في ذلك قلد الإمام بدر الدين الزركشي!!

كما جاء في مصحف مطبوع على عهد الفاجارية فانتان. الأولى سجل عام نزول كل سورة، والثانية سجل ترتيب النزول. فجاء في الأولى: نزلت الصادقات في العام الخامس من الهجرة. ونزلت الأنعام في العام الثالث عشر. ثم جاء في القائمة الثانية: أن الصادقات نزلت بعد الأنعام! وأمثال هذا التناقض كثير.

خاصٌ وليس بالأمر الذي يتدخل فيه الحدس أو الاجتهاد النظري!

قال ابن حجر: وأما نزول شيء من سورة بمكة ثم يتأخر نزول أصل السورة إلى المدينة، فلم أره إلا نادراً، فقد اتفقوا على أن الأنفال مدنية، لكن قيل: إن قوله تعالى: «وإذ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا»^(١) نزلت بمكة ثم نزلت سورة الأنفال بالمدينة، وهذا غريب جداً^(٢). وقد استوفينا الكلام عن ذلك وأبدينا رأينا في إنكار مزعومة الاستثناء رأساً، حيث لا دليل عليه البيّة وإليك نماذج منها:

﴿ مثلاً قالوا - في سورة البقرة المدنية - في قوله تعالى: «فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»^(٣): إنها نزلت بمكة بشأن المشركين أيام كان المسلمون ضعفاء، لكن صدر الآية: «وَدَكْثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...» شاهد نزولها بشأن أهل الكتاب في أوائل الهجرة، حيث لم تقوَ شوكة المسلمين آنذاك، ثم نسخت بقوله تعالى: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^(٤) ^(٥)

﴿ وهكذا قالوا في قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ...»^(٦): هي آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ وهو بمنى في حجة الوداع^(٧).

غير أن هذا القول مبتني على كون المكان معياراً للوصف بالمكية والمدنية، وقد أسقنا أن المعيار هو زمان الهجرة، فما نزلت بعدها فهي مدنية وإن نزلت بمكة أو غيرها.

﴿ كما أن زعم بعضهم: أن الآية: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا»^(٨) نزلت بمكة بعد الفتح، فهي مكية في سورة مدنية^(٩) أيضاً مردود بعد كون المعيار زمان الهجرة.

(١) الأنفال: ٣٠. (٢) فتح الباري بشرح البخاري: ج ٩ ص ٢٨.

(٣) البقرة: ١٠٩. (٤) التوبة: ٢٩.

(٥) راجع مجمع البيان: ج ١ ص ١٨٤ - ١٨٥. والدر المنثور: ج ١ ص ١٠٧.

(٦) البقرة: ٢٨١. (٧) الدر المنثور: ج ١ ص ٣٧٠.

(٨) النساء: ٥٨. (٩) مجمع البيان: ج ٣ ص ٦٢.

﴿ وقوله تعالى: «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُغْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ»^(١) .

جاء في المجمع: «أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ وَلَمْ يَذْكَرِ السَّبَبَ^(٢) . غَيْرَ أَنَّ لَهْجَةَ الْآيَةِ وَمَحْتَوَاهَا شَاهِدَاتُ صِدْقٍ عَلَى كَوْنِهَا نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ . لِأَنَّهَا مِنْ آيَاتِ الْأَحْكَامِ بِشَأْنِ الْمَوَارِيثِ .

﴿ وقوله تعالى: «الْيَوْمَ يَنْسَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا»^(٣) .

زعم أبو عبد الله الزنجاني أنها نزلت بعرفات في حجة الوداع^(٤) .

لكن أبا عبد الله الإمام الصادق عليه السلام قال: نزلت الآية بعد أن نصب رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام عَلِمًا لِلأُمَّةِ يَوْمَ غَدِيرِ خَمٍّ . مُنْصَرَفُهُ عَنْ حِجَّةِ الْوَدَاعِ^(٥) .

وهكذا سجلها ابن واضح العقوي في تاريخه ، قال : وكان نزولها يوم النصف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلوات الله عليه بغدير خم . قال : وهي الرواية الصحيحة الثابتة الصريحة^(٦) . وقد ذكرها الحافظ الحسكاني بعدة طرق^(٧) .

على أَنَّ النَّزُولَ بِعَرَفَاتٍ كَانَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ . فَهِيَ مَدِينَةٌ أَيْضًا فِي الْمَصْطَلَحِ كَمَا عَرَفْتَ .

﴿ وقوله تعالى: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَىٰ... إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لِأَوْثَىٰ حَلِيمًا»^(٨) .

قالوا: نزلت بشأن أبي طالب عليه السلام عندما حضرته الوفاة ، دخل عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وعنده بعض أشرف قريش ، فقال النبي : أي عم ، قل لا إله إلا الله ، أحاج لك بها عند الله . فقال بعض الحضور : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ قالوا: فأبى أبو طالب أن يذكر الشهادة ، فقال النبي عند ذلك : لا أستغفرن لك . فنزلت الآية .. فهي مكية مستثناة من سورة مدنية^(٩) .

(٢) مجمع البيان : ج ٣ ص ١٩٩ .

(١) النساء : ١٧٦ .

(٤) تاريخ القرآن للزنجاني : ص ٢٧ .

(٣) العائدة : ٣ .

(٦) تاريخ العقوي : ج ٢ ص ٣٥ .

(٥) راجع تفسير النيان للشيخ الطوسي : ج ٣ ص ٤٣٥ .

(٨) التوبة : ١١٣ و ١١٤ .

(٧) شواهد التنزيل : ج ١ ص ١٥٦ - ١٦٠ .

(٩) راجع الدر المنثور : ج ٣ ص ٢٨٢ . وصحح البخاري : ج ٢ ص ١١٩ و ج ٦ ص ٨٧ .

كما قالوا: «أنها نزلت بشأن والدي رسول الله ﷺ، أراد أن يستغفر لأبيه، وهكذا استجاز ربه في زيارة قبر أمه فأجازه. ثم بدا لله في ذلك، فأنزل الله الآية، فما زني رسول الله أكثر باكياً من يومه ذاك»^(١).

أقول: قاتل الله العصبية، عصبية الجاهلية الأولى لم تزل متمكنة في قلوب أذنان قريش ومواليهم حتى اليوم.

وقد ثبت في الصحيح أن أبا طالب مات مسلماً^(٢). كما أن قوله تعالى: «وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ»^(٣) تصريح بطهارة آباء رسول الله وأمهاته. ففي حديث ابن عباس: لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفياً مهذباً^(٤).

وهو المروي - صحيحاً - عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام قالوا: في أصلاب النبيين بعد نبي أخرجه من صلب أبيه، من نكاح غير سفاح من لدن آدم عليه السلام^(٥).

وفي زيارة الوارث لأبي عبد الله الحسين عليه السلام: «أشهد أنك كنت نوراً في الأصلاب الشامخة والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها...»^(٦).

والصحيح في سبب نزول تلك الآية - على ما ذكره أبو علي الطبرسي -: أن المسلمين جاؤوا إلى النبي عليه السلام يطلبون إليه الاستغفار لموتاهم الذين مضوا على الكفر أو النفاق، قالوا: ألا تستغفر لآبائنا الذين ماتوا في الجاهلية؟! فنزلت الآية^(٧).

راجع التفصيل في التمهيد^(٨).

(١) جامع البيان للطبري: ج ١١ ص ٣٦. (٢) جامع التمهيد: ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

(٣) الشعراء: ٢١٩. (٤) الدر المنثور: ج ٣ ص ٢٩٤.

(٥) جامع الدر المنثور: ج ٥ ص ٩٨. ومجمع البيان: ج ٧ ص ٢٠٧.

(٦) الزيارة السابعة من الزيارات المطلقة لأبي عبد الله الحسين عليه السلام.

(٧) مجمع البيان: ج ٥ ص ٧٦. (٨) التمهيد: ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٥٠.

أسباب النزول

معرفة أسباب النزول

وإذ كان القرآن ينزل نجوماً ، وفي فترات متفاصلة بعضها عن بعض ، ولمناسبات شتى كانت تستدعي نزول آية أو آيات تعالج شأنها ، فقد اصطلحوا على تسمية تلك المناسبات بأسباب النزول أو شأن النزول - على فرق بينهما - وهو علمٌ شريف ، وفي نفس الوقت خطيرٌ يمس التنزيل في صميم معناه ، ويهدي المفسر المسترشد والفقير المستنبط إلى حيث سواء السبيل.

واستيفاء هذا البحث يقتضي النظر في مسائل: قيمة هذه المعرفة وفائدته في مجال الفقه والتفسير! وكيف الاهتمام إلى معرفة أسباب النزول؟ وهل هناك فرق بين قولهم: سبب النزول ، أو شأن النزول؟ والفرق بين التنزيل والتأويل ، وكذا ظهر الآية وبطنها في مصطلح السلف! وما معنى قولهم: نزلت الآية في كذا؟ وهل يجب في الناقل الأوّل للسبب أن يكون حاضر المشهد؟ وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد! وأن القرآن نزل بإيّاك أعني واسمعي يا جارة! وأنه يجري كما تجري الشمس والقمر! كيف الاهتمام إلى معالم القرآن؟ وما هي الوسائل المستعملة في هذا السبيل؟ ونحو ذلك من أبحاث عامة وشاملة.

قيمة هذه المعرفة

لمعرفة شأن النزول دورها الخطير في فهم معاني القرآن الكريم وحلّ معضلات التفسير في كلا مجالَي الأصول والفروع. إنها ترفع النقاب عن وجوه كثير من الآيات. نزلت لتعالج مشكلة في وقتها ، لكنّها في نفس الوقت ذات وجه عامّ تعالج مشاكل الأُمَّة عبر الحياة .

وربما كان الوقوف على الحادثة الأولى والمناسبة الأولى التي استدعت نزولها من خير الوسائل لكشف الإبهام عن وجه الآية، إذ فيها الإشارة لا محالة إلى تلك الواقعة بالذات. قال الواحدي: لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها. وجعل السيوطي من فوائد معرفة أسباب النزول الوقوف على المعنى وإزاحة الإشكال عن وجه الآية، الأمر الذي لا محيد عنه بعد أن كانت الآية مرتبطة بالحادث المستدعي للنزول وناظرة إليه.

قال القشيري: بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز...^(١). ولذلك شواهد في التنزيل:

قال تعالى: «إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»^(٢).

فقد أشكل على بعض المفسرين هذا التعبير «لا جُنَاحَ عَلَيْهِ...» لأنه لرفع الإثم وليس للإلزام، فالآية تكون دالة على جواز السعي بين الصفا والمروة لا الوجوب، مع أنه إجماعي. لكن إذا ما عرفنا سبب نزولها لم يبق مجال لهذا الإشكال.

وذلك أن مراسم الحج والاعتمار كانت معهودة منذ العهد الجاهلي، غير أن العرب كانوا قد لوثوا من هذه المشاعر بدع أبدعوها، من ذلك أنهم كانوا قد وضعوا على الصفا صنماً على صورة رجل يقال له «أساف»، وعلى المروة صنماً آخر على صورة امرأة يقال لها «نائلة»، زعموا أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله حجرتين، فوضعا على الجبلين ليعتبر بهما. فلما طالت المدّة عبدتهما العرب جهلاً وسفهاً، فكانوا إذا طافوا بينهما مسحوهما تبرّكاً.

ثم لما جاء الإسلام وكسرت الأصنام تحرّج المسلمون عن الطواف بينهما، زعماً أنه كان من بدع الجاهلية تقرباً إلى الصنمين، فنزلت الآية لترفع هذه الشبهة عن أذهان المسلمين^(٣).

(١) البرهان: ج ٦ ص ٢٢. الإتيان: ج ١ ص ٨٢. (٢) البقرة: ١٥٨.

(٣) راجع أسباب النزول للواحدي: ص ٢٥.

قال الإمام الصادق عليه السلام: كان المسلمون يرون أن الصفا والمروة مما ابتدع أهل الجاهلية. فأنزل الله هذه الآية ^(١).

وروي عنه أيضاً: أن ذلك كان في عمرة القضاء، وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد شرط عليهم أن يرفعوا أصنامهم، ففتناغل رجل من أصحابه حتى أعيدت الأصنام، فجاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك، وقيل له: إن فلاناً لم يطف تحرجاً لما قد أعيدت الأصنام. فأنزل الله هذه الآية ^(٢).

وقال تعالى: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» ^(٣).
قد يزعم زاعم أن لا بأس بتناول الخمرة إذا قوي إيمان الرجل وصلاح عمله؛ فإنه لا يضره شرب المسكر قليلاً. هكذا كان يزعم عمرو بن معدى كرب كما قيل ^(٤). وقيل: هو قدامة بن مظعون ^(٥).

سوى أن الآية نزلت فيمن سلفت منه هذه الشنيعة المنكرة ثم تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى، فقد عفا الله عما سلف.

وقال تعالى: «وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنَ اتَّقَى وَأَثَرَا الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» ^(٦).
فقد خفي وجه ارتباطها مع صدر الآية «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ». كما خفي المقصود من هذا الاستنكار على صنيع يبدو غريباً!

(٢) تفسير العياشي: ج ١ ص ٧٠ ح ١٣٣.

(١) مجمع البيان: ج ١ ص ٢٤٠.

(٤) الإقناع: ج ١ ص ٨٣.

(٣) المائدة: ٩٣.

(٦) البقرة: ١٨٩.

(٥) التفسير والمفسرون للذهبي: ج ١ ص ٦٠.

أما إذا راجعنا سبب النزول: «أَنَّ الحُمْسَ»^(١) - وهي القبائل الست العربية - كانت إذا أحرمت امتنعت من الدخول إلى الخبَاء أو البيوت إلا من ظهورها، فينقبون في مؤخرتها نقباً يدخلون ويخرجون منه..» وبذلك يرتفع الإبهام بكلا جانبيه.

وقال تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهَا الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطِثُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءِهِمْ أَعْمَالِهِمْ...»^(٢).

كانت العرب تدين بحرمة الشهور الأربعة امتداداً لصلّة إبراهيم ﷺ. لكنهم ربّما كان يشقّ عليهم المكث طول ثلاثة أشهر لا يغزون، أو ربّما كانت الحرب على ساق فيهلّ أحد الأشهر الحرم، وكان يصعب عليهم ترك القتال، ولذلك كانوا ينسئون ذلك الشهر إلى وقت آخر ليستمرّوا في النهب والغزو وسفك الدماء.

وهكذا كانوا ينسئون بمراسم الحجّ لتتوافق مع فصل الربيع كلّ عام، وكان قد وافق الحجّ قبل حجة الوداع ذو القعدة. فلما حجّ النبي ﷺ في القابل قال في خطبته: «ألا وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات ذو القعدة وذو القعدة والمحرم، ورجب الذي بين جمادى وشعبان...» أراد ﷺ أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها وعاد الحجّ إلى ذي الحجة، وبطل النسبي^(٣).

الطريق إلى معرفة أسباب النزول

لمعرفة الصحيح من أسباب النزول طرق معهودة تعارف عليها أهل الاصطلاح، من تصحيح الإسناد أو استفاضة النقل أو تواتره، ممّا يقطع معه من صحّة الحادثة. لكن هناك وسيلة أخرى لعلّها أدقّ وأوفق للاعتبار وأكثر أطراداً مع ضوابط دراسة التاريخ وهي: أن

(١) الحُمْس - بالضمّ فسكون - جمع أحمس وحمساء، بمعنى المصطبّ في دينه ومذهبه، أطلق على ست قبائل معروفة:

قريش وكنانة وخرافة وتقيف وجشم وبني عامرين صعصة. (راجع مجمع البيان: ج ٢ ص ٢٨٤).

(٢) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٩.

(٣) التوبة: ٢٧.

يكون المأثور من شأن النزول متأرفع الإبهام عن وجه الآية تماماً ويحلّ مشكلة تفسيرها على الوجه الأتم، على قيد أن لا يكون مخالفاً لضرورة دين أو متناقراً مع بديهية العقل الرشيد. الأمر الذي يكفي بنفسه شاهد صدق على صحة الحديث أيّاً كان الإسناد.

ومتما يجدر التنبيه له في هذا الباب هو أنّ الطابع الغالب على أحاديث شأن النزول هو الضعف والجهالة والإرسال، فضلاً عن الوضع والدس والتزوير. هكذا جاء في وصف الأئمة:

قال الإمام بدر الدين الزركشي: يجب الحذر من الضعيف فيه والموضوع، فإنّه كثير. قال الميموني: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: ثلاث ليس لها أصول - أو لا أصل لها -: المغازي، والملاحم، والتفسير. أي لا أصل لها معتمداً عليه. قال المحققون من أصحابه: يعني أنّ الغالب أنها ليس لها أسانيد صحاح متصلة الإسناد، وإلّا فقد صحّ من ذلك كثير^(١). قال جلال الدين السيوطي: الذي صحّ من ذلك قليل جداً، بل أصل المرفوع منه (أي المتصل الإسناد) في غاية القلّة. وقد ذكر السيوطي في نهاية الكتاب ما لا يبلغ على الثلاثمائة حديث مرفوع، ما بين ضعيف وسقيم ومعضل، والباقي مرسل لا حجّة فيه إطلاقاً^(٢).

الأمر الذي يعود لومه على السلف تساهلهم بأمر ضبط الحوادث، ومن ثمّ فإنّ رصيدنا اليوم بهذا الشأن ضئيل للغاية، ولا يفي بحاجة التفسير في سوى القليل. هذا الواحدي عمد إلى جميع الشوارد من أسباب النزول، فلم يمكنه التحرّز عن الضعاف والمجاهيل وما لا حجّة فيه. مثلاً نراه يروي كثيراً عن ابن عباس عن طريق الكلبي عن أبي صالح.

قال جلال الدين السيوطي: وأوهى طرق التفسير طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. فإن انضمّ إلى ذلك رواية محمد بن مروان السدي الصغير، فهي سلسلة الكذب، وكثير ما يخرج منها التعلبي والواحدي^(٣).

(٢) الإقناع: ج ٤ ص ١٨٠ و ٢١٤ - ٢٥٧.

(١) البرهان للزركشي: ج ٢ ص ١٥٦.

(٣) المصدر: ص ٢٠٩.

وقال - عند قوله تعالى : «وَإِذَا تَقُتُّوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا»^(١) : أخرج الواحدي والتعليبي من طريق السدي عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، قال : نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي وأصحابه .. ثم قال : هذا الإسناد واه جداً ، فإن السدي الصغير كذاب وكذا الكلبي وأبو صالح ضعيف^(٢) .

وعند قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا...»^(٣) قال : أخرج الواحدي من طريق عبد الغني بن سعيد التقفي ... وهو واه جداً^(٤) .

وفي المطبوعة من نسخ أسباب النزول للواحدى تصحيف ، ذكر الرواية عن عبد العزيز سعيد^(٥) وليس له ذكر في كتب التراجم .

وقوله : «وَاللَّهُ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ»^(٦) نزلت ردأ على اليهود في تعبيرهم تحويل القبلة - كما تقدم - . قال السيوطي : ماورد من الروايات بهذا المعنى إسنادها قوي والمعنى يساعده أيضاً فليعتمد^(٧) . قال : وفي الآية روايات أخر ضعيفة ، منها ما رواه الواحدى وغيره عن أشعث السمان^(٨) قال : وأشعث يضعف في الحديث^(٩) . قال الذهبي : أشعث بن سعيد أبو الربيع السمان من الضعفاء ، وقد تركه الدارقطني وغيره وضعفه أحمد وابن معين^(١٠) .



وهذا جلال الدين السيوطي الناظم على الواحدى اعتماده المراسيل والمجاهيل نراه قد تورط المناكير وما خالف العقل والشرع في موارد من اختياراته في شأن النزول من كتابه «لباب القول» .

مثلاً يروي بشأن نزول قوله تعالى : «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنَّ

(٢) لباب القول بهامش الجلالين : ج ١ ص ٩ .

(١) البقرة : ١٤٤ .

(٤) لباب القول بهامش الجلالين : ج ١ ص ١١ .

(٣) البقرة : ٢٦٦ .

(٦) البقرة : ١١٥ .

(٥) أسباب النزول للواحدى : ص ١٢ .

(٨) أسباب النزول للواحدى : ص ٢٠ .

(٧) لباب القول بهامش الجلالين : ج ١ ص ٢٤ .

(١٠) المعنى للذهبي : ج ١ ص ٩١ .

(٩) لباب القول بهامش الجلالين : ج ١ ص ٢٥ .

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ. وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَخْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ. إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ»^(١) من طريق البيهقي عن أبي هريرة: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وقف على حمزة حين استشهد بأحد، وقد مُتِلَّ به، فقال: لَأُمُتَلَنَّ بسبعين منهم مكانك. فنزل جبرائيل بهذه الآيات^(٢).

قال: وأخرج الترمذي عن أبي بن كعب، قال أصيب في أحد من الأنصار أربعة وستون ومن المهاجرين ستة منهم حمزة. وقد مُتِلوا بهم. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لترينَّ عليهم. فلَمَّا كان يوم فتح مكة أنزل الله هذه الآيات. هذا مع العلم أَنَّ سورة النحل مكية. نزلت آياتها كلها بمكة قبل الهجرة. وقد ذكرنا ذلك فيما سبق.

هذا. وقد أحسَّ السيوطي نفسه بالوهن المذكور، ومن ثمَّ لجأ إلى افتراض نزول الآيات ثلاث مرات: قبل الهجرة. وبعدها بأحد، ثمَّ يوم الفتح بمكة^(٣).



ويزيد في الطين بلة وجود أمثال هذه الغرائب في المدونات الحديشية الكبرى أمثال البخاري ومسلم وغيرهما. مما زعمه القوم أصحَّ كتب الحديث، لكنها رغم هذا الزعم مليئة بهكذا أساطير لا تلتئم مع قدسية الإسلام.

وقد أسبقنا الحديث عن أسطورة الغرائب، وقصة ابن نوفل، ممَّا صحَّحه القوم، وهي تمسُّ كرامة القرآن وقدسية مقام النبوة. وإليك نموذجاً آخر:

قال السيوطي: وأخرج الطبراني وابن أبي شيبه في مسنده والواحدي وغيرهم بسند فيه من لا يعرف، عن حفص بن ميسرة القرشي عن أمه عن أمها خولة وقد كانت خادم رسول الله ﷺ أَنَّ جَرُوا دَخَلَ بَيْتَ النَّبِيِّ ﷺ فَدَخَلَ تَحْتَ السَّرِيرِ فَعَمَّتْ، فَعَمَّكَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ لَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ، فَقَالَ: يَا خَوْلَةَ، مَا حَدَّثَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ؟! جِبْرَائِيلُ مَا يَأْتِينِي؟! فَفَلَّتْ فِي نَفْسِي: لَوْ هَيَّأَتِ الْبَيْتَ، فَكُنْتَهُ، فَأَهْوَيْتُ بِالْمَكْنَسَةِ تَحْتَ السَّرِيرِ فَأَخْرَجْتَ

(٢) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٢٦٣.

(١) النحل: ١٢٦-١٢٨.

(٣) الإتيان: ج ١ ص ٩٦. لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٢٦٤.

الجرو. فجاء النبي ﷺ وترتعد لحياه. وكان إذا نزل عليه الوحي أخذته الرعدة. فأنزل الله: «وَالصُّحُفِ - إِلَى قَوْلِهِ - فَتَرَضُّنِي»^(١).

قال ابن حجر - في شرح البخاري - : قصة إبطاء جبرئيل بسبب وجود جرو و كلب تحت سريره ﷺ ولم يشعر به مشهورة. لكن كونها سبب نزول الآية غريب. بل شاذ مردود^(٢). قلت: هذه القصة المزعومة مدنية، والسورة مكية بلا خلاف! غير أن الكذوب تخونه ذاكرته!!



وأخرج الشيخان (البخاري ومسلم) عن المسيّب، قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية، فقال النبي ﷺ: أي عمّ قل: لا إله إلا الله، أحتاج لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فقال النبي ﷺ: لأستغفرنّ لك ما لم أُنه عنك. فنزلت: «مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلِيَا قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ»^(٣).

ويُفند هذه المزعومة - بل المكذوبة المفتعلة - أن أبا طالب ﷺ مات قبل الهجرة بثلاث سنين، وكان عضداً قوياً لرسول الله ﷺ أما آية براءة فإنها نزلت في سنة التسع من الهجرة. أي بعد وفاة أبي طالب باثني عشرة سنة. هذا فضلاً عن الدلائل الوفيرة على إسلام أبي طالب. ذكرناها في مجالها المناسب. ولا يقول بكفره إلا ذوو الأحقاد على الإسلام والمسلمين. أحقاد بدرٍ وحُنين^(٤).

وقد لجأ السيوطي إلى افتراض نزول الآية مرتين^(٥). وأسبقنا الكلام عن هذه الآية فيما قيل من استثناء آيات مكية من سورة براءة المدنية.

(١) راجع الإنفاق: ج ١ ص ٩٢. ولباب القول بهامش الجلالين: ج ٢ ص ١٣٥-١٣٦ والآيات ١-٥ من سورة الضحى.

(٢) فتح الباري: ج ٨ ص ٥٤٥.

(٣) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٨٧، وج ص ١١٩ والآية ١١٣ من سورة النبوة.

(٤) الإنفاق: ج ١ ص ٩٥.

(٥) الإنفاق: ج ١ ص ٩٥.

وأخرج البخاري عن عمر بن الخطاب، قال: لما توفي عبد الله بن أبي سلول جاء ابنه إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه. قال عمر: فأخذت ثوبه وقلت: تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال «اشْتَغِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَشْتَغِرْ لَهُمْ إِنْ تَشْتَغِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ»^(١) وسأزيد على السبعين. قال: إنه منافق. قال: فصلي عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله: «وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ»^(٢).

قال عمر: ففجبت بغد من جرأتي على رسول الله ﷺ^(٣).

قلت: «وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ»^(٤).

كيف يظنون نبي الإسلام جهله - والعياذ بالله - بأحكام الإسلام، فيحاولوا اختلاق منقبة لابن الخطاب، وإن كان قد تستدعي الحط من قداسة رسول الله ﷺ والمنقصة من كرامته؟! بل سؤلت لهم أنفسهم أمراً، فصبر جميل. والله المستعان على ما يصفون.

أولاً: النبي ﷺ معصوم، وكل أفعاله وأقواله وحتى تقريره سنة متبعة، ليس لأحد - على الإطلاق - أن يعارضه فيما أمره أو ينهاه مما يرتبط بأمر الشريعة. إن هذا الأفضول وخروج عن الطاعة والاستسلام ومعاكسة صريحة مع قوله تعالى: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ»^(٥).

ومن ثم حاول أئمة النقد والتمحيص إنكار هذه الرواية. وقالوا: هذا وهم من الرواة. وعللوا ذلك بأنه يستلزم أن يكون عمر قد اجتهد مع وجود النص^(٦).

وحاول ابن حجر تصحيح الخبر والرد على هؤلاء، لكنه أتى بما يزيد في الطين بلة، وفي الطنبور نعمة. انظر إلى سفاسفه:

يقول: زعم غير هؤلاء أن عمر أطلع على نهي خاص في ذلك. وقال القرطبي: لعل ذلك

(١) التوبة: ٨٠.

(٢) براءة: ٨٤.

(٣) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٨٥-٨٦.

(٤) سبأ: ٢٠.

(٥) الأحزاب: ٢١.

(٦) ذكره عنهم ابن حجر في فتح الباري: ج ٨ ص ٢٥٢-٢٥٣.

وقع في خاطر عمر، فيكون من قبيل الإلهام، ويحتمل أن يكون فهم ذلك من نهي الاستغفار. قال ابن حجر: وما قاله القرطبي أقرب، لأنّه لم يتقدّم نهي عن الصلاة على المنافقين، بدليل أنّه قال في آخر الحديث: «فأنزل الله: **وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا**؟! وثنائياً: كيف علم عمر أنّ الصلاة على المنافق محرّمة في الشريعة، ولم تنزل بتحريمها آية بعد؟ كما نبتّه عليه ابن حجر؟! أهمل يجوز أن يلهم عمر بما لا يعرفه مبلغ الشريعة؟! وقد حاول ابن حجر محاولة أخرى في حلّ هذه المشكلة الثانية بما زاد وهناً في وهن وابتعاداً عن الحقيقة أكثر.

فقد أخرج عن ابن مردويه: أنّ عمر قال له عليه السلام: «أنصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه! فقال له النبي صلى الله عليه وآله: أين؟ قال: قال: **«اشْتَغِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغِرْ لَهُمْ...»**. قال ابن حجر: فكان عمر قد فهم من هذه الآية ما هو الأكثر الأغلب من لسان العرب، من أنّ «أو» ليست للتخير، بل للتسوية، في عدم الوصف المذكور. قال: وفهم عمر أيضاً من قوله تعالى: **«سَبْعِينَ مَرَّةً»** أنّها للمبالغة، وأنّ العدد المعين لا مفهوم له، بل المراد نفي المغفرة لهم ولو كثر الاستغفار، فيحصل من ذلك النهي عن الاستغفار، فأطلقه.

وفهم أيضاً أنّ المقصود الأعظم من الصلاة على الميت طلب المغفرة للميت والشفاعة له، فلذلك استلزم عنده النهي عن الاستغفار ترك الصلاة. قال: ولهذه الأمور استنكر على النبي صلى الله عليه وآله إرادة الصلاة على عبد الله بن أبي.

قال: هذا تقرير ما صدر عن عمر، مع ما عرف من شدّة صلابته في الدين! ^(١) يا للعجب من عقلية ابن حجر، كيف يتصوّر من عمر عملاقاً في فهم قضايا الدين والوقوف على مزايا اللغة، ممّا غفل عنه مثل رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو مبلغ الشريعة وأفصح من نطق بالضاد؟! من نطق بالضاد؟!!

أمثل من لا يعرف الأتْيَ من القَتِّ^(١١) ويجهل الكثير من الآداب والسنن^(١٢) يقوم بتأنيب ناموس الشريعة وصميم العربية الفصحاء؟! إن هذا إلا وهم ناشئ عن عصبية عمياء. أعاذنا الله منها!



وبعد، فإذا قد عرفت قيمة ما أسند من روايات أسباب النزول الواردة في أهم الكتب الحديثية، فكيف بالمقطوع والمرسل والمجهول... الأمر الذي يُنبئك عن أصالة مالدينا من صحاح الروايات في هذا الباب. وقد صحح كلام الإمام أحمد: ثلاثة ليس لها أصل معتمد: المغازي والملاحم والتفسير.

هذا السيوطي يخرِّج لقوله تعالى: «فَأَيُّنَّا تُولُوا قَتْمَ وَجْهٍ اللهُ»^(١٣) خمسة أوجه: الأول: إنَّه في تحويل القبلة وارتباب اليهود في ذلك. عن ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

الثاني: أن تصلِّي حينما توجَّهت به راحلتك. أخرجه الحاكم وغيره عن ابن عمر. الثالث: إنَّه كان في سفر ليلة ظلماء، فصلَّى كلَّ رجل على حياله لا يدرون أين وجه القبلة. أخرجه الترمذي من حديث عامر بن ربيعة. وكذا الدار قطني من حديث جابر. الرابع: لما نزلت «ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ»^(١٤) قالوا: إلى أين؟ فنزلت. أخرجه ابن جرير عن مجاهد.

الخامس: عن قتادة أن النبي ﷺ قال: «إِنْ أَخَا لَكُمْ قَد مَاتَ فَصَلُّوا عَلَيْهِ، فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَا يَصَلِّي إِلَى الْقَبْلَةِ. فنزلت.

قال السيوطي - تعقيباً على ذلك - : فهذه خمسة أسباب مختلفة، وأضعفها الأخير

(١١) أخرج الطبري في تفسيره (ج ٣٠ ص ٢٨) عن أنس قال: قرأ عمر سورة عيس. فلما أتى على هذه الآية «وَقَسَا كَهْفَهُ وَأَبَاهُ» قال: عرفنا المفاكهة فما الأتْي؟... ثم قال: إنَّ هذا هو الكَلْفُ. وأورده ابن كثير في تفسيره (ج ٤ ص ٤٧٣) وصحَّحه. ثم تعجب من عدم فهم عمر معنى الأتْي. لأنَّ الكلَّ يعلم أنه من نبات الأرض مما يفتات به الهائم لقوله تعالى بعد ذلك «مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنعَامِكُمْ» فالأتْي علف الدواب كالقَشِّ. (٢) راجع نوادر الأثر في علم عمر: (الغدير: ج ٦ ص ٨٣).

لإعضاله . ثم ما قبله لإرساله . ثم الثالث لضعف روايته . والثاني صحيح لكنه قال : قد أنزلت في كذا ، ولم يصرح بالسبب . والأوّل صحيح الإسناد . وصرّح فيه بذكر السبب فهو المعتمد^(١) .

سبب النزول أو شأن النزول

ما هو الفارق بين قولهم : «سبب النزول» أو «شأن النزول»؟

إن كانت هناك مشكلة حاضرة - سواء أكانت حادثة أبهم أمرها ، أم مسألة خفي وجه صوابها ، أم واقعة ضلّ سبيل مخرجها - فنزلت الآية لتعالج شأنها وتضع حلاً لمشكلتها فتلك هي أسباب النزول ، أي السبب الداعي والعلّة الموجبة لنزول قرآن بشأنها .

وهذا أخصّ من قولهم : «شأن النزول» لأنّ الشأن أعمّ مورداً من السبب - في مصطلحهم - بعد أن كان الشأن يعني : الأمر الذي نزل القرآن - آية أو سورة - لتعالج شأنه بياناً وشرحاً أو اعتباراً بمواضع اعتباره . كما في أكثرية قصص الماضين والإخبار عن أمم سالفين ، أو عن مواقف أنبياء وقديسين كانت مشوّهة وكادت تمسّ من كرامتهم أو تحطّ من قدسيّتهم ، فنزل القرآن ليعالج هذا الجانب ، ويبين الصحيح من حكاية حالهم والواقع من سيرتهم بما يرفع الإشكال والإبهام ، وينزّه ساحة قدس أولياء الله الكرام .

وعليه فالفارق بين السبب والشأن - اصطلاحاً - أنّ الأوّل يعني مشكلة حاضرة لحادثة عارضة . والثاني مشكلة أمر واقع ، سواء أكانت حاضرة أم غابرة . وهذا اصطلاح ولا مشاحّة فيه .



وقولهم : «نزلت في كذا» أعمّ ، قد يراد السبب العارض ، وقد يراد شأن أمر واقع في الغابر . وأحياناً يراد بيان حكم وتكليف شرعي دائم .

قال الزركشي : وقد عرف من عادة الصحابة والتابعين أنّ أحدهم إذا قال : نزلت هذه الآية في كذا فإنه يريد بذلك أنّ هذه الآية تتضمّن هذا الحكم . لأنّ هذا كان السبب في

نزولها^(١١).

إلا أن السيوطي خصّ أسباب النزول بالنوع الأول. ورفض أن يكون بيانه قصّة سألقة سبباً لنزول سورة أو آية قرآنية. ومن ثمّ اعترض على الواحدي - في أسباب النزول - قوله: نزلت سورة الفيل في قصّة أصحاب أبرهة الذي جاء لهدم الكعبة^(١٢).

قال: والذي يتحرّر في سبب النزول أنّه ما نزلت الآية أيام وقوعه. ليخرج ما ذكره الواحدي في سورة الفيل من أنّ سببها قصة قدوم الحيشة. فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء. بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية. كذكر قصّة قوم نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك^(١٣). مع أنّ الواحدي لم يصرّح بالسبب. بل ذكر أنّها نزلت في قصّة أصحاب الفيل.

ولا وجه لما تضايق السيوطي على نفسه وعلى الآخرين. بعد أن كان المصطلح على دواعي النزول هي المناسبات المقتضية لنزول قرآن. سواء أكانت حادثه واقعة. أم اختلافاً في مسألة شرعية فرعية أو عقائدية. أم قصّة غابرة كانت ذات عبرة أو موضع اختلاف. فأراد الله تعالى تحريرها وتهذيبها وتطهير ساحة قدس أوليائه الكرام.

التنزيل والتأويل

سأل الفضيل بن يسار الإمام أبا جعفر الباقر^(١٤) عن الحديث المعروف: ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن. فقال^(١٥): ظهره تنزيله وبطنه تأويله. منه ما قد مضى ومنه ما لم يكن. يجري كما تجري الشمس والقمر^(١٦).

وقال^(١٧): ظهر القرآن الذين نزل فيهم. وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم^(١٨). ذلك أنّ للآية وجهاً مرتبطاً بالحادثة الواقعة - التي استدعت نزولها - ووجهاً آخر عامّاً تكون الآية بذلك دستوراً كلياً يجري عليه المسلمون أبدياً. وكما أنّ الآية عالجت - بوجهها

(١١) البرهان للزركني. ج ١ ص ٣٦ - ٣٢.

(١٢) أسباب النزول للواحدى: ص ٢٥٩.

(١٣) لباب النقول بهامش الجلالين: ج ١ ص ٥.

(١٤) بصائر الدرجات: ص ١٩٦ ح ٧.

(١٥) تفسير العياشي: ج ١ ص ١١ ح ٤.

الخاصّ - مشكلة حاضرة، فإنّها - بوجهها العامّ - سوف تعالج مشاكل الأمة على مرّ الأيام. قال الإمام أبو جعفر عليه السلام: ولو أن الآية نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكنّ القرآن يجري أوّله على آخره سادمت السماوات والأرض، ولكلّ قوم آية يتلونّها هم من خير أو شرّ^(١).

نعم، إنّ الحكمة في نزول آية أو سورة ليست بالتي تقصر على معالجة مشاكل حاضرة، وليست دواءً وقتياً لداء عارضٍ وقتي، إذاً تنتفي فائدتها بتبدّل الأحوال والأوضاع. بل القرآن - في جميع آيه وسوره - نزل علاجاً لمشاكل أمّة بكاملها في طول الزمان وعرضه، وإلى ذلك يشير قولهم عليهم السلام: نزل القرآن بإتاك أعني واسمعي يا جارة^(٢).

وهذا الوجه العامّ للآية هو ناموسها الأكبر الكامن وراء ذلك الوجه الخاصّ، وإنّما يلقي بأضوائه على الآفاق من وراء ذلك الستار الظاهري، وتنبعث أنواره من ذلك البطن الكامن وراء هذا الظهر.

وهذا من اختصاص القرآن في بيان مقاصده من الوجهين الخاصّ والعامّ، ومن ثمّ فإنّ له تنزيلاً (الذين نزل فيهم) وتأويلاً (الذين عملوا بمثل أعمالهم)، وذلك ظهره وهذا بطنه.

غير أنّ الوقوف على تأويل القرآن وفهم بطون الآيات إنّما هو من اختصاص الراسخين في العلم، ممّن ثبتوا على الطريقة فسقاهم ربّهم ماءً غدقاً^(٣).

ومن ثمّ قال الإمام أبو جعفر عليه السلام - بعد أن تلا الآية - : «نحن نعلمه» أي التأويل وفي رواية أخرى: «تعرفه الأئمة»^(٤).



قال تعالى: «وَاللَّهُ الْمَشْرِقِيُّ وَالْمَغْرِبِيُّ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَوَجَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ»^(٥). هذه الآية نموذج من الآيات ذوات الوجهين، لها تنزيل ولها تأويل، ظهر وبطن، وإنّما يعلم سرّها الكامن أولوا البصائر في الدين الأئمة المعصومون عليهم السلام.

(٢) المصدر: ج ٤.

(١) تفسير العتاشي: ج ١ ص ١٠٧.

(٤) بصائر الدرجات: ص ١٩٦ ح ٧ و ٨.

(٣) راجع آية ١٦ من سورة العن.

(٥) البقرة: ١١٥.

هذه الآية تبدو - في ظاهرها - متعارضة مع آيات توجب التوجّه في الصلاة شطر المسجد الحرام^(١). ولكن مع ملاحظة سبب النزول، وأتّه دفعٌ لشبهة اليهود ورفع لارتياهم في تحويل القبلة يبيّن أن لا معارضة، ويرتفع الإبهام عن وجه الآية. ذلك أن الاستقبال في الصلاة والعبادات أمرٌ اعتباريٌّ محض، ينوط باعتبار صاحب الشريعة في مصالح يراها مقتضية حسب الأحوال والأوضاع، وليس وجه الله محصوراً في زاوية القدس الشريف أو الكعبة المكرمة.

وبذلك تنحلّ مشكلة الآية وترتفع إبهامها، وأن ليس ترخيصاً في الاتجاه بسائر الجهات.

هذا، وقد فهم الأئمة^(٢) أمراً آخر أيضاً، استخرجوه من باطن الآية، حيث تأويلها المستمر، وأنها تعني جواز التطوّع بالنوافل إلى حيث توجّهت به راحلتك... أو اشتبهت القبلة، فنصليّ إلى أيّ الجهات شئت. هكذا وجدنا صراحة الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت^(٣).

قال سيّدنا الطباطبائي^(٤): إنك إذا تصفّحت كلمات الأئمة^(٥) في عموم القرآن وخصوصه ومطلقه ومقيده لوجدت كثيراً ما استفادة حكم من عموم الآية، ثم استفادة حكم آخر مع ملاحظة خصوصها. فقد استفاد «الاستحباب» من الآية من وجه عمومها، «الوجوب» من وجهها الخاص. وهكذا «الحرمة» و«الكراهة» من الوجهين للآية بذاتها. قال: وعلى هذا المقياس تجد أصولاً هي مفاتيح لكثير من مغالقات الآيات، إنّما تجدها في كلماتهم^(٦) لا غيرهم. قال: ومن هنا يمكنك أن تستخرج من لباب كلامهم في المعارف القرآنية قاعدتين أساسيتين:

الأولى: أن كلّ عبارة من عبارات الآية الواحدة فإنها لوحدها تفيد معنى وتلقي ضوءً

(١) للبقرة: ١٤٤ و١٤٩ و١٥٠.

(٢) راجع وسائل الشريعة: باب ٨ و ١٥ من أبواب القبلة ج ٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٩، وتفسير العياشي: ج ١ ص ٥٦ - ٥٧.

على حكم من أحكام الشريعة . ثم هي مع العبارة التالية لها تفيد حكماً آخر ، ومع الثالثة حكماً ثالثاً ، وهكذا دواليك .

مثلاً قوله تعالى : «قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ»^(١) فقوله : «قُلِ اللَّهُ» جملة تامة الإفادة . وهي مع قوله : «ثُمَّ ذَرْهُمْ» أيضاً كلام آخر هو تام . ومع «فِي خَوْضِهِمْ» . وكذا مع «يَلْعَبُونَ» . كلاً كلام ذو فائدة تامة .

واعتبر نظير ذلك في كل آية شئت من آيات القرآن ..

الثانية : أن القصتين أو المعنيين إذا اشتركا في جملة أو نحوها فهما راجعان إلى مرجع واحد .

قال : وهاذان سران . تحتها أسرار ، والله الهادي^(٢) .



وقوله تعالى : «وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا»^(٣) .

قيل : نزلت بشأن الجن استأذنا رسول الله ﷺ أن يشهدوا مسجده ، وقد كان صعباً عليهم وهم منتشرون في فجاج الأرض . فنزلت : أن كل موضع من الأرض فهو مسجد لله يجوز التعبد فيه . سوى أنه يجب الإخلاص في العبادة في أي مكان كانت^(٤) . وهكذا روي عن سعيد بن جبير .

هذا إذا أخذت «المساجد» بمعنى «المعابد» : أمكنة العبادة .

وربما فسرت بمعنى المصدر . وأن العبادات بأسرها خاصة بالله تعالى لا يجوز السجود لغيره . روي ذلك عن الحسن .

وقال جمع من المفسرين كسعيد بن جبير والزجاج والفراء : إنها المواضع السبعة حالة

(٢) تفسير الميزان : ج ١ ص ٢٦٢ .

(١) الأنعام : ٩١ .

(٤) لياب القول بهامس الجالين : ج ٢ ص ١٢١ .

(٣) الجن : ٨٨ .

السجود، وهي لله، إذ هو خالقها والذي أنعم بها على الإنسان، فلا ينبغي أن يسجد بها لأحد سوى الله تعالى^(١).

وبهذا المعنى الأخير أخذ الإمام أبو جعفر محمد بن علي الجواد عليه السلام حينما سأله المعتصم العباسي عن هذه الآية، فقال: هي الأعضاء السبعة التي يُسجد عليها^(٢). وكان هذا الحادث في قصة سارق جيء به إلى مجلس المعتصم، فاختلف الفقهاء الحضور في موضع القطع من يده، فكان من رأي الإمام عليه السلام أن يقطع من مفصل الأصابع. ولما سأله المعتصم عن السبب أجاب بأن راحة الكف هي إحدى مواضع السجود السبعة، وأن المساجد لله، فلا تُقطع^(٣).

وهكذا، وبهذا الأسلوب البديع استنبط عليه السلام من تعبير القرآن دليلاً على حكم شرعي كان حلاً قاطعاً لمشكلة الفقهاء حلاً أبدياً.

وهذا من بطن القرآن وتأويله الساري مع كل زمان. تعرفه الأئمة، إمام كل عصر حسب حاجة ذلك العصر. قال الإمام الصادق عليه السلام: إن للقرآن تأويلاً، فمنه ما قد جاء ومنه ما لم يحنئ. فإذا وقع التأويل في زمان إمام من الأئمة عرفه إمام ذلك الزمان^(٤).

قال الإمام أبو جعفر الباقر عليه السلام: ما يستطيع أحد أن يدعي أن عنده جميع القرآن كله ظاهره وباطنه غير الأوصياء^(٥).

وقال الصادق عليه السلام: والله، إنني لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنه في كفي، فيه خير السماء وخبر الأرض، وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. فيه تبيان كل شيء، كما قال تعالى^(٦).

(١) وهكذا فسرها الأئمة من أهل البيت عليه السلام فيما ورد من التفسير المأثور (راجع مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٧٢، وتفسير

البرهان: ج ٤ ص ٣٩٤ - ٣٩٥). (٢) مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣٧٢.

(٣) وسائل الشيعة: باب ٤ من أبواب حد المرفقة ج ٥ ص ١٨، ٤٩٠.

(٤) بصائر الدرجات: ص ١٩٥ ج ٥. (٥) الكافي: ج ١ ص ٢٢٨ ج ٢.

(٦) الكافي: ج ١ ص ٢٢٩ ج ٤. والآية ٨٩ من سورة النحل: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ».

هل يجب حضور ناقل السبب؟

ذكر الواحدي أنه لا يحل القول في أسباب النزول، إلا بالرواية والسماع متن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب وبحثوا عن علمها^(١).

وهذا الاشتراط إنما هو من أجل الاستيثاق بأن ما ينقله حكاية عن حس مشهود، لا أنه من اجتهاد أو تخصص بالغيب. ومن ثم من عرفناه صادقاً في لهجته، ثقة في إخباره، حذراً واعياً يتجنب الحسد والتخمين، ولا يخبر إلا عن علم، ولا يروي إلا عن يقين، فإن مثله مصدق ولو كان غائب المشهد. ومن ثم نعتد قول خيار الصحابة ولو لم يصرح بحضوره المشهد، وكذا إخبار التابعين لهم بإحسان، ومن بعدهم من أئمة صادقين.

ولنفس السبب نعتد أقوال أئمتنا المعصومين بشأن تفسير القرآن، تنزيله وتأويله. لأنهم أعراف الخلق بعلوم القرآن ظاهره وباطنه، سوى أن المهم هو العلم بصحة الإسناد إليهم أو تواتر النقل، وقليل ما هو.

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص المورد

هذه قاعدة أصولية مطردة في جميع أحكام الشريعة المقدسة، فما يصدر من منابع الوحي والرسالة بشأن بيان أحكام الله وتكاليفه للعباد ليس يخص مورداً دون مورد، ولم يأت الشرع لمعالجة حوادث معاصرة، وإنما هو شرع للجميع، الأمر الذي دعا بالفقهاء إلى إلغاء الخصوصيات الموردية والأخذ بإطلاق الحكم. إن لفظياً أو مقامياً، حسب المصطلح. هذا بالنسبة إلى كافة أحكام الشريعة، سنة وكتاباً، وإن كان في الكتاب أكد. وقد عرفت صريح الروايات بهذا العموم في آيات القرآن، فكل ما في القرآن من أحكام وتكاليف واردة في الآيات الكريمة فإنما ينظر إليها الفقهاء من الوجه العام، ولا يأنهون بخصوص المورد إطلاقاً.

نعم . هناك بعض الخطابات مع فئات معهودة . صدرت على نحو القضية الخارجية^(١١) . فإنها لا تَعَمُّ بلفظها ، وإن كانت قد تَعَمُّ بملاكها . إذا كان قد أحرز يقيناً . وفي القرآن منه كثير . قال تعالى : « الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ »^(١٢) .

نزلت الآية بشأن المؤمنين بعد منصرفهم من وقعة «أحد» وقد أصابهم القرع الشديد . وكان أبو سفيان حاول الكرّة وتندّم على انصرافه عن القتال . وبلغ الخبر للمسلمين . وكان الذي أشاع الخبر هو نعيم بن مسعود الأشجعي . كما في الحديث عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام^(١٣) . وقيل : الركب الذي دسّه أبو سفيان للإرجاف بالمؤمنين . وقيل : هم المناقون بالمدينة .

لكن المؤمنين الصادقين صمدوا على الثبات والإيمان وعزموا على مجابهة العدو بكلّ مجهودهم . وانتدبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصداً لإرهاب المشركين . وفي مقدّمة المنتدبين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام .

والشاهد في قوله تعالى : « قَالَ لَهُمُ النَّاسُ » إشارة إلى أناسٍ معهودين أو فردٍ معهود . والمقصود من «الناس» الذين جمعوا لهم . هم أصحاب أبي سفيان .

نعم ، مجموعة هذه الحادثة تفيدنا مسألة الثبات على الإيمان وأن لا نهاب عدوّاً ولا تجمّع الناس ضدّ الحقّ مادام الله ناصرنا وكافلنا . نعم العولى ونعم النصير .



وقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . حَتَمَ

(١١) من مصطلح علم الميزان (المنطق) وهو عبارة عن معهودية الموضوع في القضية . كتوكك : أكرم من في المسجد أو في

السدرة . فريد من هو في سجد البلد أو مدرسته في الحال العاضر . وليس في كلّ الأزمان وكلّ المساجد والمدارس

على الإطلاق .

(١٢) آل عمران : ١٧٢ و ١٧٣ .

(١٣) مجمع البيان : ج ٢ ص ٥٤٦ .

الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم»^(١).

إنما يعني الذين كفروا على عهد ﷺ وعاندوا وأصروا على اللجاج، بعد وضوح الحق وسطوع البرهان. وليس مطلق الكفار على مر الزمان. وهذا تيسر للنبي ﷺ، فلا تذهب نفسه عليهم حسرات.

قال العلامة الطباطبائي ﷺ: ولا يبعد أن يكون المراد هم الكفار من صناديد قريش وكبراء مكة، الذين عاندوا ولجؤا في أمر الدين ولم يألوا جهداً في ذلك. إذ لا يمكن استطراد هذا التعبير في حق جميع الكفار، وإلا لانسد باب الهداية.

فالشبه أن يكون المراد من «الذين كفروا» هاهنا وفي سائر الموارد من كلامه تعالى هم كفار مكة في أول البعثة، إلا أن تقوم قرينة على خلافه، نظير ما سيأتي أن المراد من قوله: «الذين آمنوا» فيما أطلق في القرآن من غير قرينة على إرادة الإطلاق، هم السابقون الأولون من المؤمنين. خصوا بهذا الخطاب تشريفاً^(٢).

وهكذا قال ﷺ في تفسير سورة «الكافرون»: هؤلاء قوم معهودون لا كل كافر. ويدل عليه أمره ﷺ أن يخاطبهم ببراءة من دينهم وامتناعهم من دينه^(٣).
وبذلك تنحل مشكلة كثير من الآيات جاءت بهذا التعبير وأشباهه.
نعم، هذا الحكم يسري فيمن شابه أولئك في العناد واللجاج مع الحق بعد الوضوح.

نزل القرآن بإيائك أعني واسمعي يا جارة

هكذا روى أبو النضر محمد بن مسعود العياشي بإسناده عن الإمام أبي عبد الله الصادق ﷺ فيما رواه عنه عبد الله بن بكير. قال: نزل القرآن بإيائك أعني واسمعي يا جارة^(٤). وهذا مثل يضرب لمن يخاطب شخصاً أو يتكلم عن أمر وهو يريد غيره، على سبيل الكناية أو التعريض.

(٢) تفسير الميزان: ج ١ ص ٥٠.

(١) البقرة: ٦-٧.

(٤) تفسير العياشي: ج ١ ص ١٠٠ ح ٤.

(٣) تفسير الميزان: ج ٢٠ ص ٥٢٦.

وروى بإسناده عن ابن أبي عمير عمن حدّته عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما عاتب الله نبيّه فهو يعني به من قد مضى في القرآن. مثل قوله: «وَلَوْلَا أَنْ فُتِنَّاكَ لَقَدْ تَرَكْنَاكَ إِيَّاهُمْ شَيْئًا قَلِيلًا»^(١) عنى بذلك غيره عليه السلام^(٢).

قوله: «من قد مضى في القرآن» أي مضى ذكره إشارة أو تلويحاً وربما نصّاً. والأكثر أن يراد أمته عليه السلام بالعتاب، ولا سيّما المؤمنون صدر الإسلام، كانوا على قلق واضطراب في مواضعهم مع الكفّار.

وبهذا المعنى ورد قولهم عليه السلام فيما رواه محمّد بن مسلم عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: يا محمّد إذا سمعت الله ذكر أحداً من هذه الأمتة بخير فنحن هم وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء متّين مضى فهم عدونا^(٣).

لأن القرآن يجري أوّله على آخره مادامت السماوات والأرض ولكل قوم آية يتلونّها هم منها من خير أو شر^(٤) قال عليه السلام: ظهر القرآن الذين نزل فيهم. وبطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم^(٥).

كيف الإهداء إلى معالم القرآن؟

ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن، وربما بطون^(٦)، هي حقائقها الراهنة، السارية الجارية مع مختلف الأحوال ومتقلّبات الأزمان، يعرفها الراسخون في العلم، الذين ثبتوا على الطريقة فسقا هم ربهم شراً غداً^(٧).

وخير وسيلة لفتح مغالق القرآن هو اللجوء إلى أبواب رحمة الله ومنابع فيضه القدسي، أهل بيت الوحي، الذين هم أدري بما في البيت. فإنّ أيديهم مقاليد هذه المغالق ومفاتيح هذه

(٢) تفسير المناشي: ج ١ ص ١٠ ح ٥.

(١) الاسراء: ٧٤.

(٤) المصدر: ص ١٠ ح ٧.

(٣) المصدر: ص ١٢ ح ٣.

(٦) راجع تفسير البرهان: ج ١ ص ٢٠.

(٥) المصدر: ص ١١ ح ٤.

(٧) راجع آية ١٦ من سورة العنكبوت.

الأبواب.

فإنهم عدل القرآن وأحد الثقلين، الذين أوصى بهما الرسول الكريم ﷺ، وفي كلماتهم الكثير من الإرشادات إلى معالم القرآن وفهم حقائقه الناصحة، مما لا تجده في كلام غيرهم على الإطلاق.

من ذلك ماورد بشأن قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِيسِرًا **أَطْرَافِهَا**»^(١).

وقوله - في آية أخرى - : «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ **أَطْرَافِهَا**»^(٢).

وهذا تهديد ووعد بالهلاك والدمار إن لم يرضخوا لناموس الشريعة الغراء. ولكن كيف هذا التهديد؟ وبم كان هذا الوعد؟

وقد فسرها جلّ المفسرين بغلبة الإسلام والتضايق على بلاد الكفر والإلحاد. قال التعالبي: «إِنَّا نَأْتِي أَرْضَ هَوْلَاءِ بِالْفَتْحِ عَلَيْكَ فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقِبَالِ وَالْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يَوْمَنَّهُمْ أَنْ تَمُكِّنَكَ مِنْهُمْ أَيْضًا»^(٣).

وهكذا رجّحه ابن كثير قال: وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ»^(٤)، وهذا اختيار ابن جرير^(٥).

وقد ذهب ابن كثير وغيره حتى سيّد قطب إلى أنّ السورة مكيّة، ولم يذكر أحد استثناء هذه الآية منها. وسورة الأنبياء مكيّة بلا خلاف ولم يذكروا سنداً لاستثناء الآية منها. الأمر الذي لا يلتزم مع هذا الاختيار في معنى الآية.

ثمّ الآية صريحة في نقصان أطراف الأرض، ولم يعهد اختصاص اسم الأرض بمكّة المكرمة.

نعم، فتح هذا المغلاق في وجه الآية، وفسرها تفسيراً جليلاً، ما جاء في كلام الإمام

(٢) الأنبياء: ٤٤.

(١) الرعد: ٤٦.

(٤) الاحقاف: ٤٧.

(٣) تفسير التعالبي: ج ٢ ص ٢٧٤.

(٥) تفسير ابن كثير: ج ٢ ص ٥٢٠ - ٥٢١.

الصادق عليه السلام فيما رواه ابن بابويه الصدوق . قال : سئل الصادق عليه السلام عن هذه الآية فقال : فقد العلماء ^(١).

وذلك : أن الأرض يراد بها المعمورة منها في أكثر الأحيان . كما في قوله تعالى : «أَوْ يُنْفُوا مِنَ الْأَرْضِ» ^(٢) . وقد فهم منه الفقهاء - في حدّ المحاربين - نفهم من عمارة الأرض ، فلا يدخلوا بلداً ولا يحلّوا دياراً إلا أخرجوا .

وإذا كانت عمارة الأرض هي حصيلة جهود العلماء والاختصاصيين من أهل العلم ، فمفوك أن خرابها يفقد العلماء وذهب الخيار من الصلحاء . فعند ذلك تفسد البلاد وتهلك العباد . والروايات بهذا المعنى كثيرة عن الأئمة ^(٣).

وقد تنبّه لذلك بعض الأقدمين ، فيما روي عن ابن عباس : تخرب قرية ويكون العمران في ناحية . والنقصان نقصان أهلها وبركاتها . وقال الشعبي : تنقص الأنفس والشمرات . وفي رواية عن ابن عباس أيضاً : خرابها يموت علمانها وفقهاتها وأهل الخير منها . قال مجاهد : هو موت العلماء ^(٤).

قال تعالى : «وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» ^(٥).



وقوله تعالى : «وإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ» ^(٦) . فقد أشكل على المفسرين وجه هذا السجود والأمر به ، ولا تجوز العبادة لغير الله ! ومن ثم اختلفوا هل أنه كان بوضع الجباء على الأرض ، وأنهم جعلوا آدم قبلة يسجدون لله تعالى ؟ نعم . ورد الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه كان لآدم سجود طاعة ، والله سجود عبادة ^(٧) وهو

(٢) المائدة : ٣٣ .

(١) تفسير البرهان : ج ٢ ص ٣٠٢ ح ٥ .

(٤) مجمع البيان : ج ٦ ص ٣٠٠ . تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٢٠ .

(٣) تفسير البرهان : ج ٢ ص ٣٠١ - ٣٠٢ .

(٦) البقرة : ٣٤ .

(٥) الأعراف : ٩٦ .

(٧) عيون الأخبار : ج ١ ص ٢٦٣ قطعة من ح ٢٢ . بحار الأنوار : ج ١١ ص ١٤٠ ح ٦ .

كناية عن قيامهم بمصالح الإنسان عبر الحياة . فإن قوى الطبيعة بأسرها مسخرة لهذا الإنسان خاضعة تحت إرادته ... والسجود هو الخضوع التام .

قال الشاعر:

تري الأكم فيها سجداً للحوافر

أي التلال مذلة لحوافر الخيول^(١) .

وهذا نظير قوله تعالى - بشأن يوسف وإخوته - : «وَحَرُّوا لَهُ سُجْدًا»^(٢) أي وقعوا على الأرض خضوعاً له - على وجه - .



وقوله تعالى : «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ»^(٣) .

فلولا الامتناعية دلت على أن الهم من يوسف لم يقع ، سوى أن الذي منعه وعصمه من هم المعصية ماذا كان؟ فقيل : إنه رأى صورة أبيه عاضاً على إصبعه . وقيل غير ذلك - مما يتنافى وعصمة مقام النبوة - . والصحيح ما هدانا إليه الأئمة الراشدون : إنه الإيمان الصادق الذي هو منشأ العصمة في أنبياء الله ﷺ . بدليل تعقيبه بقوله : «كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ» إشارة إلى مقام عصمة الأنبياء^(٤) .

(١) يوسف: ١٠٠ .

(٢) بحار الأنوار: ج ١١ ص ١٤٠ .

(٣) راجع تفسير الميزان: ج ١١ ص ١٤٦ و ١٨١ .

(٤) يوسف: ٢٤ .

كُتَابُ الْوَحْيِ

كان رسول الله ﷺ أُمِّيًّا لَا يَقْرَأُ وَلَا يَكْتُبُ^(١). وكان في ذلك مصلحة إعجاز القرآن: «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إِذْ لَا رِثَابَ الْمَبْتُورِينَ. بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ»^(٢) والآية تدلّ على أَنه لم يتعارف منه ﷺ قِراءةً وَلَا كِتَابَةً. ولم يعهد منه ذلك، ولعلّه ﷺ كان يتظاهر بالأمّية حفظاً على سلامة القرآن من التشكيك فيه. ودعمًا لموضع إعجازه، حيث صدر على يد أمّتي لم يعهد منه كِتَابَةً وَلَا قِراءةً.

إِذْ كَانَ ﷺ بِحَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَكْتُبُ لَهُ رِسَائِلَهُ إِلَى جَنْبِ كِتَابَةِ الْوَحْيِ الْقُرْآنِيِّ النَّازِلِ عَلَيْهِ. وَمَنْ ثَمَّ اسْتِخْدَمَ مِنْ كَانَ بِمَكَّةَ آنَ ذَاكَ مَمَّنْ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ، وَهَكَذَا بَعْدَ مَا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ لَهُ بِمَكَّةَ وَأَدَامَهَا لَهُ مَدَّةَ حَيَاتِهِ الْكَرِيمَةَ هُوَ الْإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؑ وَقد كَانَ النَّبِيُّ ﷺ حَرِيصًا عَلَى أَنْ لَا يَفُوتَ عَلِيًّا شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ، فَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ - أحياناً - وَهُوَ غَائِبٌ دَعَا بَعْضَ كُتَّابِهِ لِيَكْتُبَهُ، ثُمَّ إِذَا حَضَرَ عَلِيٌّ أَعَادَهُ عَلَيْهِ لِيَكْتُبَهُ أَيْضًا. وَمَنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ كِتَابَةِ الْقُرْآنِ أَجْمَعِ وَلَا أَحْفَظَ مِنْ عَلِيٍّ ؑ.

(١) لَا يَسْتَعِي هَذَا التَّعْبِيرَ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَلَّقْ مِنْهُ قِراءةً وَلَا كِتَابَةً، لَا قَبْلَ بَعْتِهِ وَلَا بَعْدَهَا. وَذَلِكَ فِي حِكْمَةِ الْقُرْآنِ كَيْ لَا يَرْتَابَ الْمَبْتُورُونَ. قَالَ الطُّوسِي: قَالَ الْمُفَسِّرُونَ: لَمْ يَكُنْ يُحَسِّنُ الْكِتَابَةَ. قَالَ: وَالآيَةُ لَا تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ، بَلْ فِيهَا: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَكُنْ يَكْتُبُ الْكِتَابَ، وَقد لَا يَكْتُبُ الْكِتَابَ مِنْ نُحْسِنِهِ، كَمَا لَا يَكْتُبُ مِنَ الْإِحْسَنِ. (التَّبْيَانُ: ج ٨ ص ١٩٣) ذَلِكَ لِأَنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْكِتَابَةِ وَالْقِرَاءَةَ كَمَالٌ، وَلَا يَخْلُو النَّبِيُّ مِنَ الْكَمَالِ. كَمَا أَنَّ الْأَمْتَةَ عَمِيٌّ وَفِعْصٌ يَتَعَشَّاهُ مَقَامَ النَّبِيَّةِ الْكَرِيمِ. وَفِي تَفْسِيرِ الْعِزَّانِ (ج ١٦ ص ١٤٥): طَافَرَ التَّعْبِيرُ، نَفْيُ الْعَادَةِ، وَهُوَ الْأَنْسَبُ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مِيقَاتِ الْعَجْزَةِ.

قال سليم بن قيس الهلالي - وقد عدّه النجاشي من الطبقة الأولى^(١) من زمرة السلف الصالح :- جلست إلى عليّ ﷺ بالكوفة في المسجد والناس حوله، فقال: سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله، فوالله ما نزلت آية من كتاب الله إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها، فقال ابن الكوّاء^(٢): فما كان ينزل عليه وأنت غائب؟ فقال ﷺ: بلى، يحفظ عليّ ما عُيْتُت عنه، فإذا قدمت عليه قال لي: يا عليّ، أنزل الله بعدك كذا وكذا، فيقرأني، وتأويله كذا وكذا فيعلمني^(٣). والتأويل هنا تفسير مواضع إبهام الآية.

وأول من كتب الوحي لرسول الله ﷺ عند مقدمه المدينة هو أبي بن كعب، الصحابي الجليل، قال ابن سعد: كان أبي يكتب في الجاهلية قبل الإسلام، وكانت الكتابة في العرب قليلة، وكان يكتب في الإسلام الوحي لرسول الله ﷺ^(٤).

قال ابن عبد البر: أول من كتب لرسول الله ﷺ عند مقدمه المدينة أبي بن كعب، وهو أول من كتب في آخر الكتاب: وكتب فلان^(٥).

وهو الذي أمر الله رسوله أن يقرأ عليه القرآن ويعرضه عليه، وكان معن عرضت عليه الفرصة الأخيرة، ومن ثم تولّى المرجعية الأعلى للجنة توحيد المصاحف على عهد عثمان، كان هو العملي عليهم، وكان إذا تدارأوا في شيء يصحّحه لهم، وغير ذلك ممّا شرحناه في الجزء الأول من التمهيد^(٦).

وكان زيد جارا لرسول الله ﷺ بالمدينة، كان إذا لم يحضر أبيّ دعاه ليكتب له، ولا سيّما رسائله بالعبرية، ثمّ تداوم هو وأبيّ الكتابة لرسول الله ﷺ.

(١) رجال النجاشي: ص ٦ في ذكر الطبقة الأولى.

(٢) هو عبد الله بن عمرو اليشكري، عالم نشأة، وسأله لأسر المؤمنين ﷺ معروفة.

(٣) كتاب سليم بن قيس الهلالي برواية أبان بن أبي عتاش البصري التابعي: ص ٢١٢ - ٢١٤.

(٤) الطبقات لابن سعد: ج ٣ ص ٢٠٩ طبع لندن.

(٥) الإصابة لابن حجر: ج ١ ص ١٩، الاستيعاب بهامته ج ١ ص ٥٠ و ٥١.

(٦) راجع التمهيد: ج ١ ص ٣٣٦ و ٣٤٤، والمصاحف للسجستاني: ص ٣٠.

قال ابن عبد البر: كانا يكتبان الوحي بين يدي رسول الله ﷺ ويكتبان كتبه إلى الناس وما يقطع وغير ذلك. قال: وكان زيد ألزم الصحابة لكتاب الوحي، وكان يكتب كثيراً من الرسائل^(١١).

أخرج ابن داود السجستاني بإسناده إلى ثابت عن زيد بن ثابت، قال: قال النبي ﷺ: أتحسن السريانية، فإنها تأتيني كتب؟ قلت: لا. قال: فتعلمتها... وأخرج ابن سعد: أنه قال لي رسول الله ﷺ: لعلنا قدم المدينة: تعلم كتاب اليهود، فأبى والله ما آمن اليهود على كتابي، قال: فتعلمته في أقل من نصف شهر. وفي حديثه الآخر: قال رسول الله ﷺ: يأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تعلم كتاب العبرانية أو قال السريانية؟ فقلت: نعم، قال: فتعلمتها في سبع عشرة ليلة - أو في تسعة عشر يوماً^(١٢). والظاهر أن الصحيح هي العبرية، لأنها كانت لغة اليهود الدارجة، وبها كانت كتاباتهم آنذاك.



وهؤلاء الثلاثة - علي بن أبي طالب عليه السلام، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت - كانوا هم العمدة في كتابة الوحي، وكانوا حضوره ﷺ في جميع أيامه، أو يتناوبون. أما غيرهم ممن عدّوهم في كتاب الوحي فلم يكونوا بتلك المرتبة. قال ابن الأثير: وكان من المواظبين على كتابة الرسائل: عبد الله بن الأرقم الزهري. وكان الكاتب ليهود رسول الله ﷺ إذا عاهد وصلحه إذا صالح: علي بن أبي طالب عليه السلام. قال: وممن كتب لرسول الله ﷺ: الخلفاء الثلاثة، والزيير بن العوام، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص، وحنظلة الأسدي، والعلاء بن الحضرمي، وخالد بن الوليد، وعبد الله بن رواحة، ومحمد بن مسلمة. وعبد الله بن أبي سلول، والمغيرة بن شعبة، وعمر بن العاص،

(١١) أسد الغابة لابن الأثير: ج ١ ص ٥٠، الاستبصار بهامش الإصابة: ج ١ ص ٥٠.

(١٢) راجع المصاحف للسجستاني: ص ٣، والطبقات لابن سعد: ج ٢ ق ٢ ص ١١٥.

والظاهر أن تلك العمدة الثلاثة مبالغ فيها، أو لعلها كانت له الإمامة بتلك اللغة فأعتقها في تلك العمدة القصيرة.

ومعاوية بن أبي سفيان، وجهم - أو جهيم - بن الصلت، ومعيقب بن أبي فاطمة، وشرحبيل بن حسنة. وهكذا ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب^(١).

والظاهر أن هؤلاء كانوا أهل قراءة وكتابة في العرب آنذاك. فكان النبي ﷺ يستخدمهم أحياناً لكتاباتهم إذا لم يحضر كتابه الرسيون.

وقد عدّ أبو عبد الله الزنجاني أكثر من أربعين شخصاً كانوا يكتبون لرسول الله ﷺ^(٢) والظاهر أنهم من هذا القبيل.

قال ابن الأثير: وأول من كتب له ﷺ من قريش: عبد الله بن سعد بن أبي سرح، ثم ارتدّ ورجع إلى مكة. فنزل فيه: «ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إليّ ولم يُوحَ إليه شيء»^(٣).

يقال: إنّه ﷺ أملى عليه ذات يوم: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين - إلى قوله - ثم أنشأناه خلقاً آخر» فجرى على لسان عبد الله بن سعد: «فتبارك الله أحسن الخالقين»^(٤) فأملأه النبي ﷺ كذلك وقال: هكذا أنزل. فارتدّ عدو الله وشك في الأمر. زاعماً أنه ينزل عليه الوحي كما ينزل على النبي ﷺ، وهدر رسول الله ﷺ دمه. فلما كان يوم الفتح جاء به عثمان - وهو أخوه من الرضاعة - مستعظماً له، فسكت رسول الله ﷺ، فأعاد عليه فسكت، لعله من يتندب فيقتله، حتى أعفاه رسول الله ﷺ لعثمان. فلما مضى قال لأصحابه: ألم أقل من رآه فليقتله؟ فقال عباد بن بشر: كانت عيني إليك يا رسول الله ﷺ أن تشير إليّ فأقتله. فقال النبي ﷺ: الأنبياء لا يقتلون بالإشارة. وهكذا في الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: نزلت في ابن أبي سرح^(٥).

كان الكتابة على عهد النبي ﷺ يكتبون ما نزل من القرآن على ما تيسر لهم الكتابة عليه، من

(١) أسد الغابة لابن الأثير: ج ١ ص ٥٠. الاستيعاب بهامش الإصابة: ج ١ ص ٥٠.

(٢) تاريخ القرآن للزنجاني: ص ٢٠ - ٢١. (٣) أسد الغابة: ج ١ ص ٥٠ والآية ٩٣ من سورة الأنعام.

(٤) راجع مجمع البيان: ج ٤ ص ٣٣٥ الطبعة الإسلامية. (٥) المؤمنون: ١٢ - ١٤.

القُصْب^(١) واللِّخَاف^(٢) والرقاع^(٣) وقطع الأديم^(٤) وعظام الأكتاف والأضلاع. وأحياناً القراطيس المهيأة لهم ذلك العهد. ثم يوضع المكتوب - أياً كان - في بيت رسول الله ﷺ. وهكذا انتقضى العهد النبوي السعيد والقرآن مجموع على هذا النمط، بيد أنه لم يكتب تماماً في صحف ولا رتب في مصاحف، بل كتب متنوراً على الرقاع وقطع الأديم والقراطيس، مما ذكرنا.

قال زيد بن ثابت: كتنا عند رسول الله ﷺ فآلف القرآن من الرقاع^(٥) أي نجمعه في مكان أو في وعاء. وهكذا كان الصحابة قد يستنسخ بعضهم سورة أو سوراً من القرآن ويجعلها في وعاء كان يسمى الصحف ويلقّفه في بيته.. كل ذلك من غير مراعاة ترتيب بين السور كما هو الآن^(٦).

نعم، كان التأليف آنذاك - أيام حياته ﷺ عبارة عن ترتيب الآيات ضمن السور، إما حسب النزول كما هو الأغلب - أو حسب إرشاد النبي ﷺ بتوقيف من جبرائيل، كان يقول: ضعوا هذه الآية في موضع كذا من سورة كذا.

أما الصحابة يومذاك فكانوا يستنسخون القرآن حسبما تيسر لهم في قرطاس أو كنف أو عظم أو نحو ذلك بالمقدار الذي يبلغهم عن رسول الله ﷺ أو حسبما يريدونه. وكان الأكثر يعتمدون على حفظهم، فلا يكتب جرياً على عادة العرب في حفظ آثارها وأشعارها وخطبها ونحو ذلك^(٧).

قال سيدنا الطباطبائي رحمه الله: لم يكن القرآن مؤلفاً في زمن النبي ﷺ ولم يكن منه سوى سور وآيات متفرقة في أيدي الناس^(٨).

(١) القُصْب - بضتين - جمع عسب، وهو جريد النخل، كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف الرخيص.

(٢) اللِّخَاف - بكسر اللام - جمع لخفة - بفتح اللام وسكون الغاء -، وهي العجارة الرقيقة، أو هي صفائح الحجارة.

(٣) الرقاع: جمع رقعة، تكون من جلد أو ورق أو كاغذ. (٤) الأديم: الجلد.

(٥) مناهل العرفان للزرقاتي: ج ١ ص ٢٤٧. (٦) راجع التمهيد: ج ١ ص ٢٩٢.

(٧) راجع المناهل: ج ١ ص ٢٤٧ و ٢٤٨. (٨) تفسير الصبران: ج ٣ ص ٧٨ و ٧٩.

تاريخ القرآن

- تأليف القرآن

- توحيد المصاحف

تأليف القرآن

تأليف القرآن في شكله الحاضر - في نظم آياته وترتيب سوره، وكذلك في تشكيله وتنقيطه وتفصيله إلى أجزاء ومقاطع - لم يكن وليد عامل واحد، ولم يكتمل في فترة الوحي الأولى، فقد مرّت عليه أدوار وأطوار، ابتدأت بالعهد الرسالي، وانتهت بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، ثم إلى عهد الخليل بن أحمد النحويّ الذي أكمل تشكيله بالوضع الموجود.

وهو بحث أشبه بمعالجة قضية تاريخية مذبّلة عن أحوال وأوضاع مرّت على هذا الكتاب السماويّ الخالد. غير أنّ مهتتنا الآن هي العناية بدراسة القرآن من زاوية جمعه وتأليفه مصحفاً بين دفتين، والبحث عن الفترة التي حصل فيها هذا الجمع والتأليف، وعن العوامل التي لعبت هذا الدور الخطير. ومن ثمّ سنفضّل الكلام عن القرآن في عهده الأوّل الذي لم يتجاوز نصف قرن، ثمّ نوجز الكلام في أحوال مرّت عليه في أدوار متأخرة. والبحث الحاضر يكتمل في ثلاث مراحل أساسية:

أولاً: نظم كلمات القرآن بصورة جعل وتراكيب كلامية ضمن الآيات.

ثانياً: تأليف الآيات ضمن السور قصيرة أم طويلة.

ثالثاً: ترتيب السور بين دفتين على صورة مصحف كامل.

ونحن إذ نسير على هذا المنهج لا نتعافل صعوبة المسلك الذي نسلكه بهذا الصدد، إنّه بحث ذو جوانب خطيرة عن كتاب سماويّ احتفظ على أصالته في ذمّة الخلود. وكفّل سعادة عليا للبشريّة كافة إذا ما سارت على ضوء برامجه الحكيمة، وتمسّكت بعري حبله

الوثيق. ومن ثمَّ فإنَّ الزلَّةَ في سبيل الوصول إلى حقائقه ومعارفه خطيرة ومخطرة في نفس الوقت. ونسأله تعالى أن يمدَّنَّا بتوفيقه ويهدينَّا إلى طريق الحقِّ والصواب. إنَّه قريبٌ مجيب.

نظم كلماته

لا شكَّ أنَّ العامل في نظم كلمات القرآن وصياغتها جُملاً وتراكيبٍ كلامية بديعة هو الوحي السماوي المعجز. لم يتدخَّل فيه أيُّ يد بشرية إطلاقاً. كما ولم يحدث في هذا النظم الكلمي أيُّ تغيير أو تحريف عبر العصور: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(١) إذ في ذلك يتجسَّد سرُّ ذلك الإعجاز الخالد، الَّذِي لا يزال يتحدَّى به القرآن الكريم. ولمزيد التوضيح نعرض مايلي:

أولاً: إسناد الكلام إلى متكلِّم خاصٍّ يستدعي أن يكون هو العامل في تنظيم كلماته وتنسيق أسلوبه التعبيري الخاصِّ. أمَّا إذا كان هو منتقياً كلمات مفردة، وجاء آخر فنظَّمها في أسلوب كلامي خاصٍّ فإنَّ هذا الكلام ينسب إلى الثاني لا الأوَّل. وهكذا القرآن المجيد هو كلام الله العزيز الحميد، فلا بدَّ أن يكون الوحي هو العامل الوحيد في تنظيم كلماته جُملاً وتراكيبٍ كلامية بديعة. أمَّا نفس الكلمات من غير اعتبار التركيب والتأليف فكان العرب يتداولونها ليل نهار، إنَّما الاعجاز في نظمها جاء من قبل وحي السماء.

ثانياً: كان القسط الأوفر من إعجاز القرآن كامناً وراء هذا النظم البديع وفي أسلوبه هذا التعبيري الرائع. من تناسب نغمي مرن. وتناسق شعري عجيب، وقد تحدَّى القرآن فصحاء العرب وأرباب البيان - بصورة عامَّة - لو يأتوا بمثل هذا القرآن، و«لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً»^(٢). فلو جَوَّزنا - محالاً - إمكان تدخُّل يد بشرية في نظم القرآن كان بمعنى إبطال ذلك التحدي الصارخ. ومن ثمَّ كان ما ينسب إلى ابن مسعود: جواز تبديل

العهن بالوصوف في الآية الكريمة^(١) أو قراءة أبي بكر: «وجاءت سكرة الحق بالموت»^(٢) مكذوباً، أو هو اعتباراً شخصياً لا يتسم بالقرآنية في شيء.

ثالثاً: اتفاق كلمة الأمة في جميع أدوار التاريخ على أن النظم الموجود والأسلوب القائم في جمل وتراكيب الآيات الكريمة هو من صنع الوحي السماوي لا غيره. الأمر الذي التزم به جميع الطوائف الإسلامية على مختلف نزعاتهم وآرائهم في سائر المواضيع. ومن ثم لم يتردد أحد من علماء الأدب والبيان في آية قرآنية جاءت مخالفة لقواعد رسموها، في أخذ الآية حجة قاطعة على تلك القاعدة وتأويلها إلى ما يلتئم وتركيب الآية. وذلك علماً منهم بأن النظم الموجود في الآية وحي لا يتسرّب إليه خطأ البتة، وإنما الخطأ في فهمهم هم، وفيما استنبطوه من قواعد مرسومة.

مثال ذلك قوله تعالى: «وما أرسلناك إلا كافة للناس»^(٣) فزعموا أن الحال لا تتقدم على صاحبها المجرور بحرف، والآية جاءت مخالفة لهذه القاعدة. ومن ثم وقع بينهم جدل عريض ودار بينهم كلام في صحة تلك القاعدة وسقمها^(٤). ولجأ ابن مالك أخيراً إلى نبذ القاعدة بحجة أنها مخالفة للآية، قال:

وسبق حال ما بحرف جرّ قد أبوا ولا أمنعه فقد ورد

تأليف الآيات

وأما تأليف الآيات ضمن كل سورة - على الترتيب الموجود - فهذا قد تحقّق في الأكثر الساحق وفق ترتيب نزولها؛ كانت السورة تبتدأ بسم الله الرحمن الرحيم فتسجّل الآيات التي تنزل بعدها من نفس هذه السورة، واحدة تلو أخرى تدريجياً حسب النزول، حتى تنزل بسملة أخرى، فيعرف أن السورة قد انتهت وابتدأت سورة أخرى.

(١) الفارعة: ٥. راجع تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة: ص ١٩.

(٢) ق ١٩، راجع تفسير الطبري: ج ٢٦ ص ١٠٠ وأصل الآية: «وجاءت سكرة الموت بالحق».

(٣) سبأ: ٢٨. (٤) راجع شرح التوضيح لعبد الأزهري، والكشاف للزجاج.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «كان يُعرف انقضاء سورة بنزول بسم الله الرحمان الرحيم ابتداءً لأخرى»^(١).

قال ابن عباس: كان النبي صلى الله عليه وآله يعرف فصل سورة بنزول بسم الله الرحمان الرحيم، فيعرف أن السورة قد ختمت وابتدأت سورة أخرى^(٢).

كان كتبة الوحي يعرفون بوجوب تسجيل الآيات ضمن السورة التي نزلت بسملتها، حسب ترتيب نزولها واحدة تلو أخرى كما تنزل، من غير حاجة إلى تصريح خاص بشأن كل آية آية.

هكذا ترتبت آيات السور وفق ترتيب نزولها، على عهد الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله، وهذا ما نسّميه «الترتيب الطبيعي» وهو العامل الأول الأساسي للترتيب الموجود بين الآيات في الأكثرية الغالبة.

والمعروف أن مصحف علي عليه السلام وضع على دقة كاملة من هذا الترتيب الطبيعي للنزول، الأمر الذي تخلّفت عنه مصاحف سائر الصحابة، على ما سنشير.



وهناك عامل آخر عمل في نظم قسم من الآيات على خلاف ترتيب نزولها، وذلك بنص من رسول الله صلى الله عليه وآله وتعيينه الخاص. كان يأمر - أحياناً - بشب آية في موضع خاص من سورة سابقة كانت قد ختمت من قبل. ولا شك أنه صلى الله عليه وآله كان يرى المناسبة القريبة بين هذه الآية النازلة والآيات التي سبق نزولها، فيأمر بشبها معها بإذن الله تعالى.

وهذا جانب استثنائي للخروج عن ترتيب النزول، كان بحاجة إلى تصريح خاص: روى أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله صلى الله عليه وآله إذ شخص بصره ثم صوّبه، ثم قال: أتاني جبرائيل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه

(١) نسر المصنف: ج ١ ص ١١.

(٢) المسند للحاكم: كتاب الصلاة ج ١ ص ٢٣١، تاريخ الخلفاء: ج ٢ ص ٢٧ طبع المبيدي.

السورة «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...»^(١) فجعلت في سورة النحل بين آيات الاستشهاد وآيات العهد^(٢).

وروي أن آخر آية نزلت قوله تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ»^(٣) فأشار جبرائيل أن توضع بين آيتي الربا والدين من سورة البقرة^(٤).

وعن ابن عباس والسدي: أنها آخر ما نزلت من القرآن. قال جبرائيل: وضعها في رأس التمانين والمائتين^(٥).

وعن ابن عباس أيضاً قال: كان رسول الله ﷺ يأتي عليه الزمان وهو ينزل عليه السور ذوات العدد، فكان إذا نزل عليه شيء دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا^(٦).

هذا ممّا لا خلاف فيه كما صرّح بذلك أبو جعفر بن الزبير^(٧).

ترتيب السور

وأما جمع السور هو ترتيبها بصورة مصحف مؤلف بين دفتين فهذا قد حصل بعد وفاة النبي ﷺ. انقضى العهد النبوي والقرآن منثور على العسب واللخاف والرقاع وقطع الأديم^(٨) وعظام الأكتاف والأضلاع وبعض الحرير والقراطيس وفي صدور الرجال.

كانت السور مكتملة على عهده ﷺ مرتبة آياتها وأسمائها، غير أن جمعها بين دفتين لم يكن حصل بعد. نظراً لتربّ نزول قرآن على عهده ﷺ، فما دام لم ينقطع الوحي لم يصح

(١) النحل: ٩٠. (٢) الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ج ١ ص ٦٢.

(٣) البقرة: ٢٨٦. (٤) الإتيان: ج ١ ص ٦٢.

(٥) مجمع البيان للطبرسي: ج ٢ ص ٣٩٤.

(٦) أخرجه الترمذي بطريق حسن والحاكم بطريق صحيح. (راجع البرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٤١ وتاريخ الخفوي: ج ٢ ص ٣٦، طبع الحيدري). (٧) الإتيان: ج ١ ص ٦٠.

(٨) العسب: جريدة النخل إذا كسخت خصوصاً، واللخف: حجارة بيض رقائق، والأديم: الجلد المدبوغ. وهكذا ذهب السيد الطباطبائي إلى أنه لم يجمع القرآن على عهد ﷺ. (راجع الميزان: ج ٣ ص ١٧٨).

تأليف السور مصحفاً، إلا بعد الاكتمال وانقطاع الوحي. الأمر الذي لم يكن يتحقق إلا بانقضاء عهد النبوة واكتمال الوحي.

قال جلال الدين السيوطي: كان القرآن كتب كله في عهد رسول الله ﷺ لكن غير مجموع في موضع واحد ولا مرتب السور^(١).

وقال الإمام الصادق عليه السلام: قال رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: يا علي! القرآن خلف فراشي في الصحف والحريير والقراطيس، فخذوه واجمعوه ولا تضيّعوه^(٢).

وأول من قام بجمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ مباشرة وبوصية منه هو الإمام علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، ثم قام بجمعه زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر. كما قام بجمعه كل من ابن مسعود وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري وغيرهم، حتى انتهى الأمر إلى دور عثمان. فقام بتوحيد المصاحف وإرسال نسخ موحدة إلى أطراف البلاد، وحمل الناس على قراءتها وترك ما سواها - على ما سنذكر -.

كان جمع علي عليه السلام وفق ترتيب النزول: المكي مقدم على المدني، والمنسوخ مقدم على الناسخ، مع الإشارة إلى مواقع نزولها ومناسبات النزول.

قال الكلبي: لما توفي رسول الله ﷺ قعد علي بن أبي طالب عليه السلام في بيته فجمعه على ترتيب نزوله. ولو وجد مصحفه لكان فيه علم كبير^(٣).

وقال عكرمة: لو اجتمعت الإنس والجن على أن يؤلفوه كتأليف علي بن أبي طالب عليه السلام ما استطاعوا^(٤).

وأما جمع غيره من الصحابة فكان على ترتيب آخر: فدموا السور الطوال على القصار. فقد أتبوا السبع الطوال (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، يونس) قبل العشرين (الأنفال، براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون).

(١) الإبتقان: ج ١ ص ٥٧. مناهل العرفان للزرقاني: ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٤٨. (٣) التسهيل لعلوم التنزيل: ج ١ ص ٤.

(٤) الإبتقان: ج ١ ص ٥٧.

الشعراء، الصافات) ثم المثاني (هي التي نقل آياتها عن مائة وهي عشرون سورة تقريباً) ثم الحواميم (السور التي افتتحت بحم) ثم المفصلات (ذوات الآيات القصار) لكثرة فواصلها، وهي السور الأخيرة في القرآن.

وهذا يقرب نوعاً ما من الترتيب الموجود الآن - على ما سيأتي - .

نعم، لم يكن جمع زيد مرتباً ولا منتظماً كمصحف، وإنما كان الاهتمام في ذلك الوقت على جمع القرآن عن الضياع، وضبط آياته وسوره حذراً عن التلف بموت حامله، فدونت في صحف وجعلت في إضارة، وأودعت عند أبي بكر مدة حياته ثم عند عمر بن الخطاب حتى توفاه الله، فصارت عند ابنته حفصة، وهي النسخة التي أخذها عثمان لمقابلة المصحف عليها، ثم ردها عليها، وكانت عندها إلى أن ماتت، فاستلبها مروان من ورثتها حينما كان والياً على المدينة من قبل معاوية، فأمر بها فشقت، وسنذكر كل ذلك بتفصيل.

تمحيص الرأي المعارض

ما قدمنا هو المعروف عن رواة الآثار، وعند الباحثين عن شؤون القرآن، منذ الصدر الأوّل فإلى يومنا هذا، ويوشك أن يتفق عليه كلمة أرباب البسّر والتواريخ. ولكن مع ذلك نجد من ينكر ذلك التفصيل في جمع القرآن، ويرى أنّ القرآن بنظمه القائم وترتيبه الحاضر كان قد حصل في حياة الرسول ﷺ.

وقد ذهب إلى هذا الرأي جماعة من علماء السلف كالقاضي وابن الأنباري والكرماني والطبسي^(١)، ووافقهم علّم الهدى السيد المرتضى رحمته. قال: كان القرآن على عهد ﷺ مجموعاً مؤلفاً على ما هو عليه الآن. واستدلّ على ذلك بأنّ القرآن كان يُدرّس ويحفظ جميعه في ذلك الزمان حتى عيّن جماعة من الصحابة في حفظهم له، وأنّه كان يعرض على النبي ﷺ ويتلى عليه وأنّ جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب

وغيرهما ختموا القرآن على النبي - ﷺ - عدّة ختمات . وكلّ ذلك يدلّ بأدنى تأمل على أنّه كان مجموعاً مرتباً غير مبتور ولا ميثوث^(١).

لكن حفظ القرآن هو بمعنى حفظ جميع سورته التي اكتملت آياتها، سواء أكان بين السور ترتيب أم لا . وهكذا ختم القرآن هو بمعنى قراءة جميع سورته من غير لحاظ ترتيب خاصّ بينها . أو الحفظ كان بمعنى الاحتفاظ على جميع القرآن النازل لحدّ ذلك والتحقّف عليه دون الضياع والتفرقة ، الأمر الذي لا يدلّ على وجود ترتيب خاصّ كان بين سورته كما هو الآن . هذا . وقد ذهب إلى ترجيح هذا الرأي أيضاً سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله نظراً إلى الأمور التالية:

أولاً: أحاديث جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ بنفسها مناقضة ، تتضارب مع بعضها البعض ، ففي بعضها تحديد زمن الجمع بعهد أبي بكر ، وفي آخر بعهد عمر . وفي ثالث بعهد عثمان . كما أنّ البعض ينصّ على أنّ أول من جمع القرآن هو زيد بن ثابت . وآخر ينصّ على أنّه أبو بكر ، وفي ثالث أنّه عمر . إلى أمثال ذلك من تناقضات ظاهرة .

ثانياً: معارضتها بأحاديث دلّت على أنّ القرآن كان قد جمع على عهده ﷺ . منها حديث الشعبي ، قال : جمع القرآن على عهده سنة : أبي بن كعب ، وزيد بن ثابت . ومعاذ بن جبل ، وأبو الدرداء . وسعد بن عبيد ، وأبو زيد . وفي حديث أنس أنّهم أربعة : أبيّ ومعاذ ، وزيد ، وأبو زيد . وأمثال ذلك .

ثالثاً: منافاتها مع آيات التحدي ، التي هي دالّة على اكتمال سور القرآن وتمايز بعضها عن بعض . ومتناقبة أيضاً مع إطلاق لفظ الكتاب على القرآن في لسانه ﷺ الظاهر في كونه مؤلفاً كتاباً مجموعاً بين دفتين .

رابعاً: مخالفة ذلك مع حكم العقل بوجوب اهتمام النبي ﷺ بجمعه وضبطه عن الضياع والإهمال .

خامساً: مخالفته مع إجماع المسلمين، حيث يعتبرون النصّ القرآني متواتراً عن النبي نفسه، في حين أنّ بعض هذه الروايات تشير إلى اكتفاء الجامعين بعد الرسول ﷺ بشهادة رجلين أو رجل واحد!

سادساً: استلزام ذلك تحريفاً في نصوص الكتاب العزيز، حيث طبيعة الجمع المتأخّر تستدعي وقوع نقص أو زيادة في القرآن، وهذا مخالف لضرورة الدين^(١).
 وزاد بعضهم: أنّ في المناسبة الموجودة بين كلِّ سورة مع سابقتها ولاحقها لدليلاً على أنّ نظمها وترتيبها كان بأمر الرسول ﷺ، إذ لا يعرف المناسبة بهذا الشكل المبدع البالغ حدّ الإعجاز غيره ﷺ.



لكن يجب أن يعلم: أنّ قضية جمع القرآن حدث من أحداث التاريخ، وليست مسألة عقلانية قابلة للبحث والجدل فيها. وعليه فيجب مراجعة النصوص التاريخية المستندة من غير أن يكون مجال لتحوّل الفكر فيها على آية حال!
 وقد سبق اتفاق كلمة المؤرّخين ونصوص أرباب السيرة وأخبار الأمم ووافقهم أصحاب الحديث طرّاً على أنّ ترتيب السور شيء حصل بعد وفاة الرسول ﷺ، ولم يكن بالترتيب الذي نزلت عليه السور.

وبعد، فلا نرى أيّ منافضة بين روايات جمع القرآن، إذ لا شك أنّ عمر هو الذي أشار على أبي بكر بجمع القرآن، وهذا الأخير أمر زيداً أن يتصدّى القضية من قبّله، فيصح إسناد الجمع الأوّل إلى كلّ من الثلاثة بهذا الاعتبار.

نعم، نسبة الجمع إلى عثمان كانت باعتبار توحيد المصاحف ونسخها في صورة موحّدة. وأمّا نسبة توحيد المصاحف إلى عمر فهو من اشتباه الراوي قطعاً، لأنّ الذي فعل ذلك هو عثمان بإجماع المؤرّخين.

وحدِيث سَنَّةٍ أَوْ أَرْبَعَةَ جَمَعُوا الْقُرْآنَ عَلَى عَهْدِهِ ﷺ فَمَعْنَاهُ: الْحِفْظُ عَنِ ظَهْرِ الْقَلْبِ، حَفِظُوا جَمِيعَ الْآيَاتِ النَّازِلَةِ لِحَدِّ ذَاكَ الْوَقْتِ. أَمَّا الدَّلَالَةُ عَلَى وَجُودِ نَظْمٍ كَانَ بَيْنَ سُورِهِ فَلَا. وَأَمَّا حَدِيثُ التَّحْدِيثِ فَكَانَ بِنَفْسِ الْآيَاتِ وَالسُّورِ، وَكُلُّ آيَةٍ أَوْ سُورَةٍ قُرْآنٌ، وَلَمْ يَكُنِ التَّحْدِيثُ يَوْمًا مَّا بِالترْتِيبِ الْقَائِمِ بَيْنَ السُّورِ، كَيْ يَتَوَجَّهَ الاسْتِدْلَالُ الْمَذْكُورُ!

عَلَى أَنَّ التَّحْدِيثَ وَقَعَ فِي سُورِ مَكِّيَّةٍ^(١) أَيْضًا، وَلَمْ يَجْمَعْ الْقُرْآنُ قَبْلَ الْهَجْرَةِ قَطْعِيًّا. وَاهْتِمَامُ النَّبِيِّ ﷺ بِشَأْنِ الْقُرْآنِ، شَيْءٌ لَا يَنْكُرُ. وَمَنْ ثَمَّ كَانَ حَرِيصًا عَلَى تَيْبِ الْآيَاتِ ضَمِنَ سُورَهَا فَوْرَ نَزْوِلِهَا، وَقَدْ حَصَلَ النِّظْمُ بَيْنَ آيَاتِ كُلِّ سُورَةٍ فِي حَيَاتِهِ ﷺ. أَمَّا الْجَمْعُ بَيْنَ السُّورِ وَتَرْتِيبِهَا كَمَصْحَفٍ مَوْحَّدٍ فَلَمْ يَحْصُلْ حِينَئِذٍ. نَظْرًا لِتَرْقُبِ نَزْوِلِ قُرْآنٍ عَلَيْهِ، فَمَا لَمْ يَنْقَطِعِ الْوَحْيُ لَا يَصِحُّ جَمْعُ الْقُرْآنِ بَيْنَ دَفْتَيْنِ كَكِتَابٍ. وَمَنْ ثَمَّ لَمَّا أَيْقَنَ بِانْقِطَاعِ الْوَحْيِ بِوَفَاتِهِ ﷺ أَوْصَى إِلَى عَلِيٍِّّ بِجَمْعِهِ.

وَمَعْنَى تَوَاتُرِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ هُوَ الْقَطْعُ بِكَوْنِهِ وَحِيًّا، الْأَمْرُ الَّذِي يَحْصُلُ مِنْ كُلِّ مُسْتَدَدٍ وَثِيقٍ. وَلَيْسَ التَّوَاتُرُ - هُنَا - بِمَعْنَاهِ الْمَصْطَلَحِ عِنْدَ الْأُصُولِيِّينَ.

وَأَمَّا اسْتِلْزَامُ تَأَخُّرِ الْجَمْعِ تَحْرِيفًا فِي كِتَابِ اللَّهِ فَهُوَ اِحْتِمَالٌ مُجَرَّدٌ لَا سِنْدَ لَهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِنَا بِضَيْطِ الْجَامِعِينَ وَقَرَبِ عَهْدِهِمْ بِنَزْوِلِ الْآيَاتِ وَشِدَّةِ احْتِيَاطِهِمْ عَلَى الْوَحْيِ، بِمَا لَا يَدْعُ مَجَالًا لِتَسْرُبِ اِحْتِمَالِ زِيَادَةِ أَوْ نَقْصَانِ.

وَأَخِيرًا، فَإِنَّ قَوْلَةَ الْبَعْضِ الْآخِرَةِ فِيهِ لَا تَعْدُو خِيَالًا فَارِغًا، إِذْ لَا مَنَاسِبَةَ ذَاتِيَّةً بَيْنَ كُلِّ سُورَةٍ وَسَابِقَتِهَا أَوْ تَالِيَتِهَا، سِوَى مَا زَعَمَهُ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَهُوَ تَمَحُّلٌ بَاطِلٌ بَعْدَ إِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّورِ كَانَ عَلَى خِلَافِ تَرْتِيبِ النِّزْوِلِ بِلَا شَكٍّ.

إِذَا لَا يَمْلِكُ مَعَارِضُونَا دَلِيلًا يَشِينُنَا عَنِ الَّذِي عَزَمْنَا عَلَيْهِ مِنْ تَفْصِيلِ حَدِيثِ الْجَمْعِ، وَإِلَيْكَ:

(١) فِي سُورَةِ يُونُسَ: ٣٨، وَسُورَةِ هُودَ: ١٣، وَهَمَّا مَكِّيَّانِ.

جمع علي بن أبي طالب عليه السلام

أوّل من تصدّى لجمع القرآن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله مباشرة وبوصية منه ^(١) هو علي بن أبي طالب عليه السلام، قعد في بيته مشتغلاً بجمع القرآن وترتيبه على ما نزل، مع شروح وتفسير لمواضع مبهمة من الآيات، وبيان أسباب النزول ومواقع النزول بتفصيل حتى أكمله على هذا النمط البديع.

قال ابن النديم - بسند يذكره - : إنَّ علياً عليه السلام رأى من الناس طيرة عند وفاة النبي صلى الله عليه وآله، فأقسم أن لا يضع رداءه حتى يجمع القرآن. فجلس في بيته ثلاثة أيام ^(٢) حتى جمع القرآن. فهو أوّل مصحف جمع فيه القرآن من قلبه ^(٣) وكان هذا المصحف عند آل جعفر.

قال: ورأيت أنا في زماننا عند أبي يعلى حمزة الحسيني عليه السلام مصحفاً قد سقط منه أوراق، بخط علي بن أبي طالب، يتوارثه بنو حسن ^(٤).

وهكذا روى أحمد بن فارس عن السدي، عن عبد خير، عن علي عليه السلام ^(٥).

وروى محمد بن سيرين عن عكرمة، قال: لما كان بدء خلافة أبي بكر قعد علي بن أبي طالب في بيته يجمع القرآن. قال: قلت لعكرمة: هل كان تأليف غيره كما أنزل الأوّل فالأوّل؟ قال: لو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يؤلّفوه هذا التأليف ما استطاعوا.

قال ابن سيرين: تطلّبت ذلك الكتاب وكتبت فيه إلى المدينة فلم أقدر عليه ^(٦).

قال ابن جزى الكلبي: كان القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مفزقاً في الصحف وفي صدور الرجال. فلما توفي جمعه علي بن أبي طالب على ترتيب نزوله، ولو وجد مصحفه

(١) راجع تفسير القتي: ص ٧٤٥. وبعار الأنوار: ج ٩٢ ص ٤٨ و ٥٢.

(٢) ولعله سهو من الراوي. لأنّ الصحيح أنّه عليه السلام أكمل جمع القرآن لمدة ستة أشهر، كان لا يردي خلالها إلا للصلاة. (راجع المناقب: ج ٢ ص ٤٠).(٣) قال ابن عباس: فجمع الله القرآن في قلب علي. وجمعه علي بعد موت رسول الله صلى الله عليه وآله عليهما بستة أشهر. (نفس المصدر السابق). (٤) المفهرست: ص ٤٧ - ٤٨.

(٥) في كتابه «الفاحي»: ص ١٦٩. هامش تأويل مشكل القرآن: ص ٢٧٥ الطبعة الثانية.

(٦) الإبتان: ج ١ ص ٥٧. وراجع الطبقات: ج ٢ ق ٢ ص ١٠٦. والاستيعاب بهامش الإجابة: ج ٢ ص ٢٥٢.

لكان فيه علم كبير ولكنه لم يوجد^(١).

قال الإمام الباقر عليه السلام: ما من أحد من الناس يقول إنه جمع القرآن كله كما أنزل الله إلا كذاب، وما جمعه وما حفظه كما أنزل الله إلا علي بن أبي طالب^(٢).

قال الشيخ المفيد - في المسائل السروية -: وقد جمع أمير المؤمنين عليه السلام القرآن المنزل من أوله إلى آخره، وألفه بحسب ما وجب تأليفه، فقدم المكي على المدني والمنسوخ على الناسخ، ووضع كل شيء منه في حقه^(٣).

وقال العلامة البلاغي: من المعلوم عند الشيعة أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله لم يرتد برداء إلا للصلاة حتى جمع القرآن على ترتيب نزوله، وتقدم منسوخه على ناسخه. وأخرج ابن سعد وابن عبد البر في الاستيعاب عن محمد بن سيرين، قال: بُيئت أن علياً أبطأ عن بيعة أبي بكر، فقال: أكرهت إمارتي؟ فقال: آليت يميني أن لا أرتدي برداء إلا للصلاة حتى أجمع القرآن. قال: فزعموا أنه كتبه على تنزيله. قال محمد: فلو أصبت ذلك الكتاب كان فيه علم^(٤).

قال ابن حجر: وقد ورد أن سليماً جمع القرآن على ترتيب النزول عقب موت النبي صلى الله عليه وآله. أخرجه ابن أبي داود^(٥).

قال ابن شهر آشوب: ومن عجب أمره في هذا الباب أنه لاشيء من العلوم إلا وأهله يجعلون علياً قدوة، فصار قوله قبلة في الشريعة، فمنه سمع القرآن. ذكر الشيرازي في نزول القرآن عن ابن عباس قال: ضمن الله محمداً أن يجمع القرآن بعده علي بن أبي طالب عليه السلام. قال: فجمع الله القرآن في قلب علي، وجمعه علي بعد موت رسول الله بسنة أشهر.

قال: وفي أخبار أبي رافع: أن النبي صلى الله عليه وآله قال في مرضه الذي توفي فيه لعلي عليه السلام: يا علي هذا كتاب الله خذهُ إليك، فجمعه علي في ثوب ومضى إلى منزله، فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله جلس

(٢) بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٨٨.

(١) السهول لعلوم التنزيل: ج ١ ص ٤.

(٣) المصدر.

(٤) آلاء الرحمن: ج ١ ص ١٨ بالهامش. وراجع الطبقات: ج ٢ ق ٢ ص ١٠١، والاستيعاب بهامش الإصابة: ج ٢ ص ٢٥٣.

(٥) الإفتان: ج ١ ص ٧٦-٧٢.

عليّ فألفه كما أنزل الله . وكان به عالماً .

قال : وحدثني أبو العلاء العطار والموفق خطيب خوارزم في كتابيهما بالإسناد عن علي بن رباح : أن النبي ﷺ أمر علياً بتأليف القرآن فألفه وكتبه .

وروى أبو نعيم في الحلية والخطيب في الأربعين بالإسناد عن السدي . عن عبد خير . عن علي ﷺ قال : لما قبض رسول الله ﷺ أقسمت أن لا أضع ردائي على ظهري حتى أجمع ما بين اللوحين . فما وضعت ردائي حتى جمعت القرآن .

قال : وفي أخبار أهل البيت ﷺ : أنه ﷺ آلى على نفسه أن لا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة حتى يؤلف القرآن ويجمعه . فانقطع عنهم مدة إلى أن جمعه . ثم خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد . فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع الإلية . فقالوا : لأمر ما جاء أبو الحسن . فلما توسطهم وضع الكتاب بينهم . ثم قال : إن رسول الله ﷺ قال : إنني مخلّف فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلّوا . كتاب الله وعترتي أهل بيتي . وهذا الكتاب . وأنا العترة . فقام إليه الثاني وقال له : إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله . فلا حاجة لنا فيكما . فحمل ﷺ الكتاب وعاد به بعد أن الزمهم الحجّة .

وفي خبر طويل عن الإمام الصادق ﷺ : أنه حمّله وولّى راجعاً نحو حجرته . وهو يقول : «فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون»^(١) .

وصف مصحف علي ﷺ

امتاز مصحفه ﷺ أولاً : بترتيبه الموضوع على ترتيب النزول . الأوّل فالأوّل في دقّة فائقة .

ثانياً : إثبات نصوص الكتاب كما هي من غير تحوير أو تغيير أو أن تشذّ منه كلمة أو آية . ثالثاً : إثبات قراءته كما قرأه رسول الله ﷺ حرفاً بحرف .

رابعاً : اشتماله على توضيحات - على الهامش طبعاً - وبيان العناسة التي استدعت نزول الآية . والمكان الذي نزلت فيه . والساعة التي نزلت فيها . والأشخاص الذين نزلت

(١) مناقب ابن شهر آشوب : ج ٢ ص ٤٠ - ٤١ . وراجع بعبارة الأنوار : ج ٩٢ ص ٥١ - ٥٢ . والآية ١٨٧ من سورة آل عمران .

فيهم.

خاصاً: اشتماله على الجوانب العائمة من الآيات، بحيث لا تخصص زماناً ولا مكاناً ولا شخصاً خاصاً. فهي تجري كما تجري الشمس والقمر. وهذا هو المقصود من التأويل في قوله ﷺ: ولقد جئتهم بالكتاب مشتلاً على التنزيل والتأويل^(١).

فالتنزيل هي المناسبة الوقتية التي استدعت النزول، والتأويل هو بيان المجرى العام. كان مصحف عليّ ﷺ مشتلاً على كل هذه الدقائق التي أخذها عن رسول الله ﷺ من غير أن ينسى منها شيئاً أو يشبهه عليه شيء.

قال ﷺ: ما نزلت آية على رسول الله ﷺ إلا أقرأنيها وأملاها عليّ. فأكتبها بخطي، وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها. ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله، ولا علماً أملاه عليّ فكتبته منذ دعا لي ما دعا^(٢).

وعن الأصمغ بن نباتة، قال: قدم أمير المؤمنين ﷺ الكوفة، صلى بهم أربعين صباحاً يقرأ بهم: سبّح اسم ربك الأعلى، فقال المنافقون: لا والله ما يحسن ابن أبي طالب أن يقرأ القرآن، ولو أحسن أن يقرأ القرآن لقرأ بنا غير هذه السورة! قال: فبلغ ذلك علياً ﷺ فقال: ويل لهم إني لأعرف ناسخه من منسوخه ومحكمه من متشابهه وفصله من فضاله وحروفه من معانيه، والله ما من حرف نزل على محمد ﷺ إلا أتني أعرف فيمن أنزل وفي أي يوم وفي أي موضع. ويل لهم أما يقرأون: «إن هذا لغني الصحف الأولى. صحف إبراهيم وموسى»^(٣)؟ والله عندي، وورثتهما من رسول الله ﷺ، وقد أنهى رسول الله ﷺ من إبراهيم وموسى ﷺ، ويل لهم والله أنا الذي أنزل الله في: «وتعيتها أدن وأعية»^(٤). فإنما كنا عند رسول الله ﷺ فيخبرنا بالوحي فأعياه أنا ومن يعيه، فإذا خرجنا قالوا: ماذا قال أنفاً؟^(٥)

هذا، ولليقوي وصف غريب عن مصحف عليّ ﷺ، قال: يجزئه سبعة أجزاء، كل جزء

(٢) تفسير البرهان: ج ١ ص ١٦.

(١) آلاء الرحمن: ج ١ ص ٢٥٧.

(٤) العاقبة: ١٢.

(٣) الأعلى: ١٨ و ١٩.

(٥) تفسير العتاشي: ج ١ ص ١٤.

يحتوي على ست عشرة أو خمس عشرة سورة، لتكون مجموع السور مائة وإحدى عشرة سورة!! وكل جزء لابد أن تبلغ آياته ثمانمائة وستاً وثمانين آية، فيكون مجموع آيات المصحف ستة آلاف واثنين ومائتي آية.

ويجعل مبدأ الجزء الأول: سورة البقرة، ثم سورة يوسف، ثم العنكبوت، وينتهي إلى سورة الأعلى والبيّنة. ويسمّيه جزء البقرة.

ويجعل مبدأ الجزء الثاني: آل عمران، ثم هود والحج، وينتهي إلى سورة الفيل وقريش. ويسمّيه جزء آل عمران.

ويجعل مبدأ الجزء الثالث: سورة النساء، وآخره النمل. ويسمّيه جزء النساء.

ومبدأ الجزء الرابع: المائدة وآخره الكافرون.

ومبدأ الجزء الخامس: الأنعام، ومنتهاه التكاثر.

ومبدأ الجزء السادس: الأعراف، ومنتهاه النصر.

ومبدأ الجزء السابع: الأنفال وآخره الناس.

وهكذا يوزع السور الصوال على مباديء الأجزاء السبعة ويتدرج إلى القصار ويسمّي كل جزء باسم السورة التي بدأ بها^(١).

وهذا الوصف يخالف تماماً وصف الآخرين: أنه كان مرتباً حسب النزول. قال جلال الدين: كان أول مصحف عليّ ﷺ سورة اقرأ، ثم سورة المدثر، ثم نون، ثم المزمل، ثم تبت، ثم التكوير. وهكذا إلى آخر ترتيب السور حسب نزولها^(٢). ومن ثم فهذا الوصف مخالف لإجماع أرباب السير والتاريخ.

ومن الغريب أنه جعل ألم تنزيل والسجدة سورتين، وحم والمعة من سورتين، وطس والنمل سورتين، وطسم والشعراء سورتين، في حين أن كلاً منهما سورة واحدة. وعبر عن سورة الأنبياء بسورة اقتربت، في حين أنها تتنديء بقوله تعالى: «اقترب للناس حسابهم». وهذه الغفلة من مثل أحمد بن الواضح الكاتب الأخباري غريبة جداً!



وأما مصحف علي عليه السلام فقد روى سليم بن قيس الهلالي عن سلمان الفارسي رضوان الله عليه قال: لما رأى أمير المؤمنين صلوات الله عليه غدر الناس به لزم بيته وأقبل على القرآن يؤلفه ويجمعه، فلم يخرج من بيته حتى جمعه. وكان في الصحف والشظايا والأشبار والرقاع^(١).

وبعث القوم إليه فاعتذر باشتغاله بجمع القرآن، فسكتوا عنه أياماً حتى جمعه في ثوب واحد وختمه، ثم خرج إلى الناس - وفي رواية البيهقي: حمله على جمل وأتى به إلى القوم^(٢) - وهم مجتمعون حول أبي بكر في المسجد، وخاطبهم قائلاً: إني لم أزل منذ قبض رسول الله ﷺ مشغولاً بغسله وتجهيزه، ثم بالقرآن حتى جمعته كله في هذا الثوب الواحد، ولم ينزل الله على نبيه آية من القرآن إلا وقد جمعتها، وليس منه آية إلا وقد أقرأنيها رسول الله ﷺ وعلمني تأويلها، أن تقولوا غداً إنا كنا عن هذا غافلين!

فقام إليه رجل من كبار القوم - وفي رواية أبي ذر: فنظر فيه فلان وإذا فيه أشياء^(٣) - فقال: يا علي، اردده فلا حاجة لنا فيه، ما أغنانا بما معنا من القرآن عما ندعوننا إليه فدخل علي عليه السلام بيته^(٤).

وفي رواية: قال علي عليه السلام: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان علي أن أخبركم حين جمعته لتقرأوه^(٥).

وقد تقدم كلام ابن النديم: كان مصحف علي يتوارثه بنو الحسن^(٦) والصحيح عندنا: أن مصحفه عليه السلام يتوارثه أوصيائه الأئمة من بعده، واحداً بعد واحد لا يروونه لأحد^(٧).

وفي عهد عثمان حيث اختلف المصاحف وأنارت ضجة بين المسلمين سأل طلحة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لو يخرج للناس مصحفه الذي جمعه بعد وفاة رسول الله ﷺ وأتى به

(١) الصحف: جمع صحيفة، وهي الورقة من كتاب أو قرطاس. والشظايا: خشية معدة. يجمع على أشظاء، والأشبار: خشية

أو صفحة أو عظمة مرفقة بصفحة. والرقاع: جمع رقة، وهي القطعة من الورق يكتب عليه.

(٢) تاريخ البيهقي: ج ٢ ص ١١٢. (٣) احتجاج الطبرسي: ص ٨٢.

(٤) كتاب سليم بن قيس: ص ٧٢. (٥) تفسير الصافي: ج ١ ص ٢٥.

(٦) بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٤٢ و ٤٣. (٧) الفهرست: ص ٤٨.

إلى القوم فرفضوه . قال : وما يمنعك برحمتك الله أن تُخرج كتاب الله إلى الناس؟! فكفَّ ﷺ عن الجواب أولاً ، فكَرَّرَ طلحة السؤال فقال : لا أراك يا أبا الحسن أجبتني عما سألتك من أمر القرآن أن لا نظهره للناس؟

قال ﷺ : يا طلحة عمداً كفت على جوابك . فأخبرني عما كتبه القوم أقرآن كله أم فيه ما ليس بقرآن؟ قال طلحة : بل قرآن كله . قال ﷺ : إن أخذتم بما فيه نجوم من النار ودخلتم الجنة ... قال طلحة : حسبي أما إذا كان قرآناً فحسبي^(١) .

هكذا حرص الإمام وأوصياؤه ﷺ على حفظ وحدة الأمة ، فلا تختلف بعد اجتماعها على ما هو قرآن كله .

جمع زيد بن ثابت

كان ذلك الرض الفاسي لمصحف علي ﷺ يستدعي التفكير في القيام بمهمة جمع القرآن مهما كلف الأمر ، بعد أن أحسَّ الناس بضرورة جمع القرآن في مكان ، ولا سيما كانت وصية نبيهم ﷺ بجمعه لئلا يضيع ، كما ضيَّعت اليهود توراتهم^(٢) .

هذا ، والقرآن هو المرجع الأوَّل للتشريع الإسلامي ، والأساس الركين لبناية صرح الحياة الاجتماعية في كافة شؤونها المختلفة آنذاك ، ولا يصح أن يبقى مفرقاً على العسب واللخاف أو في صدور الرجال . ولا سيما وقد استحرَّ القتل بكثير من حامله ، ويوشك أن يذهب القرآن بذهاب حامله . فقد قتل منهم سبعون في واقعة اليمامة ، وفي رواية : أربعمائة^(٣) .

وهذه الفكرة أبدأها عمر بن الخطاب ، واقترح على أبي بكر - وهو ولي المسلمين يوم ذلك - أن ينتدب لذلك من تتوفر فيه شرائط القيام بهذه المهمة الخطيرة ، فوقع اختيارهم على

(١) سليم بن فيس : ص ١١٠ ، بحار الأنوار : ج ٩٢ ص ٤٢ . (٢) تفسير القمي : ص ٧٤٥ .

(٣) فتح الباري : ج ٧ ص ٤٤٧ ، وفي تاريخ الطبري : ج ٣ ص ٢٩٦ . قتل من المهاجرين والأنصار من قبة المدينة يومئذ ثلثمائة وسقون ومن المهاجرين من غير أهل المدينة ثلاثمائة ومن التابعين ثلاثمائة . وفي كتاب أبي بكر إلى خالد ص

زيد بن ثابت، وهو شابٌ حدث فيه مرونةٌ حدائثة السنّ، وله سابقة كتابة الوحي أيضاً. فقد ملك الجدارة الذاتية من غير أن يُخشى منه على جوانب الخلافة الفتية في شيء. كما كان يُخشى من غيره من كبار الصحابة، وفيهم شيء من المناعة والجموح وعدم الاتقياء التام لميول السلطة واتجاهاتها آنذاك.

قال زيد: أرسل إليّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة - وعمر جالس عنده - قال: إن هذا - وأشار إلي عمر - أتاني وقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بقراء القرآن، وأخاف أن يستحرّ بهم القتل في سائر المواطن فيذهب كثير من القرآن، وأشار عليّ بجمع القرآن. فقلت لعمر: كيف نعمل ما لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل يراجعني عمر حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر!

قال زيد: قال لي أبو بكر: إنك شابٌ عاقل لا تنهك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن واجمعه.

قال زيد: فوالله لو كلّفوني نقل جبل من مكانه لم يكن أثقل عليّ ممّا كلّفوني به. قلت: كيف تفعّلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فلم يزل أبو بكر وعمر يلدحان عليّ حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر.

قال زيد: ففعلت أتتبع القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال^(١).

منهج زيد في جمع القرآن

قام زيد بتنفيذ الفكرة، فجمع القرآن من العسب واللخاف والأدم والقراطيس، وكانت متفرقة على أيدي الصحابة أو في صدورهم، وعاونوه على ذلك جماعة. وأوّل عمل قام به أن وجّه نداءً عاماً إلى ملأ الناس: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به.

وألف لجنة من خمسة وعشرين عضواً - كما جاء في رواية يعقوبي^(٢) - وكان عمر

(١) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٥. مصاحف الجستاني: ص ٦. والكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٦. و ج ٢ ص ٢٤٧.

(٢) تاريخ يعقوبي: ج ٢ ص ١١٣.

والبرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٢٣.

يشرف عليهم بنفسه.

وكان اجتماعهم على باب المسجد يومياً، والناس يأتونهم بأي القرآن وسوره، كل حسب ما عنده من القرآن.

وكانوا لا يقبلون من أحد شيئاً حتى يأتي بشاهدين يشهدان بصحة ما عنده من قرآن. سوى خزيمة بن ثابت، أتى بالآيتين آخر سورة براءة، فقبلوهما منه من غير استشهاد، لأن رسول الله ﷺ اعتبر شهادته وحده شهادتين^(١).

قال زيد: ووجدت آخر سورة براءة مع [أبي] خزيمة الأنصاري لم أجده مع أحد غيره^(٢). وستتكلّم عمّا جاء بين المعقوفين.

ومن غريب الأمر: أن عمر جاء بأية الرجم وزعمها من القرآن: «الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله» لكنّه واجه بالرفض، ولم تقبل منه، لأنّه لم يستطع أن يقيم على ذلك شاهدين. وبقي أثر ذلك في نفس عمر فكان يقول - أيام خلافته -: لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبتها بيدي - يعني آية الرجم -^(٣).



ثم إن زيدا لم ينظّم سور القرآن ولم يرتنهّن كمصحف، وإنما جمع القرآن في صحف. أي أودع الآيات والسور في صحف وجعلها في إضبارة، فكان جمعاً عن التفرقة والضياع، ومن ثم لم يسمّ جمعه مصحفاً.

قال المحاسبي: كان القرآن مفرّقا في الرقاع والأكتاف والعصب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان مجتمعاً، وكان ذلك بمنزلة أوراق فيها القرآن منتشراً، فجمعها جامع وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء^(٤).

وقال ابن حجر: والفرق بين الصحف (التي جاءت في رواية جمع زيد) والمصحف: أن

(١) راجع أسد الغابة لابن الأثير: ج ٢ ص ١١٤، ومصاحف الجتاني: ص ٦-٩.

(٢) البخاري: ج ٦ ص ٢٢٥.

(٣) تفسير ابن كثير: ج ٣ ص ٢٦١، البرهان للزركشي: ج ٢ ص ٢٥، الإتيان: ج ٢ ص ٢٦.

(٤) الإتيان: ج ١ ص ٥٩.

الصحف هي الأوراق المجردة التي جمع فيها القرآن في عهد أبي بكر، وكانت سوراً مفرقة، كل سورة مرتبة بآياتها على حدة، لكن لم يرتب بعضها إثر بعض، فلما نسخت ورتب بعضها إثر بعض صارت مصحفاً^(١).

وقال أحمد أمين: وفي عهد أبي بكر أمر بجمع القرآن، لكن لا في مصحف واحد، بل جمعت الصحف المختلفة التي فيها آيات القرآن وسوره، وأودعت الصحف الكثيرة التي فيها القرآن عند أبي بكر^(٢).
وقال الزرقاني: صحف أبي بكر كانت مرتبة الآيات دون السور^(٣).



وهذه الصحف أودعت عند أبي بكر، فكانت عنده مدة حياته، ثم صارت عند عمر، وبعده كانت عند ابنته حفصة، وفي أيام توحيد المصاحف استعارها عثمان منها ليقابل بها النسخ، ثم ردها إليها، فلما توقفت أخذها مروان - يوم كان والياً على المدينة من قبل معاوية - من ورثتها وأمر بها فشققت^(٤).



جاء في نص البخاري: ووجدت آخر سورة براءة مع أبي خزيمة ... ومن ثم يتساءل البعض: من هو أبو خزيمة؟
قال القسطلاني: هو ابن أوس بن يزيد بن حزام، المشهور بكنيته من غير أن يعرف اسمه^(٥).

واحتمل ابن حجر أنه الحرث بن خزيمة، كما جاء في رواية أبي داود^(٦).
والصحيح أنه من زياده الراوي أو الناسخ خطأ، وإنما هو خزيمة من غير إضافة الأب إليه، بدليل أن زياداً قبل شهادته مكان شهادتين. وليس في الصحابة من يتسم بهذه السمة

(٢) فجر الإسلام: ص ١٩٥.

(١) فتح الباري: ج ٩ ص ١٦.

(٤) إرشاد الساري: ج ٧ ص ٤٤٩.

(٣) ساهل القرآن: ج ١ ص ٢٥٤.

(٦) المصدر: ج ٩ ص ١٢.

(٥) فتح الباري: ج ٧ ص ٤٤٧.

الخاصة سواء^(١). وهكذا جزم الإمام بدر الدين الزركشي أنه خزيمة الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين^(٢) ومن ثمّ أدرجه في النص هكذا بلا إضافة الأب^(٣). أو يقال: إنّ أبا خزيمة هو خزيمة بن ثابت، كان يقال له: أبو خزيمة أيضاً، كما جاء في نصّ ابن أشتة: أبو خزيمة بن ثابت^(٤). وفي سائر الروايات - غير رواية البخاري - خزيمة بن ثابت، بلا إضافة الأب^(٥). ومن ثمّ رجّحنا خطأ النسخة.



وسؤال آخر: ماذا كان يعني بالشاهدين في جعلهما شرط قبول النصّ القرآني كما جاء في نصّ ابن داود بإسناد معتبر، وتلقّته أئمة الفنّ بالقبول^(٦)؟ قال ابن حجر: وكأنّ المراد بالشاهدين: الحفظ والكتابة^(٧). وقال السخاوي: شاهدان يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنّهما يشهدان بصحّة قراءتها، وأنّها من الوجوه التي نزل بها القرآن. قال أبو شامة: وكأنّ الغرض من ذلك أن لا يكتب إلا من عين ما كتب بين يدي رسول الله ﷺ لا من مجرد الحفظ.

قال جلال الدين: أو المراد أنّهما يشهدان على أنّ ذلك ممّا عرض على النبي ﷺ عام وفاته، وكانت هي القراءة الأخيرة التي اتّفقت عليها الصحابة وقرأها الناس اليوم^(٨). قلت: المراد أنّ شاهدين عدلين - أحدهما الذي أتى بالآية وعدل آخر - يشهدان بسماعهما قرآناً من النبي ﷺ، بدليل قبول شهادة خزيمة بن ثابت الذي جاء بآخر سورة براءة مكان شهادة رجلين، وهكذا جاء في نصّ ابن أشتة، أخرج في المصاحف عن الليث بن سعد، قال: وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل، وإنّ

(١) راجع الطبقات لابن سعد: ج ٤ في ٢ ص ٩٠. (٢) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٣٤.

(٣) المصدر: ص ٢٣٩. (٤) الإقناع: ج ١ ص ٥٨.

(٥) راجع الدر المنثور: ج ٣ ص ٢٩٦. (٦) راجع الإقناع: ج ١ ص ٥٨.

(٧) فتح الباري: ج ٩ ص ٦٢. (٨) الإقناع: ج ١ ص ٥٨ وراجع أيضاً ص ٥٠.

آخر سورة براءة لم يجدها إلا مع أبي خزيمة بن ثابت ذي الشهادتين، فقال: اكتبوها، فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشاهدة رجلين فكتب. وإن عمر أتى بآية الرجم فلم يكتبها، لأنه كان وحده^(١).

شكوك واعترضات

يقول بلاشير: لماذا اختار أبو بكر لهذه المهمة الخطيرة مثل زيد وهو شاب حدث لم يتجاوز العشرين، في حين وجود ذوي الكفاءات من كبار الصحابة؟ ولنفرض عكورة المورد حالت دون اللجوء إلى شخصية كبيرة مثل علي بن أبي طالب، فلماذا أغفلوا سائر فضلاء الصحابة ممن لهم سابقة وعهد قديم بنزول القرآن وصحبة الرسول؟ وهل إن واقعة اليمامة أطاحت بجميع قراء الصحابة القدامى، ولم يبق سوى زيد وهو حديث العهد بالقراءة وبالقرآن؟ الأمر الذي يثير شكوكنا في القضية ولا نكاد نصدق بأن زيداً هو الذي جمع القرآن.

أضف إلى ذلك أن التاريخ لم يحدّد بالضبط بدء قيامه بهذا العمل، ومتى انتهى منه. فلو صحّ أنه قام بجمع القرآن بعد واقعة اليمامة لكان بقي من عمر أبي بكر خمسة عشر شهراً، وهذه فترة تضيق بإنجاز هكذا عمل خطير، الذي يتطلب جهوداً واسعة لجمع المصادر والالتقاء مع رجال كانت عندهم آيات أو سور وكانوا قد انتشروا في البلاد. فإن هذا وذاك يتطلبان وقتاً أوسع وأعواناً كثيرين. مما لا يمكن إنجازها في تلك المدة القصيرة.

هذا والرواية تقول: إن زيداً جمع القرآن في صحف وأودعها عند أبي بكر، ثم صارت عند عمر ثم ورثتها ابنته حفصة!

فإذا كانت الغاية من جمع القرآن هي ملاحظة المصلحة العامة - كما ينبّه على ذلك أن ورثة أبي بكر لم يختصوا بتلك الصحف، وإنما انتقلت إلى عمر، الخليفة بعده - فلماذا خصّصها عمر بابنته حفصة ولم يجعلها في متناول المسلمين عاماً؟ كما أنه لم صارت الصحف ودبعة اختصاصية عند أبي بكر من غير أن تجعل في مكان هو معرض عام؟

وهكذا اعترض المستشرق شفالي على قضيتي جمع زيد للقرآن والذي ينتتجه بلاشير من شكوكه هذه: أن كبار الصحابة هم الذين قاموا بجمع القرآن بعد وفاة الرسول ﷺ ورثوه ورثوا سوره، الأمر الذي كانت وظيفة الخلافة الإسلامية أن تقوم به ولكنها غفلت عنه. وربما أدت هذه الغفلة إلى الطعن في القائمين بأعضادها، ومن ثم أوعزت إلى شاب حدث لا يتهموه أن ينسخ عن بعض مصاحف الصحابة مصحفاً يمتاز به الخليفة أيضاً، أما أصل القيام بجمع القرآن فلا^(١).



قلت، إذا كانت شرائط إنجاز عمل - مهما كان ضخماً - متوفرة وفي المتناول القريب فإن إنجازه يتحقق في أقرب وقت ممكن، ولا سيما إذا كان العمل فورياً يحاول المتصدون إنجازه في أقرب فرصة ممكنة. وهكذا كانت قضية جمع القرآن في الصدر الأول.

أما المصادر الأولية فكانت متوفرة في نفس المدينة، محفوظة على أيدي الصحابة الأئمة، وكان حاملة القرآن وحفظته موجودين لا يفارقون مسجد سيدهم الذي ارتحل من بينهم في عهد قريب، ليل نهار، والاتصال بهم سهل التناول، لا سيما وسور القرآن كانت مكتملة، وبقي جمعها في مكان، لا أكثر. إذاً فقد كانت الأسباب مؤاتية والظروف مساعدة. أضف إليها أن السلطة - وببديها القدرة - إذا حاولت إنجاز هكذا عمل منتهى الأسباب، فإنه لا يستدعي طولاً في مدة العمل بعد توفر هذه الشروط.

هذا وزيد لم يعمل سوى جمع القرآن في مكان وحفظه عن الضياع والانبثاق ولم يعمل فيه نظاماً ولا ترتيباً ولا أي عمل فكري آخر، فإن هكذا عمل بسيط لا يتطلب جهوداً طويلة ولا فراغاً واسعاً.

نعم، كانت الغاية من ذلك هي مراعاة المصلحة العامة (حفظ القرآن عن الضياع) الأمر الذي تحقق بإيداع الصحف المشتملة على تمام القرآن في مكان أمين. ولم يكن يومذاك احتياج إلى مراجعة تلك الصحف بعد أن كان حفظ القرآن وحاملوه منتشرين بين أظهر الناس بكثرة، والناس يومذاك حافظون لجمل آيات ترتبط والحياة المعيشية والسياسية وما

(١) مترجم وملخص عن مجلة «خوانديها» الفارسية في سنتها التاسعة العدد: ٤٤ تاريخ ١٢ بهمن ١٣٢٦ هـ - طهران.

أشبهه.

هذا، وفي أواخر عهد عمر أصبحت نُسخ المصاحف المحتوية على جميع آي القرآن وسوره كثيرة، ومجموعة على أيدي كبار الصحابة الموثوق بهم، فرأى أن الحاجة العامة إلى تلك الصحف المودعة عنده هبطت إلى درجة نازلة جداً، ومن ثم تملكها هو، ولم تعد حاجة إليها سوى في دور توحيد المصاحف على عهد عثمان.

مصاحف أخرى

في الفترة بعد وفاة النبي ﷺ قامت جماعة من كبار الصحابة بتأليف القرآن وجمع سوره بين دفتين، كل ينظم وترتيب خاص، وكان يسمى مصحفاً.

يقال: أوّل من جمع القرآن في مصحف - أي رتب سوره ككتاب منظم - هو سالم مولى أبي حذيفة، فانتروا فيما يسمونه؟ فقال بعضهم: سموه السّفر. فقال سالم: ذلك تسمية اليهود، فكرهوه. فقال: رأيت مثله في الحبيشة يسمى المصحف. فاجتمع رأيهم على أن يسموه المصحف. أخرجه ابن أسنة في كتاب المصاحف^(١).

وهكذا قام بجمع القرآن ابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وكان سمي مصحفه: لباب القلوب^(٢)، والمقداد بن الأسود، ومعاذ بن جبل.

ويبدو من حديث العراقي الذي جاء إلى عائشة يطلب إليها أن تريه مصحفها أنّ لها أيضاً مصحفاً كان يخصها. روى البخاري عن ابن ماهدك، قال: إنني عند عائشة إذ جاءها عراقي فسالها عن مسائل. منها: أنه طلب أن تريه مصحفها. قال: يا أمّ المؤمنين أريني مصحفك، قالت: ليم؟ قال: لعليّ أوّل القرآن عليه، فإنّه يقرأ غير مؤلف - أي غير مرتب ولا منظم، أو لاختلاف الناس في نظم آيه وعددها^(٣) - قالت: وما يضرّك أيّه قرأت... إلى أن قال: فأخرجت له مصحفاً وأمّلت عليه آي السور^(٤) أي عدد آيها.

(١) الإبتان: ج ١ ص ٥٨، وراجع المصاحف للسجستاني: ص ١١ - ١٤.

(٢) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٥. (٣) احتمله ابن حجر في فتح الباري: ج ٩ ص ٣٦.

(٤) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٨.

وحاز بعض هذه المصاحف مقاماً رفيعاً في المجتمع الإسلامي آنذاك. فكان أهل الكوفة يقرأون على مصحف عبد الله بن مسعود. وأهل البصرة يقرأون على مصحف أبي موسى الأشعري. وأهل الشام على مصحف أبي بن كعب. وأهل دمشق خاصة على مصحف المقداد بن الأسود. وفي رواية الكامل: إن أهل حمص كانوا على قراءة المقداد^(١).

أمد هذه المصاحف

كان أمد هذه المصاحف قصيراً جداً. انتهى بدور توحيد المصاحف على عهد عثمان، فذهبت مصاحف الصحابة عرضة التمزيق والحرق.

قال أنس بن مالك: أرسل عثمان إلى كلِّ أئمة بمصحف مما نسخوا. وأمر بما سواه من القرآن في كلِّ صحيفة أو مصحف أن يحرق^(٢).

نعم، حظيت بعض هذه المصاحف عمراً أطول. كالصُحف التي كانت عند حفصة، طلبها عثمان ليقابل بها نسخ المصاحف، فأبى أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردّها عليها^(٣). ومن ثمَّ ردّها وبقيت عندها حتى توفيت، فأمر بها مروان فحسّقت.

ويبدو من رواية أبي بكر بن أبي داود: أن ولد أبي بن كعب كانوا قد احتفظوا بنسخة من مصحف أبيهم بعيداً عن آخرين. قال: قدم أناس من العراق يريدون محمّد بن أبي، فطلبوا إليه أن يخرج لهم مصحف أبيه! فقال: قد قبضه عثمان، فألحوا عليه ولكن من غير جدوى، الأمر الذي كان يدلّ على مبلغ خوفه من الحكم القائم، فلم يخرجها للعراقيين^(٤).

وفي رواية الطبري: أن ابن عباس دفع مصحفاً إلى أبي ثابت، ووصفه بأنّه على قراءة أبي بن كعب. وبقي إلى أن انتقل إلى نصير بن أبي الأشعث الأسدي الكوفي. فأثناء يحيى بن عيسى الفخوري يوماً قرأ فيه: «فما استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسّمي»^(٥) الأمر الذي

(١) للكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٥. وراجع البخاري: ج ٦ ص ٢٢٥. والمصاحف لابن أبي داود السجستاني: ص ١١.

١٦. والبرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٣٩-٢٤٣. (٢) البخاري: ج ٦ ص ٢٢٦.

(٤) المصدر: ص ٢٥.

(٣) مصاحف السجستاني: ص ٩.

(٥) تفسير الطبري: ج ٥ ص ٩.

يدلّ على أنّ هذا المصحف عاش حتّى أواخر القرن الثاني، لأنّ يحيى بن عيسى توفّي عام ٢٠١هـ^(١).

قال الفضل بن شاذان: أخبرنا الثقة من أصحابنا، قال: كان تأليف السور في قراءة أبي بن كعب بالبصرة في قرية يقال لها «قرية الأنصار» على رأس فرسخين عند محمّد بن عبيد الملك الأنصاري (توفّي سنة ١٥٠هـ) أخرج إلينا مصحفاً قال: هو مصحف أبي. وروناه عن آبائنا، فنظرت فيه، فاستخرجت أوائل السور وخواتيم الرسل وعدد الآي...^(٢). وجاء في روايات أهل البيت عليهم السلام قول الصادق عليه السلام: أمّا نحن فنقرأ على قراءة أبي - أي ابن كعب -^(٣).



أمّا ابن مسعود فامتنع أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة، وظلّ محتفظاً به في صرامة بالغة أدّت إلى مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عثمان، كان فيها إبعاده عن عمله وأخيراً حتفه.

عند ما جاء رسول الخليفة إلى الكوفة لأخذ المصاحف، قام ابن مسعود خطيباً قائلاً: أيها الناس أيّ غلّ مصحفي، ومن استطاع أن يغلّ مصحفاً فليغلل، فإنّه من غلّ بات يوم القيامة بما غلّ ونعم الغلّ المصحف.^(٤)

وهكذا كان يحرض الناس على مخالفة الحكم القائم، الأمر الذي جرّ عليه الويلات، فأشخصه الخليفة إلى المدينة وجرى بينهما كلام عنيف انتهى إلى ضربه وكسر أضلّاعه وإخراجه من المسجد بصورة مزريّة.

روى الواقدي بإسناده وغيره: أنّ ابن مسعود لما استقدم المدينة دخلها ليلاً، وكانت ليلة جمعة، فلما علم عثمان بدخوله، قال: أيها الناس إنّه قد طرقكم الليلة دويبة، من يمشي على طعامه يقيّ ويسلح.

(١) تهذيب التهذيب: ج ١١ ص ٢٦٣. (٢) فهرست ابن التميمي: ص ٢٩.

(٣) وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٨٢٦ (الطبعة الإسلامية). (٤) المصاحف، ص ١٥.

قال ابن مسعود: لست كذلك ولكنني صاحب رسول الله ﷺ يوم بدر، وصاحبه يوم أحد، وصاحبه يوم ببيعة الرضوان، وصاحبه يوم الخندق، وصاحبه يوم حنين...

وصاحت عائشة: يا عثمان! أتقول هذا لصاحب رسول الله ﷺ؟! فقال عثمان: اسكتي. ثم قال لعبدالله بن زمعة بن الأسود: أخرجه إخراجاً عنيفاً! فأخذه ابن زمعة، فاحتمله حتى جاء به باب المسجد، فضرب به الأرض، فكسر ضلعاً من أضلاعه. فقال ابن مسعود: قتلني ابن زمعة الكافر بأمر عثمان.

قال الراوي: فكأنني أنظر إلى حموشة ساقى عبدالله بن مسعود، ورجلاه تختلفان على عنق مولي عثمان، حتى أخرج من المسجد، وهو يقول: أنشدك الله ألا تخرجني من مسجد خليلي رسول الله ﷺ. (١)

قيل: واعتل ابن مسعود فأتاه عثمان يعوده، فقال له: ما كلام بلغني عنك؟ قال: ذكرت الذي فعلته بي. إنك أمرت بي فوطيء جوفي فلم أعقل صلاة الظهر ولا العصر. ومنعتني عطائي، قال عثمان: فإني أفيدك من نفسي، فافعل بي مثل الذي فعل بك... وهذا عطاؤك فخذ.

قال ابن مسعود: منعتني وأنا محتاج إليه، وتعطيني وأنا غني عنه! لا حاجة لي به. فأقام ابن مسعود مغاضباً لعثمان حتى توفي، وصلى عليه عمار بن ياسر في ستر من عثمان. وهكذا لما مات المقداد صلى عليه عمار بوصية منه، فاشتد غضب عثمان على عمار، وقال: ويلي علي ابن السوداء، أما لقد كنت به عليماً! (٢)



هذا، ورغم ذلك كله فقد بقي مصحفه متداولاً إلى أيام متأخرة. يقول ابن النديم (٢٩٧ - ٣٨٥ هـ): رأيت عدة مصاحف ذكر نسأخها أنها مصحف عبد الله بن مسعود، وقد كتب بعضها منذ ما تفي سنة (٣).

(١) شرح نوح البلاغة لابن أبي العدي، ج ٣، ص ٤٣ - ٤٤. (٢) تاريخ المعرفي: ج ٢، ص ١٦٠. طبع نجف.

(٣) المنهرت: ص ٤٦.

وهكذا يبدو من الزمخشري: أن هذا المصحف كان معروفاً حتى القرن السادس، لأنه يقول: «وفي مصحف ابن مسعود كذا...» وظاهر هذه العبارة أنه هو وجدها في نفس المصحف، لأنه منقول إليه^(١).

وصف عام عن مصاحف الصحابة

كان الطابع العام الذي كانت المصاحف آنذاك تتسم به هو تقديم السور الطوال على القصار نوعاً ما في ترتيب منهجي خاص:

١- ابتداء من السبع الطوال: البقرة، آل عمران، النساء، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس^(٢).

٢- ثم العئين: وهي السور تربو آياتها على المائة، وهي ما تقرب اثنتي عشرة سورة.

٣- ثم المثاني: وهي السور لا تبلغ آياتها المائة، وهي ما تقرب عشرين سورة، وسميت مثاني لأنها تشي أي تكرر قراءتها أكثر مما تقرأ غيرها من الطوال والمئين.

٤- ثم الحواميم: وهي السور بُدئت بـ «حم»: سبع سور.

٥- ثم الممتحنات: وهي تقرب من عشرين سورة.

٦- ثم المفصلات: تُبتدأ من سورة الرحمان إلى آخر القرآن.

وسميت بذلك لقب فواصلها وكثرة فصولها.

هذا هو الطابع العام لمصاحف الصحابة، والنظر في الأكثر إلى مصحف ابن مسعود، وإن كانت المصاحف تختلف مع بعضها في تقديم بعض السور على بعض وتأخيرها عنها، أو يزيد عدد سور بعضها على بعض، على تفصيل يأتي.

(١) راجع للكشاف: ج ٢ ص ٤١٠ آية ٧١ من سورة هود، وج ٤ ص ٤٩٠ آية ٧ من سورة المجادلة.

(٢) تلك السبع الطوال في مصاحف الصحابة، غير أن عثمان عمد إلى تقديم سورة الأنفال فرعها مع سورة البقرة - سورة واحدة، جعلهما من السبع الطوال، وسيأتي الكلام في ذلك (راجع: الإتيان: ج ١ ص ٦٠، ومستدرک الحاكم: ج ٢ ص

وصفُ مصحف ابن مسعود

كان تأليف مصحف عبدالله بن مسعود وفق الترتيب التالي^(١):

- ١ - السبع الطوال: البقرة، النساء، آل عمران، الأعراف، الأنعام، المائدة، يونس.
 - ٢ - المئين: براءة، النحل، هود، يوسف، الكهف، الإسراء، الأنبياء، طه، المؤمنون، الشعراء، الصافات.
 - ٣ - المثاني: الأحزاب، الحج، القصص، النمل، النور، الأنفال، مريم، العنكبوت، الروم، يس، الفرقان، الحجر، الرعد، سبأ، فاطر، إبراهيم، ص، محمد ﷺ، لقمان، الزمر.
 - ٤ - الحواميم: المؤمن، الزخرف، فصلت، الشورى، الأحقاف، الجاثية، الذخآن.
 - ٥ - الممتحنات: الفتح، الحديد (ن)، الحشر، السجدة، ق (ن)، الطلاق، القلم، الحجرات، المُلْك، التغابن، المنافقون، الجمعة، الصف، الجن، نوح، المجادلة، الممتحنة، التحريم.
 - ٦ - المفصلات: الرحمان، النجم، الطور، الذاريات، القمر، الحاقة (ن)، الواقعة، النازعات، المعارج، المدثر، المزمل، المطففين، عبس، الإنسان، المرسلات، القيامة، النبأ، التكويد، الانفطار، الغاشية، الأعلى، الليل، الفجر، البروج، الانشقاق، العلق، البلد، الضحى، الطارق، العاديات، الماعون، القارعة، البيئة، الشمس، التين، الهُمزة، الفيل، قريش، التكاثر، القدر، الزلزال، العصر، النصر، الكوثر، الكافرون، المسد، التوحيد، الانشراح.
- تلك مائة وإحدى عشرة سورة، بإسقاط سورة الفاتحة وسورتَي المعوذتين، على ما سنذكر.



جهة أخرى - اختصَّ بها مصحف ابن مسعود -: إسقاطه سورة الفاتحة . لا اعتقاداً أنَّها

(١) على ما جاء، في نصِّ ابن أشتة (الإيمان: ج ١ ص ٦٤) وأكملنا ما سقط منه على نصِّ ابن التديم (الفهرست ص ٤٦) وأرمرنا له بعلامة (ن).

ليست من القرآن، بل لأنَّ الثبت في المصحف كان قيدا للسرّ دون الضياع، وهذه السورة (الفاتحة) مأمونة عن الضياع بذاتها، لا يزال المسلمون يقرأونها كلَّ يوم عشر مرّات أو أكثر، ذكره ابن قتيبة فيما يأتي.

أو لعلَّه رآها عدلاً للقرآن في قوله تعالى: «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم»^(١) والسبع المثاني هي سورة الفاتحة.

وعلى أيّ تقدير فقد اتَّفَق أئمةُ الفنِّ على خلوّ مصحفه من سورة الحمد. نقل ذلك ابن النديم عن الفضل بن شاذان، وقال: إنَّه أحد الأئمة في القرآن والروايات. ومن ثمَّ يرجَّح ما ذكره الفضل على ما شهد به نفسه^(٢).

وقال جلال الدين السيوطي: وأمّا إسقاطه الفاتحة فقد أخرجه أبو عبيد بسند صحيح^(٣) وكان قد ذكر الرواية قبل ذلك^(٤).

وقال ابن قتيبة: وأمّا إسقاطه الفاتحة من مصحفه فليس لجهله بأنَّها من القرآن، كيف وهو أشدُّ الصحابة عناية بالقرآن. ولم يزل يسمع رسول الله ﷺ يومَ بها، ويقول: لا صلاة إلا بسورة الحمد، وهي السبع المثاني وأمُّ الكتاب، لكنَّه ذهب فيما يظنُّ أهل النظر (المحقِّقون) إلى أنَّ القرآن إنما كُتِب وُجِّع بين اللوحين (الدفتين) مخافة الشكِّ والنسيان والزيادة والنقصان، ورأى أنَّ ذلك مأمون على سورة الحمد، لقصرها ولأنَّها تنسئ في كلِّ صلاة، ولوجوب تعلُّمها على كلِّ مسلم. فلما أمن عليها العلة التي من أجلها كُتِب المصحف ترك كتابتها وهو يعلم أنَّها من القرآن^(٥).



جهة ثالثة: إسقاطه سورتي المعوذتين (العلق والناس)، اعتقاداً منه أنَّهما عوذة يستعوذُ بهما لدفع العين أو السحر، كما ورد أنَّ النبي ﷺ تعوَّذ بهما لدفع العين أو السحر، كما ورد أنَّ

(١) الفهرست لابن النديم: ص ٤٦.

(٢) المحرر: ٨٧.

(٣) المصدر ص ٦٥.

(٤) الإنفان للسيوطي: ج ١ ص ٨٠.

(٥) نأويل مشكل القرآن: ص ٤٨ الطبعة الثانية.

النبي ﷺ تعوذ بهما من سحر اليهود. وقال: ما تعوذ متعوذ بأفضل من «قل أعوذ برب الفلق...» و«قل أعوذ برب الناس...»^(١).

وقد صحَّ الإسناد إلى ابن مسعود أنه كان يحكَّ المعوذتين من المصاحف. ويقول: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه. إنهما ليستا من كتاب الله، إنما أمر النبي ﷺ أن يتعوذ بهما. وكان ابن مسعود لا يقرأ بهما في صلاته^(٢).

هذا، وقد أنكر بعضهم صحَّة هذه النسبة إلى ابن مسعود، كالرازي وابن حزم - فيما نقل عنهما ابن حجر - وردَّ عليهما بصحَّة إسناد الرواية، قال: والظن في الروايات الصحيحة بغير مستند لا يقبل، بل الرواية صحيحة والتأويل محتمل^(٣).

وأخذ الباقلاني في بيان هذا التأويل، قال: لم ينكر ابن مسعود كونهما من القرآن. وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى أن لا يكتب في المصحف شيئاً إلا إن كان النبي ﷺ أذن في كتابته فيه، وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك. فهذا تأويل منه وليس جحداً لكونهما قرآناً.

وقال ابن حجر: وهذا تأويل حسن، إلا أنَّ الرواية الصحيحة الصريحة التي ذكرتها تدفع ذلك، حيث جاء فيها: ويقول: إنهما ليستا من كتاب الله. نعم، يمكن حمل لفظ «كتاب الله» على المصحف، فيتمشَّى التأويل المذكور^(٤).

قلت: هذا التأويل الأخير أيضاً لا يلتم مع قوله: لا تخلطوا بالقرآن ما ليس منه^(٥). ملحوظة: قد يزعم البعض أن ما نسب إلى ابن مسعود يناقض القول بتواتر النصِّ القرآني!

لكن غير خفي أن ابن مسعود لم ينكر كونهما وحياً - بالمعنى العام - وإنما أنكر كونهما

(١) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤١٦.

(٢) فتح الباري لابن حجر: ج ٨ ص ٥٧١، الدر المنثور: ج ٦ ص ٤١٦.

(٣) فتح الباري: ج ٨ ص ٥٧١. (٤) المصدر السابق.

(٥) الدر المنثور: ج ٦ ص ٤١٦.

وحياً قرآنياً - بسمه كونهما من كتاب الله - . فالإتفاق على أن المصوّذتين وحى من الله حاصل من الجميع ، وإنما الاختلاف جاء في وصفهما الخاصّ : هل هما من كتاب الله (القرآن) أم لا؟ وهذا لا يضرّ بعد الإتفاق المذكور.

جهة رابعة : قال صاحب الإقناع : كانت البسمة ثابتة لبراءة في مصحف ابن مسعود . قال : ولا يؤخذ بهذا^(١).

ويعني بكلامه الأخير : أن ابن مسعود كانت له مخالفات شاذة . نبذها الصحابة والتابعون ، ولعلها كانت اجتهادات شخصية خطأ الآخرون عليها . كمذهبه في التطبيق^(٢) . قال ابن حزم : والتطبيق في الصلاة لا يجوز ، لأنه منسوخ . وكان ابن مسعود يفعله ، وكان يضرب الأيدي على تركه . وكذلك كان أصحابه يفعلونه . وفي ذلك قال ابن مسعود - فيما روينا عنه - : علمنا رسول الله ﷺ ، فكبر فلما أراد أن يركع طبق يديه بين ركبتيه وركع . فبلغ ذلك سعد بن أبي وقاص ، فقال : صدق أخي ، قد كنّا نفعل هذا ، ثم أمرنا بهذا ، أي الإمساك بالركب^(٣).

قال الإمام الرازي - بشأن مخالفات ابن مسعود - : يجب علينا إحسان الظنّ به ، وأن نقول : إنه رجع عن هذه المذاهب^(٤).

جهة خامسة : اختلاف قراءته مع النصّ المشهور في كثير من الآي . وهذا الاختلاف كان يرجع إلى تبديل كلمة إلى مرادفتها في النصّ ، وكان ذلك غالباً لغرض الإيضاح والإفهام . والمعروف من مذهب ابن مسعود توسيعه في قراءة ألفاظ القرآن ، فكان يجوز أن تبدل

(١) الإقناع : ج ١ ص ٦٥ .

(٢) هو : تطبيق بطن الكفّين إحداهما على الأخرى وجعلهما بين الركبتين حالة الركوع .

(٣) المحلى : ج ٣ ص ٢٧٤ المسألة رقم ٣٧٥ . وراجع لسان العرب مادة «ط ب ق» .

(٤) التفسير الكبير : ج ١ ص ٢١٢ .

كلمة إلى أخرى مرادفتها. إذا كانت الثانية أوضح ولا تغير شيئاً من المعنى الأصلي.
قال: لقد سمعت القراء ووجدت أنهم متقاربون، فافرأوا كما علمتم - أي كيفما علمكم
الفاري، الأستاذ - فهو كقولكم: هلمّ وتعال^(١).

وكان يعلم رجلاً أعجمياً القرآن. فقال: «إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم»^(٢). فكان يقول
الرجل: طعام اليتيم، ولم يستطع أن يقول: الأثيم. فقال له ابن مسعود: قل: طعام الفاجر. ثم
قال ابن مسعود: إنه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم» «الحكيم». بل أن يضع
آية الرحمة مكان آية العذاب^(٣).



هذا، ومن ثمّ تعود بعض المفسرين القدامى إذا أشكل عليهم فهم كلمة غريبة في النص
القرآني أن يراجعوا قراءة ابن مسعود في ذلك، فلا بدّ أنه أبدلها بكلمة أخرى مرادفة لها
أوضح وأبين للمقصود الأصلي.

قال مجاهد: كنّا لا ندري ما الزخرف، حتى رأينا في قراءة ابن مسعود: أو يكون لك
بيت من ذهب^(٤).

وفسّر الزمخشري اليمين في قوله تعالى: «والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما»^(٥)
بالييمين، لأنّ ابن مسعود قرأ: «فاقطعوا أيمانهما»^(٦).

وذكر الغزالي من آداب البيع: إقامة لسان الميزان، فإنّ النقصان والرجحان يظهر بميله،
واستشهد بقراءة ابن مسعود: «وأقيموا الوزن باللسان ولا تخسروا الميزان» قال: لأنّ القسط

(١) معجم الأدباء، لياقوت الحموي: ج ٤ ص ١٩٣ رقم ٣٣ في ترجمة أحمد بن محمد بن يزيد بن رستم. طبع دار المعلمين.
وفي طبعة مرجليوث: ج ٢ ص ٦٠ رقم ٢٤. وراجع أيضاً النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٢١، والإتقان: ج ١ ص ٤٧.

(٢) الدخان: ٤٣ و ٤٤. (٣) تفسير الإمام الرازي: ج ١ ص ٢١٣.

(٤) تفسير الطبري: ج ١٥ ص ١٦٢. راجع الآية ٩٣ من سورة الاسراء.

(٥) المائدة: ٣٨. (٦) الكشف: ج ١ ص ٤٥٩.

-في القراءة المشهورة -إنما يقوم بلسان الميزان^(١).

وفي بعض طبعات «إحياء العلوم» صحّحوه وفق النصّ المشهور، ففاتهم غرض استشهد المؤلف.

وهكذا قرأ: «إني نذرت للرحمان (صمتاً) فلن أكلم اليوم إنسياً»^(٢) بدل «صوماً» لأنّ الصوم المنذور كان صوم صمت.

وقرأ: «يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا (أهلونا) نفتيس من نوركم»^(٣) بدل «انظرونا» لأنّ المقصود هو الإهمال.

وقرأ: «إن كانت إلا (زقية) واحدة»^(٤) بدل «صيحة واحدة».

قال العلامة الطبرسي: هو من زقى الطير: إذا صاح. وكأنّ ابن مسعود استعمل هنا صياح الديك تنبيهاً على أنّ البحث بما فيه من عظيم القدرة واستثارة الموتى من القبور سهل على الله تعالى كزقية زقاها طائر، فهو كقوله تعالى: «ما خلقتكم إلا كنفس واحدة»^(٥).



ملحوظة: قد يأخذ البعض من هذا الاختلاف في قراءة النصّ القرآني ذريعة للظن عليه. كما جاء في كلام المستشرق الألماني العلامة جولد تسهر، في كتابه: «مذاهب التفسير الإسلامي» الذي وضعه لهذا الغرض.

لكنّها محاولة فاشلة بعد أن علمنا أنّ الاختلاف كان في مجرد القراءة خارج النصّ الثابت في المصحف. فالنصّ القرآني شيء لم يختلف فيه اثنان، وهو المثبت في المصحف الشريف منذ العهد الأوّل الإسلامي حتّى العصر الحاضر، ومن ثمّ لم يمسه حتّى لإصلاح أخطائه الإملائية، تحفظاً على نصّ الوحي يبقى بلا تحوير.

(١) إحياء العلوم: ج ٢ ص ٧٧. راجع الآية ٩ من سورة الرحمان.

(٢) تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٣٤٠. راجع الآية ٢٦ من سورة مريم.

(٣) الإنفان: ج ١ ص ٤٧. راجع الآية ١٣ من سورة الحديد. (٤) سورة يس: ٢٩ و ٥٣.

(٥) مجمع البيان: ج ٨ ص ٤٢٦. والآية ٢٨ من سورة لقمان.

نعم ، جاءت قضية مراعاة جانب التسهيل على الأمة من بعض السلف ، لتجاوز القراءة بأي نحو كانت ، ما دامت تؤدي نفس المعنى الأصلي من غير تحريف فيه ، الأمر الذي يكون خارج النص المثبت قطعياً .

ومن ثم أجاز ابن مسعود أن ينطق ذلك الأعجمي بدل «طعام الأثيم» بـ «طعام الفاجر» . فاستبدل من النص الصعب التلقظ بالنسبة إليه لفظاً أسهل ، لكنّه لم يشبهه في المصحف كنص قرآني ، ولم يكن ذلك منه تجويز التبديل في نصّ الوحي ، حاشاه ! وهكذا كان تجويز عائشة لذلك العراقي : وما يضرك أيّه قرأت^(١) . توسعة في مقام القراءة فقط ، لا توسعة في ثبت النصّ القرآني الذي هو وحي السماء في المصحف ، ولا شك أنّ مصحفها كان ذا نصّ واحد قطعاً .



جهة سادسة : ربّما كان ابن مسعود يزيد في لفظ النصّ زيادات تفسيرية كانت أشبه بتعليقات إيضاحية أدرجت ضمن النصّ الأصلي . وهذا أيضاً كان مبنياً على مذهبه (التوسعة في اللفظ) لغرض الإيضاح . مع التحفظ على نفس المعنى الأصلي .

وهكذا اعتبر أئمة الفنّ هذه الزيادات في قراءة ابن مسعود تفسيرات ، ولم يعتبروها نصّاً قرآنيّاً منسوباً إلى ابن مسعود ، ليكون اختلافاً بين السلف في نصّ الوحي . نعم ، كانت هذه التوسعة من ابن مسعود محاباة غير مستحسنة بالنصّ القرآني . ربّما كانت تؤدي بالنصّ الأصلي وتجعله عرضة للتحريف والتغيير . الأمر الذي كان يتنافى تماماً مع تلك الحيطة والحذر على نصّ القرآن النازل من السماء . وقد تمسك بعض الأغبياء بذلك وجعله دليلاً على جواز إدخال ما ليس من القرآن في القرآن إذا كان الغرض هو التفسير والإيضاح^(٢) لكنّه تفرّيع على أصل باطل .

(٢) راجع الزرقاني على الموطأ : ج ١ ص ٢٥٥ .

(١) راجع صحيح البخاري : ج ٦ ص ٢٢٨ .

وصف مصحف أبي بن كعب

كان ترتيب مصحف أبي قريباً من مصحف ابن مسعود، غير أنه قدّم سورة الأنفال وجعلها بعد سورة يونس وقبل سورة براءة، وقدّم سورة مريم والشعراء والحجّ على سورة يونس وقبل سورة براءة، وقدّم سورة مريم والشعراء والحجّ على سورة يوسف، وهكذا، مما سيبيّن في الجدول الآتي.

وقد اشتمل مصحفه على مائة وخمسة عشرة سورة جعل سورتي الفيل وقريش سورة واحدة، وزاد سورتي الخلع والحفد، وسنذكرهما.

وكان مصحفه مفتحاً بسورة الحمد ومختتماً بالمعوذتين كمصحفنا اليوم^(١).

جهة أخرى: اشتمال مصحفه على دعاءي القنوت: باعتبارهما سورتين فيما زعم. أمّا الخلع فهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونشني عليك الخير. ولا نكفرك. ونخلع وترك من يفجرك». وأمّا الحفد فهي: «بسم الله الرحمن الرحيم. اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد. وإليك نسعى ونحفد. نخشى عذابك ونرجو رحمتك. إن عذابك بالكفار ملحق»^(٢).

جهة ثالثة: كان قد ترك البسمة بين سورتي الفيل وقريش باعتبارهما سورة واحدة^(٣). وقد ورد في أحاديث أهل البيت عليهم السلام أيضاً: أنّهما سورة واحدة، ولكن مع فصل / البسمة بينهما. فإذا قرأ المصلي: «الم تر كيف فعل ربك» يجب أن يقرأ معها: «لايلاف قريش». فهما سورة واحدة قراءة ولكنها سورتان ثبناً، على عكس ما في مصحف أبي.

روى العياشي عن أبي العباس، عن أحدهما (الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام) قال: ألم تر كيف فعل ربك، ولايلاف قريش، سورة واحدة.

وهكذا روينا بشأن سورتي الضحى والانشراح: أنّهما سورة واحدة^(٤).

وقد أفتى بذلك علماؤنا الأعلام. قال المحقق الحلبي رحمته الله: روى أصحابنا أنّ الضحى وألم

(٢) المصدر: ص ٦٥.

(١) الإتيان: ج ١ ص ٦٤ و ٦٥.

(٤) راجع وسائل النعمة: ج ٤ ص ٧٤٣.

(٣) المصدر.

نشرح سورة واحدة، وكذا الفيل ولايلاف، ولا يجوز أفراد إحداهما عن صاحبتهما في كل ركعة^(١).

وفي مجمع البيان: روى أن أبي بن كعب لم يفصل بينهما في مصحفه^(٢).
جهة رابعة: كان افتتح سورة الزمر في مصحفه بـ «حم». فيكون عدد الحواميم عنده ثمانية. أخرجه ابن أسنته في كتاب المصاحف، قال: ثم الزمر أولها حم^(٣).
جهة خامسة: اختلاف قراءته مع النص المشهور على نحو اختلاف قراءة ابن مسعود، وإليك نماذج من قراءاته الشاذة:

قرأ: «قالوا ياويلنا من (هيتا) من مرقدنا» بدل «من بعضنا»^(٤).
وقرأ: «كلما أضاء لهم (مروا) فيه». وقرأ - أيضاً - «سعوا فيه» بدل «مشوا فيه»^(٥).
وقرأ: «فصيام ثلاثة أيام (متتابعات) في الحج»^(٦) نظراً لأنه يجب التتابع فيها، فأوضحها بهذه الزيادة!
وقرأ: «فما استمتعتم به منهن (إلى أجلٍ مستمى) فاتوهن أجورهن فريضة»^(٧) للتنصيص على أنها متعة النكاح.
وقرأ: «إن الساعة آتية أكاد أخفيها (من نفسي فكيف أظهركم عليها)»^(٨) شرح وتفسير للآية.

وقرأ: «إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية (ولو حميتهم كما حموا لفسد المسجد الحرام) فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين»^(٩).

(١) راجع جواهر الكلام في شرح شرايع الإسلام: ج ١٠ ص ٢٠.

(٢) مجمع البيان، الطبرسي: ج ١٠ ص ٥٤٤. (٣) الإتيان: ج ١ ص ٦٤.

(٤) يس: ٥٢. مجمع البيان: ج ٨ ص ٤٢٨. (٥) البقرة: ٢٠. الإتيان: ج ١ ص ٤٧.

(٦) البقرة: ١٩٦. الكشاف: ج ١ ص ٢٤٢. (٧) النساء: ٢٤. جامع البيان للطبرسي: ج ٥ ص ٩.

(٨) طه: ١٥. تأويل مشكل القرآن لابن خيبة: ص ٢٥ الطبعة الثانية.

(٩) الفتوح: ٢٦. عيقات الأنوار: مجلد حديث مدينة العلم ص ٥١٨ طبعة الهند.

توحيد المصاحف

سبق أن الفترة بعد وفاة النبي ﷺ كانت فترة جمع القرآن. فقد اهتم كبار الصحابة بتأليف سور القرآن وجمع آياته، حسب ما أوتوا من علم وكفاءة، كل في مصحف يخصه. وآخرون أعوزتهم الكفاءة فلجأوا إلى غيرهم ليستنسخوا لهم مصاحف أو يجمعوا لهم آيات وسوراً في صحف. وهكذا أخذت نسخ المصاحف تتزايد، أطراداً مع اتساع رقعة الإسلام. كان المسلمون - وهم في كثرة مطردة، ومنتشرون في أطراف البلاد المترامية - قد أحسوا بحاجتهم القريبة إلى نسخ من كتاب الله، حيث كان الدستور السماوي الوحيد الذي كان المسلمون ينظّمون عليه معالم حياتهم العامّة في جميع جوانبها، فهو مصدرهم في الأحكام والتشريعات والتنظيمات.

وقد أحرز بعض هذه المصاحف في العالم الإسلامي آنذاك مقاماً رفيعاً حسب انتسابه إلى جامع، كمصحف عبد الله بن مسعود الصحابي الجليل كان مرجع أهل الكوفة وهو بلد العلم ومعهد الدراسات الإسلامية العليا، ومصحف أبي ابن كعب في الأقطار الشامية، ومصحف أبي موسى الأشعري في البصرة، ومصحف المقداد بن الأسود في دمشق، وهكذا.

اختلاف المصاحف

ولما كان جامعو المصاحف متعدّدين ومتباعدين، ومختلفين بحسب الكفاءة والمقدرة والاستعداد، وكانت كل نسخة منها تشتمل على ما جمعه صاحبها، وما جمعه واحد لا يتفق تماماً مع ما جمعه آخرون. كانت طبيعة الحال تقضي باختلاف في تأليف تلك المصاحف،

أسلوباً وترتيباً وقراءةً وغيرها . وقد تقدّم حديث ما بين مصاحف السلف من اختلاف . وهذا الاختلاف في المصاحف وفي القراءات كان بلا شك يستدعي اختلافاً بين الناس . عندما تجمعهم ندوة أو مناسبة . على مختلف نزعاتهم واتجاهاتهم يومذاك . فربّما كان المسلمون يجتمعون في غزوة أو احتفال . وهم من أقطار متباعدة . فيقع بينهم نزاع وجدل . وإنكار أحدهم على الآخر ، فيما يتعصّبون له من مذهب أو عقيدة أو رأي .

نماذج من اختلاف العامة

وفيما يلي عرض موجز عن نماذج من اختلاف العامة على المصاحف فيما تعصّبوا له من قراءات أصحابها:

١ - في غزو مرج أرمينية : بعدما قفل حذيفة راجعاً من غزو الباب (مرج ارمينية - أذربايجان) قال لسعيد بن العاص وكان بصحبته : لقد رأيت في سفري هذا أمراً لئن ترك ليختلفن في القرآن ، ثم لا يقومون عليه أبداً! قال سعيد : وما ذلك؟ قال : رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم . وأنهم أخذوا القرآن عن المقداد . ورأيت أهل دمشق يقولون : إنّ قراءتهم خير من قراءة غيرهم . ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على ابن مسعود . وأهل البصرة يقولون مثل ذلك وأنهم قرأوا على أبي موسى الأشعري ويسمّون مصحفه «لباب القلوب» .

فلما وصل ركب حذيفة وسعيد إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك . وحذّرهم ما يخاف ، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين .

وقال له أصحاب ابن مسعود : ما تنكر ، ألسنا نقرأ على ابن مسعود؟! فغضب حذيفة ومن وافقه . وقالوا ، إنّما أنتم أعراب فاسكتوا ، فإنّكم على خطأ . وقال حذيفة : والله لئن عشت لآتين أمير المؤمنين - يعني عثمان - ولأشبرنّ عليه أن يحول بين الناس وبين ذلك .

فأغلظ له ابن مسعود ، فغضب سعيد وقام . وتفرّق الناس . وغضب حذيفة وسار إلى

عثمان... (١)

٢ - في مسجد الكوفة : عن يزيد النخعي قال : إني لفي المسجد (مسجد الكوفة) زمن الوليد بن عقبة - وكان والياً على الكوفة من قبل عثمان - في حلقة فيها حذيفة بن اليمان . وليس إذ ذاك حجة ولا جلاوزة - أي لم يكن للمسجد آنذاك سدة وحفظه - إذ هتف هاتف : من كان يقرأ على قراءة أبي موسى فليأت الزاوية التي عند باب كندة . ومن كان يقرأ على قراءة عبد الله بن مسعود . فليأت الزاوية التي عند دار عبد الله . واختلفا في آية من سورة البقرة . قرأ هذا : «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّيْتِ» . وقرأ هذا : «وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ»!

فغضب حذيفة واحمرَّت عيناه ، ثم قام ففرز قميصه في حجزته وهو في المسجد . فقال : إِمَّا أَنْ يركب إلى أمير المؤمنين وإِمَّا أَنْ أركب . فهكذا كان من قبلكم . وفي رواية أبي الشعثاء : فقال حذيفة : قراءة ابن أم عبد! وقراءة أبي موسى الأشعري! والله إن بقيت حتى آتي أمير المؤمنين لأمرته يجعلها قراءة واحدة . فغضب عبد الله . فقال كلمة شديدة . فسكت حذيفة .

وفي رواية ثالثة : قال حذيفة : يقول أهل الكوفة . قراءة عبد الله! ويقول أهل البصرة : قراءة أبي موسى! والله لئن قدمت على أمير المؤمنين لأمرته بغرق هذه المصاحف! فقال له عبد الله : أما والله لئن فعلت ليفرقنك الله في غير ماء - يعني سقر - (٢)

٣ - في نفس المدينة : أخرج ابن أشتة عن أنس بن مالك ، قال : اختلفوا في القرآن على عهد عثمان ، جعل المعلم يعلم قراءة الرجل (أحد أصحاب المصاحف) والمعلم يعلم قراءة الرجل (آخر من أصحاب المصاحف) فكان الغلمان يلتقون فيختلفون . حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين ، فجعل يكفر بعضهم بقراءة بعض . فبلغ ذلك عثمان بن عفان ، فقال : عندي تكذبون به وتلحنون فيه . فمن نأى عني كان أشدَّ تكذيباً ولحناً (٣)

(٢) المصاحف لابن أبي داود السجستاني : ص ١١ - ١٤ .

(١) للكامل في التاريخ لابن الأثير : ج ٣ ص ٥٥ .

(٣) الإقتان : ج ١ ص ٥٩ . المصاحف : ص ٢٦ .

وعن محمد بن سيرين . قال : كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه : كفرت بما تقول ! فرفع ذلك إلى عثمان فتعاطم في نفسه ، فجمع اثني عشر رجلاً من قريش والأَنْصار^(١) .

وهكذا وقعت حوادث حول اختلاف قراءة القرآن كانت تنذر بسوء ووقوع فتن ربّما لا تحمد عقباها لولا تداركها من قبل رجال نابهن أمثال حذيفة بن اليمان وأضرابه رضوان الله عليهم .

قدوم حذيفة المدينة

عندما رجع حذيفة من غزو أرمينية ناقماً اختلاف الناس في القرآن استشار من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ بشأن معالجة القضية قبل تفاقم الأمر . فكان رأيه حمل عثمان على أن يقوم بتوحيد نسخ المصاحف ، وإلجاء الناس على قراءة واحدة . فاتفقت كلمة الصحابة على صواب هذا الرأي^(٢) سوى عبد الله بن مسعود . ومن ثمّ أزمع في الأمر وسار إلى المدينة يستحثّ عثمان على إدراك أُمَّة محمد ﷺ قبل تفرّقها . قال : يا أمير المؤمنين ، أنا النذير العريان أدرك هذه الأُمَّة قبل أن يختلفوا اليهود والنصارى ! قال عثمان : وما ذلك ؟ قال : غزوت مرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبيّ بن كعب ويأتون بما لم يسمع أهل العراق ، وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة ابن مسعود ويأتون بما لم يسمع أهل الشام . فيكفّر بعضهم بعضاً!^(٣)

عثمان يأتصر الصحابة

تلك حوادث وأضرابها كانت وخيمة المآل . دعت بعثمان أن يهتَمّ بالأمر ويقوم بساعد

(١) طبقات ابن سعد : ج ٣ ق ٢ ص ٦٢ . المصاحف : ص ٢٥ .

(٢) الكامل في التاريخ : ج ٣ ص ٥٥ .

(٣) صحيح البخاري : ج ٦ ص ٢٢٥ . المصاحف : ص ١٩ - ٢٠ . الكامل : ج ٣ ص ٥٥ .

الجدد، لولا أن تهيّيته القضية وهي فاجئة مباغتة، لم يسبقه إليها غيره ممن تقدّمه. مضافاً إلى ما كان يراه من صعوبة العمل في مرحلة تنفيذه، حيث انتشار نسخ المصاحف في البلاد، ومن ورائها رجال من كبار الصحابة لا يستهان بشأنهم في المجتمع الإسلامي آنذاك، فربّما يقومون بحمايتها والدفاع عنها، فيشكّلون عرقلة عويصة تسدّ وجه الطريق!

ومن ثمّ جمع أصحاب الرسول ﷺ من كان حاضراً بالمدينة، واستشارهم في الأمر، فلم يكن منهم سوى اتّفاقهم على ضرورة القيام به مهما كلف الأمر. قال ابن الأثير: فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخير، فأعظموه ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة^(١).

لجنة توحيد المصاحف

وأخيراً أزمع عثمان على تنفيذ الفكرة، فوجّه - أولاً - نداءه إلى عائمة الصحابة: يا أصحاب محمد اجتمعوا فاكتبوا للناس إماماً^(٢). ثمّ ندب نفرأً يخصّونه، وهم أربعة: زيد بن ثابت (وهو أنصاري) وسعيد بن العاص وعبدالله بن الزبير وعبدالرحمان بن الحارث بن هشام (وهم قرشيون). وهؤلاء الأربعة أعضاء أولية انعقدت بهم لجنة توحيد المصاحف^(٣). وكانت لزيد سمة رئاسة على الآخرين كما يظهر من تذمر ابن مسعود واستنكاره استئثار زيد لهذا المنصب. قال: يا معشر المسلمين أَعْزَلْ عن نسخ المصاحف ويتولّأها رجل. والله لقد أسلمت وإنه لفي صلب رجل كافر - يريد زيد بن ثابت -^(٤)؟! وكان عثمان هو يتعهدهم بنفسه^(٥).

لكن هؤلاء الأربعة لم يستطيعوا القيام بصميم الأمر. وكانت تعوزهم الكفاءة لهكذا عمل خطير. ومن ثمّ استعانوا بأبي بن كعب، ومالك بن أبي عامر، وكثير بن أفلح، وأنس بن مالك،

(١) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٥.

(٢) الإقناع: ج ١ ص ٥٩ عن مصاحف ابن أُنْتَةَ. وراجع مصاحف ابن أبي داود: ص ٢٦.

(٣) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٦. (٤) فتح الباري: ج ٩ ص ١٧، المصاحف: ص ١٥.

(٥) المصاحف: ص ٢٥.

وعبدالله بن عباس، ومصعب بن سعد^(١) وعبدالله بن فطيمة^(٢) إلى تمام الاثني عشر، على ما جاء في رواية ابن سيرين وابن سعد وغيرهما^(٣).

وفي هذا الدور كانت الرئاسة مع أبي بن كعب، فكان هو يملئ عليهم ويكتب الآخرون. قال أبو العالية: إنهم جمعوا القرآن من مصحف أبي بن كعب، فكان رجال يكتبون، يُسلي عليهم أبي بن كعب^(٤).

قال ابن حجر: وكان ابتداء الأمر كان لزيد وسعيد، حيث سأل عثمان: من أكتب الناس؟ قالوا: زيد. ثم قال: فأبي الناس أفصح؟ قالوا: سعيد. فقال: فليمل سعيد وليكتب زيد^(٥). قال: ثم احتاجوا إلى من يساعدهم في الكتابة بحسب الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق، فأضافوا إلى زيد من ذكر، ثم استظهروا بأبي بن كعب في الإملاء^(٦).

موقف الصحابة تجاه المشروع المصاحفي

سبق أن حذيفة بن اليمان كان أوّل من فكّر في توحيد المصاحف وحلف ليأتين الخليفة وليأمرنه بجعلها قراءة واحدة^(٧) كما استشار هو من كان بالكوفة من صحابة الرسول ﷺ، فوافقوه على ما عزم، سوى ابن مسعود^(٨).

وجمع عثمان من كان بالمدينة من الصحابة فأنتمهم في ذلك فهتوا جميعاً يوافقون فكرة توحيد المصاحف. قال ابن الأثير: فجمع الصحابة وأخبرهم الخبر فأعظموه ورأوا

(١) إرشاد الساري بشرح البخاري للفظلاني: ج ٧ ص ٤٤٩.

(٢) المصاحف: ص ٣٣.

(٣) المصاحف: ص ٢٥. وراجع الطبقات لابن سعد: ج ٣ ق ٢ ص ٦٢.

(٤) المصاحف: ص ٣٠.

(٥) فتح الباري: ج ٩ ص ١٦. جاء ذلك في رواية مصعب بن سعد. لكن في صحته ما تضمنته الرواية من فعوى كلام وتفاش.

(٦) المصدر. وراجع الطبقات لابن سعد: ج ٣ ق ٢ ص ٦٢. وتهذيب التهذيب: ج ١ ص ١٨٧.

(٧) فتح الباري: ج ٩ ص ١٥. (٨) الكامل في التاريخ: ج ٣ ص ٥٥.

جميعاً ما رأى حذيفة^(١).

وهكذا الإمام أمير المؤمنين^(ع) أبدى رأيه موافقاً للمشروع ذاتياً. أخرج ابن أبي داود عن سويد بن غفلة، قال: قال علي^(ع): فوالله ما فعل عثمان الذي فعل في المصاحف إلا عن ملامنا، استشارنا في أمر القراءات. وقال: بلغني أن بعضهم يقول: قراءة خير من قراءة تلك، وهذا يكاد يكون كغراً. قلنا: فماذا رأيت؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف. قلنا: فنعم ما رأيت^(٢).

وفي رواية أخرى قال: لو وليت في المصاحف ما ولي عثمان لفعلت كما فعل^(٣).

وكان^(ع) - بعد ما تولى الخلافة - أحرص الناس على الالتزام بالمرسوم المصحفي، حتى ولو كانت فيه أخطاء إملائية. حفظاً على كتاب الله من أن تمسه يد التحريف فيما بعد باسم الإصلاح. قال^(ع) بهذا الصدد: لا يهاج القرآن بعد اليوم^(٤).

ذكروا: أنه قرأ رجل بمسمع الإمام: «وطلِّحَ مَنْضُودٌ»^(٥) فجعل الإمام يترنم في نفسه: ما شأن الطلح؟ إنما هو طلِّحٌ كما في قوله تعالى: «لها طلع نضيد»^(٦) ولم يكن ذلك اعتراضاً من الإمام على القارئ، ولا دعوة إلى تغيير الكلمة، بل كان مسجِّد حديث نفس ترنم به الإمام^(ع).

ولكن أناساً سمعوا كلامه فهتوا يسألونه: ألا تغيره؟ فابرى الإمام^(ع) مستغرباً هذا

(١) المصدر. (٢) قال جلال الدين: والسند صحيح. (الإتقان: ج ١ ص ٥٩).

(٣) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٨.

(٤) تفسير الطبري: ج ٢٧ ص ١٠٤. مجمع البيان: ج ٩ ص ٢١٨.

(٥) اللوافة: ٢٩. وقد احتار المفسرون في توجيه معنى الطلح هنا.

(٦) ق: ١٠.

الطلب، وقال كلمته الحاسمة الخالدة: إنَّ القرآن لا يهاج اليوم ولا يحوّل^(١).

وهكذا سار على منهجه ﷺ الأئمة من ولده.

قرأ رجل عند الإمام أبي عبد الله الصادق ﷺ حروفاً من القرآن ليس على ما يقرأه الناس! فقال له الإمام: مه مه، كفَّ عن هذه القراءة واقرأ كما يقرأ الناس.

وقال ﷺ في جواب من سأله عن الترتيل في القرآن: اقرأوا كما علِّمتم^(٢).

ومن ثمَّ وقع إجماع أصحابنا الإمامية على أنَّ ما بأيدينا هو قرآن كلِّه^(٣) لم تمسَّه يد تحريف أصلاً. وأنَّ القراءة المشهورة هي القراءة الصحيحة التي تجوز القراءة بها في الصلاة، وغيرها من أحكام أجروها على النصِّ الموجود، واعتبروه هو القرآن الذي أوحى إلى النبي ﷺ، ولم يعتبروا شيئاً سواه.



وأما ابن مسعود فلا أظنَّ مخالفته كانت جوهرية، وإنما أغضبه انتداب أشخاص غير أكفاء لهكذا مشروع جليل كان أمثاله جديرين بالانتداب له. كان يقول: إنَّ رجالاً لم يؤذن لهم قد تصرَّفوا في القرآن من تلقاء أنفسهم^(٤). ومن ثمَّ أبى إباءً شديداً أن يدفع مصحفه إلى رسول الخليفة.

قال أبو ميسرة: أتاني رجل وأنا أصلي فقال: أراك تصلي وقد أمر بكتاب الله أن يعزَّق كلَّ معزَّق! فتجوَّزت في صلاتي وكنت أجلس، فدخلت الدار ولم أجلس، ورقيت فلم أجلس. فإذا أنا بالأشعري وحذيفة وابن مسعود يتقاولان. وحذيفة يقول لابن مسعود: ادفع إليهم المصحف. قال: والله لا أدفعه إليهم. أقرأني رسول الله ﷺ بضعا وسبعين سورة ثمَّ أدفعه إليهم! والله لا أدفعه إليهم^(٥).

(١) تفسير الطبري: ج ٢٧ ص ١٠٤، مجمع البيان: ج ٩ ص ٢١٨.

(٢) وسائل الشريعة: ج ٤ ص ٨٢٦.

(٣) راجع حديث طلحة مع الإمام في بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٤٦-٤٢.

(٤) طبقات ابن سعد: ج ٣ ص ٢٧٠. (٥) مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٢٢٨.

عام تأسيس المشروع

قال ابن حجر: كانت هذه القصة في سنة خمس وعشرين، في السنة الثالثة أو الثانية^(١) من خلافة عثمان. قال: وغفل بعض من أدركناه فزعم أن ذلك كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستنداً^(٢).

وعدها ابن الأثير - وتبعه بعض من تأخر عنه من غير تحقيق - من حوادث سنة ثلاثين قال: وفي هذه السنة غزا حذيفة الباب مدداً لعبد الرحمان بن ربيعة وفيها رأى حذيفة اختلافاً كثيراً بين الناس في القرآن، فلما رجع أشار على عثمان بجمع القرآن ففعل^(٣). وأظن ابن الأثير متوهماً في هذا التحديد:

أولاً: كانت غزوة أذربيجان وأرمينية سنة ٢٤ في رواية أبي مخنف، ذكرها الطبري. غزاها الوليد بن عقبة، لأنهم حبسوا ما صالحوا عليه حذيفة اليمان عندما غزاهم سنة ٢٢ أيام عمر بن الخطاب^(٤).

وقال ابن حجر: أرمينية فتحت في خلافة عثمان، وكان أمير العسكر من أهل العراق سلمان بن ربيعة الباهلي. وكان عثمان قد أمر أهل الشام وأهل العراق أن يجتمعوا على ذلك، وكان أمير أهل الشام في ذلك العسكر حبيب بن سلمة الفهري، وكان حذيفة من جملة من غزا معهم، وكان هو على أهل المدائن، وهو من جملة أعمال العراق.

ثم قال: سنة خمس وعشرين هو الوقت الذي ذكر أهل التاريخ أن أرمينية فتحت فيه، أول ولاية الوليد بن عقبة بن أبي معيط على الكوفة من قبل عثمان^(٥).

ثانياً: كانت الغزوة التي غزاها عبدالرحمان بن ربيعة هي في سنة اثنتين وعشرين، وكان

(١) هذا التردد ينظر إلى الاختلاف في اليوم الذي بوع فيه لعثمان، فقيل: في العشر الأخير من ذي الحجة عام ٢٣، وعليه فعام تأسيس اللجنة يقع في صدر السنة الثالثة من خلافته. وقيل: في العشر الأول من محرم عام ٢٤، وعليه فيكون تأسيس اللجنة واقعاً في مؤخرة السنة الثانية. (راجع تاريخ الطبري: ج ٣ ص ٤-٣، أوج ٤ ص ٢٤٤ طبعة دار المعارف).

(٢) فتح الباري: ج ٩ ص ١٥. (٣) الكامل: ج ٣ ص ٥٥، الفتوحات الإسلامية: ج ١ ص ١٧٥.

(٤) الطبري: ج ٤ ص ٢٤٦-٢٤٧ دارالمعارف. (٥) فتح الباري: ج ٩ ص ١٣-١٤.

الذي بصحبته حذيفة بن أسيد الغفاري، لا حذيفة بن اليمان العنسي^(١).

ثالثاً: في سنة ثلاثين عيّن سعيد حاكماً على الكوفة مكان الوليد، وفي نفس الوقت تهيّأ لغزو طبرستان، وصحبه في الغزو ابن الزبير وابن عباس وحذيفة^(٢). ولم يرجع سعيد إلى المدينة حتّى سنة ٣٤، وفي السنة التالية كان مقتل عثمان^(٣). كل ذلك لا يلشّم وكون سعيد عضواً نائباً للجنة إذا كانت تأسست عام ٣٠. وهكذا ابن الزبير وابن عباس علي ما تقدّم.

رابعاً: ذكر الذهبي فيمن توفي عام ثلاثين «أبي بن كعب». قال: وقال الواقدي: هو أوثبت الأقاويل عندنا^(٤). مع العلم أنّ أبيتاً كان مملياً على الأعضاء. وكان مرجعهم الأعلى في النسخ والمقابلة.

خامساً: في حديث يزيد النخعي الآنف: إني لفي المسجد زمن الوليد... الخ. الأمر الذي يدلّ على وقوع القصة قبل سنة ثلاثين. وفي لفظ ابن حجر: إنّه كان في بدء ولاية الوليد على الكوفة^(٥). ولا بدّ أنّه كذلك، إذ كان تعيّن الوليد على الكوفة في مفتتح سنة ٢٦، وفي رواية سيف: إنّها كانت سنة ٢٥^(٦).

سادساً: ورثما هو أقوى دليل: روى ابن أبي داود عن مصعب بن سعد، قال: خطب عثمان - بدء قيامه بجمع القرآن - فقال: إنّما قبض نبيكم منذ خمس عشرة سنة، وقد اختلفتم في القرآن! عزمت على من عنده شيء من القرآن سمعه من رسول الله ﷺ لما أتاني به^(٧).

هذه الخطبة تحدّد بالضبط بدء تأسيس المشروع المصاحفي. وإنّه كان عام ٢٥ بعد

(١) تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٦٥٥ دار المعارف. (٢) تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٢٦٩ - ٢٧١.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٣٠ و ص ٣٦٥.

(٤) ميزان الاعتدال: ج ٢ ص ٨٤. وراجع: الطبقات: ج ٣ ص ٢ ص ٦٢.

(٥) فتح الباري: ج ٩ ص ١٣ - ١٤. (٦) تاريخ الطبري: ج ٤ ص ٢٥٦.

(٧) المصاحف: ص ٢٤.

الهجرة.

وأخيراً: فابن الأثير متفرد عن الطبري في سرد قضية حذيفة، ضمن حوادث سنة ثلاثين. ولا سيما والتفصيل الذي أتى عليه في تاريخه، جاء في صورة لا تكاد نصدّقها مأخوذة عن مستند تاريخي، وأغلب الظن أنها مجموعة روايات منضّمة بعضها إلى بعض زعمها مقترنة، فأوردها ضمن حوادث تلك السنة!!

ملحوظة: لا يعتمد الطبري نفسه على التحديدات الزمنية التي يذكرها هو قيداً للحوادث، فهو يتردّد أحياناً في حادثة، بين وقوعها سنة ١٨ أو سنة ٢١، كواقعة نهاوند^(١) - مثلاً - فلا بدّ إذاً لمعرفة تاريخ كلّ حادثة من البحث عن ملبساتها والتحقيق عن مناشئها وأسبابها، دون الاعتماد السريع على ما يذكره المؤرّخون من توقيت.

منجزات المشروع

اجتازت اللجنة المصاحفية في عملها ثلاث مراحل أساسية:

- ١ - جمع المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن من أطراف البلاد الإسلامية وإمحاءها.
- ٢ - البحث عن مستندات ومنايع صحيحة لغرض النسخ عليها مصاحف متّحدة وبّتها بين المسلمين.

٣ - مقابلة هذه المصاحف الموحّدة، لغرض التأكد من صحّتها أولاً، وعدم وجود اختلاف بينها ثانياً.

وأخيراً إلزام المسلمين كافةً على قراءتها ومنع غيرها من قراءات.

واللجنة - وإن اجتازت هذه المراحل - ولكنها في شيء من التساهل وإهمال جانب الدقّة الكاملة، ولا سيما في المرحلة الثالثة التي كانت بحاجة شديدة إلى اهتمام أكثر. ففي مرحلة جمع المصاحف وإمحاءها فقد أرسل عثمان إلى كلّ أفق من يجمع

(١) يصرّح الطبري بترديده بشأن واقعة نهاوند: ج ٤ ص ١١٤ في حوادث سنة ٢١.

المصاحف أو الصحف التي فيها قرآن، وأمر بها أن تحرق^(١).

قال اليعقوبي: وكتب في جمع المصاحف من الآفاق حتى جمعت، ثم سلقها بالماء الحار والخل. وقيل: أحرقتها، فلم يبق مصحف إلا فعل به ذلك، خلا مصحف ابن مسعود، فامتنع أن يدفع مصحفه إلى عبد الله بن عامر، فكتب إليه عثمان أن أشخصه. فدخل ابن مسعود المسجد وعثمان يخطب. فقال عثمان: إنه قد قدمت عليكم دابة سوء، فكلم ابن مسعود بكلام غليظ. فأمر به عثمان فجزّ برجله حتى كسر له ضلعان. فتكلمت عائشة وقالت قولاً كثيراً^(٢).



وفي المرحلة الثانية، كان عثمان في بدء الأمر زعماً هيّبة، ومن ثمّ اختار لها جماعة غير أكفاء، ثمّ لجأ أخيراً إلى جماعة آخرين وفيهم الأكفاء مثل سيّد القراء^(٣) الصحابي الكبير أبي بن كعب. كما وأرسل إلى الربعة التي كانت في بيت حفصة، وهي الصحف التي جمع فيها القرآن أيام أبي بكر، فطلبها لتكون سنداً وثيقاً للمقابلة عليها والاستساخ منها. فأبت حفصة لأوّل أمرها أن تدفعها إليه، ولعلها خافت أن تأخذ مصيرها إلى الحرق والتمزيق كسائر المصاحف؛ حتى عاهدها عثمان ليردّها، فبعثت بها إليه^(٤).

وهكذا وجّه نداءً عاماً إلى كافة المسلمين: عزمت على من عنده شيء من القرآن سماعه من رسول الله ﷺ لئلا أتاني به^(٥).

فجعل الرجل يأتيه باللوح والكتف والعسيب فيه القرآن. وربما كانوا ينتظرون أناساً كانوا أحدثهم بالعرضة الأخيرة، حتى يأتوهم بالقرآن.

وقال أنس بن مالك: كنت فيمن أملي عليهم، فربّما اختلفوا في الآية فيذكرون الرجل قد تلقاها من رسول الله ﷺ ولعله يكون غائباً أو في بعض البوادي، فيكتبون ما قبل الآية وما

(١) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٦. (٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٥٩ - ١٦٠.

(٣) تهذيب التهذيب: ج ١ ص ١٨٧. الطبقات: ج ٣ ص ٦٢.

(٤) مصاحف السجستاني: ص ٩. البخاري: ج ٦ ص ٢٢٦. (٥) المصاحف: ص ٢٤.

بعدها، ويدعون موضعها حتى يجيء الرجل أو يرسل إليه^(١). هذا، وربما كان أبي بن كعب يملئ عليهم القرآن فيكتبونه، أو يرسلون إليه فيصتخ لهم ما اشتبهت عليهم قراءتها.

وقال عبد الله بن هانئ البربري - مولى عثمان -: كنت عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف - أي يقابلون النسخ مع بعضها البعض - فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها: «لم يتسنَّ». وفيها: «لا تبديل للخلق الله». وفيها: «فأمهل الكافرين». فدعا أبي بدواة فحما اللامين وكتب «لخلق الله». ومحا «فأمهل». وكتب «فمهل» وكتب «لخلق الله». ومحا «فأمهل». وكتب «فمهل» وكتب «لم يتسنَّ» فألحق فيها الهاء^(٢).



أما المرحلة الثالثة فكان التساهل فيها أوضح، حسب ما أودعت في المصحف العثماني من أخطاء ومناقضات إملائية بما لا يستهان بها، كما ولم تتحد نسخ المصاحف مع بعضها البعض، فكان بين المصاحف المرسلتة إلى الآفاق اختلاف؛ الأمر الذي يؤخذ على أعضاء اللجنة، ولا سيَّما عثمان نفسه، الذي عثر على تلك الأخطاء وأهملها تساهلاً بالأمر! يحدثنا ابن أبي داود عن بعض أهل الشام، كان يقول: مصحفنا ومصحف أهل البصرة أحفظ من مصحف أهل الكوفة. لأنَّ عثمان لما كتب المصاحف بلغه قراءة أهل الكوفة على حرف عبد الله، فبعث إليهم بالمصحف قبل أن يعرض - أي قبل مقابلته على سائر النسخ - وعرض مصحفنا ومصحف أهل البصرة قبل أن يبعث بهما^(٣). وهو تسريع في إرسال المصحف إلى قطر كبير قبل مقابلته بدقة.

كما وأنَّ وجود اختلاف بين مصاحف الأمصار - على ما يحدثنا ابن أبي داود أيضاً^(٤) - لدليل على مدى الإهمال الذي سمحوا به في ناحية المقابلة والإتقان من صحَّة النسخ.

(١) الإتقان: ج ١ ص ١٨٢.

(٢) نفس المصدر: ص ٢١.

(٣) المصاحف: ص ٣٥.

(٤) نفس المصدر: ص ٣٩ - ٤٩، وستذكره في فصل فادم إن شاء الله.

وجانب أفضح من هذا التساهل الغريب ، ما روى ابن أبي داود أيضاً : أنهم عندما فرغوا من نسخ المصاحف أتوا به إلى عثمان ، فنظر فيه فقال : قد أحسستم وأجملتم ، أرى فيه شيئاً من لحن ! لكن ستقيمه العرب بألسنتها . ثم قال : لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا !^(١)

قلت : ما هذا الاتكال الغريب ، والفرصة في قدرته؟! ألم يكن كتاب الله العزيز الحميد جديراً بالاهتمام به ليكون خلواً من كل خطأ أو لحن؟ ثم ما هذا التعمي الكاذب ، وفي استطاعته بدء الأمر أن يختار مملياً من هذيل وكتبة من ثقيف ، وهو يعلم أن فيهم الجدارة والكفاءة ، الأمر الذي كان يعوزه من انتدبهم من بطانته حينذاك!!

نعم ، كانت مغبته هذا التساهل أن حصلت اختلافات في القراءة فيما بعد ، وكان كزاً على ما فرّوا منه . وسنفضّل كل ذلك في فصول قادمة .

عدد المصاحف العثمانية

اختلف المؤرخون في عدد المصاحف الموحدة التي أرسلت إلى الآفاق . قال ابن أبي داود : كانت ستة حسب الامصار المهمة ذوات المركزية الخاصة : مكة والكوفة والبصرة والشام والبحرين واليمن . وحبس السابعة - وكانت تسمى الأم أو الإمام - بالمدينة^(٢) وزاد اليعقوبي : مصر والجزيرة^(٣) .

إذا فعدد المصاحف التي نسختها لجنة توحيد المصاحف هي تسعة . واحدة هي الأم أو الإمام ، كانت بالمدينة ، والبقية أرسلت إلى مراكز البلاد الإسلامية آنذاك . وكان المصحف المبعوث إلى كل قطر يحتفظ عليه في مركز القطر ، يستنسخ عليه ويرجع إليه عند اختلاف القراءة . ويكون هو حجة ، والقراءة التي توافقها تكون هي الرسمية ، وكل نسخة أو قراءة تخالفها تعد غير رسمية ومعنوعة يعاقب عليها .

(٢) نفس المصدر : ص ٣٤ .

(١) المصدر من : ٣٢ - ٣٣ .

(٣) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ١٦٠ .

أما مصحف المدينة (الإمام) فكان مرجعاً للجميع بصورة عامّة. حتّى إذا كان اختلاف بين مصاحف الأمصار فإنّ الحجّة هو المصحف الإمام بالمدينة. فيجب أن يصحّح عليه. وروي أنّ عثمان بعث مع كلّ مصحف قارئاً يقرئ الناس على قراءة ذلك المصحف. فبعث مع المصحف المكي - مثلاً - عبد الله بن السائب. ومع المصحف الشامي المغيرة بن شهاب. ومع المصحف الكوفي أبا عبد الرحمان السلمي. ومع المصحف البصري عامر بن عبد القيس... وهكذا. وكان قارئ المدينة والمقرئ من قبل الخليفة هو زيد بن ثابت^(١).

هذا. وكانت شدّة الاهتمام بهذه المصاحف والتحفّظ عليها من قبل السلطات وشدّة حرص الناس على محافظتها ودراستها تستدعي بقاءها مع الخلود. غير أنّ تطوّرات حصلت عليها فيما بعد: من تنقيط، وتشكيل، وتحزيب، وأخيراً تغيير الخطّ من الكوفيّ البدائي الذي كتبت به المصاحف على عهد عثمان. إلى الكوفيّ المعروف. وبعده إلى خطّ النسخ العربي الجميل وخطوط أخرى تداولت فيما بعد كلّ ذلك جعل من المصاحف العثمانية الأولى على مدرج النسيان. فأُمسّت مهجورة ولم يعد لها أثر في الوجود.

هذا، وذكر ياقوت الحموي (توفي سنة ٦٢٦ هـ) أنّ في جامع دمشق مصحف عثمان بن عفّان. قالوا: إنّ خطّه بيده^(٢).

وهذا المصحف رآه ابن فضل الله العمري (توفي سنة ٧٤٩ هـ). قال: وإلى الجانب الأيسر من جامع دمشق المصحف العثماني بخطّ عثمان بن عفّان^(٣).

ولم يحفظ لعثمان أنّه خطّ مصحفاً بيده، فلعلّه مصحف الشام بقي لذلك العهد. وهذا المصحف يذكره ابن كثير (توفي سنة ٧٧٤ هـ) من غير أن ينسبه إلى خطّ عثمان. قال وأما المصاحف العثمانية فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن شرقيّ المقصورة. وقد كان قديماً بمدينة طبريّة، ثمّ نقل منها إلى دمشق في حدود سنة ٥١٨ هـ وقد رأيت كتاباً ضخماً بخطّ حسن مبین قوي، بحبر محكم، في رقّ أظنه من جلود الإبل^(٤).

(١) مناعل العرفان: ج ١ ص ٣٩٦-٣٩٧. (٢) معجم البلدان: ج ٢ ص ٤٦٩.

(٣) سالك الأبيصار في سالك الأمصار: ج ١ ص ١٩٥. (٤) فضائل القرآن لابن كثير: ص ٢٩.

وقال الرحالة ابن بطوطة (توفي سنة ٧٧٩هـ): وفي الركن الشرقي من المسجد إزاء المحراب خزانة كبيرة فيها المصحف الكريم الذي وجهه عثمان بن عفان إلى الشام، وتفتح تلك الخزانة كل يوم جمعة بعد الصلاة فيزدحم الناس على لثم ذلك المصحف الكريم. وهناك يحلف الناس غرماً هم ومن ادعوا عليه شيئاً^(١).

ويقال: إن هذا المصحف بقي في مسجد دمشق حتى احترق فيه سنة ١٣٦٠هـ^(٢). قال الدكتور صبحي الصالح: وقد ذكر لي زميلي الأستاذ الدكتور يوسف العشي أن القاضي عبد المحسن الأسطواني أخبره بأنه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه، وكان محفوظاً بالمقصورة وله بيت خشب^(٣).

قال الأستاذ الزرقاني: ليس بين أيدينا دليل قاطع على وجود المصاحف العثمانية الآن فضلاً عن تعيين أمكنتها.

أما المصاحف الأثرية التي تحتويها خزائن الكتب المصرية - ويقال عنها إنها مصاحف عثمانية - فإننا نشك كثيراً في صحته هذه النسبة، لأن بها زركشة ونقوشاً موضوعة كعلامات للفصل بين السور، ولبيان أعشار القرآن. ومعلوم أن المصاحف العثمانية كانت خالية من كل هذا ومن النقط والشكل.

نعم، في خزانة المشهد الحسيني مصحف منسوب إلى عثمان، مكتوب بالخط الكوفي القديم، مع تجويف حروفه وسعة حجمه جداً، ورسمه يوافق رسم المصحف المدني أو الشامي، حيث رسم فيه كلمة «من يرتد» من سورة المائدة بدل «الذين مع الكفار»، فأكبر الظن أن هذا المصحف منقول من المصاحف العثمانية على رسم بعضها^(٤).



وهكذا نسب إلى خط الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مصحف بعض أوراقه محفوظة بالخزانة العلوية في النجف الأشرف، بخط كوفي قديم، كتب على آخره: كتبه علي بن أبو طالب في

(٢) أنظر خطط الشام: ج ٥ ص ٢٧٩.

(١) رحلة ابن بطوطة: ج ١ ص ٥٤.

(٤) مناهل العرفان: ج ١ ص ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) مباحث في علوم القرآن: ص ٨٩، بالهامش.

سنة أربعين من الهجرة.

قال الأستاذ أبو عبدالله الزنجاني : رأيت في شهر ذي الحجة سنة ١٣٥٣ هـ في دار الكتب العلوية في النجف مصحفاً بالخط الكوفي كتب علي آخره : كتبه علي بن أبي طالب في سنة أربعين من الهجرة ولتسابه «أبي» و«أبو» في رسم الخط الكوفي قد يظن من لا خبرة له أنه كتب علي بن أبو طالب بالواو^(١).

وفي خزنة الآثار بالمسجد الحسيني بالقاهرة أيضاً مصحف يقال إن علي بن أبي طالب كتبه بخطه . وهو مكتوب بخط كوفي قديم.

قال الأستاذ الزرقاني : من الجائز أن يكون كاتبه علياً ، أو يكون قد أمر بكتابه في الكوفة^(٢).



ويذكر ابن بطوطة أن في مسجد أمير المؤمنين علي عليه السلام بالبصرة المصحف الكريم الذي كان عثمان يقرأ فيه لما قتل . وأثر تغيير الدم في الورقة التي فيها قوله تعالى : «فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»^(٣) وهو غريب!



وروى السهودي عن محرز بن ثابت ، قال : بلغني أن مصحف عثمان صار إلى خالد بن عمرو بن عثمان ، فلما استخلف المهدي (العباسي) بعث بمصحف إلى المدينة ، فهو الذي يقرأ فيه اليوم . وعزل مصحف الحجاج ، فهو في الصندوق الذي دون المنبر . وقال ابن زبالة : حدثني مالك بن أنس أن الحجاج أرسل إلى أمهات القرى بمصاحف ، فأرسل إلى المدينة بمصحف كبير ، وكان هذا المصحف في صندوق عن يمين الأستوانة التي عملت علماً لمقام النبي صلى الله عليه وآله ، وكان يفتح في يوم الجمعة والخميس ، فبعث المهدي بمصاحف لها أثمان فجعلت في صندوق ونحى عنها مصحف الحجاج .

(٢) مناهل العرفان : ج ١ ص ٣٩٨.

(١) تاريخ القرآن : ص ٤٦.

(٣) الرحلة : ج ١ ص ١١٦ والآية ١٣٧ من سورة البقرة.

قال السهودي: ولا ذكر لهذا المصحف الموجود اليوم بالقبة التي بوسط المسجد المنسوب لعثمان في كلام أحد من متقدمي المؤرخين.
وفي كلام ابن النجار - وهو أول من ترجم مصاحف المساجد -: أن المصاحف الأولية قد دثرت على طول الزمان وتفرقت أوراقها فلم تبق لها باقية بعد ذلك^(١).

تعريف عام بالمصاحف العثمانية

كانت المصاحف العثمانية بصورة عامة ذات ترتيب خاص يقرب من ترتيب مصاحف الصحابة - في أصل المنهج الذي سارت عليه - بتقديم الطوال على القصار، مع اختلاف يسير.

وكانت خالية عن كل علامة تشير إلى إعجام الحرف، أو تشكيله، أو إلى تجزئته من أحزاب وأعشار وأخماس.
وكانت مليئة بأخطاء إملائية ومناقضات في رسم الخط، ويرجع السبب إلى بداءة الخط الذي كان يعرفه الصحابة آنذاك.

تلك أوصاف عامة جرت عليها تلك المصاحف فنصلها فيما يلي:

١ - الترتيب

تقدّم الكلام عن ترتيب المصحف العثماني، هو الترتيب الحاضر في المصحف الكريم، وهو الترتيب الذي جرت عليه مصاحف الصحابة حينذاك، ولا سيّما مصحف أبي بن كعب. لكنّه خالفها في موارد يسيرة.
من ذلك: أن الصحابة كانوا يعدّون سورة يونس من السبع الطوال، فكانت هي السورة السابعة^(٢) أو الثامنة^(٣) في ترتيب مصاحفهم.

(٢) في مصحف ابن مسعود.

(١) راجع وفاة الوفاء: ج ٢ ص ٦٦٧ - ٦٦٨.

(٣) في مصحف أبي بن كعب.

لكن عثمان عمد إلى سورة الأنفال فجعلها هي وسورة براءة سابعة السبع الطوال، زعمهما سورة واحدة وأخر سورة يونس إلى سورة المثين. الأمر الذي أثار ابن عباس^(١) ليعترض على عثمان، قائلاً: ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني^(٢)، وإلى براءة وهي من المثين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم^(٣). ووضعتوهما في السبع الطوال؟!

قال عثمان: «كان رسول الله ﷺ تنزل عليه السورة ذات العدد، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب، فيقول: ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا. وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة. وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً. وكانت قصتها شبيهة بقصتها، فظننت أنها منها، فقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فمن أجل ذلك قرنت بينهما. ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم. ووضعتهما في السبع الطوال» قال الحاكم: «والحديث صحيح على شرط الشيخين»^(٤).

وهذا يدل على اجتهاد الصحابة في ترتيب المصحف. فكان عثمان يعرف أن آيات من سور ربما كان يتأخر نزولها، فيأمر النبي ﷺ أن توضع موضعها من السورة المتقدمة. فزعم عثمان أن سورة براءة هي من تنمة سورة الأنفال^(٥) لتشابه ما بينهما في السياق العام: تعنيف بمنائوي الإسلام من كافرين ومنافقين، وتحريض المؤمنين على الثبات والكفاح لتثبيت كلمة الله في الأرض. وحيث لم يرد نقل بشأنهما فقرن بينهما وجعلهما سورة واحدة هي

(١) سبق أن عضوته في لجنة توحيد المصاحف كانت متأخرة.

(٢) لعله ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي جعلها من المثاني. أما في مصحف أبي بن كعب فهي من المثين.

(٣) أيضاً ينظر إلى مصحف ابن مسعود الذي أثبت فيه البسلة لسورة براءة.

(٤) مستدرک الحاكم: ج ٢ ص ٢٢٦ و ٣٢٠.

(٥) وهكذا روى العياشي (ج ١ ص ٧٣) بسنده عن أحدهما رضي الله عنه قال: الأنفال وسورة براءة واحدة.

وهناك اختلاف بين العلماء في أنهما سورة واحدة أم اثنتان؟ (راجع مجمع البيان: ج ٥ ص ٢). وربما كان يرجع القول

بأنهما سورة واحدة ما ورد؛ إنما كان يعرف انقضاء السورة بنزول بسم الله الرحمن الرحيم ابتداءً للآخرى. (العياشي: ج ١

سابعة الطوال.

ولعلّه لم ينتبه أن سورة براءة نزلت نعمة بالكافرين، ومن ثمّ لم تنزل معها التسمية التي هي رحمة، حيث لا يتناسب بدء نعمة برحمة. قال أمير المؤمنين عليه السلام: «البسمة أمان، وبراءة نزلت بالسيف»^(١).

وهكذا اختلافات يسيرة جاءت في المصحف العثماني مع بقية المصاحف، لا في أصول منهج الترتيب العام، بل في سور كل نوع من التنوع المتقدّم.

٢- النقط والتنشكيل

كانت المصاحف العثمانية خلواً عن كل علامة ماثرة بين الحروف المعجمة والحروف المهملة، وفق طبيعة الخط الذي كان دارجاً عند العرب آنذاك. فلا تمييز بين الباء والتاء، ولا بين الياء والتاء، ولا بين الجيم والحاء والهاء. وهكذا كان مجرداً عن الحركة والإعراب. وكان على الفارئ بنفسه أن يميّر بينهما عند القراءة حسب ما يبدو له من قرآن. كما كان عليه أن يعرف هو بنفسه وزن الكلمة وكيفية إعرابها أيضاً.

ومن ثمّ كانت قراءة القرآن في الصدر الأوّل موقوفة على مجرد السماع والنقل فحسب. ولولا الإسماع والإقراء كانت القراءة في نفس المصحف الشريف ممتنعة تقريباً.

مثلاً: لم تكن كلمة «تيلو» تفرق في المصحف عن كلمة «تيلو» أو «نتلو» أو «تتلو» أو «يتلو». وكذا كلمة «يعلمه» لم تكن تميّز عن كلمة «تعلمه» أو «نعلمه» أو «بعلمه».

وهكذا قوله: «لتكون لمن خلفك آية»^(٢) ربّما قرأه بعضهم: لمن خلقك.

وفيما يلي أمثلة واقعية، اختلفت القراءة فيها، مغتة خلو المصاحف من النقط:

في سورة البقرة: ٢٥٩ «ننشرها». «ننشرها» «تنشرها»^(٣).

(١) مستدرك الحاكم: ج ٢ ص ٣٣٠. الإتيان: ج ١ ص ٦٥. مجمع البيان: ج ٥ ص ٢.

(٢) راجع: مجمع البيان: ج ٢ ص ٣٦٨.

(٣) يونس: ٩٢.

في سورة آل عمران: ٤٨ «يعلمه». «تعلمه»^(١).

في سورة الحجرات: ٦ «فتبشئوا»: «فتبشئوا»^(٢).

إلى غيرها من أمثلة، وهي كثيرة.



هذا، وخلو المصاحف الأولى من علائم فارقة كان عمدة السبب في اختلاف القراءات فيما بعد. إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع، وبطول الزمان ربّما كان يحصل اشتباه في النقل أو خلط في السماع، ما دام الإنسان هو عرضة للنسيان، والاشتباه حليفه مهما دقّ في الحفظ، لو لم يقبّده بالكتابة. ومن ثمّ قيل: ما حفظ فرّ وما كتب قرّ.

أضف إلى ذلك تخلخل الأمم غير العربية في الجزيرة وتضخّم جانبهم مطّرداً مع التوسعة في القطر الإسلامي العريض. فكان على أعضاء المشروع المصاحفي في وقته أن يفكّروا في مستقبل الأمة الإسلامية، ويضعوا علاجاً لما يحتمل الخلل في قراءة القرآن قبل وقوعه. ولكن أتى وروح الإهمال والتساهل كان مسيطراً تماماً على المسؤولين آنذاك.

هذا، وقد أغرب ابن الجزري. فزعم أنّ المسؤولين آنذاك تركوا وضع العلائم عن عمدٍ وعن قصدٍ لحكمة! قال: وذلك ليحتمل الخطّ ما صحّ نقله وثبتت تلاوته عن النبي ﷺ. إذ كان الاعتماد على الحفظ والسماع لا على مجرد الخطّ^(٣).

وواقفه الزرقاني على هذا التبرير المفضوح، قال: كانوا يرسمونه بصورة واحدة خالية من النقط والشكل، تحقيقاً لهذا الاحتمال^(٤).

لكن لا مجال لهذا التبرير بعد أن تعلم أنّ الخطّ عند العرب حينذاك كان بذاته خالياً عن كلّ علامة مائزة. وكان العرب هم في بداية معرفتهم بالخطّ والكتابة، فلم يكونوا يعرفون من شؤون الإعجام والتشكيل وسائر العلائم شيئاً لحدّ ذلك الوقت.

(٢) راجع نفس المصدر: ج ٣ ص ٩٤، وج ٩ ص ١٣١.

(١) راجع نفس المصدر: ج ٢ ص ٤٤٤.

(٤) مناهل العرفان: ج ١ ص ٢٥١.

(٣) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٧.

نشأة الخط العربي

ليس في آثار العرب بالحجاز ما يدلّ على معرفتهم بالكتابة، إلا قبيل الإسلام. والسبب في ذلك أن العرب كان قد غلب على طباعهم البداوة، فكانوا في ترحال وارتحال أو حروب وغارات، وكانت تصرفهم عن التفكير في شؤون الصناعات، والكتابة من الصناعات الحضرية.

لكن بعض العرب ممن رحلوا إلى الشام والعراق في تجارة أو سفارة جعلوا يتخلّقون بأخلاق تلكم الأمم المتحضّرة. فاقتبسوا منهم الكتابة والخطّ على سبيل الاستعارة، فعادوا وبعضهم يكتب بالخطّ النبطي أو الخطّ السرياني، وظلّ الخطّان معروفين عند العرب إلى ما بعد الفتح الإسلامي.

وقد تخلّف عن الخطّ النبطي الخطّ النسخي - وهو المعروف اليوم - وتخلّف عن الخطّ السرياني الخطّ الكوفي، وكان يسمّى الخطّ الحيري، نسبة إلى الحيرة - مدينة عربية قديمة بجوار الكوفة اليوم - لأنّ هذا التحوّل حصل فيها. ثمّ بعد بناء الكوفة وانتقال الحضارة العربية إليها تحوّل اسم هذا الخطّ إلى الخطّ الكوفي. وظلّ هذا الخطّ هو المعروف والمتداول بين العرب في فترة طويلة.

والخطّ النبطي - المتحوّل إلى الخطّ النسخي - تعلّمته العرب من حوران، أثناء تجارتهم إلى الشام. أمّا الخطّ الحيري أو الكوفي فقد تعلّموه من العراق. فكانوا يستخدمون القلمين جميعاً: الأوّل في المراسلات والكتابات الاعتيادية، والثاني للكتابات ذوات الشأن كالقرآن والحديث.

ودليلاً على تخلّف الخطّ الكوفي عن السريانية: أنّهم كتبوا في القرآن «الكتب» بدل «الكتاب». و«الرحمان» بدل «الرحمن». وتلك قاعدة مطّردة في الخطّ السرياني، يحذفون الألفات الممدودة في أثناء الكلمة.

جاء الإسلام والخطّ غير معروف عند العرب الحجازيين، فلم يكن يعرف الكتابة إلا بضعة عشر رجلاً. واستخدمهم النبي ﷺ لكتابة الوحي. لكنّه جعل يعرّض المسلمين على

تعلم الخط حتى نموا وكثروا.

لكن بقي الخطان - النسخ والكوفي - هما المعروفين بين المسلمين ، يعملون في تطويرهما وتحسينهما ، حتى نبغ ابن مقلة في مفتتح القرن الرابع الهجري ، وأدخل في خط النسخ تحسينات فائقة . وهكذا بلغ الخط النسخي العربي ذروته في الكمال على نحو ما هو عليه الآن.

وظل الخط الكوفي - على عكس ازدهار الخط النسخي وتقدمه - يتدهور إلى أن هجر تماماً ، وكتبت المصاحف بعدئذٍ بالخط النسخي الجميل . وقد كانت تكتب بالخط الكوفي نحو قرنين أو أكثر^(١).

أول من نقط المصحف

كان الخط عندما اقتبسته العرب من السريان والأنباط خالياً من النقط ، ولا تزال الخطوط السريانية بلا نقط إلى اليوم . وهكذا جرت عليه العرب يكتبون بلا نقط حتى منتصف القرن الأول . وبعده بقليل جعل الخط العربي ينتقل إلى دوره الجديد ، دور تشكيل الخط وتنقيته . وسأتي الكلام عن التشكيل.

وفي ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي على العراق من قبل عبد الملك بن مروان (٧٥ - ٨٦هـ) عرّف الناس على نقط الحروف المعجمة وامتيازها عن الحروف المهملة ، وذلك على يد يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، تلميذي أبي الأسود الدؤلي^(٢).

والسبب في ذلك : أن الموالي في هذا العهد قد كثروا ، وازدهم القطر الإسلامي بأجانب

(١) راجع دائرة معارف القرن العشرين لقرية وجدي : ج ٢ ص ٦٦١ ، وتاريخ التمدن الإسلامي لبرجي زيدان : ج ٣ ص ٥٨ -

٦٠ ، والمقدمة لابن خلدون : ص ٤١٧ - ٤٢١ . وأصل الخط العربي لخليل يحيى ناسي : المجلد الثالث . والخط العربي

الإسلامي ، لفركي عطية ص ٢٢ ، وانتشار الخط العربي لصد الفتاح عبادة : ص ١٣ - ١٥ ، ومصور الخط العربي لسايجي

المصرف : ص ٢٢٨ ، وتاريخ الخط العربي لمحمد طاهر الكردي : ص ٥٤ .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين : ج ٣ ص ٧٢٢ ، ساهل العرفان : ج ١ ص ٢٩٩ - ٤٠٠ ، تاريخ القرآن للزنجاني : ص ٦٨ .

عن اللغة العربية، وكان منهم العلماء والقراء، والعربية ليست لغتهم، فكان لا بد أن يقع في تلفظهم لحن، ومن ثمّ كثر التصحيف في القراءات، وهال المسلمين ذلك.

حكى أبو أحمد العسكري^(١) أنّ الناس غيروا يقرأون في مصحف عثمان نبتاً وأربعين سنة إلى أيام عبد الملك بن مروان. ثمّ كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففرع الحجاج بن يوسف إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشبهة علامات. فيقال: إنّ نصر بن عاصم قام بذلك فوضع النقط أفراداً وأزواجاً وخالف بين أماكنها...^(٢)

وقال الأستاذ الزرقاني: أول من نَقَطَ المصحف هو يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم تلميذا أبي الأسود الدؤلي^(٣).

أول من شكّل المصحف

وهكذا كان الخطّ العربي آنذاك مجرداً عن التشكيل (علائم حركة الكلمة وإعرابها) وبطبيعة الحال كان المصحف الشريف خلواً عن كلّ علامة تشير إلى حركة الكلمة أو إعرابها.

بيد أنّ القرآن في المصدر الأوّل كان محفوظاً في صدور الرجال وأموراً عليه من الخطأ واللحن، بسبب أنّ العرب كانت تقرأ صحيحاً حسب سليقتها الفطرية التي كانت محفوظة لحدّ ذلك الوقت. أضف إلى ذلك شدّة عنايتهم بالأخذ والتلقّي عن مشايخ كانوا قريبي العهد بعصر النبوة. فقد توقّرت الدواعي على حفظه وضبطه صحيحاً حينذاك.

أمّا وبعد منتصف القرن الأوّل حيث كثر الدخلاء وهم أجانب عن اللغة فإنّ السليقة كانت تعوزهم، فكانوا بأمرٍ حاجة إلى وضع علائم ودلالات تؤمّن عليهم الخطأ واللحن.

مثلاً: لفظة «كتب» كانت العرب تعرف بسليقتها الذاتية، أنّها في قوله تعالى: «كُتِبَ رَبِّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ»^(٤) تقرأ مبنياً للفاعل، وفي قوله تعالى: «كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ» مبنياً

(٢) ابن خلكان: ج ٢ ص ٣٢ في ترجمة الحجاج.

(١) في كتاب التصحيف: ص ١٣.

(٤) الأتمام: ٥٤.

(٣) مناهل العرفان: ج ٦ ص ٣٩٩.

للمفعول . أمّا الرُّجُلُ الأعجميُّ فكان يشبّهه عليه قراءتها معلومة أو مجهولة .

كما أنّ أبا الأسود سمع قارئاً يقرأ : «إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ»^(١) - بكسر اللام - فقال : ما ظننت أنّ أمر الناس آَلَ إلى هذا ، فرجع إلى زياد بن أبيه - وكان والياً على الكوفة (٥٠ - ٥٣ هـ) وكان قد طلب إليه أن يصنع شيئاً يكون للناس إماماً ، ويعرف به كتاب الله . فاستعفاه أبو الأسود ، حتّى سمع بنفسه هذا اللحن في كلام الله ، فعند ذلك عزم على إنجاز ما طلبه زياد^(٢) - فقال : أفعل ما أمر به الأمير فليبلغ لي كاتباً مجيداً يفعل ما أقول . فأتوه بكاتب من عبد قيس فلم يرضه ، فأتوه بآخر وكان واعياً فاستحسنه .

قال أبو الأسود للكاتب : إذا رأيتني قد فتحت فمي بالحرف فانقط نقطة فوقه من أعلاه ، وإن ضممت فمي فانقط نقطة بين يدي الحرف . وإن كسرت فاجعل النقطة من تحت الحرف^(٣) . وفي لفظ ابن عياض زيادة قوله : فإذا أتبعته ذلك غنّة فاجعل النقطة نقطتين . ففعل^(٤) .

وظلّ الناس بعد ذلك يستعملون هذه النقط علائم للحركات ، غير أنّهم - في الأغلب - كانوا يكتبونها بلون غير لون خطّ المصحف . والأكثر يكتبونها بلون أحمر . والظاهر أنّ تبديل النقط السود إلى نقط ملوّنة حدث بعد وضع الإعجام على يد نصر بن عاصم الأنف ، للفرق بين النقطة التي هي علامة الحركة والتي هي علامة الإعجام .

قال جرجي زيدان : وقد شاهدنا في دار الكتب المصرية مصحفاً كوفياً منقطاً على هذه الكيفية ، وجدوه في جامع عمرو بن العاص بجوار القاهرة ، وهو من أقدم مصاحف العالم ومكتوب على رقوق كبيرة بمداد أسود وفيه نقط حمراء اللون ، فالنقطة من فوق الحرف

(١) التوبة : ٣ .

(٢) يقال : إن زياداً هو الذي دثر هذه الطريقة ليجبر بها أبا الأسود على قبول ما طلبه منه ، فأوعز إلى رجل من أتباعه أن يفعد في طريق أبي الأسود ويمنّده باللحن في القراءة . (الخطّ العربي الإسلامي لتري عطيّة : ص ٢٦ . الخطّ الكوفي ليويسف

أحمد : ص ٢٣) . (٣) الفهرست لابن النديم : ص ٤٦ الفن الأول من المقالة الثانية .

(٤) تأسيس الشعبة لطول الإسلام للسيد حسن الصدر : ص ٥٢ .

فتحة وتحتها كسرة وبين يديها ضمة، كما وصفها أبو الأسود^(١).

وقد جرى بالأندلس استعمال أربعة ألوان للمصاحف هي: اللون الأسود للحروف، واللون الأحمر للشكل بطريقة النقط، واللون الأصفر للمهمزات، واللون الأخضر لألفات الوصل^(٢).

تحسينات متأخرة

قال جلال الدين: كان الشكل في الصدر الأوّل نقطاً، فالفتحة نقطة على أوّل الحرف، والضمة على آخره، والكسرة تحت أوّله. وعليه مشى الداني. والذي اشتهر الآن: الضبط بالحركات المأخوذة من الحروف، وهو الذي أخرجه الخليل بن أحمد الفراهيدي^(٣). فالفتح شكله مستطيلة فوق الحرف، والكسر كذلك تحته، والضّم واو صغيرة فوقه، والتنوين زيادة مثلها. قال: وأوّل من وضع الهمز والتشديد والروم والإشمام الخليل أيضاً^(٤).

وهكذا كلما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بالقرآن وتيسير رسمه من طور إلى طور، حتّى إذا كانت نهاية القرن الثالث الهجري، بلغ الرسم ذروته في الجودة والحسن، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة وإبتكار العلامات المميّزة، حتّى جعلوا لسكون الحرف رأس خاء، ومعناها: أنّ الحرف المسكّن أخفّ من الحرف المتحرّك، أو برأس ميم، ومعناه: أنّ الحرف مسكّن فلا تحرّكه. وعلامة التشديد ثلاث سنابيات، ومعناها: شدّ الحرف شديداً. ووضعوا لألفات الوصل رأس صاد، ومعناه: صل هذا الحرف.

(١) تاريخ التمدّن الإسلامي: ج ٣ ص ٦١.

(٢) الخط العربي الإسلامي لتركي عطية: ص ٢٧ نفاً عن عثمان بن سيد الداني في كتابه «المقنع». تاريخ القرآن لأبي عبد الله

الزنجاني: ص ٦٨.

(٣) هو أوّل من صنّف النقط ورسمه في كتاب وذكر علله (المحكم: ٩).

(٤) الإبتقان: ج ٢ ص ١٧١، كتاب النقط لأبي عمرو الداني: ص ١٣٣.

وهكذا لظفت صناعة رسم الخط لظفاً، ورقّت حاشيته تهذيباً حسناً وظرفاً^(١).

وأما وضع الأعشار والأخماس وغيرهما من علائم التحزيب والتجزئة، فقيل: إنَّ المأمون العباسي هو الذي أمر بذلك.

وقيل: إنَّ الحجاج فعل ذلك. قال أحمد بن الحسين: بعث الحجاج إلى قرّاء البصرة فجمعهم واختار منهم جماعة. وقال: عدّوا حروف القرآن، فجعلوا يعدّونها أربعة أشهر، وإذا هي: ٧٧٤٣٩ كلمة و ٣٢٣٠١٥ حرفاً. وفي رواية: ٣٤٠٧٤٠ حرفاً. وينتصف القرآن على الفاء من قوله: «وليتلطّف» سورة الكهف: ١٩. وعدد آياته في قول «عليّ» ٦٢١٨ آية.

وقد اشتهر تحزيب القرآن وتجزئته إلى ثلاثين جزءاً تسهيلاً لقراءته في المدارس وغيرها.

وأطول سورة في القرآن هي البقرة، وأقصرها الكوثر.

وأطول آية في القرآن آية الدّين^(٢) تحتوي على ١٢٨ كلمة وهي ٥٤٠ حرفاً وأقصر آية «والضحى» ثمَّ «والفجر». حروفها: ٥ لفظاً و ٦ رسماً.

وأطول كلمة في القرآن: «فأسقيناكموه»^(٣) أحد عشر حرفاً لفظاً ورسماً^(٤).

وأخرج أحمد في مسنده عن أوس بن حذيفة، قال: كنت في الوفد الذين أتوا رسول الله ﷺ، كانوا أسلموا من ثقيف من بني مالك فأتزلنا في قبّة له، فكان يختلف إلينا بين بيوته وبين المسجد، فإذا صلّى العشاء الآخرة انصرف إلينا يحدثنا ما لقي من قومه بمكّة وبعد المهاجرة إلى المدينة. فمكث عنّا ليلة لم يأتنا حتّى طال ذلك علينا بعد العشاء، قال: قلنا: ما أمكنك عنّا يا رسول الله؟ قال: طرأ عني حزب من القرآن، فأردت أن لا أخرج حتّى أفضيه، فسألنا أصحاب رسول الله ﷺ حين أصبحنا: كيف تحزبون القرآن؟ قالوا: نحزبه

(١) المصباح لسلامة بن عياض (تأسيس الشجرة لعلوم الإسلام: ص ٥٢).

(٢) الحجر: ٢٢.

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) راجع البرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٥٢.

خمس سور وست سور وسبع سور وتسع سور وإحدى عشرة سورة. وحزب المفصل من سورة ق حتى تختتم^(١).

والظاهر أن الجملة الأخيرة هي من كلام أوس نفسه، تفرعاً على ما ذكره أصحاب رسول الله ﷺ، لأن القرآن لم يؤلف حينذاك مصحفاً بين دفتين، وإنما كانت السور مكتملة، فكانوا يقسمون السور إلى أعداد متساوية لتسهيل قراءتها حسب تقسيم الأيام أو الأوقات.

٣- مخالفات في رسم الخط

لا شك أن الخط وضع ليبر عن المعنى بنفس اللفظ الذي ينطق به، فالكتابة في الحقيقة قيد للفظ المعبر عن المعنى المقصود. وعليه فيجب أن تكون الكتابة مطابقة للفظ المنطوق به تماماً، ليكون الخط مقياساً للفظ من غير زيادة عليه أو نقصان.

غير أن أساليب الإنشاء والكتابة تختلف عن هذه القاعدة بكثير، ولكن لا بأس بذلك ما دام الاصطلاح العام جارياً عليه، فلا يسبب اشتباهاً أو التباساً في المراد.

هذا، ورسم الخط في المصحف الشريف تخلف حتى عن المصطلح العام، ففيه الكثير من الأخطاء الإملائية وتناقضات في رسم الكلمات، بحيث إذا لم يكن سماع وتواتر في قراءة القرآن، ولا يزال المسلمون يتوارثونها جيلاً بعد جيل في دقة وعناية بالغة، لولا ذلك لأصبح قراءة كثير من كلمات القرآن - قراءة صحيحة - مستحيلة.

ويرجع السبب - كما تقدم - إلى عدم اضطلاع العرب بفنون الخط وأساليب الكتابة ذلك العهد، بل ولم يكونوا يعرفون الكتابة غير عدد قليل، خطأً بدائياً رديئاً للغاية. كما يبدو على خطوط باقية من الصدر الأول^(٢).

كما يبدو أن الذين انتدبهم عثمان لكتابة المصحف كانوا غاية في رداءة الخط وجهلاً بأساليب الكتابة، حتى ولو كانت بدائية آنذاك.

(٢) راجع المقدمة لابن خلدون: ص ٤١٩ و ٤٢٨.

(١) مسند أحمد بن حنبل: ج ٤ ص ٣٤٣.

يحدثنا ابن أبي داود - كما سبق - : أنهم بعدما أكملوا نسخ المصاحف رفعوا إلى عثمان مصحفاً فنظر فيه فقال : قد أحسنتم وأجملتم ، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بالسنتها . ثم قال : أما لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقف لم يوجد فيه هذا^(١) .

يبدو من هذه الرواية أنَّ عثمان كان يعلم من هذيل معرفتها بأسلوب الإنشاء ذلك الوقت ، ومن ثقف حسن كتابتها وجودة خطها ، الأمر الذي فقده في المصحف الذي رفع إليه ، ومن ثمَّ يؤخذ عليه انتدابه الأوَّل الذي تمَّ من غير فحص ولا عناية!

وروى الثعلبي في تفسيره - عند قوله تعالى : «إن هذان لساحران»^(٢) - أنَّ عثمان قال : إنَّ في المصحف لحناً ستقيمه العرب بالسنتها ، فقيل له : ألا تغيِّره - أي ألا تصحِّحه؟ - فقال - عن تكاسل أو تساهل - : دعوه فإنَّه لا يحلُّ حراماً ولا يحلِّم حلالاً^(٣) .

هذا ، ولابن روزبهان - هنا - محاولة فاشلة . قال : وأما عدم تصحيح لفظ القرآن ، لأنَّه كان يجب عليه (على عثمان) متابعة صورة الخط ، وهكذا كان مكتوباً في المصاحف ، ولم يكن له التغير جائزاً ، فتركه لأنَّه لغة بعض العرب!^(٤)

ما ندرى ماذا يعني بقوله : «كان مكتوباً في المصاحف» أي مصاحف؟ وكيف يجمع بين قوله هذا وقوله أخيراً : «لأنَّه لغة بعض العرب»؟!

وعلى أيِّ تقدير ، فإنَّ تساهل المسؤولين ذلك العهد أعقب على الأُمَّة - مع الأبد - مكابدة أخطاء ومناقضات جاءت في المصحف الشريف ، من غير أن تجرَّأ العرب أو غيرهم على إقامتها عبر العصور .

نعم ، لم يمسُّوا القرآن بيد إصلاح بعد ذلك قطَّ لحكمة ، هي خشية أن يقع القرآن عرضة تحريف أهل الباطل بعدنِّه بحجَّة إصلاح خطئه أو إقامة أودده ، فيصح كتاب الله معرضاً خصياً لتلاعب أيدي المغرضين من أهل الأهواء .

(١) طه : ٦٣ .

(١١) المصاحف : ص ٣٢ - ٣٣ .

(١٢) نفس المصدر : ص ١٩٧ .

(١٣) دلائل الصدق للمطهر : ج ٢ ص ١٩٦ .

وقد قال علي عليه السلام كلمته الخالدة: إن القرآن لا يهاج اليوم ولا يحوّل^(١). فأصبحت مرسوماً قانونياً التزم به المسلمون مع الأبد.



ملحوظة: ليس وجود المخالفة لرسم الخط في المصحف الشريف بالذي يمس كرامة القرآن:

أولاً: القرآن - في واقعه - هو الذي يُقرأ، لا الذي يكتب. فلتكن الكتابة بأي أسلوب، فإنها لا تضر شيئاً مادامت القراءة باقية على سلامتها الأولى التي كانت تقرأ على عهد الرسول ﷺ وصحابته الأكرمين.

ولا شك أن المسلمين احتفظوا على نص القرآن بلفظه المقروء صحيحاً، منذ الصدر الأول فإلى الآن، وسيبقى مع الخلود في تواتر قطعي.

ثانياً: تخطئة الكتابة هي استنكار على الكتابة الأوائل جهلهم أو تساهلهم، وليس قدحاً في نفس الكتاب الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»^(٢).

ثالثاً: إن وجود أخطاء ظلت باقية لم تبدل، يفيد المسلمين في ناحية احتجاجهم بها على سلامة كتابهم من التحريف عبر القرون. إذ أن أخطاء إملائية لا شأن لها، وكان جديراً أن تمد إليها يد الإصلاح، ومع ذلك بقيت سليمة عن التغيير، تكريماً بمقام السلف فيما كتبوه، فأجدر بنص الكتاب العزيز أن يبقى بعيداً عن احتمال التحريف والتبديل رأساً.

وقلنا - أنفاً -: إن الحكمة في الإبقاء على تلك الأخطاء كانت هي الحذر على نفس الكتاب أن لا تمسه يد سوء بحجة الإصلاح، ومن ثم أصبحت سداً منيعاً دون أطماع المفرضين، وبذلك بقي كتاب الله يشق طريقه إلى الأبدية بسلام.

نماذج من مخالفات الرسم

وربما نرسم جدولاً يستوعب الأخطاء الواقعة في الرسم العثماني مستقصاةً، ونشير هنا -الآن- إلى أهم أخطاء وقعت فيه كنماذج بارزة:

- ١- «وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ» البقرة ٢: ١٦٤. والصحيح: وَاخْتَلَفَ اللَّيْلُ...
 ٢- «يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ» الأنعام ٦: ٥. والصحيح: أَنْبَاءٌ...
 ٣- «وَيَنْتَوُونَ عَنْهُ» الأنعام ٦: ٢٦. والصحيح: يَنْتَوُونَ عَنْهُ.
 ٤- «بِالْفُؤَادِ» الأنعام ٦: ٥٢. والصحيح: بِالْفُؤَادِ. والواو زائدة في الرسم بلا سبب معروف.

- ٥- «فِيكُمْ شُرَكَاءُ» الأنعام ٦: ٩٤. والصحيح: شُرَكَاءُ.
 ٦- «فَانشَأُوا» هود ١١: ٨٧. والصحيح: فانشأء.
 ٧- «إِنَّهُ لَا يَأْتِيَنَّسُ» يوسف ١٢: ٨٧. والصحيح: لَا يَأْتِيَأَسُ.
 ٨- «أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ» إبراهيم ١٤: ٩. والصحيح: نَبَأٌ...
 ٩- «فَقَالَ الضُّعْفَاءُ» إبراهيم ١٤: ٢١. والصحيح: الضُّعْفَاءُ.
 ١٠- «وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ» الكهف ١٨: ٢٣. والصحيح: لِشَيْءٍ.
 ١١- «لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ» الكهف ١٨: ٧٧. والصحيح: لَاتَّخَذْتَ.
 ١٢- «قَالَ يَبْنَؤُمْ» طه ٢٠: ٩٤. والصحيح: يابئنْ أُمَ.
 ١٣- «أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ» النمل ٢٧: ٢٦. والصحيح: لَأَذْبَحَنَّهُ. وقد زيدت ألف في الرسم بلا سبب معقول.

- ١٤- «بِأُتْيَاهَا الْمَلَأُ» النمل ٢٧: ٢٩. والصحيح: الْمَلَأُ.
 ١٥- «شَفَعُوا» الروم ٣٠: ١٣. والصحيح: شَفَعَاءُ.
 ١٦- «لَهُوَ الْجَلُودُ الْمَيْبِئُ» الصافات ٣٧: ١٠٦. والصحيح: الْجِلَاءُ.
 ١٧- «وَأَصْحَابُ لَيْكَةِ» ص ٣٨: ١٣. والصحيح: الْأَيْكَةِ.
 ١٨- «وَجَاءَ بِالسَّيِّئِينَ» الزمر ٣٩: ٦٩. والصحيح: وَجِيءَ.

١٩- «وَمَا دُعُوا الْكٰفِرِيْنَ» غافر ٤٠: ٥٠. والصحيح: وَمَا دُعَاءُ...

٢٠- «بِأَيْدِيكُمْ الْمَفْتُون» القلم ٦٨: ٦. والصحيح بِأَيْدِيكُمْ.

تلك نماذج عشرون كان اللحن فيها عجباً جداً، ولا سيّما إذا علمنا أنّ المصحف آنذاك كانت مجردة عن كلّ علامة تشير إلى إعجام الحرف أو إلى حركة الكلمة أو هجاها الصحيح. مثلاً: من أين يعرف قارئ المصحف أنّ «لِتَخَذت» مشدّدة التاء، وأي فرق بينها وبين «لِتَخَذت» مخففة بلام تأكيد؟! أو كيف يعرف أنّ ألف «لَأَذْبَحْتَه» زائدة لا تقرأ؟! أو أنّ إحدى اليائنين زائدة في قوله: «وَالسَّمَاءَ بَيْنَاهَا بِأَيْدِي»^(١) وكذلك لا يدري في «نَشَوْا» - بلا علامة - أنّ الواو زائدة، والألف ممدودة، والهمزة تلفظ بعد الألف، إذ ليس في اللفظ ما يشير إلى ذلك بتاتاً وهكذا..!

مناقضات في الرسم العثماني

والشيء الأغرب وجود مناقضات في رسم المصحف، بينما الكلمة مثبتة في موضع برسم خاص، وإذا هي بذاتها مرسومة في موضع آخر بما يخالفها. الأمر الذي يثير العجب، ويبعث على الاعتقاد بأنّ الكتيبة الأوائل كانوا أبعده شيء، عن معرفة أصول الكتابة أو الإتقان من وحدة الرسم على الأقلّ!

واليك نموذجاً من ذلك التناقض الغريب:

(الكلمة برسمها الصحيح)

- إِذَا لَا تَأْخُذُوكَ. الاسراء: ٧٣: ٧٣
- أَصْحَابِ الْأَيْكَةِ. الحجر: ٧٨: ١٥ و ٧٨: ٥٠ و ٧٤: ٥٠
- لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ. النوبة: ٩٦: ٩
- لَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً. الأعراف: ٣٤: ٧
- وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ. الرعد: ١٣: ١٤
- لَيْسَ بِظُلَامٍ لَلْعَبِيدِ. آل عمران: ١٨٢: ٣
- ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ. الاسراء: ٤٨: ١٧
- يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ. ^(١١) الرعد: ١٣: ٣٩
- أَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّنَّكُمْ. الحج: ٦٦: ٢٢
- لَا يَلْفِ قُرَيْشٍ. ^(١٢) قريش: ١٠: ٦
- قَالَ ابْنُ أُمِّ. الأعراف: ٧: ١٥٠
- فِي الْأَرْحَامِ مَا تَشَاءُ. الحج: ٥: ٢٢
- وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ. النحل: ١٨: ١٦
- وَلَنْ تَجِدَ لِنِعْمَةِ اللَّهِ. الفتح: ٢٣: ٤٨
- عَلَى بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ. محمد: ٤٧: ١٤
- كَذَى الْخَنَازِيرِ. غافر: ٤٠: ١٨
- إِنَّهُ طَعْنَى. النزاعات: ١٧: ٧٩
- وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. الكهف: ١٨: ٤٥
- وَقَالَ الْمَلَأُ. المؤمنون: ٢٣: ٢٣
- أُتِيهَا الْمَجْرِمُونَ. يس: ٣٦: ٥٩

(الكلمة برسمها الملحون)

- ١- لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ. الكهف: ١٨: ٧٧
- ٢- أَصْحَابِ لَيْكَةِ. الشعراء: ٢٦: ١٧٦ و ٣٨: ١٣
- ٣- فَقَالَ الضَّعْفَاءُ. ابراهيم: ١٤: ٢٦
- ٤- فَلَا يَسْتَأْجِرُونَ سَاعَةً. يونس: ١٠: ٤٩
- ٥- وَمَا دُعَاؤُ الْكَافِرِينَ. غافر: ٤٠: ٤١
- ٦- لَيْسَ بِظُلْمٍ لِّلْعَبِيدِ. الحج: ٢٢: ١٠
- ٧- ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ. الفرقان: ٢٥: ٩
- ٨- وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ. الشعوري: ٤٢: ٢٤
- ٩- فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّنَّكُمْ. البقرة: ٢: ٢٨
- ١٠- إِي لَهْمُ رِحْلَةٍ. قريش: ٦: ١٠-٢
- ١١- قَالَ بَيْنُوْمٌ. طه: ٢٠: ٩٤
- ١٢- فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ. هود: ٩٦: ٨٧
- ١٣- وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ. ابراهيم: ١٤: ٣٤
- ١٤- فَلَنْ تَجِدَ لِنِعْمَتِ اللَّهِ. فاطر: ٣٥: ٤٣
- ١٥- عَلَى بَيْتِهِ مِنْهُ. فاطر: ٣٥: ٤٠
- ١٦- لَذَا الْأَبَابِ. يوسف: ١٢: ٢٥
- ١٧- طَعْنَا الْمَاءَ. العاقبة: ٦٩: ١١
- ١٨- وَلَا تَقُولَنَّ لِي سَأَى. الكهف: ١٨: ٢٣
- ١٩- فَقَالَ الْمَلَأُ. المؤمنون: ٢٣: ٢٤
- ٢٠- أُتِيَ الثَّقَلَانِ. الرحمن: ٥٥: ٣٦

(١١) وإن كان ثبت الألف بعد الواو أيضاً خطأً، لأنه مفرد. (١٢) وإن كان حذف الألف أيضاً لحناً.

تلك - أيضاً - أمثلة عشرون اخترناها من التناقض الموجود في الرسم العثماني . وربما تزداد غرابتك - أيها القارئ - إذا ما لاحظت التناقض في إملاء سورة واحدة . كالمثال رقم : ١٨ سورة الكهف . ورقم : ١٩ سورة المؤمنون . كما رسموا «بسطة» في البقرة : ٢٤٧ بالسين ، وفي الأعراف : ٦٩ بالصاد . وكذلك «بيسط» في الرعد : ٢٦ بالسين . وفي البقرة : ٢٤٥ بالصاد . وهذا أيضاً من التناقض في سورة واحدة ... إلى غير ذلك وهو كثير .

٤ - اختلاف المصاحف

كانت الغاية من إرسال مصاحف إلى الآفاق هي رعاية جانب وحدة الكلمة لئلا تختلف . وليجتمع المسلمون على قراءة واحدة ونبذ ما سواها . فكان يجب أن تكون هذه المصاحف مستنسخة على نمط واحد . وأن تكون موحدّة من جميع الوجوه . ومن ثمّ كان يجب على أعضاء المشروع أن يتحقّقوا من وحدتها ويقابلوا النسخ مع بعضها في دقّة كاملة . غير أن الواقعية بدت بوجه آخر ، وجاءت المصاحف يختلف مع بعضها البعض . كان المصحف المدني يختلف عن المصحف المكي ، والمصحف المكي يختلف عن الشامي . وهذا عن البصري والكوفي ، وهكذا . الأمر الذي يدلّ بوضوح أنّ اللجنة تساهلت في أمر المقابلة أيضاً . فلم يأخذوا بالدقّة الكاملة في جانب توحيد المصاحف المرسلّة إلى الآفاق . وصار هذا الاختلاف في المصاحف من أهم أسباب نشوء الاختلاف القرآني فيما بعد ، وفتح باب جديد لاختلاف القراءات في حياة المسلمين .

كان قارئ كلّ مصر ومقرئها يلتزم طبعاً بقراءة ما في مصحفهم من نصّ . وكان عليه أيضاً أن يختار نوع الحرف والشكل حسب ما يبدو له من ظاهر الكلمة المثبتة في المصحف بلا نقط ولا تشكيل . ومن ثمّ كانت السلايق والمداويق ، وكذلك الأنظار والأفهام تختلف في هذا الاختيار .

أمّا الرواية والسماع عن الشيخ فهي لا تنضبط تماماً وفي جميع الوجوه إذالم تكن مثبتة في سجلّ أو في نصّ المصحف ذاته . فلا بدّ أن يقع فيها خلط أو اشتباه من جانب النقل أو

السماع، ولا سيما إذا طالقت الفترة بين الشيخ الأوّل والفارسي الأخير.

ومن ثمّ ظهرت قراءة مكّة، وقراءة المدينة، وقراءة البصرة، وقراءة الكوفة، وقراءة الشام، وهكذا. الأمر الذي كان كراً على ما فرّوا منه!

وزعم الزرقاني أنّ هذا الاختلاف في النصّ كان عن عمد منهم وعن قصد، لحكمة تحسّل اللفظ كلّ قراءة ممكنة. قال: وكتبوها متفاوتة في إنبات وحذف وبدل وغيرها، لأنّ عثمان قصد احتمالها على الأحرف السبعة. فكانت بعض الكلمات يقرأ رسمها بأكثر من وجه نحو «فتبشّونا» و«تنشرها».

أمّا الكلمات التي لا تحتل أكثر من قراءة فإنهم كانوا يرسمونها في بعض المصاحف برسم وفي بعض آخر برسم آخر، كـ «وصّى» بالتضعيف و«أوصى» بالهمز. وكذلك «تحتها الأنهار» في مصحف و«من تحتها الأنهار» بزيادة «من» في مصحف آخر...^(١)

قلت: هذا تعليل عليل، بعد أن كان الغرض من نسخ المصاحف وتوحيدها، هو رفع الاختلاف في القراءات. كان أحدهم يقول: قراءتنا خير من قراءتكم. فلنلا يقع مثل هذا الجدل المرير تأسس المشروع المصاحفي باتّفاق من أراء الصحابة. أمّا بعد أن أنجزت اللجنة مهمتها وإذا بدواعي الاختلاف، الاختلاف في القراءة ذاتها، موجودة.

أمّا قضية الأحرف السبعة المفسّرة إلى القراءات السبع، فحديث مشتبّه ربّما بلغ تفسيره إلى أربعين معنى^(٢)، وأوهن المعاني هو تفسيره بالقراءات، إذ لم يثبت أنّ النبي ﷺ قرأ القرآن على سبعة وجوه. كما أنّ لاختلاف القراء في قراءتهم عللاً وأسباباً تخصّصهم هم. وقد فصلها أبو محمّد مكّي بن أبي طالب في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» فراجع. وقد تكلمنا عن حديث الأحرف السبعة في فصل خاصّ يأتي إن شاء الله.

هذا، وأمّا الأستاذ الأبياري فإنّه يرى أنّ هذا الاختلاف إنّما كان بين مصاحف سبقت

(٢) راجع الإنان: ج ٦ ص ٥٥.

(١) ساحل العرفان: ج ١ ص ٢٥٦.

مصحف عثمان ، وجاء هذا الأخير ليرفع تلكم الاختلافات^(١) .
لكنها نظرة تخالف النصّ القائل بأن الاختلاف كان في نفس مصاحف عثمان^(٢) .
وعلى أيّة حال ؛ فإن الاختلاف بين المصاحف المبعوثة إلى الآفاق شيء واقع ويوسف
عليه ، وكانت البذرة التي انبثقت منها اختلاف القراءات فيما بعد .

ملحوظة : مصحفنا اليوم يتوافق أكثرياً مع مصحف الكوفة ، سوى مواضع نرمز إليها في
الجدول التالي بعلامة (*):
غير أن مصحف البصرة كان أدقّ من سائر المصاحف - كما أشار إليه حديث الشامي
الآتف -

تدلنا على ذلك الآية ٨٧ من سورة المؤمنون . إنها في مصحف البصرة : « قل من ربّ
السّموات السبع وربّ العرش العظيم سيقولون الله » . وهي في مصحف الكوفة وغيرها :
« سيقولون لله » .

وكذلك الآية ٨٩ من نفس السورة والآية ٣٣ من سورة فاطر . مثبتة في مصحف البصرة :
« من ذهبٍ ولؤلؤٍ » . وفي غيره : « ولؤلؤاً » .

وهكذا الآية ١٦ من سورة الإنسان في مصحف البصرة : « قواريراً » . قوارير من فضّة » .
وفي غيره : « قواريراً * قواريراً من فضّة » ... إلى غير ذلك .

وإليك جدولاً نموذجياً يبيّن مواضع الاختلاف من مصاحف الآفاق : الشام ، الكوفة ،
البصرة ، مكّة . أهمّ البلاد التي أرسلت إليها المصاحف . ومقارنتها مع المصحف الإمام
« مصحف المدينة » . اعتمدنا فيه على نصّ ابن أبي داود في كتابه « المصاحف »^(٣) .

(٢) راجع المصاحف : ص ٣٩ .

(١) تاريخ القرآن لإبراهيم الأبياري : ص ٩٩ .

(٣) المصدر : ص ٣٩-٤٩ .

جدول نموذجي يعين مواضع الاختلاف من مصحف الأفاق

| السورة | الآية | مصحف المدينة | مصحف الشام | مصحف الكوفة | مصحف البصرة | مصحف مكة |
|----------|-------|--------------------------|---------------------|--------------------|--------------------|-----------------------|
| البقرة | ١١٦ | قالوا اتخذوا الله ولداً | قالوا | وقالوا | وقالوا ... | وقالوا ... |
| البقرة | ١٢٢ | وأوصى بها إبراهيم | وأوصى | ودوصى | ودوصى ... | ودوصى ... |
| آل عمران | ١٢٣ | سارعوا إلى صفوة من ربكم | سارعوا | وسارعوا | وسارعوا ... | وسارعوا ... |
| آل عمران | ١٨٤ | جوازوا بالبينات وبالحق | وبالحق | والزبر | ... والزرير | ... والزرير |
| النساء | ٦٦ | ... | ما فعلوه إلا قليلاً | إلا قليل | إلا قليل | ... إلا قليل |
| النساء | ١٧١ | ... | ... | فأنصوا بالله ورسله | فأنصوا بالله ورسله | فأنصوا بالله ورسله |
| النساء | ٥٣ | يقول الذين آمنوا | يقول | ويقول | ويقول ... | ويقول ... |
| النساء | ٥٤ | من عرّفه | من عرّفه | من عرّفه | من عرّفه | من عرّفه |
| الأنعام | ٣٢ | ... | ولما آل أخوة | ولما آل أخوة | ولما آل أخوة | ولما آل أخوة |
| الأنعام | ٦٣ | لئن أنجيتنا | ... | لئن أنجيتنا | لئن أنجيتنا | لئن أنجيتنا |
| الأعراف | ٣ | قللاً ما يتذكرون | يتذكرون | يتذكرون | يتذكرون | ... يتذكرون |
| الأعراف | ٤٣ | ما كنا لنبهدي | ما كنا | وما كنا ... | وما كنا | وما كنا |
| الأعراف | ٧٥ | قال الملأ | قال الملأ | وقال الملأ * | وقال الملأ | وقال الملأ |
| الأعراف | ٤١ | وزاد أنجيتكم | وزاد أنجيتكم | وزاد أنجيتكم | وزاد أنجيتكم | وزاد أنجيتكم |
| الأعراف | ١٤٥ | ثم كذبوني | ثم كذبوني | ثم كذبوني | ثم كذبوني | ثم كذبوني |
| الأعراف | ٦٧ | ... | ما كان للنبى | ما كان للنبى | ما كان للنبى | ما كان للنبى |
| القوة | ١٠٠ | ... | ... | ... | تصري تحبها الأنهار | تصري من تحبها الأنهار |
| القوة | ١٠٧ | الذين أنصوا مسجداً ضرراً | الذين | والذين | والذين ... | والذين ... |
| يونس | ٧٢ | هو الذي يشركم | هو الذي يشركم | هو الذي يشركم | هو الذي يشركم | هو الذي يشركم |
| الرعد | ٤٢ | وسلم الكافر | ... | وسلم الكافر | وسلم الكافر | وسلم الكافر |
| الإسراء | ٩٣ | قال سبحان ربى | ... | قال سبحان ربى | قال سبحان ربى | قال سبحان ربى |

| السورة | الآية | مصحف المدينة | مصحف الشام | مصحف الكوفة | مصحف البصرة | مصحف مكة |
|----------|-------|-------------------------------|-------------------|------------------------|------------------------|------------------------|
| الكهف | ٣٦ | لا يجدون فيها | فيها | فيها | ... فيها | ... فيها |
| الكهف | ٩٥ | قال ما تكفي | مكتفي | قال رضي بطلم | قال رضي بطلم | قال رضي بطلم |
| الأنبياء | ٤ | قل رضي بطلم | ... | قال رب انكم | قل رب انكم | قل رب انكم |
| الأنبياء | ١١٢ | ... | ... | سفرلون في | سفرلون في | سفرلون في |
| المؤمنون | ٨٧ | قل من رب السموات... سفرلون في | سفرلون في | سفرلون في | سفرلون في | سفرلون في |
| المؤمنون | ٨٩ | قل من بينه ملكوت... سفرلون في | سفرلون في | قال كم لستم | قال كم لستم | قال كم لستم |
| المؤمنون | ١١٢ | قال كم لستم | ... | وتوكل | وتوكل | وتوكل |
| الجمراء | ٢١٧ | توكل على العزيز | توكل | ولولا | ولولا | ولولا |
| فاطر | ٣٣ | من ذهب ولولا | ... | وما صلت | وما صلت | وما صلت |
| يس | ٣٥ | وما عطشه | ... | فيهم | فيهم | فيهم |
| غافر | ١١ | كادوا هم أئد منكم | كادوا هم أئد منكم | أو أن | أو أن | أو أن |
| غافر | ١٦ | وإن يظهر رأي الأرض | وأن | فيما كسبت أيديكم | فيما كسبت أيديكم | فيما كسبت أيديكم |
| الصورى | ٢٠ | بما كسبت أيديكم | بما كسبت أيديكم | يا جهاد | يا جهاد | يا جهاد |
| الزخرف | ١٨ | يا جهادي | يا جهادي | ما تشتهي الأفيس | ما تشتهي الأفيس | ما تشتهي الأفيس |
| الزخرف | ٧١ | ما تشتهي الأفيس | ما تشتهي الأفيس | بوالديه إسماً | بوالديه إسماً | بوالديه إسماً |
| الأحزاب | ١٥ | بوالديه حسناً | ... | أن تأتهم | أن تأتهم | أن تأتهم |
| محمد | ١٨ | أن تأتهم بنته | ... | والحب ذو العصف | والحب ذو العصف | والحب ذو العصف |
| الرحمان | ١٢ | والحب ذاك العصف | والحب ذاك العصف | ذو الجلال | ذو الجلال | ذو الجلال |
| الرحمان | ٧٨ | تبارك اسم ربك ذو الجلال | ذو الجلال | وكل | وكل | وكل |
| الاحقاف | ١٠ | وكل وعد الله المسمى | وكل | إن الله هو الذي | إن الله هو الذي | إن الله هو الذي |
| الاحقاف | ٢٤ | إن الله الذي الحميد | ... | قل إنما أَدْعُو رَبِّي | قل إنما أَدْعُو رَبِّي | قل إنما أَدْعُو رَبِّي |
| الجن | ٢٠ | قال إنما أَدْعُو رَبِّي | ... | تواريها، تواريها من | تواريها، تواريها من | تواريها، تواريها من |
| الإنسان | ١٦ | تواريها، تواريها من | ... | ولا يخاف | ولا يخاف | ولا يخاف |
| الشمس | ١٥ | علا يخاف عقابها | علا يخاف | ... | ... | ... |

القرآن في أطوار الإناقة والتجويد

لم يزل القرآن - منذ الصدر الأوّل - في طور التجويد والتحسين، لاسيّما في ناحية كتابته وتجميل خطّه من جميل إلى أجمل. وقد أسهم الخطاطون الكبار في تجويد خطّ المصاحف وتحسين كتابتها.

وأوّل من تنوّق في كتابة المصاحف وتجويد خطّها هو خالد بن أبي الهياج المتوفى حدود ١٠٠ هـ، صاحب أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، وكان مشهوراً بجمال خطّه وإناقة ذوقه. ويقال: إنَّ سعداً - مولى الوليد وحاجبه - اختاره لكتابة المصاحف والشعر والأخبار للوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ) فكان هو الذي خطّ قبلة المسجد النبوي بالمدينة بالذهب من سورة الشمس إلى آخر القرآن. وكان قد جدّد بناءه وأوسع عمر بن عبد العزيز واليًّا على المدينة من قبل الوليد وبأمر منه. وفرغ من بنائه سنة ٩٠ هـ^(١).

وطلب إليه عمر بن عبد العزيز أن يكتب له مصحفاً على هذا المثال، فكتب له مصحفاً تنوّق فيه، فأقبل عمر يقلّبه ويستحسنه، ولكنّه استكثر من تمنه فردّه عليه. والظاهر أنّ ذلك كان أيام خلافته (٩٩ - ١٠١ هـ) التي كان قد ترهّد فيها.

قال محمّد بن إسحاق - ابن النديم - رأيت مصحفاً بخطّ خالد بن أبي الهياج، صاحب عليّ عليه السلام، وكان في مجموعة خطوط أثرية عند محمّد بن الحسين المعروف بابن أبي بكرة. ثمّ صار إلى أبي عبد الله بن حانئ عليه السلام^(٢).

وقد ظلّ الخطاطون يكتبون المصاحف بالخطّ الكوفي حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ثمّ حلّ محلّه خطّ النسخ الجميل في أوائل القرن الرابع على يد الخطاط الشهير محمّد بن عليّ بن الحسين بن مقلّة (٢٧٢ - ٣٢٨ هـ).

قيل: إنّه أوّل من كتب خطّ الثلث والنسخ، وأوّل من هندس الحروف - إذ كان بارعاً في علم الهندسة - ووضع قواعدها وأصول رسمها. وأنفق الباحثون أنّ الفضل الأكبر في تطوير

(١) تاريخ العقوي: ج ٣ ص ٣٠ و ٣٦.

(٢) الفهرست: القرن الأوّل من المقالة الأولى ص ٩ والقرن الأوّل من المقالة الثانية ص ٤٦.

وتحسين الخط العربي الإسلامي وتنوعه يرجع إلى هذا الخطاط الماهر الذي لم تنجب الأمة الإسلامية لحد الآن خطاطاً بارعاً مثله.

وقد نسب عدد من المخطوطات الأثرية إليه، كالمصحف الموجود في متحف هراة بأفغانستان. ويقال: إنه كتب القرآن مرّتين^(١).

وقد بلغ خط النسخ العربي ذروته في الجودة والحسن في القرن السابع على يد الخطاط المستعصي ياقوت بن عبد الله الموصلی (ت ٦٨٩ هـ). كتب سبعة مصاحف بخطه الرائع الذي كان يجيده إجادة تامّة، ويكتب بأنواعه المختلفة حتى صار مثلاً يقتدى به^(٢).

وهكذا صارت المصاحف تكتب على أسلوب خط ياقوت حتى القرن الحادي عشر، ومنذ مفتتح القرن الثاني عشر اهتم الأتراك العثمانيون عنايتهم بالخط العربي الإسلامي، لا سيّما بعد فتح سلطان سليم مصر وزوال حكم المماليك عنها، فجعل الخط العربي يتطور على أيدي الخطاطين الفرس الذين استخدمهم العثمانيون في إمبراطوريتهم.

وقد نقل السلطان سليم جميع الخطاطين والرّسامين والفنانين إلى عاصمته، وأضافوا للخط العربي أنواع جديدة، لا زالت تستعمل في الكتابات الدارجة، كالخط الرّقعي والخط الديواني والخط الطغرائي والخط الإسلامي وغيرها.

ومن الخطاطين العثمانيين الذين ذاع صيتهم: الحافظ عثمان (ت ١١١٠ هـ) والسيد عبد الله أفندي (ت ١١٤٤ هـ) والأستاذ راسم (ت ١١٦٩ هـ) وأبوبكر ممتاز بك مصطفى أفندي الذي اخترع خط الرقعة، وهو أسهل الخطوط العربية وأبسطها استعمالاً. وقد وضع قواعد وكتب به لأول مرة في عهد السلطان عبد المجيد خان سنة ١٢٨٠ هـ^(٣).

أما طباعة المصحف الشريف فقد مرّت - ككتابه خطاً - بأطوار التجويد والتحسين. فلأوّل مرّة ظهر القرآن مطبوعاً في البندقية في حدود سنة ٩٥٠ هـ = ١٥٣٠ م. لكنّ

(١) الخط العربي الإسلامي لتركي عطية: ص ١٥٥. والمخطاط البغدادي ص ١٦.

(٢) الخط العربي الإسلامي: ص ١٧١. مصوّر الخط العربي لناجي المصروف: ص ٩٢.

(٣) الخط العربي الإسلامي: ص ١٢٣.

السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره.

ثم قام «هنلكمان» بطبع القرآن في مدينة «هانبورغ» - ألمانيا - سنة ١١٠٤ هـ = ١٦٩٤ م. ثم تلاه «مراكي» بطبعه في «بادو» سنة ١١٠٨ هـ = ١٦٩٨ م.

وقام مولاي عثمان بطبع القرآن بطبعة إسلامية خالصة في مدينة «سانت بتر سبورغ» - روسيا - سنة ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٧ م. وظهر مثلها في «قازان».

وقام «فلوجل» بطبعته الخاصة للقرآن في مدينة «لينزبورغ» سنة ١٢٥٢ هـ = ١٨٣٤ م. فتلقاها الأوروبيون بحماسة منقطعة النظير بسبب إملانها السهل، ولكنها - كسائر الطبعات الأوربية - لم تنجح في العالم الإسلامي.

وأول دولة إسلامية قامت بطبع القرآن - فكان نصيبها النجاح - هي إيران^(١). طبعت طبعتين حجريتين جميلتين ومنقحتين في حجم كبير، مع ترجمة موضوعة تحت كل سطر من القرآن، ومفهرستين بعده فهارس. إحداهما كانت في طهران سنة ١٢٤٣ هـ = ١٨٢٨ م والأخرى في تبريز ١٢٤٨ هـ = ١٨٣٣ م.

وظهرت في الهند - في هذا العهد - أيضاً عدة طبعات.

ثم عُينت الأستانة - تركيا العثمانية - ابتداءً من سنة ١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧ م بطبع القرآن طبعات أنيقة ومتقنة جداً.

وقامت روسيا الملكية عام ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٥ م بطبع قرآن كتب بخط كوفي قديم، في حجم كبير، يظن أنه أحد المصاحف العثمانية الأولى خالٍ عن النقط والتشكيل، سقطت من أوله ورقات، وناقص من آخره أيضاً. يبتدئ من قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمناً بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين»^(٢) وينتهي إلى قوله: «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»^(٣) عثروا عليه في سمرقند، فامتلكته المكتبة الملكية في بتر سبورغ. ثم تولى طبعه

(١) سباحث في علوم القرآن للدكتور صبحي صالح: ص ٩٩. وينقل عن المستشرق «بلاشير» معلومات هائلة بهذا الضد

(٢) البقرة: ٨

استعدناها في هذا العرض.

(٣) الزخرف: ٤

معهد الآثار في طشقند طبعة فوتوغرافية على نفس الرسم والحجم في خمسين نسخة. وأهداها إلى أهم جامعات البلاد الإسلامية ومنها نسخة في مكتبة جامعة طهران مسجلة برقم المطبوعات (١٤٤٠٣ DSS).

وأخيراً قامت مصر بطبعة ممتازة للمصحف الشريف سنة ١٣٤٢ هـ = ١٩٢٣ م، تحت إشراف مشيخة الأزهر. وبإقرار لجنة عينتها وزارة الأوقاف، وقد تلقى العالم الإسلامي هذه الطبعة بالقبول، وجرت عليها سائر الطبعات.

كما ظهرت في العراق سنة ١٣٧٠ هـ = ١٩٥٠ م طبعة بارزة أنيقة للقرآن. وهكذا اهتمت الأمم الإسلامية في مختلف الأقطار بطبع هذا الكتاب ونشره على أحسن أسلوب وأجمل طراز، ولا تزال.

القراءات

- وقفة عند مسألة تواتر القراءات

- حديث الأحرف السبعة

- القراءات

- القراءات بين الصّحة والشذوذ

- قراءة حفص وقراءات تخالفها

القراءات في نشأتها وتطورها

القراءات في نشأتها الأولى

القراءة - وتعني وجهاً من احتمالات النصّ القرآني - مصطلح قديم يرجع عهدها إلى عهد الصحابة الأولين . حيث عمد جماعة من كبار صحابة رسول الله ﷺ بعد وفاته إلى جمع القرآن في مصاحف ، كعبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل والمقداد بن الأسود وأضرابهم . وربما اختلفوا في ثبت النصّ أو في كيفية قراءته ، ومن ثمّ اختلفت مصاحف الصحابة الأولى . وكان كلُّ قطر من أقطار البلاد الإسلامية تقرأ حسب المصحف الذي جمعه الصحابيُّ النازل عندهم .

كان أهل الكوفة يقرأون على قراءة ابن مسعود . وأهل البصرة على قراءة أبي موسى الأشعري ، وأهل الشام على قراءة أبي موسى الأشعري ، وأهل الشام على قراءة أبي بن كعب . وهكذا حسبما تقدّم تفصيله .

واستمرّ الحال إلى عهد عثمان . حيث تفاقم أمر الاختلاف ، ففرغ لذلك لفيف من نبهاء الأئمة أمثال حذيفة بن اليمان ، فأشاروا على عثمان أن يقوم بتوحيد المصاحف قبل أن يذهب كتاب الله عرضة الاختلاف والتمزيق .

فألذي كان من عثمان أن أمر جماعة بنسخ مصاحف موحّدة وإرسالها إلى الأمصار وإلجاء المسلمين على قراءتها ونبذ ما سواها من مصاحف وقراءات أخرى .

لكنّ الجماعة الذين اتبدهم عثمان كانت تموزهم كفاءة هذا الأمر الخطير ، ومن ثمّ وقعت في نفس تلك المصاحف أخطاء إملائية ومناقضات وبعض الاختلاف . الأمر الذي

أعاد علي المسلمين اختلافهم في قراءة القرآن.

كان عثمان قد بعث مع كلِّ مصحف من يُقرئ الناس على الشبث الموحد في تلك المصاحف - على حساب أنها موحدّة - فبعث مع المصحف المكي عبد الله بن السائب ، ومع الشامي المغيرة بن شهاب ، ومع الكوفي أبا عبدالرحمان السلمي ، ومع البصري عامر بن قيس ، وهكذا^(١).

وكان هؤلاء المبعوثون يُقرئون الناس في كلِّ قطر على حسب المصحف المرسل إليهم . ومن ثمَّ عاد محذور الاختلاف ، نظراً لوجود اختلاف في ثبت تلك المصاحف مضافاً إلى عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختلاف^(٢) . فكان أهل كلِّ قطر يلتزمون بما في مصحفهم من ثبت . ومن هنا نشأ اختلاف قراءة الأمصار ، بدلاً من اختلاف القراء الذي كان قبل ذلك . كانت القراءة قبل هذا الحادث تنسب إلى جامعي المصاحف ، أما الآن فتنسب إلى المصر الذي بعث إليه المصحف العثماني - غير الموحد تماماً - فكانوا يقولون : قراءة مكّة ، قراءة الشام ، قراءة المدينة ، قراءة الكوفة ، قراءة البصرة ، وهكذا .

ومن ثمَّ فإنَّ الغاية التي بذلت من أجلها جهود وثارت في سبيل تحقيقها ضجّة جماعات كأصحاب عبد الله بن مسعود وغيره لم تنجح تماماً ، وبقيت عوامل التفرقة والاختلاف تنفّس مع طول الزمان . كلّ ذلك مغبّة تساهل الخليفة في أمر توحيد المصاحف ، ولم يأخذ بساق الجدِّ في هكذا أمر خطير يمسُّ ركيزة حياة المسلمين في طول تاريخهم الخالد . وقد لمس الخليفة نفسه هذا الخلل في المصحف الذي رفع إليه لكنّه لم يكثرث به وأبدى تساهله بشأن الإصلاح . الأمر الذي يؤخذ عليه شديداً . هذا فضلاً عن دلالة الأمر على عدم كفاءة الأشخاص الذين انتدبهم عثمان لهذا الأمل الجليل ، وعدم جدارتهم للقيام بهكذا عمل خطير . ومع ذلك فإنَّ الخليفة لم يعد النظر في أمر القرآن ، ولعلّه كان تسرعاً في الأمر بلا مبرر معقول .

(١) راجع تهذيب الأسماء للنووي : ج ١ ص ٢٥٧ ، شرح مورد الطنّان للمارغني : ص ١٦ .

(٢) سوف نشرحها في فصل قادم .

يحدثنا ابن أبي داود: أنهم بعدما أكملوا نسخ المصاحف رفعوا إلى عثمان مصحفاً فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى فيه شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها. ثم قال: أما لو كان المملى من هذيل والكاتب من تقيف لم يوجد فيه هذا^(١). ما ندري لم هذا التساهل بشأن كتاب الله العزيز الحميد!

ولعل معترضاً يقول: هب أن الخليفة عثمان تساهل بشأن الخلل الذي لمسه في مرسوم خط المصحف، فلماذا تساهل الخلفاء من بعده بهذا الشأن، ولا سيما مثل الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي كان أعلم الصحابة بالقرآن وأحرصهم على حفظه وجمعه؟

قلنا: سبق منا الإجابة على ذلك، وأنه لم يكن من مصلحة الأمة مساس القرآن - بعد ذلك - بيد إصلاح قط. وإلا لاتخذها أهل الأهواء والبدع ذريعة إلى تحريف القرآن والتلاعب بنصه الكريم. بحجة إصلاح خطائه. فكان يقع القرآن الكريم عرضة الأطماع والسياسات المتبدلة حسب تطور الزمان.

وأول من أحس بهذا الخطر الرهيب هو الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، فقام في وجهه هذا الباب وأغلقه غلقاً مع الأبد.

ذكروا أن رجلاً قرأ بسم الإمام عليه السلام: «وطلع متضود»^(٢) فجعل الإمام يترثم لدى نفسه: ما شأن الطلح؟ إنما هو طلع، كما جاء في قوله تعالى: «والنخل باسقات لها طلع نضيد»^(٣) ولم يكن ذلك من الإمام اعتراضاً على القارئ، ولا دعوة إلى تغيير الكلمة، بل كان مجرد حديث نفس ترثم عليه السلام به. لكن أناساً سمعوا كلامه. فهتوا يسألونه: ألا تغيره؟ فانبرى الإمام مستغرباً هذا الاقتراح الخطير، وقال كلمته الخالدة: لا يهاج القرآن بعد اليوم ولا يحول^(٤). وأصبح موقف الإمام عليه السلام هذا مرسوماً إسلامياً مع الأبد، لا يحق لمسلم أن يمد يد

(١) المصاحف لابن أبي داود: ص ٢٢ - ٢٣. (٢) الواقعة: ٢٩.

(٣) ق: ١٠.

(٤) تفسير الطبري: ج ٢٧ ص ١٠٤. مجمع البيان: ج ٩ ص ٢١٨.

إصلاح إلى أخطاء القرآن، مهما كانت نيته صادقة أم كاذبة، وبذلك حلَّ القرآن الكريم وسط إطار من التحفظ الكامل على نصّه الأصيل، وسلم من التحريف والتبديل أبدياً.

ملحوظة: لأبي بكر ابن الأنباري هنا تعليفة، أظنّها قد فرطت منه لا شعورياً. قال - بعد أن نقل الحديث عن الإمام عليه السلام -: ومعنى هذا أنّه رجع إلى ما في المصحف وعلم أنّه الصواب وأبطل الذي كان فرط من قوله^(١).

ولا شك أنّ مثل هذا الاحتمال بالنسبة إلى مثل الإمام عليه السلام فضول ينمّ عن جهل قائله بموضع الإمام من القرآن، الذي كان أعلم الصحابة بمواقع آي القرآن متى نزلت وأين نزلت وفيه نزلت^(٢)، وكان يرى نور الوحي وبشمّ ريح النبوة. وقال له الرسول ﷺ: إنك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلا أنّك لست بنبي^(٣).

فكان باب مدينة علمه الذي منه يؤتى^(٤)، ومن ثمّ كان الصحابة يرجعون إليه فيما أشكل عليهم ولا يرجع إلى أحد منهم^(٥). ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير^(٦).

أفي شأن مثل هذه الشخصية اللامعة في أفق العلم والإسلام يحتمل هكذا احتمالات ساقطة؟! اللهمّ إلا أن يكون في قلوبهم مرض «فأصمّهم وأعمى أبصارهم»^(٧). «فبأنّها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور»^(٨).

عوامل نشوء الاختلاف

لا شك أنّ اختلاف مصاحف الأمصار كان أهمّ عوامل نشوء الاختلاف القرآني. كان أهل

(١) تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ٢٠٩ نقلًا عن كتابه «المصاحف» الذي وضعه للمرّة الأولى من خالف مصحف عثمان. (انظر

الإتيان: ج ١ ص ٨٧. (٢) انظر تفسير البرهان للبحراني: ج ١ ص ١٦ حديث ١٣.

(٣) نهج البلاغة: الخطبة القاصمة ج ١ ص ٣٩٢-٣٩٣.

(٤) مستدرک الحاكم: ج ٣ ص ١٢٦، قال: حديث صحيح الإسناد.

(٥) أنظر فضائل الخمسة للمفروض آبادي: ج ٢ ص ٢٧١-٢٠٨.

(٦) نهج البلاغة: الخطبة المشققة ج ١ ص ٣١. (٧) معتمد ٢٢.

(٨) المعج: ٤٦.

كلّ مصر ملتزمين بالقراءة وفق مصحفهم، وعلى إقراء مقرّبيهم الخاصّ. وهكذا قرأ ابن عامر - وهو مقرئ الشام -: «جاؤوا بالبيّنات وبالزبر»^(١١) - بالباء - لأنّ مصحف الشام كان كذلك. وقرأ الباقر بن غير باء^(١٢).

وقرأ نافع وابن عامر: «سارعوا إلى مغفرة من ربّكم»^(١٣) - بلا واو - لأنّ مصحف المدينة ومصحف الشام كانا خلواً عنها. ونافع مدني، وابن عامر شامي، وقرأ الباقرن بالواو، لأنّ مصاحفهم كانت مشتتة عليها^(١٤).

وهناك أيضاً عوامل أخرى ساعدت على هذا الاختلاف. نذكر منها ما يلي:

١ - بداية الخطّ

كان الخطّ عند العرب آنذاك في مرحلة بدائية، ومن ثمّ لم تستحكم أصوله ولم تتعرّف العرب إلى فنونه والإتقان من رسمه وكتابه الصحيحة. وكثيراً ما كانت الكلمة تكتب على غير قياس النطق بها، ولا زال بقي شيء من ذلك في رسم الخطّ الراهن. كانوا يكتبون الكلمة وفيها تشابه واحتمال وجوه: فالنون الأخيرة كانت تكتب بشكل لا يفرق عن الراء، وكذا الواو عن الياء. وربما كتبوا الميم الأخيرة على شكل الواو، والدال على صورة الكاف الكوفيّة، والعين الوسط كالهاء، كما ربّما كانوا يفتكّون بين حروف كلمة واحدة. فيكتبون الياء منفصلة عنها، كما في «يستحيى» و«نحىى» و«أحىى» أو يحذفونها رأساً كما في «إيلافهم» كتبوها «إلا فهم» بلا ياء. الأمر الذي أشكل على بعض القراء فقرّأها وفق الرسم بلا ياء. قرأ ذلك أبو جعفر^(١٥) فقد قرأ «ليلاف فريش» بحذف الهمزة وإتبات الياء، و«إلافهم» رحلة الشتاء والصيف» بإتبات الهمزة وحذف الياء.

وقرأ ابن فليح «إلفهم» بالهمز وسكون اللّام. وهكذا اختلف القراء في هذه الكلمة

(١١) آل عمران: ١٨٤ وفيه «والزبر». (٢) الكشف: ج ١ ص ٢٧٠، والمجمع: ج ٢ ص ٥٤٨.

(٣) آل عمران: ١٣٣. (٤) الكشف: ج ١ ص ٢٥٦، والتجوير: ص ٩٩.

(٥) مجمع البيان: ج ١ ص ٥٤٤. شرح مورد الطمّان: ص ١٤٢.

اختلافاً غريباً من جزاء عدم ضبط الكلمة في مرسوم الخطّ تماماً.

وربّما رسموا التنوين نوناً في الكلمة^(١١)، كما كتبوا النون ألفاً في كثير من المواضع، منها: «لنفسعاً بالناصية»^(١٢) و«ليكوناً من الصاغرين»^(١٣) وهاتان النونان تون تأكيد خفيفة كتبوها بألف التنوين. و«وإذاً لايتناهم من لدنا أجرأ عظيماً»^(١٤) كتبوا «إذاً» بدل «إذن» تشبيهاً بالتنوين المنصوب^(١٥).

وهكذا حذفوا واوات أو ياءات بلا سبب محقول. فكان من أهمّ عوامل الإيهام، والإشكال في القراءة بل في التفسير أيضاً، كما في قوله تعالى: «وصالحوا المؤمنين»^(١٦) فلم يكتبوا الواو هكذا: «وصالح المؤمنين» ومن ثمّ وقع الاشتباه أنّه مفرد أريد به الجنس أو جمع مضاف^(١٧).

وحذفوا الألف من «عاداً الأولى» هكذا: «عاد الأولى»، فربّما اشتبهه مشتبه أنّه فعل أو اسم^(١٨)، وزادوا ألفاً في «جاءنا»^(١٩) هكذا «جاءانا»، والكلمة مفردة فربّما ظنّها الجاهل مشئى^(٢٠).

كما رسموا ألفاً بعد كثير من واوات زعموهنّ واوات جمع، وعلى العكس حذفوا كثيراً من ألفات واو الجمع. فمن الأوّل قوله: «إنما أشكوا بئى»^(٢١)، و«فلا يربوا»^(٢٢)، و«نبلوا أخباركم»^(٢٣)، و«ما تلوا الشياطين»^(٢٤). ومن الثاني قوله: «فاؤ»^(٢٥)، و«جاؤ»^(٢٦).

(١) كما في «كأين»، راجع شرح مورد الظمان: ص ١٨٦، (٢) الملق: ١٥.

(٣) يوسف: ٣٢، (٤) النساء: ٦٧.

(٥) شرح مورد الظمان: ص ١٨٦، (٦) التحريم: ٤.

(٧) راجع مجمع البيان: ج ١٠ ص ٣١٦، وشرح مورد الظمان: ص ٤٧.

(٨) شرح مورد الظمان ص ١٢٥، والآية ٥٠ من سورة النجم.

(٩) الزخرف: ٣٨، (١٠) شرح مورد الظمان: ص ١٢٨.

(١١) يوسف: ٨٦، (١٢) المروم: ٣٩.

(١٣) البقرة: ٣١، (١٤) البقرة: ١٠٢.

(١٥) البقرة: ٢٢٦، (١٦) في نسخ موارد من القرآن الكريم.

و«فباؤ»^(١)، و«تَبَوُّؤ الدار»^(٢)، و«سعو»^(٣)، و«عتو»^(٤)، وغير ذلك كثير.

ومن ثمَّ ربَّما كان الأوائل يتَّهمون كتبة المصاحف فيرون الصَّحيح غير ما كتبوه، كما روي عن ابن عباس أنَّه قرأ «ووصى ربُّك أن لا تعبدوا إلاَّ إياه» فقيل له: إنَّه في المصحف «وقضى ربُّك»^(٥) فقال: التصقت أحد الواوين فقرأه الناس «وقضى» ولو نزلت على القضاء ما أشرك به أحد.

وفي لفظ ابن أشتة: استمدَّ الكاتب مداداً كثيراً فالتزقت الواو بالصاد^(٦).

وروي أيضاً عنه أنَّه قرأ «أفلم يتبيَّن الذين آمنوا» فقيل له: في المصحف «أفلم يئاس»^(٧) فقال: أظنَّ الكاتب كتبها وهو ناعس^(٨).

وقد صحَّح ابن حجر أسناد هذه الروايات^(٩)، لكنَّ الصحيح عندنا - على فرض صحَّة الأسناد - أنَّها مؤوَّلة إلى غير ما يبدو من ظاهرها.

٢- الخلوُّ عن النُقْط

كان الحرف المعجم يكتب كالحرف المهمل بلا نقط مائزة بين الإعجام والإهمال. فلا يفرِّق بين السين والشين في الكتابة، ولا بين العين والغين، أو الراء والزاي، أو الباء والتاء والتاء والياء، أو الفاء عن القاف، أو الجيم والحاء والحاء، أو الدال عن الذال، أو الصاد عن الضاد، أو الطاء عن الظاء. فكان على القارئ نفسه أن يميِّز بحسب القرائن الموجودة أنَّها باء أو ياء، جيم أو حاء، وهكذا.

(١) في ثلاث موارد من القرآن الكريم. (٢) الحشر: ٩.

(٣) الحج: ٥٦، سبأ: ٥.

(٤) الإسراء: ٢٢.

(٥) الرعد: ٣٦.

(٦) تفسير الطبري: ج ١٣ ص ١٠٤، الإتيان: ج ١ ص ١٨٥.

(٧) فتح الباري: ج ٨ ص ٢٨٢-٢٨٣.

من ذلك قراءة الكسائي: «إن جاءكم فاسق بنبأ فتثبتوا» وقرأ الباقون «فتبينوا»^(١).
 وقرأ ابن عامر والكوفيون: «ننشزها»، وقرأ الباقون «ننشرها»^(٢).
 وقرأ ابن عامر وحفص: «ويكفر عنكم»، وقرأ الباقون «نكفر»^(٣).
 وقرأ ابن السميع «فاليوم ننحيك بيدنك»، والباقون: «ننحيك»^(٤).
 وقرأ الكوفيون غير عاصم «لنثويثهم من الجنة غرماً» والباقون «لنثويثهم»^(٥).
 وأمثلة هذا النوع كثيرة جداً.

٣- التجريد عن الشكل

كانت الكلمة تكتب عارية عن علائم الحركات القياسية في وزنها وفي إعرابها. وربما يختار القارئ في وزن الكلمة وفي حركتها فيما إذا كانت الكلمة محتملة لوجوه. مثلاً لم يكن يدري «اعلم» أمر أم فعل مضارع متكلم. فقد قرأ حمزة والكسائي «قال أعلم أن الله على كل شيء قدير» بصيغة الأمر، وقرأ الباقون بصيغة المتكلم^(٦). كما قرأ نافع قوله تعالى: «ولا تسأل عن أصحاب الجحيم» بصيغة النهي، وقرأ الباقون بصيغة المضارع المجهول^(٧) وقرأ حمزة والكسائي: «من يطوع» بالياء وتشديد الطاء مضارعاً مجزوماً، وقرأ الباقون بالياء وفتح الطاء ماضياً^(٨). إلى غير ذلك من الشواهد المتوقفة في المصحف الأوّل.

قال ابن أبي هاشم: إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها: أن الجهات التي

(١) المكرر لأبي حفص الأنصاري: ص ١٤٦، والآية ٦ من سورة الحجرات.

(٢) للكشف: ج ١ ص ٣٦٠، والآية ٢٥٩ من سورة البقرة. (٣) نفس المصدر: ص ٣٦٦، والآية ٢٧١ من سورة البقرة.

(٤) مجمع البيان: ج ٥ ص ١٣٠، الفرطبي: ج ٨ ص ٣٧٩، والآية ٩٢ من سورة يونس.

(٥) مجمع البيان: ج ٨ ص ٢٩٠، والآية ٥٨ من سورة المنكبوت.

(٦) الكشف: ج ١ ص ٣١٢، والآية ٢٥٩ من سورة البقرة. (٧) نفس المصدر: ص ٢٦٢، والآية ١١٩ من سورة البقرة.

(٨) المصدر: ٢٦٨، والآية ١٥٨ من سورة البقرة.

وجّهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة . وكانت المصاحف خالية من النُقط والشكل ... قال : فمن ثمّ نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار^(١) . وقال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته : إنّ القراءات لم يتّضح كونها رواية . فلعلّها اجتهادات من القراء . وتؤيّد هذا الاحتمال تصريحات بعض الأعلام بذلك . بل إذا لاحظنا السبب الذي من أجله اختلف القراء في قراءاتهم ، وهو خلوّ المصاحف المرسلة إلى الجهات من النُقط والشكل ، فإنّه يقوى هذا الاحتمال^(٢) .

٤ - إسقاط الألفات

كان الخطّ العربي الكوفي منحدرًا عن خطّ السريان ، وكانوا لا يكتبون الألفات الممدودة في ثنايا الكلم ، وقد كتبوا القرآن بالخطّ الكوفي على نفس المنهج . الأمر الذي أوقع الاشتباه في كثير من الكلمات . فقد قرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير : «وما يخادعون إلا أنفسهم» بدل «وما يخدعون»^(٣) نظرًا لأنّ «يخادعون الله» في صدر الآية قد كتبت بلا ألف فرعوهما من باب واحد^(٤) .

وهكذا كتبوا «وحرام على قرية أهلكتها أنّهم لا يرجعون»^(٥) - وحرّم - بلا ألف . ومن ثمّ قرأ حمزة والكسائي وشعبة «وحرّم» بكسر الحاء وسكون الراء^(٦) .

وقرأ الكوفيّون «ألم نجعل الأرض مهاداً» بدل «مهاداً»^(٧) لأنّها كتبت في المصحف بلا ألف^(٨) .

وقرأ أبو جعفر والبصريّون : «وإذ وعدنا موسى أربعين ليلة»^(٩) بلا ألف . وكذا في

(٢) الميزان : ص ٨٨١ .

(١) البيان : ص ٨٦ .

(٤) الكشف : ج ١ ص ٢٢٤ .

(٣) البقرة : ٩ .

(٦) شرح مورد الطمّان : ص ١٢٦ .

(٥) الأنبياء : ٩٥ .

(٨) شرح مورد الطمّان : ص ١٢٧ .

(٧) البقرة : ٦ .

(٩) البقرة : ٥١ .

سورتي الأعراف وطه^(١)، لأنها هكذا كتبت. وقرأ الباقون «وإذ واعدنا»^(٢).

وقرأ أبو عمرو وابن كثير «بل أدرك» وقرأ الباقون «بل أذكرك علمهم في الآخرة»^(٣) وسبب الاختلاف أنها كتبت في المصحف بلا ألف، فقرأ كل حسب نظره فيما رآه مناسباً^(٤). وقرأ نافع «في غيبات الجب». وقرأ الباقون «في غيبات الجب»^(٥) نظراً لأن المصحف كان مجرداً عن الألف هكذا: «غيب»، فاجتهد نافع فرعه جمعاً، واجتهد الآخرون فرأوه مفرداً. والمفروض أن رسم المصحف كان خلواً من الألف مع مد التاء مطلقاً غالباً. ومن ثم هذا الاشتباه والاختلاف.



تلك وأشباهها عوامل أولية لاشتباه قراءة النص، وكان فاقداً لأي علامة مائزة، وخالياً من النقط والشكل، ومشوشاً في رسم خطه بحذف أو زيادة، فكان ذلك لا محالة موجباً للتشويش على القارئ، فلم يكن يدري -مثلاً- أن قوله تعالى «لتكون لمن خلقتك آية»^(٦) أنها بالفاء أو بالقاف. أو أن قوله «تبلو»^(٧) أنها «تتلو» بتائين أو «تتلو» بنون ثم تاء أو «يتلو» بياء ثم تاء. أو أن قوله: «يعلمه» أنها «تعلمه» أو «تعلمه» أو «يعلمه».

أضف إلى ذلك بعض الزيادات المخلة بالمقصود، إذ لم يكن القارئ عارفاً بأصل النص من سماع خارج. كما في قوله «لأعذبته عذاباً شديداً أو لأذبحته»^(٨) فزادوا ألفاً أثناء كلمة واحدة^(٩) «لأذبحته»، فربما يحسب القارئ الجاهل بالواقع أنها «لا» النافية، في حين أنها لام تأكيد، والهمزة حرف المتكلم والألف زائدة.

وكذلك كلمة «لشائ»^(١٠) في قوله: «ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً»^(١١) زادوا بين

(١) الأعراف: ١٤٢، طه: ٨٠.

(٢) النمل: ٦٦.

(٣) الكشف: ج ٢ ص ١٦٤.

(٤) الكشف: ج ٢ ص ٥. والآية ١٠ من سورة يوسف.

(٥) بونس: ٩٢.

(٦) بونس: ٣٠.

(٧) النمل: ٦١.

(٨) شرح مورد القمان: ص ١٨٨.

(٩) نفس المصدر: ص ١٨٣.

(١٠) مجمع البيان: ج ١ ص ٨٠-٨١.

(١١) الكشف: ج ٢ ص ١٦٤.

(١٢) بونس: ٩٢.

(١٣) النمل: ٦١.

(١٤) نفس المصدر: ص ١٨٣.

الذين والياء ألقاً لا عن سبب معقول. وكلمة «تأيسوا» في قوله «ولا تياسوا من روح الله إنّه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون»^(١١١) زادوا ألقاً بعد حرف المضارع والفعل في الموضوعين «تأيسوا» و«يأيس» بلا موجب^(١١٢).

وعلى أيّ تقدير فإنّ عدم انتظام خطّ المصحف الأوّل كان أوّل عامل في نشوء اختلاف قراءة القرّاء.

كان على القارئ نفسه أن يختار نوع الحرف والشكل وتمييز الكلمة في حركتها القياسية ونوعيّة إعرابها، فضلاً عن إعجامها وتشكيلها، حسب ما يبدو له من قرائن وأحوال وشواهد ونظائر، ومناسبة المعنى واللفظ، فكان عليه - لا محالة - أن يلاحظ جميع هذه الملاحظات، ثمّ يختار القراءة التي يراها وفق الاعتبار الصحيح في نظره.

ولا شك أنّ المذاويق والسلايق وكذلك الأنظار والدلائل تختلف حسب عقليّات الأشخاص وسابقة إمامهم بالأمر، ومبلغ ممارستهم للموضوع، ومن ثمّ وقع الاختلاف في قراءة القرآن حسب تفاوت الاجتهادات النظرية. فقد استند كلُّ قارئٍ إلى علل وحجج ربّما تختلف عن حجج الآخرين.

وقد صنّف كثير من العلماء في مستندات القراءات المختلفة وذكروا عللها وحججها. منهم: أبو علي الحسن بن أحمد الفارسي في كتابه «الحجّة في علل القراءات السبع»، ومنهم أبو محمّد مكّي بن أبي طالب القيسي في كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها» وسنذكر نعاذج من كلامهما، والتصنيف في تعليل القراءات كثير.

هذا... وأما الرواية أو السماع من الشيخ فلم يكن ينضبط تماماً إذا كانت تعتمد على مجرد الحفظ، ومن غير أن تتقيّد بالثبوت في سجلّات خاصّة، أو في نفس المصحف الشريف برسم علانم مثلاً. فلا محالة كان يقع فيها خلط أو اشتباه كثير، لا سيّما إذا طالت الفترة بين الشيخ الأوّل والقارئ الأخير.

(١١٢) يوسف: ٨٧.

(١١١) الكهف: ٢٣.

(١١٣) شرح مورد الظمّان: ص ١٨٢.

تلك أهم أسباب الاختلاف في القراءات مضافة إلى اجتهادات نظرية واعتبارات كان القارئ يلاحظها ويستند إليها في قراءته. وسنفضّل هذا الجانب في الفصل التالي.

٥- تأثير اللهجة

لا شك أن كل أمة - وإن كانت ذات لغة واحدة - فإن لهجاتها تختلف حسب تعدّد القبائل والأفخاذ المنشعبة منها. وهكذا كانت القبائل العربية تختلف مع بعضها في اللهجة وفي التعبير والأداء.

من ذلك اختلافهم في الحركات، مثل «نستعين» - يفتح النون وكسرها - قال الفراء: هي مفتوحة في لغة قيس وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون^(١) واختلافهم في الحركة والسكون، مثل قولهم: «معكم» - يفتح العين وسكونها - قال الشاعر:

ومن يتقّ فإنَّ الله معهُ
ورزق الله مؤتاب وغاد^(٢)

واختلافهم في إبدال الحروف، نحو: أولئك وأولئك. أنشد الفراء:

ألا لك قومي لم يكونوا أشابتهُ
وهل يعظ الضليل إلا الألكا^(٣)

واختلافهم في الهمز والتلبيح، نحو: مستهزون ومستهزون.

واختلافهم في التقديم والتأخير. قال المبرد: تقول العرب: صاعقة وصواعق وهو مذهب أهل الحجاز، وبه نزل القرآن. وبنو تميم يقولون: صاعقة وصواعق^(٤).

واختلافهم في الإثبات والحذف، نحو استحيت واستحييت. أو تبديل حرف صحيح معتلاً، نحو أماريد وأيما زيد^(٥).

واختلافهم في الإمالة والتفخيم في مثل: قضى ورمى. واختلافهم في تحريك الحرف الساكن بالكسر أو الضم فيقولون: اشتروا الضلالة - بكسر الواو وضمتها - واختلافهم في

(٢) أوردته في اللسان، مادة «أوب».

(١) انظر كتاب سيبويه: ج ٢ ص ٢٥٧.

(٤) الكامل للمبرد: ج ٢ ص ١٩٨ باب ٥٦.

(٣) الصاحبي لأحمد بن فارس: ص ٤٨.

(٥) الصاحبي: ص ٤٩.

التذكير والتأنيث، فإنَّ من العرب من يقول: هذه البقر، ومنهم من يقول: هذا البقر. وهذه النخيل وهذا النخيل.

واختلافهم في الإدغام، نحو: مهتدون ومهدون - بتشديد الدال في الثانية - واختلافهم في الإعراب، نحو: ما زيد قائماً، وما زيد قائم، فإنَّ «ما» عند تميم غير عاملة، وعند الحجازيين عاملة عمل ليس.

وكذا قولهم: إنَّ هذين، وإنَّ هذان. وهي بالألف لغة لبني الحارث بن كعب، يقولون في كلِّ باء ساكنة انفتح ما قبلها ذلك، ومن ذلك قول قائلهم - هُوَيْرَ الحارثي^(١).

تزوَّد متَّبين أذناه طعنة دعته إلى هابي التراب عقيم

وعلَّ بعض أهل الأدب ذلك تعليلاً يستدعي الاطراد^(٢).

واختلافهم في صورة الجمع، نحو: أسرى وأسارى.

واختلافهم في التحقيق - أي المبالغة في إظهار الحرف أو حركته - والاختلاس، نحو:

«يأمركم»^(٣) فحقَّق ضمَّة الراء بعضهم واختلسها بعض آخر. ونحو: «فمن عفى له»^(٤) فحقَّق كسرة الفاء بعض واختلسها آخر.

واختلافهم في الوقف على هاء التأنيث، مثل: هذه أمَّه - بالوقف هاء - وأمَّت - بالوقف

على تاء ساكنة -

واختلافهم في الإشباع إلى حدِّ توليد حرف، نحو: «أنظور» في «أنظر». أشدَّ القراء:

الله يعلم أنفسي تلفتتنا يوم الفراق إلى جيراننا صور

وأنتي حيث مايتني الهوى بصري من حيث ما سلكوا أدنو فأنظور

قال أبو الحسين أحمد بن فارس: كلُّ هذه اللغات مستأمة منسوبة إلى أصحابها، لكن هذا

موضع اختصار، وهي وإن كانت لقوم دون قوم فإنَّها لما انتشرت تعاورها الكل^(٥).

(١) نسبة إليه في لسان العرب، غير أنه روى بين أذنيه. (٢) الصحابي لابن فارس: ٤٩ - ٥٠.

(٣) البقرة: ١٧٨.

(٤) البقرة: ٦٧.

(٥) الصحابي: ٥٠ - ٥١.

ومن ذلك أيضاً مبالغتهم في إظهار الهمزة المفتوحة فتبدل إلى العين، وهي لغة دارجة في تميم وبنو قيس بن عيلان - كما قال الفراء - وتسمى «عننة تميم» فيقولون: «أشهد عنك رسول الله». قال ذو الرمة:

أعن ترشمت من خرقاء منزلة
 ماء الصبابة بن عينيك مسجوم
 أراد: «أن». وذو الرمة شاعر إسلامي بدوي مجيد.

لكنها لغة مذمومة، ومن ثم قال أحمد بن فارس - بصدد الإشادة بلغة قريش -: الأثرى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم، ولا عجر فية قيس، ولا كشكشة أسد، ولا كسكة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس، مثل: تعلمون ونعلم - بكسر التاء والنون - ومثل: شعير وبعير - بكسر الشين والباء -^(١).

٦ - تحكيم الرأي والاجتهاد

وهذا أكبر العوامل تأثيراً في اختيارات القراء، كان لكل قارئ رأي يعتمد في القراءة التي يختارها، وكانوا - أحياناً - مستبدين بأرائهم ولو خالفهم الجمهور أو أهل التحقيق، وسيأتي حديث نير الكساني بالهمز في مسجد الرسول ﷺ وإنكار أهل المدينة عليه^(٢) كما أنكروا على حمزة كثيراً من قراءاته، ولم يكن يعبأ بهم لقوة ما كان يراه من حجج^(٣) وهكذا استبد ابن شنبوذ بما يراه صحيحاً وإن كان على خلاف المرسوم العثماني، فعقد لاستنابته مجلس بحضرة الوزير ابن مقله، فأغلظ في الكلام عليهم أولاً، حتى أمر الوزير بضره سياطاً ألجأته إلى إعلان توبته مقهوراً عليه^(٤). وانعقد مجلس آخر لأبي بكر ابن مقسم الذي كان يختار من القراءات ما بدله أصح في العربية ولو خالف النقل أو رسم المصحف^(٥).

(١) الصاحبي: ص ٥٣، والوجيز ص ١٠٦. (٢) نقل عن نهاية ابن الأثير: ج ٥ ص ٧.

(٣) تهذيب التهذيب: ج ٣ ص ٢٧. (٤) طبقات القراء: ج ٢ ص ٥٢.

(٥) الإتيان: ج ١ ص ٧٧، والطبقات: ج ٢ ص ٥٤.

نعم لم يكن إنكارهم على أمثال هؤلاء لجانب تحكيمهم للأراء والأذواق الاجتهادية . بل لجانب خروجهم عن موافقة مرسوم الخطّ . فالقراءة إذا كانت متوافقة مع ظاهر الرسم فلا تعدّ منكراً .

وقد كانت ميزة القراء السبعة وغيرهم من المشهورين المعتمدين هو التزامهم بموافقة الرسم خطأً . كما يحدثنا أبو محمد مكي بأنّ حفصاً قرأ « كفواً » بالواو ، فخفّف الهمزة واواً . وكان حقّه أن يتقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها . فيقول : كفاً ، لكنّه رفض ذلك لنأل يخالف الخطّ . فأعمل الضمّة الأصليّة .

ومن ثمّ تلك المحاولات لتوجيه القراءات الشاذّة ، بل لمطلق القراءات إذا كانت موافقة للرسم .

انظر كيف يوجّه الدمياطي قراءة حمزة : « واثقوا الله الذي تساءلون به والأرحام »^(١) بجرّ الأرحام عطفاً على الضمير المجرور بالحرف وفق مذهب الكوفيّين^(٢) . ويوجّه قراءة ابن عامر : « وكذلك زَيْنَ لكثير من المشركين قَتَلَ أولادِهِم شركاؤهم »^(٣) قرأ « قتل » مرفوعاً نائب فاعل لـ « زَيْن » التي قرأها مبنية للمفعول . ونصب « أولادهم » على أنّه مفعول به للمصدر . وجرّ « شركاؤهم » على إضافة المصدر إليه مع الفصل^(٤) وأمثال ذلك كثيرة في توجيه القراءات الشاذّة .

والكتب في توجيه القراءات - ولا سيّما الشاذّة وذكر عللها وحججها - كثيرة ، منها : الحجّة لأبي علي الفارسي ، والمحتسب لابن جنّي ، وإملاء ما منّ به الرحمان لأبي البقاء ، والكشف عن وجوه القراءات السبع لمكيّ بن أبي طالب . وغير ذلك مما يطول .

(٢) إتحاف فضلاء البشر : ص ١٨٥ .

(١) أنباء : ١ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر : ص ٢١٧ .

(٣) الأنعام : ١٣٧ . والقراءة المشهورة « شركاؤهم » .

وقفه عند مسألة تواتر القراءات

تصريحات أئمة الفن

تلك التي قدّمناها - في الفصل السابق - كانت عوامل نشوء الاختلاف بين القراء، وكانت وافية بالدلالة على أنّ اختياراتهم كانت اجتهادية، مستندة إلى حجج وتعاليل فصلتها كتب القراءات. الأمر الذي يكفي للردّ على زاعمي تواترها عن النبي ﷺ. فلا يكون هو الذي قرأها بهذه الوجوه التي لم يتنبّه لها سوى قراء سبعة أو عشرة جاؤوا في عصور متأخرة؟! وأنّ تواتراً هذا شأنه لجديرٌ بأن يرمى قائله بالشطط في الرأي. غير أنّ جماعات تعلّبت عليهم العامية، ورافتهم تحمّسات عاطفيّة في كلّ شأن يرجع إلى شؤون المقدّسات الدينية، لا يزالون يزمّرون ويطنّون حول حديث «تواتر القراءات» وريّما يرمون منكرها بالكفر والجحود، ومن ثمّ فإنّ الحقيقة أصبحت مهجورة ومطمورة في ثنايا هذا الغوغاء والعجاج العارم.

لكن الحقّ أحقّ أن يتبع، وأنّ الحقيقة في ضوء البراهين الفاطمة أولى بالاتباع. ونحن إذ نوافيك بأدلة كافية لإثبات «عدم تواتر القراءات» وعدم مساسه بمسألة «تواتر القرآن» الثابت قطعياً. تقدّم تصريحات ضافية من أئمة الفن تديلاً على إنكار العلماء المحقّقين طرّاً لحديث تواتر القراءات، مع اعترافهم بتواتر القرآن وأن لا ملازمة بين المسألتين.

كلام الإمام بدرالدين الزركشي

قال الإمام بدر الدين الزركشي: اعلم أنّ القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان. فالقرآن:

هو الوحي المنزل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز. والقراءات: هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور، في كنية الحروف أو كَيْفِيَّتِهَا.

ثم قال: والقراءات السبع متواترة عند الجمهور، وقيل: بل مشهورة... والتحقق: أنها متواترة عن الأئمة السبعة.

أما تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر، فإن إسناده الأئمة السبعة بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد، لم تكمل شروط التواتر، في استواء الطرفين والواسطة. وهذا شيء موجود في كتبهم. وقد أشار الشيخ شهاب الدين أبو شامة في كتابه «المرشد الوجيز» إلى شيء من ذلك^(١).

كلام الشيخ شهاب الدين (أبو شامة)

وقال الشيخ شهاب الدين «أبو شامة»: وأما من يهول في عبارته قائلاً: إن القراءات السبع متواترة لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف فخطاؤه ظاهر، لأن الأحرف السبعة المراد بها غير القراءات السبع، على ما سبق تقريره في الأبواب المتقدمة^(٢).

قال: ولو سئل هذا القائل عن القراءات السبع التي ذكرها لم يعرفها ولم يهتد إلى حصرها، وإنما هو شيء طرقت سمعه فقال له غير مفكر في صحته، وغايته - إن كان من أهل هذا العلم - أن يجيب بما في الكتاب الذي حفظه.

والكتب في ذلك - كما ذكرنا - مختلفة، ولا سيما كتب المغاربة والمشاركة، فبين كتب الفريقين تباين في مواضع كثيرة، فكم في كتابه من قراءة قد أنكرت، وكم فات كتابه من قراءة صحيحة فيه ما سطرت. على أنه لو عرف «شروط التواتر» لم يجسر على إطلاقه هذه العبارة في كل حرف من حروف القراءة.

فالحاصل: أننا لسنا ممن يلتزم التواتر في جميع الألفاظ المختلف فيها بين القراء، بل القراءات كلها منقسمة إلى متواتر وغير متواتر، وذلك بين لمن أنصف وعرف، وتصفح القراءات وطرقها.

(٢) راجع المرشد الوجيز: ص ١٤٦ الباب الرابع.

(١) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٣٦٨-٣٦٩.

وغاية ما يبديه مدَّعي تواتر المشهور منها - كإدغام أبي عمرو، ونقل الحركة لورش، وصلة ميم الجمع وهاء الكناية لابن كثير - أنه متواتر عن ذلك الإمام الذي نُسبت القراءة إليه، بعد أن يجهد نفسه في استواء الطرفين والواسطة. إلا أنه بقي عليه التواتر من ذلك الإمام إلى النبي ﷺ في كلِّ فرد فرد من ذلك، وهنالك تُسكب العبرات، فإنها من ثمَّ لم تنقل إلا آحاداً، إلا اليسير منها. وقد حَقَّقنا هذا الفصل - أيضاً - في كتاب البسملة الكبير، ونقلنا فيه من كلام الحدَّاق من الأئمَّة المتقين ما تلاشى عنده شبه المشنعين، وبالله التوفيق^(١).

كلام الحافظ ابن الجزري

وقال الحافظ ابن الجزري: كلُّ قراءة وافقت العربية - ولو بوجه - ووافقت أحد المصاحف العثمانية - ولو احتمالاً - وصحَّ سندها فهي القراءة الصحيحة. سواء كانت عن الأئمَّة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم، من الأئمَّة المقبولين. ومتى اختلَّ ركن من هذه الثلاثة أُطلق عليها «ضعيفة» أو «شاذة» أو «باطلة» سواء كانت عن السبعة أم عن غيرهم هو أكبر منهم.

قال: هذا هو الصحيح عند أئمَّة التحقيق من السلف والخلف، صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ونصَّ عليه - في غير موضع - الإمام أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب، وكذلك الإمام أبو العباس أحمد بن عتار المهدي، وحققه الإمام الحافظ أبو القاسم عبد الرحمان بن إسماعيل المعروف بـ «أبي شامة»، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافة^(٢).

قال: وقد شرط بعض المتأخِّرين التواتر في هذا الركن، ولم يكتف بصحَّة السند، وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر. وأنَّ ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن. وهذا ممَّا لا يخفى ما فيه، فإنَّ التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره، إذا ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله وقطع بكونه قرآناً. سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كلِّ حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من

أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم.
قال: ولقد كنت - قبل - أجنح إلى هذا القول، ثم ظهر فسادُه وموافقة أئمة السلف
والخلف^(١).

كلام جلال الدين السيوطي

وقال جلال الدين السيوطي: اعلم أن القاضي جلال الدين البلقيني قال: القراءة تنقسم
إلى متواتر وآحاد وشاذ، فالمتواتر: قراءات السبعة المشهورة. والآحاد: قراءات الثلاثة.
وتلحق بها قراءة الصحابة. والشاذ: قراءة التابعين، كالأعمش وبحمي بن وثاب وابن جبير
ونحوهم.

قال السيوطي: وهذا الكلام فيه نظر، يعرف مما سنذكره. وأحسن من تكلم في هذا
النوع إمام القراء في زمانه شيخ شيوخنا أبو الخير ابن الجزري - ثم نقل كلامه بطوله وعقبه
بما يلي: - قلت: أتقن الإمام ابن الجزري هذا الفصل جداً...^(٢)

كلام الإمام الفخر الرازي

وقال الإمام الرازي: اتفق الأكثرون على أن القراءات المشهورة منقولة بالنقل المتواتر.
وفيه إشكال، وذلك لأننا نقول: هذه القراءات المشهورة، إما أن تكون منقولة بالنقل المتواتر
أو لا تكون، فإن كان الأول، فحينئذ قد ثبت بالنقل المتواتر أن الله قد خير المكلفين بين هذه
القراءات وسوى بينها في الجواز، وإن كان كذلك كان ترجيح بعضها على البعض واقعاً على
خلاف الحكم الثابت بالتواتر. فوجب أن يكون الذاهبون إلى ترجيح البعض على البعض
مستوجبين للتفسيق إن لم يلزمهم التكفير.

لكننا نرى أن كل واحد من هؤلاء القراء يختص بنوع معين من القراءة، ويحمل الناس
عليها ويمنعهم عن غيرها، فوجب أن يلزم في حقهم ما ذكرنا.

وأما إن قلنا: إن هذه القراءات ما ثبتت بالتواتر بل بطريق الآحاد فحينئذ يخرج القرآن

عن كونه مفيداً للجزم والقطع واليقين . وذلك باطل بالإجماع .
ولفائل أن يجيب عنه فيقول : بعضها متواتر ولا خلاف بين الأمة فيه وفي تجويز القراءة بكل واحدٍ منها ، وبعضها من باب الآحاد ، وكون بعض القراءات من باب الآحاد لا يقتضي خروج القرآن بكتيبته عن كونه قطعياً ، والله أعلم^(١) .
قلت : قد اشتبه عليه تواتر القرآن بتواتر القراءات . ومن ثم وقع في المأزق الأخير .
وسنيت أن القرآن شيء والقراءات شيء آخر ، فلا موقع للشق الأخير من الإشكال .

كلام الحجّة الإمام البلاغي

وقال الحجّة البلاغي : وأنّ القراءات السبع - فضلاً عن العشر - إنّما هي في صورة بعض الكلمات ، لا بزيادة كلمة أو نقصها ، ومع ذلك ما هي إلا روايات آحاد عن آحاد ، لا توجب اطمئناناً ولا وثوقاً . فضلاً عن وهنها بالتعارض ، ومخالفتها للرّسم المتداول ، المتواتر بين عامّة المسلمين في السنين المتطاولة . وأنّ كلاً من القراء وهو واحد - لم تثبت عدالته ولا وثاقته - يروي عن آحاد ، ويروي عنه آحاد وكثيراً ما يختلفون في الرواية عنه . فكم اختلف حفص وشعبة في الرواية عن عاصم . وكذا قالون وورش في الرواية عن نافع ... وهكذا . مع أنّ أسانيد هذه القراءات الأحادية لا يتّصف واحد منها بالصحة في مصطلح أهل السنّة في الأُسناد ، فضلاً عن الإماميّة ، كما لا يخفى على من جاس خلال الديار .
فيا للعجب مثن يصف هذه القراءات السبع بأنّها متواترة! هذا ، وكل واحد من هؤلاء القراء يوافق بقراءته في الغالب ما هو المرسوم المتداول بين المسلمين ، وربما يشدّد عنه عاصم في رواية شعبة^(٢) .

كلام سيّدنا الإمام الخوئي

وقال سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمه الله : المعروف عند الشيعة الإمامية أنّها غير متواترة ،

(١) التفسير الكبير : ج ١ ص ٦٣ .

(٢) آلاء الرحمن : ج ١ ص ٢٩ - ٣٠ الفصل الثالث من المفدمات .

بل القراءات بين ما هو اجتهاد من القارئ وبين ما هو منقول بخبر الواحد، وقد اختار هذا القول جماعة من المحققين من أهل السنّة، وغير بعيد أن يكون هذا هو المشهور بينهم^(١) - ثم برهن على ذلك بما حاصله :-

- ١- إن استقراء حال القراء يورث القطع بأنّ القراءات نقلت إلينا بأخبار الآحاد.
- ٢- وإنّ التأمل في الطرق التي أخذ القراء عنها يدلّ بالقطع على أنّها إنّما نقلت إليهم بطريق الآحاد.
- ٣- وإنّ اتصال الأسانيد بهم أنفسهم يقطع التواتر، حتّى لو كان مستحقاً في جمع الطبقات، فإنّ كلّ قارئ إنّما ينقل قراءته بنفسه.
- ٤- وإنّ احتجاج كلّ قارئ على صحّة قراءته وإعراضه عن قراءة غيره دليل قطعي على إسنادها إلى اجتهادهم دون التواتر عن النبي ﷺ وإلّا لم يحتج إلى الاحتجاج.
- ٥- أضف إلى ذلك إنكار جملة من الأعلام على جملة من القراءات، ولو كانت متواترة لما صحّ هذا الإنكار^(٢).

كلام الشيخ طاهر الجزائري

وذكر الشيخ طاهر الجزائري: أنّه لم يقع لأحد من الأئمّة الأصوليين تصريح بتواتر القراءات. وقد صرّح بعضهم^(٣) بأنّ التحقيق أنّ القراءات السبع متواترة عن الائمّة السبعة. أمّا تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر، فإنّ إسناد الأئمّة السبعة بهذه القراءات موجود في الكتب، وهي نقل الواحد عن الواحد^(٤).

كلام العلامة الزمخشري

وقال الزمخشري: إنّ القراءة الصحيحة التي قرأ بها رسول الله ﷺ إنّما هي صفتها

(٢) البيان: ص ١٦٥.

(١) البيان: ص ١٣٧.

(٣) لمعة يفصّد الإمام بدرالدين الزركشي وقد تقدّم كلامه. راجع البرهان: ج ١ ص ٣١٨-٣١٩.

(٤) البيان: ص ١٠٥ طبعه المنار ١٣٣٤ هـ، البيان: ص ١٧٠.

وإنما هي واحدة، والمصلّي لا تبرأ ذمته من الصلاة إلا إذا قرأ فيما وقع فيه الاختلاف على كل الوجوه، كـ «مَلِك ومالك» و«صراط وسراط» وغير ذلك...
... قال السيد العاملي: وكلامه هذا إما مسوق لإنكار التواتر إليه ﷺ، أو إنكار لأصله^(١).

أدلة في وجه زاعمي التواتر

مصطلح التواتر

التواتر مصطلح فنّ «معرفة الحديث» حيث يقسم إلى متواتر ومشهور ومستفيض وآحاد، وصحيح وحسن ومرسل وضعيف.

والحديث المتواتر: ما بلغ رجال إسناده في جميع الطبقات حدّاً في الكثرة والانتشار بحيث يؤمن قطعياً تواطؤهم على مصانعة الكذب. ومن ثمّ يجب في الحديث المتواتر توفّر الشُّروط التالية:

١- اتصال الإسناد من الراوي الأخير إلى مصدر الحديث الأوّل اتصالاً تامّاً.

٢- يبلغ عدد الرواة والناقلين حدّاً من الكثرة والانتشار فوق الاستفاضة والاشتهار بما يؤمن تواطؤهم على الكذب.

٣- أن يحتفظ بنفس الحجم من كثرة النقلة في كلّ دور وطبقة، فالكثرة تنقل عن الكثرة وهكذا إلى المصدر الأوّل.

وعليه فلو تضاعل حجم العدد في طبقة من هذه الطبقات أو انتهت إلى واحد، ثمّ أخذ أيضاً في الانتشار والتضخّم، فإنّ هذا لا يسمى متواتراً في الاصطلاح، ويدخل في أخبار الآحاد.

وحديث «تواتر القراءات» - إن تسلّمناه - فمن النمط الأخير. إنّها متواترة عن القراء أنفسهم، أمّا من قبلهم فإلى طبقة الصحابة وعهد رسول الله ﷺ فلا تعدو أخباراً آحاداً لو كان هناك إسناد، وإلا فالأمر أفضح، ممّا سيبدو من خلال بحوثنا التالية.

أسانيد تشريفية

اصطلح المؤلفون في القراءات على ذكر إسناد القراء ، ولا سيما السبعة ، متصلاً إلى رسول الله ﷺ ، وهذا شيء التزمه مهما استدعى نكلاً ظاهراً ، في حين أن القراء أنفسهم لم يكونوا يلتزمون بذلك في غالب اختياراتهم ، وإنما يذكرون لها حججاً وتعاليل . ذكرتها كتب القراءات بتفصيل .

والأرجح أن الأسانيد المذكورة في بعض كتب القراءات - كالتيسير والتحبير والمكثّر - أسانيد تشريفية ، محاولة لنسبتها إلى النبي ﷺ تفخيماً بشأن القراءة ، وهي من شؤون القرآن الكريم . وإلا فأدنى تمحيص بشأن هذه الأسانيد يكشف عن واقعية مفضوحة .

مثلاً : نجد عبد الله بن عامر اليحصبي (ت ١١٨ هـ) - أقرب القراء السبعة إلى عهد الصحابة - لا سند له متصلاً إلى أحد الصحابة الاختصاصيين بقراءة القرآن . فقد ذكر ابن الجزري في إسناده تسعة أقوال ، وأخيراً يرجع أنه قرأ على المغيرة ابن أبي شهاب المخزومي ، وهذا قرأ على عثمان بن عفان ، وعثمان قرأ على النبي ﷺ . ثم ينقل عن بعضهم : أنه لا يدري على من قرأ ابن عامر؟^(١)

ثم نتساءل : من هذا المغيرة المخزومي الذي قرأ عليه ابن عامر؟ يقول الذهبي : وأحسبه كان يقرئ بدمشق في دولة معاوية ، ولا يكاد يعرف إلا من قبل قراءة ابن عامر عليه!^(٢) انظر إلى هذا التهافت الباهت والدور الفاضح ، يعزي إسناد قراءة ابن عامر إلى شيخ مجهول لا يعرف إلا من قبله؟

ثم من أين عرفوا أن المغيرة هذا قرأ على عثمان؟ وبأي سند أتبنوا هذه التسلمة المصطنعة؟ ومتى تصدى عثمان لإقراء الناس؟ أفي زمان خلافته المضطرب أم قبله؟ ومن الذي وصف عثمان بشيخ القراء أو الإقراء ، سواء في حياة الرسول ﷺ أم بعد وفاته؟ نعم هكذا إسناد مفضوح لا يستدعي تحمساً ولا تعصباً أعمى ، فضلاً عن نعته بالتواتر المكذوب!

أحاد لا تواتر

ثمّ علي فرض ثبوت إسناد بين القارئ وأحد الصحابة الأوّلين، فهو إسناد آحاد لا يبلغ حدّ التواتر. ولا يتوفّر فيه شروطه أصلاً.

هذا عبد الله بن كثير (ت ١٢٠ هـ) - ثاني القراء قرباً إلى عهد الصحابة - لم يذكره في رجاله سوى ثلاثة: عبد الله بن السائب، ومجاهد بن جبير، ودرباس مولى ابن عباس.

وكذا عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٨ هـ) - ثالث القراء قرباً - رجاله اثنان: أبو عبد الرحمن السلمي، ووزر بن حبيش.

وأبعد القراء زماناً الصحابة هو الكسائي (ت ١٨٩ هـ) ذكروا له ثلاثة رجال: حمزة بن حبيب، وعيسى بن عمر، ومحمّد بن أبي ليلى. وهل يثبت التواتر - في هذا الطول من الزمان - بطرق ثلاثة أو اثنين؟

نعم، ذكروا النافع خمسة رجال، ولحمزة سبعة، ولأبي عمرو اثني عشر. وذلك أيضاً لا يثبت التواتر، لأنّها آحاد في مصطلح الفن كما لا يخفى.

هذا مع الغضّ عن الخدشة في رجالات هذه الأسانيد، ممّن كان يعوزهم صلاحية الإقراء، أو ليس من شأنهم التصديّ لإقراء الناس! مثلاً ذكروا من شيوخ حمزة «الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام» وأنّ مقام إمامته الكبرى لتشغله عن التصديّ لهكذا أمور صغيرة، كما لم نر أنّاً من قراءة الإمام عليه السلام في قراءة حمزة ولا هو نسبها إلى الإمام عليه السلام.

ومن ثمّ قال أبو شامة: وغاية ما بيديه مدّعي التواتر... أنّه متواتر إلى ذلك الإمام الذي نسبت القراءة إليه، بعد أن يجهد نفسه في استواء الطرفين والواسطة إلاّ أنّه بقي عليه التواتر من ذلك الإمام إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم... وهناك تسكب العبرات... (١)

قلت: بل ودون إثباته خرط القناد.

على أنّ مسارب الشكّ في صحّة تلكم الطرق ملموسة. بعد أن لم يكن لها أثر في كتب الأوائل، وإنّما هو شيء صنع متأخراً في القرن الثالث، يوم أصبحت القراءة والإحاطة بفنونها صنعة راتجة، ولم ينقل بنقل صحيح أنّ أحداً من القراء أسند قراءته إلى السماع أو

النقل المتواتر عن النبي ﷺ قطُّ.

وشيء آخر: إنه يجب في التواتر استواء الطرفين والواسطة في عدد الرجال الناقلين، في حين أن النقل المتواتر المتأخر عن القارئ ينتهي إليه وحده. وهو الذي ينقل لنا أنه سمعها متواتراً - فرضاً - عن النبي ﷺ أو أحد الصحابة، وهنا ينقطع التواتر، لأن الواسطة أصبح واحداً.

ومن ثم قال سيدنا الأستاذ: اتصال أسانيد القراءات بالقراء أنفسهم يقطع تواتر الأسانيد، حتى لو كان رواها في جميع الطبقات ممن يمتنع تواطؤهم على الكذب، فإن كل قارئ إنما ينقل قراءته بنفسه^(١).

إنكارات على القراء

وأقوى دليل يرشدنا إلى عدم اعتراف الأئمة السلف بتواتر القراءات تلك استنكاراتهم على قراءات كثير من القراء المشهورين، وحتى السبعة، وكيف يجراً مسلم محافظ أن ينكر قراءة يرى تواترها عن النبي ﷺ؟!

هذا الإمام أحمد بن حنبل كان ينكر على حمزة كثيراً من قراءاته، وكان يكره أن يصلي خلف من يقرأ بقراءة حمزة. ياترى، إذا كانت قراءة حمزة - وهو من السبعة - متواترة عن النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ هو الذي قرأها ونقلت إلى حمزة متواترة قطعية، فما الذي يدعو إلى كراهتها؟ أهمل يكره مسلم قراءة قرأها رسول الله ﷺ؟!

وكان أبو بكر بن عتاش يقول: قراءة حمزة عندنا بدعة. وقال ابن دريد: إنني لأشتهي أن يخرج من الكوفة قراءة حمزة. وكان ابن المهدي يقول: لو كان لي سلطان على من يقرأ قراءة حمزة لأوجعت ظهره ويطنه. وكان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهة شديدة^(٢). وهل يجراً مسلم أن يخطئ أو ينكر قراءة هي متواترة عن رسول الله ﷺ؟! فإن دل ذلك فإنما يدل على أن ما أنكروه شيء منسوب إلى نفس القراء. إنكاراً عليهم، لا إنكاراً لشيء ثبت عن رسول الله ﷺ قطعياً. تدلنا على ذلك التعليقات الواردة في هذه المناسبات تبريراً

للإنكارات المزبورة. فقد أنكر أبو العباس المبرّد قراءة أهل المدينة: «هؤلاء بناتي هنّ أظهر لكم»^(١) قال: هو لحن فاحش، وإنما هي قراءة ابن مروان. ولم يكن له علم بالعربية^(٢) وأمثال ذلك كثير.

وقد عقد ابن قتيبة باباً جمع فيه نماذج من غلط القراء المشهورين وفيهم من السبعة: حمزة ونافع. قال: وما أقلّ من سلم من هذه الطبقة في حرفه من الغلط والوهم^(٣). كما جمع محمّد عزيمة كثيراً من موارد خطأ النحاة فيها القراء، ونسبوهم إلى قلة المعرفة وضعف الدراية، ونقل عن ابن جنّي وصفه للقراء - بصورة عامّة - في كتابه «الخصائص» بضعف الدراية. وفي كتابه المنصف بالسهو والغلط، إذ ليس لهم قياس يرجعون إليه^(٤). وغير ذلك ما يطول.

وجاء في «المرشد الوجيز» باب ممّا نسب إلى القراء وفيه إنكارات من أهل اللّغة وغيرهم. منها: الجمع بين الساكنين في تاءات البزّي. كان يشدّد التاء في أوائل الأفعال المستقبلية في حال الوصل. في أحد وثلاثين موضعاً من القرآن، نحو: «ولا تيسّموا الخبيث»^(٥). ومنها: إدغام أبي عمرو. كان يدغم أوّل حرفين مثلين اجتماعاً من كلمتين سواء سكن ما قبله أو تحرّك، في جميع القرآن، نحو: «شهر رمضان» و«ذات الشوكة تكون»^(٦). ومنها: قراءة حمزة «فما اسطاعوا» قرأ بتشديد الطاء، مدغمًا التاء في الطاء، وجمع بين الساكنين وصلًا^(٧) ويعدّد كثيراً من الأمثلة خطأ وهم فيها ونسبوهم إلى الوهم وضعف الدراية^(٨).



أضف إلى ذلك إنكارات العامّة على كثير من قراءات السبعة، وربما كانوا يضطرّونهم إلى

(١) هود: ٧٨ ينصب «أظهر» وهي قراءة شاذة. (٢) المنقضب: ج ٤ ص ١٠٥.

(٣) تأويل مشكل القرآن: ص ٦١. (٤) دراسات لأسلوب القرآن: ج ١ ص ٣٢ فما بعد.

(٥) راجع التيسير: ص ٨٣، والآية ٢٦٧ من سورة البقرة.

(٦) راجع التيسير: ص ٢٠ والآية الأولى ١٨٥ من سورة البقرة والآية الثانية ٧ من سورة الأنفال.

(٧) راجع التيسير: ص ١٤٦، والآية ٩٧ من سورة الكهف. (٨) في المرشد الوجيز لأبي شامة: ص ١٧٤ فما بعد.

النزول وفق الرأي العام، مما يدل على أن اختيارهم الأوّل كان عن اجتهاد لا غير.
جاء في نهاية ابن الأثير، قال: ولما حجّ المهدي قدّم الكسائي يصلّي بالمدينة، فهمز
فأنكر عليه أهل المدينة، وقالوا: إنه ينبر في مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن.

والنبر: همز الحرف، ولم تكن قريش تهمز في كلامها، قال رجل: يا نبي الله، فنهره
النبي ﷺ وقال: إنا معشر قريش لاننبر. وفي رواية: لا تنبر باسمي^(١).

قال ابن مجاهد: قال لي قنبل (أحد راويي ابن كثير): قال القواس في سنة ٢٣٧ هـ: إني
هذا الرجل (يعني البرّي، الراوي الآخر لابن كثير) فقل له: هذا الحرف ليس من قراءتنا،
يعني «وما هو يميّت»^(٢) مخفّفاً. وإنما يخفّف من الميّت من قد مات، وأما من لم يمّت فهو
مشدّد. فلقبت البرّي فأخبرته، فقال: قد رجعت عنه...^(٣)

ولولا أن اختياره الأوّل كان عن اجتهاد لما صحّ له الرجوع ولما جاز الإنكار عليه.
وأيضاً قال محمّد بن صالح: سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو بن العلاء: كيف تقرأ «لا
يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد»^(٤)؟ فقال: «لا يعذب» - بكسر الذال المشدّدة -.
فقال له الرجل: كيف وقد جاء عن النبي ﷺ «لا يعذب» - بالفتح -؟ فقال أبو عمرو: لو
سمعت الرجل الذي قال سمعت النبي ﷺ ما أخذته عنه، أو تدري ما ذاك؟ لآتي أتهم الواحد
الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة^(٥).

انظر إلى كلام أبي عمرو هنا، إنه يعتمد في قراءته على تسالم عمّة المسلمين (وهو أحد
مقاييسنا في اختيار القراءة الصحيحة فيما سيأتي) ويترك رواية الواحد إلى جانب ولا يعأ
بها.

هذا، في حين أن الفتح هي قراءة الكسائي من السبعة، ويعقوب من العشرة، والحسن من
الأربعة^(٦).

(١) إبراهيم: ١٧.

(١١) النهاية: ج ٥ ص ٧.

(٣) مناهل العرفان: ج ١ ص ٤٥٢ عن منجد المقرنين لابن العزري.

(٥) مناهل العرفان: ج ١ ص ٤٥٢ عن منجد المقرنين.

(٤) الضمير: ٢٥ و ٢٦.

(٦) إتحاف فضلاء البشر: ص ٤٣٩.

أفهل يعقل وجود رواية متواترة بلغت الكسائي وهو في مؤخره القرن الثاني ولم تبلغ أبا عمرو، وهو في مقدّمة هذا القرن؟!



وذكر ابن الجزري أنّ من القراءات ما نقله ثقة، ولا وجه له في العربية، وهذا لا يقبل وإن وافق خطّ المصحف، ولا يصدر مثل هذا إلا على وجه السهو والغلط وعدم الضبط، ويعرفه الأئمّة المحققون والحفاظ الضابطون، وهو قليل جداً، بل لا يكاد يوجد.

وقد جعل بعضهم منه رواية خارجة عن «نافع»: «معاش» بالهمز. وما رواه ابن بكار عن أيّوب عن يحيى عن ابن عامر: «أدري أقرب» بفتح الياء مع إثبات الهمز.

وما رواه أبو علي العطار عن العباس عن أبي عمرو: «ساحران تظَاهرا» بتشديد الظاء. قال: فهذا وإن كان منقولاً عن ثقة، إلا أنه لا يقبل إذ لا وجه له^(١). قلت: وهو أقوى شاهد على أن ليس كلّ ما ثبت عن السبعة متواتراً عن النبي ﷺ، وإلا لما صحّ رده ولوجب قبوله إطلاقاً.

قراءات شاذة من السبعة

لدينا - مضافة إلى ما سبق - قراءات من السبعة رميت بالشذوذ، لمخالفتها القياس، أو وقوعها موضع إنكار عامة المسلمين، معاً يدل على أنها اختيارات اجتهادية رآها أصحابها خطأ أو لقلّة المعرفة بمقاييس الكلام الصحيح، ومن ثمّ رفضها الأئمّة المحققون والحفاظ الضابطون، فأتسمت بالشذوذ. ومنع الفقهاء من القراءة بها في الصلاة أو في غيرها بسمة كونها قرآناً.

من ذلك: الجمع بين الساكنين في ناءات البرزي صاحب قراءة ابن كثير من السبعة. كان يشدّد الناء التي تكون في أوائل الأفعال المستقبلية في حال الوصل في أحد وتلاتين موضعاً

من القرآن نحو «ولا تيمموا الخبيث»^(١).

ومن ذلك أيضاً: إدغام أبي عمرو إذا اجتمع مثلان. أمّا في كلمة واحدة ففي موضعين، أحدهما «مناسككم»^(٢). والثاني «ما سللكم»^(٣). وأمّا إذا كانا في كلمتين فإنه كان يدغم الأوّل في الثاني سواء سكن ما قبله أو تحرّك في جميع القرآن، نحو قوله: «فيه هدى»^(٤) «شهر رمضان»^(٥) «أن يأتي يوم»^(٦) «لا أبرح حتى»^(٧) «يشفع عنده»^(٨) «٩» وقراءة حمزة: «فما اسطاعوا»^(١٠) حيث قلب التاء طاء، وأسكنها فأدغمها في الطاء مع سكون السين أيضاً، وهي قراءة شاذة^(١١).

وقراءة ابن كثير: «يا بُنيّ لا تشرك بالله»^(١٢) بسكون الياء^(١٣).

وقراءة قبل - صاحب قراءة ابن كثير - «سبأ»^(١٤) بسكون الهمزة^(١٥).

وقراءة حمزة: «مكر السيء»^(١٦) بإسكان الهمز في الوصل^(١٧).

وقراءة قبل: «يرتعي»^(١٨) بإثبات الياء بعد العين^(١٩).

وقراءة هشام - صاحب قراءة ابن عامر -: «أفئدة من الناس»^(٢٠) بإثبات الياء بعد

الهمزة^(٢١).

(١) للكشف: ج ١ ص ٣١٤، والآية ٢٦٧ من سورة البقرة.

(٢) البقرة: ٢٠٠. (٣) المدثر: ٤٢.

(٤) البقرة: ٢. (٥) البقرة: ١٨٥.

(٦) البقرة: ٢٥٤. (٧) الكهف: ٦٠.

(٨) البقرة: ٢٥٥. (٩) التيسير للداني: ص ٢٠.

(١٠) الكهف: ٩٧. (١١) الكشف: ج ٢ ص ٨٠.

(١٢) لقمان: ١٣. (١٣) التيسير: ص ١٧٦.

(١٤) النمل: ٢٢. (١٥) التيسير: ص ١٧٦.

(١٦) فاطر: ٤٣. (١٧) التيسير: ص ١٨٢.

(١٨) يوسف: ١٢. (١٩) التيسير: ص ١٣٦.

(٢٠) إبراهيم: ٣٧. (٢١) التيسير: ص ١٣٥.

وقرأ ابن عامر: «كن فيكون»^(١) بالنصب، وتابعه الكسائي في النحل ويس فقط^(٢).
 وقرأ - أيضاً - كما مرَّ: «قتل أولادهم»^(٣) بالفصل بين المضافين^(٤).
 هذه وأمثالها كثير يجدها الباحث في كتب القراءات^(٥). فكم للسبعة ورواتهم من شواذٍ
 خرجت عن ضابطه القراءة الصحيحة المقبولة. فكانت موضع إنكار العلماء قاطبة. فلا
 يصح كونها قرآناً كما لا تجوز قراءتها في الصلاة.

تعاليل و حجج اجتهادية

ذكر أبو محمَّد مكِّي بن أبي طالب في كتابه الكبير «الكشف عن وجوه القراءات السبع»
 حججاً وتعاليل لمختلف القراءات^(٦) بصورة مستوعبة، كان اعتمدها القراء في اختياراتهم،
 كلِّ حسب اجتهاده الخاصِّ وملاحظته الخاصَّة من غير اعتبار نقل أو سماع، نذكر منها
 نماذج:

١ - قوله تعالى: «آيات اللسائلين»^(٧). قرأه ابن كثير بالتوحيد «آية لللسائلين». جعل
 شأن يوسف كلَّه آية واحدة على الجملة. وإن كان في التفصيل آيات كما قال: «وجعلنا ابن
 مريم وأُمَّه آية»^(٨) فوحّد، وإن كان شأنهما التفصيل.
 وقرأ الباقر بالجمع لاختلاف أحوال يوسف، ولانتقاله من حال إلى حال. ففي كلِّ
 حالة جرت عليه آية، فجمع لذلك.

(١) البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧ و ٥٩، الأنعام: ٧٣، النحل: ٤٠، مريم: ٣٥، يس: ٨٢، غافر: ٦٨.

(٢) التيسير: ص ٧٦. (٣) الأنعام: ١٣٧، والقراءة المشهورة «شركاؤهم»....

(٤) النشر: ج ٢ ص ٢٦٣.

(٥) كالنيسر لأبي عمرو الداني، والنشر لابن الجزري (راجع بالخصوص ج ١ ص ١٠ منه)، والكشف لمكِّي بن أبي طالب.
 وإتحاف فضاء البشر للديلمي، وأمثالها. وراجع تصريح أبي شامة على شذوذ هذه القراءات في كتابه «العرشد الوجيز»:
 ص ١٧٤ - ١٧٦.

(٦) وهكذا أبو علي الفارسي في كتابه المبسوط «الحجّة في علل القراءات السبع» في جزءين وغيره.

(٧) المؤمنون: ٥٠.

(٨) يوسف: ٧.

قال أبو محمّد: وهو الاختيار، لأنّ الجماعة عليه^(١).

٢- قوله تعالى: «في غياية الجُبِّ»^(٢). قرأ نافع وحده بالجمع «غيايات الجبِّ» لأنّ كلّ ما غاب عن النظر من الجبِّ فهو غياية، فقد أُلقي في غيايات من الجبِّ. وقرأ الباقون بالتحديد، لأنّ يوسف لم يلق إلا في غياية واحدة.

٣- قوله تعالى: «يرتع ويلعب»^(٣). قرأ الكوفيون ونافع بالياء فيهما، وقرأ الباقون بالنون. وعن ابن كثير أنّه قرأ «ترتع» بالنون و«يلعب» بالياء. وكسر الحريتان العين من «يرتع» وأسكنها الباقون.

وحجّته من قرأ بالياء أنّه أسند الفعل إلى يوسف، وحسن الإخبار عنه باللعب لصغره، لأنّه مرفوع عنه فيه اللوم.

وحجّته من قرأ بالنون أنّه حمل على الإخبار من إخوة يوسف عن أنفسهم، إذ لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت، واللعب بغير الباطل جائز.

وحجّته ابن كثير أنّ «يلعب» مسند إلى يوسف، و«ترتع» إلى إخوته.

وحجّته من قرأ بإسكان العين أنّه جعله من «رتع يرتع» إذا رعى فأسكن العين للجزم جواباً للطلب في قوله: «أرسله معنا».

وحجّته من كسر العين أنّه جعله من «رعى يرعى»، فإنّ لامه ياء فكان حذفها علامة للجزم^(٤).

٤- قوله تعالى: «المخلصين»^(٥). قرأ نافع وأهل الكوفة بفتح اللام حيث وقع فيما فيه ألف ولام مبنياً للمفعول، لأنّ الله أخلصهم، أي اختارهم لعبادته، وقرأ الباقون بكسر اللام مبنياً للفاعل، لأنّهم هم أخلصوا أنفسهم للعبادة.

قال أبو محمّد: وفتح اللام أحبّ إليّ، لأنّهم لم يخلصوا أنفسهم لعبادة الله إلا من بعد أن اختارهم الله لذلك وأخلصهم^(٦).

(٢) يوسف: ١٠.

(١١) الكشف: ج ٢ ص ٥.

(٤) للكشف: ج ٢ ص ٥-٧.

(٣) يوسف: ١٢.

(٦) للكشف: ج ٢ ص ٩-١٠.

(٥) يوسف: ٢٤.

٥ - قوله تعالى: «وزرعٌ ونخيلٌ صنوانٌ وغيرُ صنوانٍ»^(١١) قرأ حفص وابن كثير وأبو عمرو بالرفع في الكلمات الأربع، عطفاً على «قطع»، وقرأ الباقون بالخفض عطفاً على «أعتاب» فهو أقرب إليه من «قطع»^(١٢).

٦ - قال أبو علي: حجةٌ من فتح الباء في مثل «وتدعونني إلى النار»^(١٣) أن أصل هذه الباء الحركة، لأنها يازاء الكاف للمخاطب، فكما فتحت الكاف كذلك تفتح الباء، وحجةٌ من أسكن أن الفتح مع الباء فدكرت في الكلام كما كرهت الحركتان الأخيرتان فيها...^(١٤)

٧ - قوله تعالى: «تنبت بالذهن»^(١٥). قرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمّ التاء وكسر الباء. وقرأ الباقون بفتح التاء وضمّ الباء.

قال أبو محمد: حجةٌ من ضمّ التاء أنه جعله رباعياً، وجعل الباء في «بالذهن» زائدة. لكن دلّت الباء على ملازمة الإنبات للذهن، كما قال: «اقرأ باسم ربك»^(١٦). وحجةٌ من فتح التاء أنه جعله ثلاثياً، والباء في «بالذهن» للتعدية. قال: والاختيار الفتح، لأن الجماعة عليه^(١٧).

تلك نماذج سبعة كافية للدلالة على مبلغ مداخلة الاجتهاد في اختيار القراءات، وقلما نجد استنادهم إلى سماع أو نقل.

وتقدّم حديث البرقي في رجوعه عن قراءة «ميت» مخففاً، لما تبين له أنه مخطئ في الاختيار ولولا اعتماده على الاجتهاد لما صح له الرجوع.

تناقض في القراءات

في القراءات المضبوطة عن أئمة القراء السبعة وغيرهم كثير من مناقضات ومباينات بحيث لا تجتمع على معنى واحد. الأمر الذي يتنافى ونصّ الوحي الذي لا يحتمل اختلافاً

(١١) للكشف: ج ٢ ص ١٩.

(١٢) الرعد: ٤.

(١٣) الحجّة لأبي علي: ج ١ ص ٣١٤-٣١٥.

(١٤) غافر: ٤٦.

(١٥) الطلق: ١.

(١٦) المؤمنون: ٢٠.

(١٧) للكشف: ج ٢ ص ١٢٧.

أصلاً. «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(١). هذا هو المقياس لمعرفة وحي السماء، ومن ثم لا يصح إسناد هذا الاختلاف إلى النبي ﷺ.

ومن ثم استغرب الإمام بدر الدين الزركشي توجيهه هكذا قراءات يجعل القراءتين بمنزلة آيتين، إذ فرض آيتين متناقضتين في القرآن مستحيل إطلاقاً^(٢).

من ذلك اختلافهم في قراءة: «أو لامستم النساء»^(٣). قرأ حمزة والكسائي: «أو لمستم»، والباقون: «أو لامستم». وقد بنى الفقهاء نقض وضوء اللامس وعدمه على هذا الاختلاف^(٤).

وكذلك اختلافهم في جواز وطء الحائض عند انقطاع الدم وعدمه قبل الاغتسال ينظر إلى اختلاف قراءة: «حَتَّى يَظْهَرَ»^(٥) بالتشديد - هي قراءة حمزة والكسائي - أو بالتخفيف - هي قراءة الباقيين -^(٦).

ومن ذلك قراءة الكسائي وأبي جعفر: «ألا يسجدوا لله»^(٧) بتخفيف «ألا» - استفتاحية - فتدل على وجوب السجدة. وقرأ الباقون بالتشديد. قال الفراء: فلا تدل على الوجوب^(٨).

ومن ذلك قراءة نافع وابن عامر وحفص والكسائي: «وأرجلكم»^(٩) منصوباً، عطفاً على «أيديكم» دليلاً على وجوب الغسل. وقرأ الباقون بالخفض عطفاً على «رؤوسكم» دليلاً على وجوب المسح^(١٠).

ومن ذلك: «وَأَذْكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ»^(١١) أي بعد حين. أو «بعد أمه» أي بعد نسيان. وكذلك: «رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»^(١٢) فعلاً ماضياً ليكون إخباراً عن ماضٍ سبق، أو فعل أمر. ليكون

(١) النساء: ٨٢. (٢) وراجع البرهان: ج ١ ص ٣٢٦.

(٣) النساء: ٤٣.

(٤) البرهان: ج ١ ص ٣٢٦. القرطبي: ج ٥ ص ٢٢٣. الكشاف: ج ١ ص ٣٩٦.

(٥) البقرة: ٢٢٢. (٦) القرطبي: ج ٣ ص ٨٨. الكشاف: ج ١ ص ٢٩٣.

(٧) النمل: ٢٥. (٨) البرهان: ج ١ ص ٣٢٦.

(٩) المائدة: ٦. (١٠) الإنشاف: ص ١٩٨. الكشاف: ج ١ ص ٤٠٦.

(١١) يوسف: ٤٥. (١٢) سبأ: ١٩.

طلباً لحصوله بعد ذلك^(١).

وقوله: «إذ تلقونه بألسنتكم»^(٢) بتشديد القاف المفتوحة، بمعنى تقبلونه، أو «تلقونه» بكسر اللام وضّم القاف مخفّفة، من «ولق» إذا كذب^(٣).

وقرأ نافع وابن عامر: «وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مَصَلًى»^(٤) بفتح الخاء ماضياً إخباراً عما سبق. وقرأ الباقون بصيغة الأمر، إيجاباً على هذه الأئمة^(٥).

وقرأ الكسائي: «هل تستطيع ربك»^(٦) بناء الخطاب ونصب «ربك» بحذف مضاف أي سؤال ربك. وقرأ الباقون بالياء ورفع «ربك» فاعلاً^(٧) والقراءتان بظاهرهما متنافيتان.

وقرأ الكوفيون: «قد كذبوا»^(٨) بالتخفيف، أي أنّ المرسل إليهم ظنّوا أنّهم قد كذبوا فيما أتتهم به الرسل. وقرأ الباقون بالتشديد، أي ظنّ الرسل أنّ قومهم قد كذبوهم. ولا يجتمع المعنيان^(٩).

القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان

قال القاضي أبو سعيد فرج بن لب الأندلسي: من زعم أنّ القراءات السبع لا يلزم فيها التواتر فقله كفر، لأنّه يؤدّي إلى عدم تواتر القرآن^(١٠).

هذا كلامه المبالغ فيه من غير أن يوافق عليه أحد من المحقّقين. نظراً لعدم تلازم بين الأمرين. وقد تقدّم كلام الإمام الزركشي: القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان، فالقرآن هو الوحي المنزل على محمّد ﷺ، والقراءات هي اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتبه الحروف أو كيفيّتها^(١١).

(٢) النور: ١٥.

(١) الإنصاف: ص ٣٥٩.

(٤) البقرة: ١٢٥.

(٣) راجع المرشد الوجيز: ص ١٨٠.

(٦) المائدة: ١١٢، وفي الكتاب العزيز «يستطيع»

(٥) للكشف: ج ١ ص ٢٦٦.

(٨) يوسف: ١١٠.

(٧) الكشف: ج ١ ص ٤٢٢.

(١٠) ساهل العرفان: ج ١ ص ٤٣٥.

(٩) الكشف: ج ٢ ص ١٥.

(١١) البرهان: ج ١ ص ٣١٨.

ولم يشك أحد من المسلمين في تواتر القرآن، في حين أنه لم يلتزم بتواتر القراءات سوى القليل. وتقدم كلام أنمة الفن في ذلك.

قال الشيخ الزرقاني: الدليل الذي اعتمد أبو سعيد لا يسلم له... للفرق بين القرآن والقراءات السبع، بحيث يصح أن يكون القرآن متواتراً في غير القراءات السبع أو في القدر الذي اتفق عليه القراء، أو في القدر الذي اتفق عليه عدد يؤمن بتواطؤهم على الكذب، قراء كانوا أم غير قراء، بينما تكون القراءات السبع غير متواترة^(١).

قال سيدنا الأستاذ الإمام الخوئي^(٢): إن تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات، لأن الاختلاف في كيفية تعبير الكلمة لا ينافي الاتفاق على أصلها، كما أن الاختلاف في خصوصيات حدث تاريخي - كالهجرة مثلاً - لا ينافي تواتر نفس الحدث، على أن الواصل إلينا بتوسط القراء إنما هو خصوصيات قراءاتهم. وأما أصل القرآن فهو واصل إلينا بالتواتر بين المسلمين، وينقل الخلف عن السلف، وتحفظهم عليه في الصدور وفي الكتابات ولا دخل للقراء - بخصوصهم - في ذلك أصلاً. ولذلك فإن القرآن ثابت التواتر حتى لو فرضنا أن هؤلاء القراء السبعة أو العشرة لم يكونوا في عالم الوجود أصلاً.

إن عظمة القرآن ورفعة مقامه أعلى من أن تتوقف على نقل أولئك النفر المحصورين^(٣). وفي كلام سيدنا الأستاذ - أخيراً - الحجّة القاطعة على أولئك الذين يرون تواتر القرآن من زاوية القراءات السبع فحسب، فيقصرون النصّ القرآني - الذي هو كتاب المسلمين قاطبة - في إطار هؤلاء النفر النزر اليسير، فيالها من نظرة قاصرة وقصيرة المدى!

لا شك أن القرآن - وهو نصّ الوحي الإلهي الحكيم - متواتر بين المسلمين تواتراً قطعياً، في جمع سورته وآيه وكلماته، كلمة كلمة، بحيث لو أبدلنا كلمة من القرآن أو أبدلنا من مكانها إلى آخر لاستنكرها المسلمون، ووجدوها شيئاً غريباً عن أسلوب كلام الله العزيز الحميد.

ومن ثم فإن القراءات التي كانت لا توافق نصّ المصحف كانت مستنكرة لدى المسلمين، العامة والعلماء، وعدوها شاذةً منبوذة، وقد تقدم في الفصل السابق إنكار

جماعة من كبار العلماء على قرآء قرأوا خارج المتعارف، وكذا إنكارات من عامة المسلمين على قرآء معروفين كبار. كما لم يُجز الفقهاء القراءة بها في الصلاة ولا اعتبروا قرآناً من كلام الله المجيد.



بقي هنا اعتراض: أن القراءات إذالم تكن متواترة جميعاً فإن القرآن يصح في بعض آيه - وهو الذي اختلف القراءة فيه - غير متواتر، كما في «مالك» و«ملك» وقد قرئ بالوجهين، فأيهما النص؟

وقد استدلل ابن الحاجب - في مختصر أصوله - بذلك لإثبات تواتر القراءات السبع^(١). قال: وإلا فيلزم أن يكون بعض القرآن غير متواتر. إذ لو اختلف القراء في كلمة، كما في مثل «غياية» أو «غيايات»، ومثل «آية» أو «آيات»، و«ملك» أو «مالك» ونحو ذلك مما قرئ بوجهين أو بأكثر، فإن التزمنا بتواتر القراءات جميعاً فهو، وإلا فأبي القراءتين تكون قرآناً لتكون الأخرى غير قرآن، وإذا ترددنا في ذلك فإن معناه التردد في النص الأصلي، وهذا لا يلتزم والقول بتواتر النص القرآني.

والجواب: أن النص الأصلي هو ما ثبت في المصحف الكريم، والذي أجمعت الأمة عليه نصاً واحداً. وإنما جاء الاختلاف في كيفية قراءته وفي أسلوب تعبيره. الأمر الذي لا يتنافى وثبوت نواتر الأصل، كما في كثير من أشعار الشعراء القدامى، حيث أصل البيت أو القصيدة ثابتة له بالتواتر وإن كان الرواة مختلفين في بعض الكلمات أو الحركات.

ويزيدنا وضوحاً ماقدّمناه سابقاً: أن اختلاف القراء كان عن اجتهاد منهم في تحقيق الكلمة تعبيراً، في حين وحدة النص الثابت في المصحف، وذلك لأن اختلافهم جاء من قبل عراء المصحف الأوّل عن أي علامة مائزة. وعن الأشكال والنقط، بل وعن الألفات، وربما زيادات خارجة عن أسلوب الخطّ الصحيح، لمكان جهل العرب الأوائل بأصول الكتابة المتقنة.

فقد كتبوا «ملك» بميم ولام وكاف، ولكن بما أن عاداتهم كانت على حذف الألفات جرياً

مع مرسوم خطَّ السريان . ومن ثمَّ اجتهد بعض القراء زاعماً أنَّ الكلمة مرسومة على نفس النمط ، فقرأها «مالك» بالألف ، مستنداً في ذلك إلى تعاليل وحجج تؤيد اختياره . فقد قرأ عاصم والكسائي بالألف محتجِّين بقوله تعالى : «قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ»^(١) . وأدلة أخرى سردها أبو محمَّد بتفصيل^(٢) .

وقرأ الباقون «ملك» بلا ألف جرياً مع ظاهر الرسم ، محتجِّين بقوله تعالى «المملك القدوس»^(٣) . وأدلة أخرى .

وهكذا كلمة : «غيابة الجبِّ»^(٤) كانت مرسومة هكذا «غيبت الجبِّ» قرأها نافع بالألف جمعاً ، زاعماً أنَّها مرسومة محذوفة الألف في كلا الموضعين بعد الياء وبعد الباء . فقرأها «غيابات» ، وعلَّلها بأنَّ كلَّ ما غاب عن النظر من الجبِّ غيابة . وقرأ الباقون مفرداً «غيابة» على ظاهر الخطِّ معلِّلين بأنَّ يوسف لم يُلقَ إلا في غيابة واحدة^(٥) .

كما أنَّ «آياتٍ للسائلين»^(٦) كانت مكتوبة «آيت» بلا ألف ، ومن ثمَّ قرأها ابن كثير بالتوحيد جرياً مع ظاهر الخطِّ . محتجِّباً بأنَّ شأن يوسف كلُّه آية واحدة . كما في قوله «وجعلنا ابن مريم وأُمَّه آية»^(٧) . وقرأ الباقون «آيات» اعتماداً على أنَّ الألف محذوفة ولا تتقال يوسف من حال إلى حال ، ففي كلِّ حال جرت عليه آية^(٨) .

إذاً فليس اختلاف القراءة بالذي يضرُّ بوحدة النصِّ الأصل . الثابت في المصحف الأوَّل . ممَّا نسألتم عليه الأُمَّة عبر التاريخ .

وقد أخرج ابن أشتة في كتاب «المصاحف» . وابن أبي شيبه في «فضائل القرآن» ، من طريق ابن سيرين عن عبدة السلماني ، قال : القراءة التي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه ، هي القراءة التي يقرأها الناس اليوم^(٩) .

(٢) راجع الكشف في القراءات السبع : ج ١ ص ٢٥-٢٦ .

(١) آل عمران : ٢٦ .

(٤) يوسف : ٦٠ .

(٣) الحشر : ٢٣ .

(٦) يوسف : ٧ .

(٥) الكشف : ج ٢ ص ٥ .

(٨) للكشف : ج ٢ ص ٥ .

(٧) المؤمنون : ٥٠ .

(٩) الإتيان : ج ١ ص ٥٠ .

وإلى ذلك أيضاً أشار الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: القرآن واحد، نزل من عند واحد، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة^(١).

ولك أن تسأل: إذا اختلفت القراءة في نص واحد فمن أين يعرف النص الأصل بعد احتمال الخط لكلتا القراءتين؟

قلنا: سنشرح - في فصل قادم - شروط اختيار القراءة الصحيحة، الموافقة للنص الأصل، وهي القراءة المشهورة المعروفة بين الناس وتلقّتها الأمة بالقبول في جميع أدوارها. ومن ثم فإنّ القراءات التي كانت تخرج عن محدودة العرف العام كانت تقع موضع إنكارهم، وتقدّمت أمثلة على ذلك.

وسؤال آخر: هل لا يقدح اختلاف مصاحف الأمصار الأولية في تواتر النص الأصل الواحد؟

قلت: كلاً، فإنّ الثبوت الأصل أيضاً من بين تِلْكَ المصاحف، هو ما أجمعت عليه الأمة ووقع موضع اتفاقهم، وشاع وذاع عبر التاريخ، وكان ثبت غيره في سائر المصاحف مهجوراً، ومن ثمّ فهو شاذّ منبوذ.

مثلاً: اختلف مصحف الشام مع مصحف الكوفة، فكان ثبت الشام: «وأوصى بها إبراهيم». وكان ثبت الكوفة: «ووصى»^(٢). لكنّ الأمة اعترفت بالثاني ونبذت الأوّل، وهو دليل قاطع على أنّ الصحيح هو ذلك دون الآخر. ومن ثمّ لا تجوز القراءة وفق المأثور عن مصحف الشام في خصوص هذه الآية.

وجاء في مصحف المدينة والشام: «سارعوا» بلا واو. وفي مصحف الكوفة والبصرة: «وسارعوا»^(٣). ووقع إجماع الأمة على الثاني.

وجاء في مصحف المدينة والشام: «قال الملاء»^(٤) بلا واو. وفي مصحف العراقيين: «وقال

(٢) البقرة: ١٣٢.

(١) للكشف: ج ٢ ص ٥.

(٤) الأعراف: ٧٥.

(٣) آل عمران: ١٣٣.

الملا». ولكن وقع إجماع الأمة على الأوّل.

وجاء في مصحف المدينة والشام: «هو الذي ينشركم». وفي مصحف المراقين: «هو الذي يسيّرکم»^(١). والإجماع على الثاني. وهكذا...

والخلاصة: إنّ طريقنا إلى معرفة النصّ الأصل هو إجماع الأمة في مختلف عصورها وعلى تباين نزعاتها، لكنّها اتّفقت على كتابها الكريم. كلام الله العزيز الحميد، فاحتفظت بنصّه الأصل متغلّبة على كافّة عوامل الاختلاف في هذا المجال. وما هي إلاّ معجزة قرآنية باهرة «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون»^(٢) أي بين أظهركم لا في اللوح المحفوظ. فلم يزل ولا يزال هذا الكتاب الإلهي الخالد يشقّ طريقه إلى الأمام، مع الأبدية بسلام.

الأحرف السبعة والقراءات السبع

لم نجد من علماء الفنّ من يرى أيّ صلة بين حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» و«القراءات السبع» المعروفة. نعم، سوى تداوله على السنة العوام وغوغاء الناس، لا عن مستند معروف. وقد ردّ على هذه المزعومة الشائعة كثير من الأئمة النقاد. كابن الجزري وأبي شامة والزرکشي وأبي محمّد مكي وابن تيمية وأضرابهم. ونسب ابن الجزري هذا الوهم إلى الجهلة العوام ومن لا علم له من الغوغاء الطغام^(٣).

قال أبو محمّد مكي: فأما من ظنّ أنّ قراءة كلّ واحد من هؤلاء القراء أحد الأحرف السبعة التي نصّ النبي ﷺ عليه فذلك منه غلط عظيم، إذ يجب أن يكون ما لم يقرأ به هؤلاء السبعة متروكاً، إذ قد استولوا على الأحرف السبعة التي عند النبي ﷺ فما خرج عن قراءتهم فليس من السبعة عنده^(٤).

وقال ابن تيمية: لا نزاع بين العلماء المعتبرين أنّ الأحرف السبعة - التي ذكرها النبي ﷺ - أنّ القرآن أنزل عليها - ليست قراءات القراء السبعة المشهورة. بل أوّل من جمع ذلك ابن مجاهد، ليكون ذلك موافقاً لعدد الأحرف التي أنزل عليها القرآن، لا لاعتقاده واعتقاد غيره

(٢) الحجر: ٩.

(١) يونس: ٢٢.

(٤) الإبانة لأبي محمّد مكي: ص ٣، المرشد الموجيز: ص ١٤٩.

(٣) تحبير التيسير: ص ٦٠.

من العلماء: أنَّ القراءات السبع هي الحروف السبعة. أو أنَّ هؤلاء السبعة المعيّنين هم الَّذِينَ لا يجوز أن يقرأ بغير قراءتهم^(١).

ويزيد هذا الوهم شناعة أنَّه يستدعي أن تبقى الأحرف السبعة التي أجاز النبي ﷺ قراءتها - في المفروض - قابضة في زاوية الخمول مجهولة، حتى ينبغ من القراء هؤلاء السبعة بالخصوص في عصور متأخرة تدريجياً، ثم تبقى الأحرف السبعة التي أجازها النبي ﷺ لجميع الأمة في احتكار سبعة من القراء فقط.

في حين وجود قراء هم أكبر من هؤلاء السبعة قدراً وأعظم شأنًا، فلم تسعهم الأحرف السبعة. وكأنَّ النبي ﷺ أوصى إلى ابن مجاهد - الذي جاء في مطلع القرن الرابع - ليخصَّص هؤلاء السبعة فقط بتلك الأحرف ويحرم الآخرين، سواء السابقين واللاحقين!

قال أبو محمد الهروي: ولا يتوهم انصراف حديث السبعة إلى قراءة سبعة من القراء يولدون في عصر متأخر بسنين، لأنَّه يؤدي إلى أن يكون الخبر متعرياً عن فائدة إلى أن يحدنوا، ويؤدي إلى أنَّه لا يجوز لأحد من الصحابة أن يقرأوا إلا بما علموا أنَّ السبعة من القراء يختارونه. قال: وإبنا ذكرناه لأنَّ قوماً من العامة يتعلَّقون به^(٢).

وبهذه المناسبة رأينا من الأفضل تخصيص الفصل التالي للتكلم عن حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف»، استيضاحاً لجانب مدلوله، الذي يبدو مجعلاً قد بلغت الاحتمالات فيه أربعين وجهاً، أمَّا من ناحية السند فلم يشب عندنا.

تلخيص البحث

وتلخص من مجموع بحوثنا المتقدِّمة: أنَّ إثبات القراءات عن النبي ﷺ شيء يبدو مستحيلاً.

أولاً: لا دليل على ذلك، ودون إثباته تسكب العبرات على حدِّ تعبير أبي شامة^(٣).
وثانياً: إنَّ لاختلاف القراءات عوامل ذاتية - شرحناها في فصل سابق - كانت هي

(١) في فتوى له سألها ابن الجزري في النشر: ج ١ ص ٣٩.

(٢) في كتابه «الكافي». راجع البرهان ج ١ ص ٣٣٠. (٣) المرشد الوجيز: ص ١٧٨.

السبب لنشوء الخلاف بين القراء.

وثالثاً: إنَّ أسانيد القراء إلى النبي ﷺ أسانيد آحاد موجودة في كتب القراءات، ولم يكن شيء منها متواتراً حسب المصطلح.

هذا، فضلاً عن الشك في أكثرية هذه الأسانيد التي يبدو عليها أثر الوضع والاختلاق، ولعلها أسانيد تشريفية مصطنعة من غير أن يكون لها واقع.

ورابعاً: إنكارات علماء الأمة وزعماء الملة على قراءات كثير من القراء المرموقين، لدليل على أنها ليست متواترة عندهم، وإلا فكيف يجراً مسلم أن يردَّ قراءة هي متواترة عن النبي ﷺ؟!.

وخامساً: وجود قراءات شاذة عن السبعة ينفي تواتر قراءاتهم فرداً فرداً.

وسادساً: استناد القراء إلى حجج وتعاليل اعتبارية نظرية، لدليل على أنَّ اختياراتهم كانت اجتهادات وإلا فلو ثبتت قراءاتهم بالتواتر لم يكن حاجة إلى تعليل اعتباري.

وسابعاً: وجود التناقض بين القراءات ينفي تواترها عن النبي ﷺ، إذ نصَّ الوحي لا يحتمل اختلافاً.

وثامناً: لا ملازمة بين مسألة «تواتر القرآن» المعترف بها لدى الجميع، وبين مسألة «تواتر القراءات» التي لم يلمح بها سوى المقلدة الرعاع.

وتاسعاً: لا علاقة بين «حديث نزل القرآن على سبعة أحرف» وقراءة القراء السبعة، وإنما هي شبهة وقع فيها بعض العوام الأغبياء - على حدِّ تعبير الإمام أبي الفضل الرازي -^(١) والحمد لله أولاً وأخيراً.

وإليك الآن البحث عن حديث الأحرف السبعة:

حديث الأحرف السبعة

الحديث في روايات أهل البيت عليهم السلام

١- روى أبو جعفر الصدوق بسند فيه محمد بن يحيى الصيرفي - وهو مسجهول - عن حماد بن عثمان عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، وأدنى ما للإمام أن يفتي على سبعة وجوه^(١).

وفسّر العلماء الأحرف في هذا الحديث بمعنى البطون، أي كل آية تحتل وجوهاً من المعنى، وإن كانت ربما تخفى على العامة، لكن الإمام المعصوم عليه السلام يعرفها، فيفتي عليها.

٢- وروى أيضاً بسند آخر، فيه: أحمد بن هلال - وهو غالب متهم في دينه - عن عيسى بن عبد الله الهاشمي عن أبيه عن آبائه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أنا نبي آت من الله فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على حرف واحد، فقلت: يا رب، وسع على أمّتي، فقال: إن الله يأمرك أن تقرأ القرآن على سبعة أحرف^(٢).

والأحرف في هذا الحديث هي اللهجات العربية المختلفة، كما يأتي في أحاديث أهل السنّة بنفس المضمون. مراداً بها نفس المعنى. فقد وسع الله على هذه الأمة أن تقرأ القرآن باللهجات المختلفة على ما سنذكر.

٣- وروى محمد بن الحسن الصفّار، بسند فيه ترديد، هكذا: عن ابن أبي عمير أو غيره عن جميل بن درّاج عن زرارة عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: تفسير القرآن على سبعة

(١) الحصال: باب السبعة رقم ٤٣ ج ٢ ص ٣٥٨. (٢) المصدر السابق.

أحرف، منه ما كان، ومنه ما لم يكن بعد، ذلك تعرفه الأئمة^(١).

وهذا الحديث كالحديث الأول، مراداً بالأحرف هي الوجوه التي تحتلها الآية الواحدة، المعبر عنها بالبطون في سائر الأحاديث.

٤- وروى أبو عبد الله محمد بن إبراهيم النعماني مرسلًا عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: أنزل القرآن على سبعة أقسام، كلٌّ منها شافٍ كافٍ، وهي: أمر، وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، ومثل وقصص...^(٢).

هذا الحديث تفسير للأحرف السبعة بفنون من الكلام اشتمل عليها القرآن الكريم. كما جاء التصريح به أيضاً في حديث ابن مسعود وأبي قلابة الآتي.

قال المحدث الفيض الكاشاني: والتوفيق بين هذه الروايات أن يقال: إنَّ للقرآن سبعة أقسام من الآيات، وسبعة بطون من المعاني، لكل آية، ونزل على سبع لغات - أي لهجات -^(٣).

تلك أحاديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» مروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام. لكن بأسانيد لم تثبت وثاقتها، كما نبه عليه سيدنا الأستاذ، ومن قبله شيخه الحجة البلاغي، وغيرهما.

الحديث في روايات أهل السنة

وأما من طرق الجماعة فأحسن من جمع مختلف أحاديثها هو الإمام شهاب الدين أبو شامة المقدسي، ذكرها في الباب الثالث من كتابه «المرشد الوجيز».

قال: الفصل الأول في سرد الأحاديث في ذلك:

١- ففي الصحيحين عن ابن شهاب قال: حدثني عبيد الله بن عبد الله أن عبد الله بن عباس

(١) بصائر الدرجات: ص ١٩٦.

(٢) رسالة النعماني - في صنوف آي القرآن - ونسبت أيضاً إلى سعد بن عبد الله الأشعري والشريف المرتضى. (راجع بحار

(٣) تفسير الصافي: ج ٦ ص ٤٠ المقدمة الثامنة.

الأنوار: ج ٩٣ ص ٤ و ٩٧.

حدّثه أنّ رسول الله ﷺ قال: أقرّاني جبرائيل ﷺ على حرفٍ واحد، فراجعته، فلم أزل أستزيدُه ويزيدني حتّى أنهي إلى سبعة أحرف^(١).

٢- وفيهما عن ابن شهاب أيضاً أنّ عمر سمع هشام بن الحكم يقرأ في صلّاته على حروف لم يكن يعرفها، فأتى به إلى رسول الله ﷺ، فقال: كذلك أنزلت، إنّ هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرأوا ما تيسّر منه^(٢).

٣- وعن أبيّ بن كعب، قال: كنت في المسجد فدخل رجل فقرأ قراءة أنكرتها، فدخلنا جميعاً على رسول الله ﷺ ودخل ثالث، فقرأ كلّ واحد منّا غير قراءة صاحبه، فجعل النبي ﷺ يحسّن الجميع، فدخلني من ذلك شكّ، ولما رأى النبي ﷺ ما قد غشيني ضرب في صدري، ففقت عرفاً^(٣) فقال: يا أبيّ، إنّ ربّي أرسل إليّ أن أقرأ القرآن على حرف، فرددت إليه أن هوّن على أمّتي، فردّ إليّ الثانية: اقرأه على حرفين، فرددت إليه، فردّ إليّ الثالثة: اقرأه على سبعة أحرف^(٤).

٤- وعن أبيّ بن كعب أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: يا أبيّ، إنّي أقرّأت القرآن على حرف وحرفين وثلاث حتّى بلغت سبعة أحرف. ثم قال: ليس منها إلاّ شافٍ كافٍ، إن قلت: سمياً عليماً، عزيزاً حكيماً، ما لم تختم آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب^(٥).

٥- وعنه أيضاً: أنّ رسول الله ﷺ لقي جبرئيل فقال له: إنّي بعثت إلى أمّة أمّتين، منهم العجوز والشيخ الكبير والغلام والجارية والرجل الذي لم يقرأ كتاباً قطّ، قال: يا محمّد، إنّ القرآن أنزل على سبعة أحرف^(٦).

٦- وعن أبي جهيم الأنصاري: أنّ رجلين اختلفا في آية من القرآن، فمشيا إلى رسول

(١) هذا الحديث رواه البخاري: ج ٦ ص ٢٢٧، ومسلم: ج ٢ ص ٢٠٢.

(٢) صحيح البخاري: ج ٦ ص ٢٢٨، صحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٠٢.

(٣) وفي رواية: فوجدت في نفسي وسوسة الشيطان حتى أحمرّ وجهي، فعرف رسول الله ﷺ ذلك في وجهي فضرب في

صدري (تفسير الطبري: ج ١ ص ١٤)، (٤) صحيح مسلم: ج ٢ ص ٢٠٢، مستند أحمد: ج ٥ ص ١٢٧.

(٥) سنن الترمذي: ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٢٩٤٤.

(٦) سنن أبي داود: ج ٢ ص ١٠٢.

الله ﷺ فقال: إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف، فلا تماروا فيه، فإنَّ مرءاً في القرآن كفر^(١).

٧- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: نزل القرآن على سبعة أحرف، عليمًا حكيمًا، غفوراً رحيمًا^(٢).

٨- وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف، لكلِّ حرف منها ظهر وبطن، ولكلِّ حرف حدٌّ، ولكلِّ حدٍّ مطلع^(٣).

٩- وعنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فالمرء فيه كفر - بثلاث مرّات - فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم فردّوه إلى عالمه^(٤).

١٠- وعن زيد بن أرقم قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: أقراني عبد الله بن مسعود وزيد وأبي فأختلفت قراءتهم، بقراءة أيّهم أخذ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ قال: وعليّ إلى جنبه، فقال علي: ليقرأ كلُّ إنسان كما علم، كلٌّ حسن جميل^(٥).

وفي حديث عبد الله: أن رسول الله ﷺ أسرَّ إلى عليّ، فقال علي: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كلُّ رجل منكم كما علم. فانطلقنا وكلُّ رجل منا يقرأ حروفاً لا يقرأها صاحبه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح الأستاد^(٦).

١١- وروى عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: كان الكتاب الأوّل نزل من باب واحد وعلى حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب وعلى سبعة أحرف: زجر، وأمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال...^(٧).

١٢- وعن أبي قلابة قال: بلغني أنّ النبي ﷺ قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف: أمر،

(١) سنن البيهقي: ج ١ ص ٣٧٢ في شعب الإيمان، مسند أحمد: ج ٤ ص ١٦٩.

(٢) المصنّف: ج ٢ ص ٦١. (٣) تفسير الطبري: ج ١ ص ٩.

(٤) المصدر. (٥) المصدر: ج ١ ص ١٠.

(٦) المستدرک: ج ٢ ص ٢٢٣ - ٢٢٤. (٧) تفسير الطبري: ج ١ ص ٢٣.

وزجر، وترغيب، وترهيب، وجدل، وقصص، ومثل^(١).

مناقشة إجمالية في مدلول الحديث

تلك جلّ أحاديث الجماعة، ادّعوا تواترها^(٢) لكنّها مختلفة المدلول بما لا يلتئم ومصطلح التواتر، الذي عمدته وحدة المضمون في الجميع. ومن ثمّ فإنّ الأحاديث المذكورة تنقسم إلى أربع طوائف:

الأولى: تعني اختلاف اللهجات في التعبير والأداء، وهي الأحاديث رقم: ١ و ٢ و ٣ و ٥ و ٦ و ١٠.

الثانية: تعني جواز تبديل الكلمات المترادفة بعضها مكان بعض، كالحديث رقم: ٤ و ٧. الثالثة: تعني اختلاف معاني الآيات، فكلّ آية تحتل معاني، بعضها ظهر وبعضها بطن، كالحديث رقم: ٨ و ٩.

الرابعة: تعني تنوّع الآيات إلى أبواب سبعة كالحديث رقم: ١١ و ١٢. غير أنّ الكثرة مع الطائفة الأولى، وإليها انصرفت وجهة نظر العلماء بشأن الأحراف السبعة التي أجاز النبي ﷺ قراءة القرآن بها. أمّا الطوائف الأخر فشاذّة أو باطلّة رفضها أئمّة التحقيق.

وأحسن من تكلم في هذا الموضوع هو الإمام ابن الجزري، تكلم عن أحاديث السبعة في عشرة وجوه، استوعب الكلام فيها بإسهاب^(٣). والأجدد هو البحث عن أحاديث السبعة بالتكلم في كلّ طائفة بما يخصّها من كلام وتمحيص، وإليك إجمالاً.

اختيار تفسير الأحراف باللهجات

أمّا الطائفة الأولى وتعني اختلاف اللهجات فتوسعة على الأئمّة في قراءة القرآن، فإنّ

(٢) راجع النشر في الفراءات المشرّ لابن الجزري: ج ١ ص ٢٦.

(١) المصدر السابق: ص ٢٤.

(٣) المصدر: ج ١ ص ٢٦-٥٤.

البدوي لا يستطيع النطق كالحضري، ولا الأُمِّي يتعمَّن في تعبيره كالمثقف الفاضل. ولا الصغير كالكبير، ولا الشيخ كالشاب. فضلاً عن اختلاف لهجات القبائل في تعبير كلمة واحدة، بما تعجز كلُّ قبيلة عن النطق بغير ما تعودت عليه في حياتها. وهكذا اختلاف أُمم غير عربية في القدرة على النطق بالألفاظ العربية، فلو كانت الأُمَّة الإسلامية على مختلف شعوبها مكثفة بالنطق على حدِّ سواء لكان ذلك من التكليف بغير المستطاع، و«لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»^(١).

وقد روى الإمام جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ الْأَعْجَمِيَّ مِنْ أُمَّتِي لِيَقْرَأَ الْقُرْآنَ بِعَجْمِيَّتِهِ، فَتَرْفَعُ الْعِلَانُكَةَ عَلَى عَرَبِيَّتِهِ^(٢).

وهذا هو معنى قوله ﷺ: إِنِّي بَعَثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمَّتَيْنِ، مِنْهُمُ الْعَجُوزُ وَالشَّيْخُ الْكَبِيرُ وَالغُلَامُ وَالجَارِيَةُ وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَاباً قَطُّ^(٣) فَرَحَّصَ لِأُمَّتِهِ أَنْ يَقْرَأُوا الْقُرْآنَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ، عَلَى اخْتِلَافِ لَهْجَاتِهِمْ، لَا يَكْلَفُونَ لَهْجَةً خَاصَّةً هُمْ عَاجِزُونَ عَنْهَا.

وقوله في رواية أخرى: فاقْرَأُوا كَيْفَ شِئْتُمْ - أَي كَيْفَمَا اسْتَطَعْتُمْ - أَوْ قَوْلُهُ: يَقْرَأُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَمَا عَلِمَ - أَي كَمَا يَحْسِنُهُ حَسَبَ مَعْرِفَتِهِ وَمَقْدَرَتِهِ فِي التَّعْبِيرِ وَالْأَدَاءِ -^(٤).

ومن ذلك ما رواه أبو العالية قال: قرأ على رسول الله ﷺ، من كلِّ خمس رجل، فاختلفوا في اللغة - أي في اللهجة - فرضي قراءتهم كلهم، فكان بنو تميم أعرب القوم^(٥).

قال ابن قتيبة: فكان من تيسيره تعالى أن أمره ﷺ بأن يقرى، كلُّ قوم بلغتهم وما جرت عليه عاداتهم:

فَالهَذَا يَقْرَأُ «عَتَى حِينَ» يَرِيدُ «حَتَّى حِينَ» لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلْفِظُ بِهَا وَيَسْتَعْمَلُهَا.

(١) وسائل الشيعية: ج ٤ ص ٨٦٦.

(٢) للبرقي: ٢٨٦.

(٣) راجع تأويل مشكل القرآن: ص ٣٤.

(٤) سنن الترمذي: ج ٥ ص ١٩٤ رقم ٢٩٤٤.

(٥) المؤمنون: ٥٤.

(٦) تفسير الطبري: ج ١ ص ١٥.

والأسدي يقرأ: «تعلمون» و«تعلم» بكسر تاء المضارعة، و«تسود وجوه»^(١) بكسر التاء، و«ألم اعهد إليكم»^(٢) بكسر الهمزة في «أعهد».

والتميمي يهزم، والقريشي لا يهزم. والآخر يقرأ «قيل»^(٣) و«غيض»^(٤) بإشمام الضم مع الكسر، و«رددت»^(٥) بإشمام الكسر مع الضم، و«مالك لا تأمنا»^(٦) بإشمام الضم مع الإدغام. وهذا ما لا يطوع به كلُّ لسان.

ولو أن كلَّ فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده - طفلاً وناشئاً وكهلاً - لاشتد ذلك عليه وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة وتذليل لللسان وقطع للعادة، فأراد الله برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات، كتنسيه عليهم في الدين^(٧).

قال ابن يزداد الأهوازي: وجاء عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام وابن عباس، أنهما قالوا: نزل القرآن بلغة كلِّ حيٍّ من أحياء العرب.

وفي رواية عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرئ الناس بلغة واحدة، فاشتد ذلك عليهم، فنزل جبرائيل، فقال: يا محمد، أقرئ كلَّ قوم بلغتهم.

قال أبو شامة: هذا هو الحقُّ، لأنَّه إنَّما أبيع أن يقرأ بغير لسان قريش توسعةً على العرب، فلا ينبغي أن يوشع على قوم دون قوم، فلا يكلف أحد إلا قدر استطاعته. فمن كانت لفته الإمالة، أو تخفيف الهمز، أو الإدغام، أو ضم ميم الجمع، أو صلة هاء الكناية، أو نحو ذلك، فكيف يكلف غيره؟ وكذا كلُّ من كان من لفته أن ينطق بالشين التي كالجيم في نحو: اشدق، والصاد التي كالزاي في نحو: مصدر، والكاف التي كالجيم، والجيم التي كالكاف، ونحو

(٢) آل عمران: ٦٠.

(١) آل عمران: ٦-٦٠.

(٤) هود: ٤٤.

(٣) البقرة: ١١.

(٦) يوسف: ١١.

(٥) يوسف: ٦٥.

(٧) تأويل مشكل القرآن: ص ٣٩-٤٠.

ذلك، فهم في ذلك بمنزلة الألتغ^(١) والأرت^(٢) لا يكلف ما ليس في وسعه، وعليه أن يتعلم ويجتهد^(٣).

هذا ما نختاره في تفسير الأحرف السبعة. باختلاف لغات العرب أي لهجاتهم في التعبير والأداء وقد مرّ تفسير السيوطي «اللغة» بكيفية النطق بالتلاوة، من إظهار، وإدغام، وتفخيم، وترقيق، وإمالة، وإشباع، ومدّ، وقصر، وتشديد، وتلين، وتحقيق، ونحو ذلك^(٤). والحرف في اللغة: الطرف والناحية والشفير. قال ابن سيده: فلان على حرفٍ من أمره، أي ناحية منه. إذا رأى شيئاً لا يعجبه عدّل عنه، وفي التنزيل العزيز: «ومن الناس من يعبد الله على حرف»^(٥). أي إذا لم ير ما يحبّ انقلب على وجهه.

وروى الأزهري عن أبي الهيثم، قال: أمّا تسميتهم الحرف حرفاً، فحرف كل شيء، ناحيته، كحرف الجبل والنهر والسيف وغيره.

فالكلمة إذا كانت تعبر بوجوه فكل وجه لها حرف، لأن وجه الشيء، طرفه وجانبه الذي يبدو منه. وبما أنّ القراءة - وهي كيفية في تعبير الكلمة - وجه من وجوه تعبير اللفظ فهي حرف، والجمع: أحرف.

وروى الأزهري أيضاً عن أبي العباس أنّه سئل عن قوله ﷺ: نزل القرآن على سبعة أحرف، فقال: ما هي إلا لغات. قال الأزهري: فأبو العباس النحوي - وهو واحد عصره - قد ارتضى ما ذهب إليه أبو عبيد واستصوبه^(٦).

واللغات: هي لغات العرب، أي لهجاتهم في كيفية التعبير والأداء. قال البغوي: أظهر الأقاويل وأصحّها وأشبهها بظاهر الحديث: أنّ المراد من هذه الحروف اللغات، وهو أن يقرأ كل قوم من العرب بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، من الإدغام

(١) الألتغ: من كان لسانه لثمة، أي قلب اللسان ثاء أو الراء، غيباً.

(٢) الأرت: من كان في لسانه رة، أي عجمة وعدم إنصاح.

(٣) المرشد الموجيز: ص ٩٦ - ٩٧. (٤) الإلتقان: ج ١ ص ٤٦.

(٥) الحج: ١١. (٦) لسان العرب: مادة «حرف».

والإظهار والإمالة والتفخيم والإشمام والإتمام والهمز والتسليين وغير ذلك من وجوه اللغات، إلى سبعة أوجه منها في الكلمة الواحدة^(١).

أما الأحاديث من الطائفة الثانية فتعني جواز تبديل الكلمة إلى مرادفها على شريطة التحفظ على صلب المراد، ولا تبدل آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة. وقد عرف ابن مسعود - وكذا أبي بن كعب - يذهابه إلى جواز هذا التبديل. قال: لقد سمعت القراء ووجدتهم متقاربين، فافقرأوا كما علمتم، فهو كقولكم هلم^(٢) وتعال^(٣).

وكان ابن مسعود يعلم رجلاً أعجمياً القرآن، فقال: «إن شجرة الرقوم. طعام الأثيم»^(٤) فكان الرجل يقول: «طعام التيم» ولم يستطع أن يقول: «الأثيم». فقال له ابن مسعود: قل: طعام الفاجر. ثم قال: إنه ليس من الخطأ في القرآن أن يقرأ مكان «العليم» «الحكيم»، بل أن يضع آية الرحمة مكان آية العذاب^(٥).

وكان يستبدل من إلياس إدريس، ويقرأ: «سلام على إدراسين»^(٦).

وقرأ: «أو يكون لك بيت من ذهب» بدل «من زخرف»^(٧).

وقرأ: «كالصوف المنفوش» بدل «كالعهن المنفوش»^(٨).

وقرأ: «إني نذرت للرحمان صمتاً» بدل «صوماً»^(٩).

(١) شرح السنة: ص ١٤٠، وراجع العرش الوجيز: ص ١٣٤.

(٢) معجم الأنبا: ج ٤ ص ١٩٣ رقم ٣٣. (٣) المدخان: ٤٣ و ٤٤.

(٤) تفسير الرازي: ج ٢ ص ٢١٣.

(٥) تفسير الطبري: ج ٢٣ ص ٩٦، والمقصود آية ١٣٠ من سورة الصافات.

(٦) المصدر السابق، والمقصود آية ٩٣ من سورة الإسراء.

(٧) تأويل شكل القرآن: ص ١٩، والمقصود آية ٥ من سورة الفارعة.

(٨) تذكرة الحفاظ: ج ١ ص ٣٤٠، والمقصود آية ٢٦ من سورة مريم.

وهكذا قرأ أبي بن كعب: «كلما أضاء لهم مرّوا فيه» و«سعوا فيه» بدل «مشوا فيه»^(١). وكان يقول: إن قلت: غفوراً رحيماً، أو قلت: سميعاً عليماً أو عليماً سميعاً، فإِنَّه كذلك، مالم تختتم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب^(٢).

وتبعهما في ذلك أنس وأبو هريرة أيضاً. قرأ أنس: «إِنَّ ناشئة الليل هي أشدُّ وطأً وأصوب قبلاً». فقيل له: يا أبا حمزة، إنّما هي «وأقوم قبلاً». فقال: «أقوم» و«أصوب» و«أهدى» واحد^(٣). وكان أبو هريرة يجوز تبديل «عليماً حكيماً» إلى «غفوراً رحيماً»^(٤). هذا، ولكنّه مذهب فاسد في رأي المحقّقين، ومن ثمّ رفضه جمهور المسلمين طول التاريخ. إذ لكلّ كلمة موقعية خاصّة لا تناسبها كلمة أخرى، حتّى ولو كانت مرادفة لها. فضلاً عن غير المرادفة. إذ موضع استعمال «العلّيم الحكيم» مثلاً يختلف عن موضع استعمال «الغفور الرحيم».

وهكذا جميع الكلمات المترادفة في لغة العرب، لكلّ واحدة منها موقعية خاصّة. إذا لاحظها المتكلّم كان كلامه بديعاً، وبذلك يعرف الفصيح عن غير الفصيح، وقد بلغ القرآن في هذه الناحية حدّ الإعجاز، فإنّه فاق الفصحاء العرب في تعيين مواقع الكلمات المتناسبة بما أعجزهم وأخضعهم للاعتراف ببلاغته الخارقة.

إذاً فكيف نجيز لأحد المسلمين أن يستبدلوا من كلمات القرآن بما يترادف معها من سائر الكلمات، وهل يعرف أحد - كحدّ معرفته تعالى - بموقعية الكلمات بعضها من بعض البالغة حدّ الإعجاز؟!

قال سيّدنا الأستاذ رحمه الله: فهذا الاحتمال - أي احتمال جواز تبديل كلمات القرآن إلى مترادفاتهما - يوجب هدم أساس القرآن، المعجزة الأبدية والحجّة على جميع البشر. ولا

(١) الإنفان: ج ١ ص ٤٧. والمقصود آية ٢٠ من سورة البقرة.

(٢) البلاغي في مقدّمة تفسير شبر: ص ٢٠ نقلاً من كنز العمال.

(٣) تفسير الطبري: ج ١ ص ١٨. والآية ٦ من سورة المزمل.

(٤) الإنفان: ج ١ ص ٤٧.

يشك عاقل في أن ذلك يقتضي هجر القرآن المنزل وعدم الاعتناء بشأنه ، وهل يتوهم عاقل ترخيص النبي ﷺ أن يقرأ الفارسي «يس والذكر العظيم ، إنك لمن الأنبياء ، على طريق سوي . إنزال الحميد الكريم ، لتخوف قوماً ما خوف أسلافهم فهم ساهون»...! فلتقر عيون المجوزين لذلك! سبحانك هذا بهتان عظيم.

وروي أن رسول الله ﷺ علم براء بن عازب دعاء كان فيه : «ونبيك الذي أرسلت» فقرأ براء : «ورسولك الذي أرسلت» فأمره ﷺ أن لا يضع الرسول موضع النبي . قال سيدنا الأستاذ : فإذا كان هذا شأن الدعاء فما بالك بالقرآن ، وهو كلام الله المنزل الخالد...^(١)

ولعل إنكار الإمام الصادق عليه السلام لحديث السبعة ، ناظر إلى تفسيره بهذا المعنى المخرج للقرآن عن نصه الأصل المعجز ، فقد سأل الفضيل بن يسار الإمام عليه السلام ، عن هذا الحديث ، فقال : كذبوا أعداء الله ، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد^(٢).



أما الطائفة الثالثة والرابعة فلا بأس بهما ذاتياً لو صحّت أسانيدهما ، غير أن الأصحّ حسب الظاهر هي الطائفة الأولى ، التي عنت من الأحرف اختلاف لهجات العرب في التعبير والأداء.

والمقصود من السبعة هي الكثرة النسبية كما في قوله تعالى : «والبحر يُعْذُهُ من بعده سبعة أبحر»^(٣) . وكالسبعين في قوله تعالى : «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»^(٤).

ملحوظة : اختلاف اللهجة في تعبير الكلمة إذا لم يصل إلى حدّ اللحن في المقياس العامّ فجاز ، اللهم إلا للعاجز عن النطق بالصحيح ، أما المتمكّن - ولو بالتعلم - فلا تجوز له القراءة الملحونة.

(١) الكافي : ج ٢ ص ٦٣٠.

(٢) البيان : ص ١٩٧ - ١٩٨.

(٣) التوبة : ٨٠.

(٤) لقمان : ٢٧.

قال رسول الله ﷺ: تعلموا القرآن بعربيته، وإياكم والنبر فيه^(١).
وقال الإمام الصادق عليه السلام: تعلموا العربية، فإنها كلام الله الذي كلم به خلقه. ونطق به في
الماضين^(٢).

وقال الإمام الجواد عليه السلام: ما استوى رجلان في حسب ودين قط إلا كان أفضلهما عند الله
عز وجل أديهما، قيل له: قد علمنا فضله عند الناس في النادي والمجلس فما فضله عند
الله؟ قال: بقراءة القرآن كما أنزل، ودعائه من حيث لا يلحن، فإن الدعاء الملحون لا يصعد
إلى الله^(٣).

وأما العاجز فيكفيه ما يحسنه، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. وفي حديث الإمام
الصادق عليه السلام يرويه عن رسول الله ﷺ: «إن الرجل الأعجمي من أمتي ليقرا القرآن بعجميته،
فترفعه الملائكة على عريته»^(٤).

(١) وسائل الشريعة: ج ٤ ص ٨٦٥، وسيجيء أن الصحيح هو النبر بالراء المهملة.

(٢) المصدر السابق: ص ٨٦٦.

(٣) وسائل الشريعة: ج ٦ ص ٨٦٥.

(٤) المصدر السابق: ص ٨٦٦.

القرءات

أنواع اختلاف القرءات

أنواع اختلاف القرءات ربمًا تفوق الحصر، كالاختلاف في الحركات الإعرابية والبنائية، والتقديم والتأخير، والزيادة والنقصان، والمدُّ والقصر، والتخفيف والتشديد، والترقيق والتفخيم، والإخفاء والإظهار، والفكُّ والإدغام، والإمالة والروم، والإشمام على اختلاف أنواعه، وغير ذلك ممَّا فصلتها كتب القرءات، وحصل الاختلاف فيها بين أسمة القرءاء، السلف والخلف.

وبعض المؤلفين حاول حصرها في سبعة أنواع، لا عقيدة بأنّها الأحرف السبعة الّتي جاءت في الحديث، ولعلّه تيمّن بهذا العدد الّذي جاء في كلام الرسول ﷺ لكنّه تكلف ظاهر. ونحن نذكر نموذجاً من تلكم المحاولات، حيث الاطلاع عليها لا يخلو من فائدة. قال ابن قتيبة: وقد تدبّرت وجوه الخلاف في القرءات فوجدتها سبعة أوجه:

الأوّل: الاختلاف في إعراب الكلمة أو في حركة بناتها بما لا يزيلها عن صورتها في الكتاب ولا يغيّر معناها، نحو قوله تعالى: «هؤلاء بناتي هنّ أطهر لكم»^(١) برفع «أطهر» ونصبه^(٢).

وقوله تعالى: «وهل نجازي إلا الكفور»^(٣) و«هل يجازي» بياء الغائب مبيناً

(١) هود: ٧٨.

(٢) الثانية قراءة الحسن. ويراهما سيويه لعناً. (راجع كتاب سيويه: ج ٦ ص ٣٩٧، والقرءات المشادة لابن خالويه: ص ٦٠ والبحر المحيط: ج ٥ ص ٢٤٧، والقرطبي: ج ٩ ص ١٧٦) وقد مرّ أنّها قراءة مروان

(٣) سبأ: ١٧، بنون المتكلم مع الغير مبيناً للفاعل. هي قراءة عاصم وحزمة والكسائي. (الإنعاف: ص ٣٥٩).

للمفعول^(١).

وقوله تعالى: «ويأمرون الناس بالبخل»^(٢) بضمّ الباء وسكون الخاء، و«البخل» بفتح الباء والخاء^(٣).

وقوله تعالى: «فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ»^(٤) بفتح السين، و«ميسرة» بضمّ السين^(٥).

الثاني: أن يكون الاختلاف في إعراب الكلمة وحركات بنائها بما يغيّر معناها ولا يزيلها عن صورتها في الكتاب، نحو قوله تعالى: «رَبُّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا»^(٦) فعل طلب، وقرأ يعقوب: «رَبُّنَا بَاعِدْ» فعل ماضٍ^(٧).

وقوله تعالى: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ»^(٨) بتشديد القاف، و«تلقونه» بالتخفيف^(٩).

وقوله: «وَأَذْكَرٌ بَعْدَ أُمَّةٍ»^(١٠) وقرئ: «أمة» بهمزة وميم مفتوحين ثالثهما هاء^(١١).

الثالث: أن يكون الاختلاف في حروف الكلمة دون إعرابها بما يغيّر معناها ولا يزيل صورتها، نحو قوله: «وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ تُنْشَرُّهَا»^(١٢) و«تنشرها»^(١٣).

(١) هي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر. (الإتعاظ: ص ٣٥٩).

(٢) النساء: ٣٧.

(٣) هي قراءة حمزة والكسائي. والأولى قراءة الباقين. (الإتعاظ: ص ١٩٠).

(٤) البقرة: ٢٨٠.

(٥) الثانية قراءة نافع، والأولى قراءة الباقين. (الإتعاظ: ص ١٦٦. وانظر للقراءات الشاذة لابن خالويه: ص ١٧. والكشاف:

(٦) ص ١٩.

(٧) ص ١٦٨.

(٨) (٩) (١٠) (١١) (١٢) (١٣)

(٧) (الإتعاظ: ص ٣٣١. والقراءات الشاذة: ص ١٢١. (٨) التور: ١٥.

(٩) الثانية قراءة ابن السميّغ. (الفرطبي: ج ١٢ ص ٢٠٤. القراءات الشاذة: ص ١٠٠).

(١٠) يوسف: ٤٥.

(١١) الثانية منسوبة إلى ابن عباس. (الفرطبي: ج ٩ ص ٢٠١. القراءات الشاذة: ص ٦٤).

(١٢) البقرة: ٢٥٩.

(١٣) الأولى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي. والثانية قراءة الباقين (الإتعاظ: ص ١٦٢).

وقوله: «حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ»^(١١) و«إِذَا فَرَّغَ»^(١٢).

وقوله: «يَقْضَى الْحَقُّ»^(١٣) و«يَقْضَى الْحَقُّ»^(١٤).

الرابع: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتاب ولا يغير معناها، نحو قوله: «إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً»^(١٥) و«زَقِيَّةً وَاحِدَةً»^(١٦).

وقوله: «كَالِهَيْهِنَ الْمَنْفُوشِ»^(١٧) و«كَالصَّوْفِ الْمَنْفُوشِ»^(١٨).

الخامس: أن يكون الاختلاف في الكلمة بما يزيل صورتها ومعناها، نحو قوله: «وَطَلَعَ مِنْتُودٌ»^(١٩) و«طَلَعَ مِنْتُودٌ»^(٢٠).

السادس: أن يكون الاختلاف بالتقديم والتأخير، نحو قوله: «وَجَاءَتْ سَكْرَةَ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ»^(٢١) و«جَاءَتْ سَكْرَةَ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»^(٢٢).

السابع: أن يكون الاختلاف بالزيادة والنقصان، نحو قوله تعالى: «وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ»^(٢٣) و«وَمَا عَمَلَتْ أَيْدِيهِمْ»^(٢٤).

(١) سيأ: ٢٣.

(٢) الثانية قراءة الحسن. (الفراءات المشادة: ص ١٢٢، الإتحاف: ص ٣٦٠).

(٣) الأنعام: ٥٧.

(٤) الأولى قراءة نافع وابن كثير وعاصم. والثانية قراءة الباقرين. (الفرطبي: ج ٦ ص ٤٣٩). وهذه الفقرة ذكرها الفرطبي. ولم تكن في لفظ ابن قتيبة. (راجع البرهان: ج ١ ص ٣٣٥).

(٥) يس: ٢٩. (٦) الثانية قراءة ابن مسعود. (الكشاف: ج ٢ ص ٢٥١).

(٧) القارعة: ٥. (٨) الثانية قراءة ابن مسعود. (الكشاف: ج ٢ ص ٥٥٨).

(٩) الواقعة: ٢٩.

(١٠) الثانية منسوبة إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. (الفراءات المشادة: ص ١٥٦، وراجع الفرطبي: ج ١٧ ص ٢٠٨).

(١١) ق: ١٩.

(١٢) الثانية قراءة أبي بكر عندما حضرته الوفاة. في قصة مع ابنته عائشة. (راجع الفرطبي: ج ١٧ ص ١٢ - ١٣. والفراءات

المشادة: ص ١٤٤. (١٣) يس: ٣٥.

(١٤) الثانية في مصاحف أهل الكوفة. (راجع الكشاف: ج ٢ ص ٢٥٢).

وقوله تعالى: «فإنَّ الله هو الغنيُّ الحميد»^(١) و«فإنَّ الله الغنيُّ الحميد»^(٢).

وقوله: «إنَّ هذا أخي له تسع وتسعون نجعة»^(٣) بزيادة «أنتي»^(٤).

وقوله: «إنَّ الساعة آتيةٌ أكادُ أخفيها»^(٥) بزيادة «من نفسي فكيف أظهركم عليها»^(٦).

وقوله: «تجري تحتها الأنهار»^(٧) و«تجري من تحتها الأنهار»^(٨).

وأورد ذلك كله الإمام بدر الدين الزركشي في برهانه^(٩)، بلا ذكر المصدر الأصل، والقرطبي في تفسيره عن القاضي ابن الطيب مختصراً^(١٠). وابن الجزري في النشر تأييداً لما ذكره قريباً منه. قال: «ثمَّ وقفت على كلام ابن قتيبة وقد حاول ما حاولنا بنحو آخر...»^(١١). وأخذ ابن الجزري على ابن قتيبة تمثيله بطلع وطلع، لأنَّ ذلك لا تعلق له باختلاف القراءات.

قلت: ولعلَّ ابن الجزري نظر في ذلك إلى رواية الطبري: قرأ رجل عند علي ﷺ: «وطلع منضود»^(١٢). فقال ﷺ: ما شأن الطلع، إنَّما هو طلع. ثمَّ قرأ ﷺ: «والنخل باسقات لها طلعٌ نضيد»^(١٣) أو قرأ: «ونخلٍ طلعها هضيم»^(١٤) فقيل له: ألا نحولها؟ فقال: إنَّ القرآن لا يهاج اليوم ولا يحول^(١٥).

(١) الحديد: ٢٤.

(٢) الثانية قراءة نافع. وفق مصاحف أهل المدينة والشام. (المكتشف: ج ٢ ص ٤٣٧).

(٣) ص: ٢٣.

(٤) هي قراءة الحسن. وتنب إلى ابن سعود أيضاً. (راجع القراءات الشاذة لابن خالويه: ص ١٣٠. وتفسير الطبري: ج ٢٣

ص ٩١. والمكتشف: ج ٢ ص ٢٨١). (٥) طه: ١٥.

(٦) قال ابن خالويه في القراءات الشاذة: هي قراءة أبي بن كعب (إلى هنا ينتهي ما أورده ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن:

ص ٣٦-٣٨). (٧) التوبة: ١٠٠.

(٨) الثانية قراءة ابن كثير. (الإتحاف: ص ٢٤٤). وهذه الزيادة من الزركشي. (راجع البرهان: ج ١ ص ٣٣٦).

(٩) البرهان للزركشي: ج ١ ص ٣٣٦. (١٠) تفسير القرطبي: ج ١ ص ٤٥.

(١١) النشر في القراءات المعتبرة: ج ١ ص ٢٧. (١٢) الواصفة: ٢٩.

(١٣) ق: ١٠. (١٤) الشعراء: ١٤٨.

(١٥) تفسير الطبري: ج ٢٧ ص ١٠٤.

فالرواية لا تذكر أن الإمام عليه السلام قرأ ذلك.

لكن ذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة: «وطلع» - بالعين - قرأها علي بن أبي طالب على المنبر. فقيل له: أفلا نغيره في المصحف؟ قال: ما ينبغي للقرآن أن يسهج، أي لا يغير^(١).

قال ابن الجزري أيضاً: ولو مثل ابن قتيبة عوض ذلك بقوله تعالى: «وما هو على الغيب بضنين»^(٢) وقرئ «بظنين»^(٣). وقوله: «أشد منكم» و«أشد منهم»^(٤)... لاستقام وطلع حسن بدره في تمام.

على أنه قد فاته - كما فات غيره - أكثر أصول القراءات: كالإدغام، والإظهار، والإخفاء، والإمالة، والتفخيم، وبين بين، والمد، والقصر، وبعض أحكام الهمز، كذلك الروم، والإشمام على اختلاف أنواعه، وكل ذلك من اختلاف القراءات وتغاير الألفاظ مما اختلف فيه أئمة القراء...^(٥)



وقال ابن الجزري: إنني تتبعت القراءات صحيحها وشاذها، وضعيفها ومنكرها، فإذا هو يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه من الاختلاف:

١ - إما في الحركات بلا تغيير في المعنى والصورة، نحو: «البخل» بأربعة أوجه^(٦) و«بحسب» على وجهين^(٧).

(١) القراءات الشاذة: ص ١٥٦. (٢) التكوير: ٢٤.

(٣) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي بالظاء المشددة، فعمل بمعنى مفعول، من ظننت فلاناً، أنهمته، ويتعدى لواحد، والياقون بالضاد بمعنى يخيل. (الإتحاف: ص ٤٣٤).

(٤) قرأ ابن عامر بالكاف موضع الهاء، التفتاناً إلى الخطاب، والياقون «منهم» بضم القيب، لقوله: أولم يسروا. (الإتحاف: ص ٣٧٨) والآية ٢١ من سورة غافر. (٥) ابن الجزري في النشر: ج ١ ص ٢٨.

(٦) النساء: ٣٧. قرأ حمزة والكسائي بفتحين، وقرأ الياقون بضم الياء وإسكان الغاء، وهما لغتان مشهورتان، وفيه لغة ثالثة وهي فتح الياء وإسكان الغاء (الكشف عن وجود القراءات السبع: ج ١ ص ٣٨٩) وفيه لغة رابعة وهي بضمين (إملاء ما من به الرحمن للمكبري: ج ١ ص ١٧٩).

(٧) القيامة: ٣. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي بكسر السين، والياقون بالفتح. (الإتحاف: ص ٤٢٨).

٢- أو بتغيّر في المعنى فقط، نحو: «فتلقَى آدم من ربّه كلمات»^(١). و«ادّكر بعد أمّة» و«بعد أمه»^(٢).

٣- وإتافي الحروف بتغيّر المعنى لا الصورة، نحو: «تبلو»^(٣) و«تتلو» و«نتجيك»^(٤) و«نتحكك».

٤- أو عكس ذلك، نحو: «بصطة» و«بسطة»^(٥). و«الصراط»^(٦) و«السرائ».

٥- أو بتغيّرهما، نحو «أشدّ منكم» و«أشدّ منهم». و«يأتل»^(٧) و«يتألّ». و«فامضوا إلى ذكر الله»^(٨).

٦- وإتافي التقديم والتأخير، نحو: «فيقتلون ويقتلون»^(٩). و«جاءت سكرة الحقّ بالموت»^(١٠).

(١) البقرة: ٣٧. قرأه ابن كثير نصب «آدم» ورفع «كلمات». والباقون يرفع «آدم» ونصب «كلمات». (الكشف: ج ١ ص ٢٢٧).

(٢) يوسف: ٤٥. المعروف من قراءة ابن عباس: «بعد أمه» بالهاء وتخفيف الميم المفتوحة. أي بعد نسيان. والقراءة المشهورة بالياء وتشديد الميم. أي بعد حين. (راجع القرطبي: ج ٩ ص ٢٠١).

(٣) يونس: ٣٠. قرأ حمزة والكسائي وخلف بناءين، أي تطلب وتنبع ما أسلفته من أعمال. والباقون بالياء والياء، من البلاد. أي تختير ما فُتست من عمل. (الإتحاف: ص ٢٤٩).

(٤) يونس: ٩٤. قرأ اليزيدي وابن السميع: «نتحكك» بالحاء من التنحية. (القرطبي: ج ٨ ص ٣٤٩).

(٥) البقرة: ٢٤٧. قرأ أبو عمرو وحمزة بالسين، والباقون بالصاد. (الكشف: ج ١ ص ٣٠٢).

(٦) الفاتحة: ٦. السين قراءة قنبل عن ابن كثير. (الكشف: ج ١ ص ٣٤).

(٧) النور: ٢٣. قرأ أبو جعفر: «بتألّ» بهززة مفتوحة بين التاء واللام المسدّدة مضارع «تألّى» بمعنى حلف. والباقون: «يأتل» بهززة ساكنة بين الياء والتاء وكسر اللام مخففة. من «ألوت» بمعنى «فصرت» أو مضارع «اتلّى» انتقل من الآلية وهي الحلف أيضاً. (الإتحاف: ص ٣٢٢).

(٨) الجمعة: ٩. هي قراءة عمر بن الخطاب. ومن القراء ابن شهاب. (القرطبي: ج ١٨ ص ١٠٢). والقراءة المشهورة هي: «فاسعوا إلى ذكر الله».

(٩) التوبة: ١١١. قرأ النخعي والأعشى وحمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل. وقرأ الباقر بتقديم الفاعل على المفعول. (القرطبي: ج ٨ ص ٢٦٨).

(١٠) ق: ١٩. هكذا قرأها أبو بكر عند موته. (البرهان للزركشي: ج ١ ص ٢٣٥). والقراءة المشهورة هي: «وجاءت سكرة الموت بالحق».

٧- أو في الزيادة والنقصان ، نحو : «وأوصى» و«ووصى»^(١) ... و«الذكر والأنثى»^(٢) .
فهذه سبعة أوجه لا يخرج الاختلاف عنها.

وأما نحو اختلاف الإظهار والإدغام ، والروم والإشمام ، والتفخيم والترقيق ، والمدد والقصر ، والإمالة والفتح ، والتحقيق والتسهيل ، والإبدال ، والنقل ، مما يعبر عنه بالأصول ، فهذا ليس من الاختلاف الذي يتنوع فيه اللفظ والمعنى ، لأن هذه الصفات المتنوعة في أدائه لا تخرجه عن أن يكون لفظاً واحداً . ولئن فرض فيكون من الأول^(٣) .

قلت : إن كان حديث السبعة الأحرف ناظراً إلى تنوع لغات العرب في التعبير والأداء - كما رجحناه واختاره المحققون السلف - فإن ما ذكره أخيراً هي العمدة في اختلاف القراءة . أما ما ذكره من الوجوه السبعة ، فلا يدخل أكثرها في الرخصة المستفادة من الحديث ، ولا أظن بمثله أن يرخصها كما لم يرخصها سائر العلماء المحققين ، فكيف ينزل الحديث عليها؟! .

قال الأستاذ الزرقاني : إن هذا العذر الذي قدمه ابن قتيبة لإهمال هذا الوجه لا يسوغ ذلك الإهمال ، فإن المسألة ليست مسألة أسماء وعناوين يترتب عليها أن اختلاف اللهجات في اللفظ الواحد تخرجه عن أن يكون واحداً أو لا تخرجه ، بل المسألة مسألة رعاية أمر واقع تختلف به القراءات فعلاً .

وأمر آخر : هو أن التيسير على الأمة لا يتحقق على الوجه الأكمل إلا بحسبان هذا الوجه الذي نوه به الرازي - سنذكره قريباً - وهو اختلاف اللهجات . بل هذا قد يكون أولى بالحسبان وأحرى بالرعاية في باب التخفيف والتيسير ، لأنه قد يسهل على المرء أن ينطق بكلمة من غير لفته في جوهرها ، ولا يسهل عليه أن ينطق بكلمة من لفته نفسها بلهجة غير

(١) البقرة : ١٢٢ . وهي زيادة في الخط . قرأ نافع وابن عامر بهزة من باب الإعمال ، والباقون بنشديد الصاد بلا همزة من باب التثميل . (الكشف : ج ١ ص ٢٦٥) .

(٢) الليل : ٣ ، بإسقاط فوله تعالى : «وما خلق» . قراءة نسوية إلى ابن مسعود : «والله إنا نتجلى» و«الذكر والأنثى» . (القرطبي : ج ٢٠ ص ٨١) .

(٣) النشر : ج ١ ص ٢٦ - ٢٧ . وسنشرح من كلام الرازي ما هو أوجه .

لهجته، وطريقة الأداء غير طريقتيه ذلك. ذلك لأنَّ الترقيق والتفخيم والهمز والتسهيل والإظهار والإدغام والفتح والإمالة ونحوها أمور دقيقة، وكيفيات مكتنفة بشيء من الغموض والعسر في النطق على من لم يتعوّدها ولم ينشأ عليها.

واختلاف القبائل العربيّة يدور على اللهجات في كثير من الحالات، وكذلك اختلاف الشعوب الإسلاميّة، وأقاليم الشعب الواحد منها يدور في كثير من الحالات على اختلاف اللهجات^(١).



وللإمام أبي الفضل الرازي محاولة أخرى في حصر أوجه القراءات في سبعة، قال: إنَّ الكلام لا يخرج اختلافه عن سبعة أوجه:

الأوّل: اختلاف الأسماء من الإفراد والتثنية والجمع^(٢) والتذكير والتأنيث^(٣) والمبالغة^(٤) وغيرها.

الثاني: اختلاف تصريف الأفعال، وما يسند إليه من نحو الماضي والمضارع والأمر والإسناد إلى المذكر والمؤنث والمتكلم والمخاطب والفاعل والمفعول به^(٥).

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص ١٦٦.

(٢) في قوله تعالى: «يرسالني ويكلامي» الأعراف: ١٤٤. قرأ الحريريان بالتوحيد، والباقون بالجمع. (الكشف: ج ١ ص ٤٧٦). وقوله: «إنَّ صلاتك سكنٌ لهم» التوبة: ١٠٣. قرأ حمزة وحفص والكسائي بالتوحيد، وقرأ الباقون بالجمع. (الكشف: ج ١ ص ٥٠٥).

وفي قوله تعالى: «لأجدنَّ خيراً منها منقلباً» الكهف: ٣٦. قرأ الحريريان وابن عامر على التثنية «منها». وقرأ الباقون: «منها» مفرداً. (الكشف: ج ٢ ص ٦٠).

(٣) في قوله تعالى: «فنادته الملائكة» آل عمران: ٢٩. قرأ حمزة والكسائي وخلف «فناداه الملائكة» بالتذكير، وقرأ الباقون: «فنادته» بالتأنيث. (النشر: ج ٢ ص ٢٣٩).

(٤) في قوله تعالى: «بكلِّ ساحرٍ عليم» الأعراف: ١١٢. قرأ حمزة والكسائي: «سحار» بصيغة المبالغة. وقرأ الباقون: «ساحر». (الكشف: ج ١ ص ٤٧٦).

(٥) في قوله تعالى: «ربنا باعد بين أسفارنا» سبأ: ١٩. قرأ يعقوب: «باعد» فعلاً ماضياً، وقرأ الباقون فعل أمر. (الإحسان):

الثالث : وجوه الإعراب^(١).

الرابع : الزيادة والنقص^(٢).

الخامس : التقديم والتأخير^(٣).

السادس : القلب والإبدال في كلمة بأخرى^(٤) وفي حرف بآخر^(٥).

السابع : اختلاف اللغات من فتح وإمالة ، وترقيق وتفتيح ، وتحقيق وتسهيل ، وإدغام

→ ص ٣٥٩.

وقوله : «وأخذوا من مقام إبراهيم مصلى» البقرة : ١٢٥. قرأ نافع وابن عامر ماضياً ، وقرأ الباقون بصيغة الأمر . (الكشف : ج ١ ص ٢٦٣).

وفي قوله تعالى : «وهل تجازي إلاّ الكفور» سبأ : ١٧. قرأ حفص وحزمة والكسائي بالنون وكسر الزاي مبتدأ للفاعل ، وقرأ الباقون بالياء وفتح الزاي مبتدأ للمفعول . (الكشف : ج ٢ ص ٢٠٦).

(١) في قوله تعالى : «وأرجلكم» المائدة : ٦. قرأ نافع وابن عامر وحفص والكسائي بالنصب والباقيون بالخفض . (الإتحاف : ص ١٩٨).

وقوله : «تجارة حاضرة» البقرة : ٢٨٢. قرأ عاصم بالنصب ، والباقيون بالرفع . (الكشف : ج ١ ص ٣٢١).

(٢) في قوله تعالى : «تجري تحتها الأنهار» التوبة : ١٠٠. قرأ ابن كثير «تجري من تحتها الأنهار» بزيادة «من» وقرأ الباقون بغير «من» . (الكشف : ج ١ ص ٥٠٥).

وقوله : «فإنّ الله هو الغنيّ الحميد» الحديد : ٢٤. قرأ نفع وابن عامر بإسقاط «هو» ، وقرأ الباقون بإثبات «هو» . (الكشف : ج ٢ ص ٣١٢).

(٣) في قوله تعالى : «وقَاتَلُوا وَقُتِلُوا» آل عمران : ١٩٥. قرأ حمزة والكسائي «وقَاتَلُوا وَقَاتَلُوا» ، والباقيون بتقديم الفاعل على المفعول (الكشف : ج ١ ص ٣٧٣).

وقوله : «فيقتلون ويُقتلون» التوبة : ١١١. قرأ حمزة والكسائي وخلف بتقديم المفعول على الفاعل ، والباقيون بتقديم الفاعل على المفعول . (القرطبي : ج ٨ ص ٢٦٨).

(٤) في قوله تعالى : «فاسعوا إلى ذكر الله» الجمعة : ٩. قرأ ابن الخطّاب وكذلك ابن شهاب : «فامضوا إلى ذكر الله» . (القرطبي : ج ١٨ ص ١٠٢).

(٥) في قوله تعالى : «كيف ننشزها» البقرة : ٢٥٩. قرأ ابن عامر والكوفيون بالزاي ، والباقيون بالراء . (الكشف : ج ١ ص ٣١٠). وقوله «الصراط» الواقعة : ٦. قرأ ابن كثير - برواية قبل - بالسين . وقرأ حمزة - برواية خلف - بين الصاد والزاي ، وقرأ الباقون بالصاد محضاً . (الكشف : ج ١ ص ٣٤).

وإظهار، ونحو ذلك^(١).

انظر إلى هذا الإمام، جعل من اختلاف اللغات - اللهجات - وجهاً من وجوه السبعة، وقد تركها ابن قتيبة، زاعماً أنه وافقه في المحاولة^(٢).

والصحيح - كما قدّمنا -: أن اختلاف اللهجات هي العمدة في ملحوظ حديث السبعة الأحرف - لو صحَّ السند - وعليه فيصبح معنى الحديث أنه ﷺ رخص للأمة عند قراءة القرآن أن يقرأوه على ما تطاوعه ألسنتهم ولهجاتهم في التعبير والأداء.

تدوين القراءات المشهورة

كان المسلمون في العهد الأوّل يقرأون القرآن كما يتلقّونه من صحابة الرسول ﷺ ومن بعدهم من التابعين، ممّن حلّ في بلدهم من الأئمة الكبار. فممن كان بالمدينة: سعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وسالم بن عبد الله العدوي، ومعاذ بن الحارث، وعبد الرحمان بن هرمز، ومحمّد بن مسلم بن شهاب، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وبمكة: عبيد بن عمير، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة، وعبدالله بن أبي ملكة. وبالكوفة: علقمة، والأسود، ومسروق، وعبيدة، وعمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس، والربيع بن خثيم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمان السلمي، وزرّ بن حبيش، وعبيد بن نضيلة، وأبو زرعة، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والشعبي.

وبالبصرة: عامر بن عبد قيس، وأبو العالية، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وجابر بن زيد.

وبالشّام: ابن أبي شهاب، وخليد بن سعيد - صاحب أبي الدرداء -.



هؤلاء وأضرابهم كانوا علماء الأئمة في البلاد ومراجع المسلمين في شتى أنحاء المعارف الإسلاميّة آنذاك، ولكن من غير ما اختصاص بفرن أو بثقافة خاصّة من أنحاء الثقافات المعروفة ذلك العهد.

ثم تجرد قوم لفنّ القراءة، والأخذ والتلقّي والإقراء، سمة اختصاصيّة، واعتنوا بذلك أتمّ عناية واشتهروا في قراءة القرآن وإقرائه، حتّى صاروا في ذلك أنتمة يُقنّدي بهم ويُرحل إليهم ويؤخذ عنهم.

وهكذا أجمع المسلمون من أهل البلاد، وكان أهل كلّ بلد يأخذون من القارئ الذي حلّ بينهم، ويتلقّون قراءتهم بالقبول، ولم يختلف عليهم اثنان، ولتصدّيهم للقراءة نسبت إليهم. وممنّ اشتهر منهم بالمدينة: أبو جعفر يزيد بن القعقاع، ثمّ شيبة بن نصاح، ثمّ نافع بن أبي نعيم.

وبمكة: عبد الله بن كثير، وحמיד بن قيس، ومحمّد بن محيصن. وبالكوّفة: يحيى بن وثّاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثمّ حمزة، ثمّ الكسائي.

وبالبصرة: عبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، ثمّ عاصم الجحدري، ثمّ يعقوب الحضرمي. وبالشّام: عبد الله بن عامر، وعطيّة بن قيس، وعبد الله بن المهاجر، ثمّ يحيى بن الحارث الذمّاري، ثمّ شريح بن يزيد الحضرمي.



والقراء بعد هؤلاء كثروا وتفرّقوا في البلاد وانتشروا، وخلفتهم أمم بعد أمم، واختلف صفاتهم وسيرتهم في الأخذ والتلقّي والقراءة والإقراء، فكان منهم المتقن للتلاوة، مشهوراً بالرواية والدراية، ومنهم المقتصر على وصف من هذه الأوصاف، وكثر بينهم لذلك الاختلاف، وقلّ الضبط، وأتسع الخرق، وكاد الباطل يلتبس بالحقّ - على حدّ تعبير ابن الجزري -^(١). فقام جهاذة علماء الأئمّة وكبار الأئمّة، فبالفوا جهدهم في التمهيص، وتمييز الصحيح عن السقيم، والمشهور عن الشاذّ، بأصول أصلوها، وقواعد رصفوها، وأصبحت القراءة بذلك فتناً من الفنون، له قواعد متقنة وأصول محكمة، وفيه الاجتهاد والاختيار. وقد شرحنا طرفاً من ذلك في فصل سابق.

(١) راجع السير في القراءات العشر: ج ١ ص ٩.



وأول إمام معتبر تصدَّى لضبط ما صحَّ من القراءات . وجمعها في كتاب بشكل مبسَّط وبتفصيل ، هو أبو عبيد القاسم بن سلام الأنصاري (ت ٢٢٤ هـ) تلميذ الكسائي . قال ابن الجزري^(١) : وجعلهم - فيما أحسب - خمسة وعشرين قارئاً ، بما فهم السبعة الذين اشتهروا فيما بعد .

وجاء بعده أحمد بن جبير بن محمَّد أبو جعفر الكوفي نزيل أنطاكية (ت ٢٥٨ هـ) جمع كتاباً في القراءات الخمسة . من كلِّ مصر واحداً .

ثم القاضي إسماعيل بن إسحاق (ت ٢٨٢ هـ) صاحب قالون ألف كتاباً في القراءات ، جمع فيه قراءة عشرين إماماً .

وبعد الإمام أبو جعفر الطبري (ت ٣١٠ هـ) جمع كتاباً حافظاً سواه «الجامع» فيه نيف وعشرون قراءة .

وبعد - بقليل - ألف أبو بكر محمَّد بن أحمد الداجوني (ت ٣٢٤ هـ) كتاباً في القراءات ، وأدخل معهم أبا جعفر . أحد العشرة .

وكان في أثره أبو بكر أحمد بن موسى «ابن مجاهد» (ت ٣٢٤ هـ) أول من اقتصر على القراءات السبعة فقط .

وقام الناس في زمانه وبعده فألقوا على منواله ، كأحمد بن نصر الشاذلي (ت ٣٧٠ هـ) وأحمد بن الحسين بن مهران (ت ٣٨١ هـ) وزاد على السبعة بقية العشرة . ومحمَّد بن جعفر الخزاعي (ت ٤٠٨ هـ) مؤلف «المنتهى» جمع فيه ما لم يجمعه من قبله . وانتدب الناس لتأليف الكتب في القراءات بحسب ما وصل إليهم وصحَّ لديهم .



هذا ، ولم يكن بالأندلس ولا ببلاد المغرب شيء من هذه القراءات ، إلى أواخر المائة الرابعة . فرحل منهم من روى القراءات بمصر ، وكان أبو عمر أحمد بن محمَّد الظلمنكي (ت ٤٢٩ هـ) مؤلف «الروضة» أول من أدخل القراءات إلى الأندلس .

ثم تبعه أبو محمّد مكّي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٢٧ هـ) مؤلف «التبصرة» و«الكشف عن وجوه القراءات السبع» وغير ذلك.

ثم الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) مؤلف «التيسير» و«جامع البيان» وغير ذلك.

وفي دمشق ألف الأستاذ أبو علي الحسن بن علي الأهوازي (ت ٤٤٦ هـ) كتاباً في القراءات والطرق إليها.

وفي هذه الحدود، رحل من المغرب أبو القاسم يوسف بن علي الهذلي (ت ٤٦٥ هـ) إلى المشرق وطاف البلاد. وروى عن أئمة القراءة، حتّى انتهى إلى ما وراء النهر، وقرأ بغزنة وغيرها. ألف كتابه «الكامل» جمع فيه خمسين قراءة عن الأئمة المعروفين. و١٤٥٩ رواية وطريقاً إليهم. قال: وجملة من لقيت في هذا العلم ٣٦٥ شيخاً من آخر المغرب إلى باب فرغانة يميناً وشمالاً وجبلاً وبحراً.

ثم كان أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري بمكة (ت ٤٧٨ هـ). مؤلف كتاب «التلخيص» في القراءات الثمان، و«سوق العروس» وفيه ١٥٥٠ رواية وطريقاً.

قال ابن الجزري: وهذان الرجلان أكثر من علمنا جمعاً في القراءات، لا نعلم أحداً بعدهما جمع أكثر منهما إلا أبا القاسم عيسى بن عبد العزيز الإسكندري (ت ٦٢٩ هـ). فإنه ألف كتاباً سماه «الجامع الأكبر والبحر الأزخر» يحتوي على ٧٠٠٠ رواية وطريقاً.

قال: ولا زال الناس يؤلفون في كثير القراءات وقليلاً، ويروون شاذّها وصحيحها بحسب ما وصل إليهم أو صحّ لديهم، ولا ينكر أحد عليهم، بل هم متبعون في ذلك سبيل السلف. حيث القراءة سنّة متبعة يأخذها الآخر عن الأوّل. ويقراون بما جاء في «الكامل» للهذلي، أو «سوق العروس» للطبري، أو «الإقناع» للأهوازي، أو كفاية أبي العزّ، أو مبهج سبط الخياط، أو روضة المالكي، ونحو ذلك، على ما فيه من ضعيف وشاذ، عن السبعة والعشرة وغيرهم، فلا نعلم أحداً أنكر ذلك، ولا زعم أنّه مخالف لشيء من الأحرف المأثورة^(١).

حصر القراءات في السبع

كان العرض المتقدم نموذجاً كافياً عن اعتناء المسلمين في عاثة أدوارهم بالقراءات المعروفة عن الأئمة الكبار وحفظها وتدوينها والقراءة بها أجمع. غير أن أهل كل بلد كانت عنايتهم بمن حل في بلدهم من الأئمة أكثر من غيرهم. ولم يكن من أحد من العاثة والخاصة نكير على هذه السيرة المستمرة، كما تقدم في كلام ابن الجزري أخيراً.

وهكذا كانت اختيارات القراء واجتهاداتهم في الأخذ والتمحيص موضع عناية كافة المسلمين، يتلقونها ويقرأون بها. نعم، في إطار من محدودية شروط خاصة تقدمت أيضاً. لقد جرت هذه السيرة المستمرة في كلا جانبي القراءة والإقراء، حتى مطلع القرن الرابع، حيث نبغ نابغة بغداد - في اجتلاب قلوب العاثة والنفوذ في عقول الأمراء - أبو بكر «ابن مجاهد». كان قد تصدّر كرسي شيخ القراء رسمياً من قبل الدولة، واجتمعت عليه عاثة الناس في غوغاء وضوضاء، وكان له منافسون أفضل نبلاً وقدماً في القرآن، وكانوا يستصغرونه لصاله عمله وقلته روايته عن الشيوخ وعدم رحلته في طلب العلم وضعف قدرته في فنون القراءة وأنواعها المأثورة عن الأئمة الكبار.

يقول المعافي أبو الفرج: دخلت يوماً على ابن شنبوذ^(١) وهو جالس وبين يديه خزانه الكتب. فقال لي: يا معافي افتح الخزانة، ففتحتها وفيها رفوف عليها كتب، وكل رف في فن من العلم، فما كنت آخذ مجلداً وأفتحه إلا وابن شنبوذ يهذه كما يقرأ الفاتحة^(٢). ثم قال: يا معافي، والله ما أغلقتها حتى دخلت معي إلى الحمام هذا، والسوق للعطشي^(٣).

قال ابن الجزري: وكان قد وقع بين ابن شنبوذ وابن مجاهد تنافس على عادة الأقران، حتى كان ابن شنبوذ لا يقرئ من يقرأ على ابن مجاهد، وكان يقول: هذا العطشي - يعني ابن مجاهد - لم تغبّر قدماء في هذا العلم.

قال العالاف: سألت أبا طاهر: أي الرجلين أفضل، أبو بكر ابن مجاهد، أو أبو الحسن ابن

(١) محمد بن أحمد بن أيوب بن شنبوذ. (راجع غاية النهاية: ج ٢ ص ٥٢).

(٢) يقال: هذ الحديث يهذه - بتشديد الهذال - أي قرأه سريعاً.

(٣) السوق كناية عن رواج الأمر. والمطشي: لقب ابن مجاهد، لأنه ولد بعبارة سوق المطش في بغداد. فنسب إليها.

شنيبوز؟ قال: فقال لي أبو طاهر: أبو بكر ابن مجاهد عقله فوق علمه، وأبو الحسن ابن شنيبوز علمه فوق عقله^(١).



كان ابن مجاهد حريصاً على التزمّت، والأخذ بتقليد السلف فيما قرأوا. قال عبد الواحد بن أبي هاشم: سألت رجل ابن مجاهد: لِمَ لا يختار الشيخ لنفسه حرفاً يحمل عليه؟ فقال: نحن أحوج إلى أن نعمل أنفسنا في حفظ ما مضى عليه أنعتنا، أحوج منا إلى اختيار حرف يقرأ به من بعدنا^(٢).

وهو الذي أشار على الوزير ابن مقلة بإحضار ابن شنيبوز وابن مقسم^(٣) في مجلسين، ومحاكمة كل واحد منهما بملأ من الفقهاء، للضرب على يد الاختيار رأساً.

قال الدكتور صبحي الصالح: وقد انعقد المجلسان بأمر شيخ القراء ابن مجاهد، الذي عرفنا أنه أوّل من جمع القراءات السبع، وكان ابن مجاهد قد أخذ القراءة عن ابن شاذان الزازي. الذي أخذ عنه أيضاً كل من ابن مقسم وابن شنيبوز، ولكن اشترك الثلاثة في التلقّي عن شيخ واحد لم يمنع ابن مجاهد من التشدد مع زميله^(٤).

وكان اعتراض ابن شنيبوز لموقف ابن مجاهد هذا شديداً حسبما ذكرنا بعض كلامه. وهكذا اعترض ابن مقسم على سدّ باب الاختيار في القراءة، قال: لما كان لخلف بن هشام وأبي عبيد وابن سعدان أن يختاروا، وكان ذلك مباحاً لهم غير منكر، كان لمن بعدهم أيضاً مباحاً^(٥).

وهكذا جاهد ابن مجاهد قصارى جهده في سدّ باب الاختيار في القراءة، وقد توفّق لذلك نسبياً، حيث وافقته الظروف القاسية التي كانت تمرّ بزركب الإسلام ذلك القرن المضطرب بالشغب والدسائس وتفشي الفساد في أرجاء البلاد.

(١) غاية النهاية في طبقات القراء: ج ٢ ص ٥٤-٥٦. (٢) معرفة القراء الكبار للذهبي: ج ١ ص ٢٦٧.

(٣) محمّد بن الحسن بن يعقوب بن الحسن بن مقسم. (راجع غاية النهاية: ج ٢ ص ١٢٣).

(٤) سباحة في علوم القرآن: ص ٢٥١-٢٥٣. وراجع معرفة القراء الكبار: ج ١ ص ٢٢١ و ٢٤٧.

(٥) معرفة القراء: ج ١ ص ٢٤٩.

أما قضية حصر القراءات في السبع المشهورة فهو أيضاً من صنع ابن مجاهد، ويعود أكثر لومه عليه.

قال الدكتور صبحي الصالح: ويقع أكبر قسط من اللوم في هذا الإيهام - إيهام انحصار القراءات في السبع - على عاتق الإمام الكبير أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس المشهور بـ«ابن مجاهد» الذي قام على رأس الثلاثمائة للهجرة في بغداد بجمع سبع قراءات لسبعة من أئمة الحرمين والعراقين والشام. واشتهروا بالنفة والأمانة والضبط وملازمة القراءة، وجاء جمعه لها محض مصادفة واتفاق، إذ كان في أئمة القراء من هم أجلّ منهم قدراً، وكان عددهم لا يستهان به^(١).

هذا، وعبارة «القراءات السبع» لم تكن معروفة في الأمصار الإسلامية حين بدأ العلماء يؤلفون في القراءات، كأبي عبيد القاسم بن سلام، وأبي جعفر الطبري، وأبي حاتم السجستاني، وغيرهم. فقد ذكروا في مؤلفاتهم أضعاف تلك القراءات، وإنما بدأت هذه العبارة تشتهر على رأس المائة الرابعة، من لدن «ابن مجاهد» ولم يكن منسج الرواية والرحلة^(٢). وتوهم الكثير من عوام الناس وغوغائهم أنها هي المرادة من الأحرف السبعة التي جاءت في الحديث النبوي.

ومن ثمّ هبّ الأئمة النقاد في توجيه ملامتهم الحادة إلى موقف ابن مجاهد هذا الموهوم، الأمر الذي حطّ من كرامة أئمة آخرين هم أكبر شأنًا وأعظم قدراً من هؤلاء السبعة.

استنكارات لموقف ابن مجاهد

هذا الإمام - المقرئ المفسر - أبو العباس أحمد بن عتار المهدوي يلوم ابن مجاهد في عبارة قاسية جداً، يقول: لقد فعل مسيئ هذه السبعة ما لا ينبغي له، وأشكل الأمر على العامة بإيهامه كلّ من قلّ نظره أنّ هذه القراءات هي المذكورة في الخير، وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة. ووقع له أيضاً في اقتضاره عن كلّ إمام على راوٍ من أنه صار من سمع قراءة راوٍ ثالث غيرهما أبطلها، وقد تكون هي أشهر وأصحّ وأظهر، وربما بالغ من لا

يفهم فخطأً وكفرًا^(١).

وقال أبو بكر ابن العربي: ليست هذه السبعة متعينة للجواز، حتى لا يجوز غيرها كقراءة أبي جعفر وشيبة والأعمش ونحوهم، فإن هؤلاء مثلهم أو فوقهم.

قال جلال الدين السيوطي: وكذا قال غير واحد، منهم أبو محمّد مكّي بن أبي طالب وأبو العلاء الهمداني وآخرون من أئمة القراء^(٢).

وقال أنير الدين أبو حيان الأندلسي: ليس في كتاب ابن مجاهد ومن تبعه من القراءات المشهورة إلا النزول اليسير، فهذا أبو عمرو بن العلاء اشتهر عنه سبعة عشر راوياً - ثم ساق أسماءهم - واقتصر في كتاب ابن مجاهد على اليزيدي. واشتهر عن اليزيدي عشرة أنفس، فكيف يقتصر على السوسي والدوري، وليس لهما مزية على غيرهما! لأنّ الجميع مشتركون في الضبط والإتقان والاشتراك في الأخذ. قال: ولا أعرف لهذا سبباً إلا ما قضى من نقص العلم^(٣).

وقال الإمام الأستاذ إسماعيل بن إبراهيم بن القراب في أوّل كتابه «الشافعي»: ثمّ التمسك بقراءة سبعة من القراء دون غيرهم ليس فيه أثر ولا سنة، وإنّما هو من جمع بعض المتأخّرين - يريد ابن مجاهد - لم يكن قرأ بأكثر من السبع، فصنّف كتاباً وسماه «السبعة» فانتشر ذلك في العامّة، وتوهّموا أنّه لا تجوز الزيادة على ما ذكر في ذلك الكتاب لاشتهار ذكر مصنّفه. وقد صنّف غيره كتباً في القراءات وبعده، وذكر لكلّ إمام من هؤلاء الأئمة روايات كثيرة وأنواعاً من الاختلاف، ولم يقل أحد إنّه لا تجوز القراءة بتلك الروايات من أجل أنّها غير مذكورة في كتاب ذلك المصنّف - يريد ابن مجاهد - ...^(٤).

وقال أبو الحسن علي بن محمّد - شيخ أبي شامة -: لما كان العصر الرابع سنة ثلاثمائة وما قاربها كان أبو بكر ابن مجاهد قد انتهت إليه الرئاسة في القراءة، مقدّماً على أهل عصره، اختار من القراءات ما وافق خطّ المصحف، ومن القراء من اشتهرت قراءته، ورأى أن

(١) الإتيان: ج ١ ص ٨٠، وفي طبعة ١٣٧٨: ج ١ ص ٢٢٢.

(٢) الإتيان: ج ١ ص ٨٠. (٣) المصدر.

(٤) النشر في القراءات المصحفة: ج ١ ص ٤٦.

يكونوا سبعة ناسياً بعدة المصاحف التي بعثها عثمان إلى الآفاق، وبقول النبي ﷺ: نزل القرآن على سبعة أحرف. فاختر هؤلاء السبعة أئمة الأمصار. فكان أبو بكر ابن مجاهد أوّل من اقتصر على هؤلاء السبعة، وصنّف كتابه في قراءتهم، وأتبعه الناس على ذلك، ولم يسبقه أحد إلى تصنيف قراءة هؤلاء السبعة^(١).

وقال أبو محمّد مكيّ بن أبي طالب: وهذه القراءات كلّها جزء من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن. وأما من ظنّ أنّ قراءة كلّ واحد من هؤلاء القراء السبعة هي أحد الأحرف السبعة فذلك منه غلط عظيم، إذ يجب أن يكون ما لم يقرأ به هؤلاء السبعة متروكاً، إذ قد استولوا على الأحرف السبعة، فما خرج عن قراءتهم فليس من السبعة، ويجب أن لا تروى قراءة عن ثامن فما فوق!.

قال: وقد ذكر الناس من الأئمة في كتبهم أكثر من سبعين من هو أعلى رتبة وأجلّ قدراً من هؤلاء السبعة، على أنّه قد ترك جماعة من العلماء في كتبهم في القراءات ذكر بعض هؤلاء السبعة وأطرحهم. فقد ترك أبو حاتم وغيره ذكر حمزة والكسائي وابن عامر، وزاد نحو عشرين رجلاً من الأئمة من هو فوق هؤلاء السبعة. وكذلك زاد الطبري في كتاب القراءات على السبعة نحو خمسة عشر رجلاً، وكذلك فعل أبو عبيد وإسماعيل القاضي.

قال: فكيف يجوز أن يظنّ ظانّ أن قراءات هؤلاء السبعة المتأخّرين هي الأحرف السبعة؟! هذا تخلف عظيم، أكان ذلك بنصّ النبي ﷺ أم كيف ذلك؟!

قال: وكيف يكون ذلك والكسائي إنّما ألحق بالسبعة بالأمس في أيام المأمون، وقد كان السابع يعقوب الحضرمي، فأثبت ابن مجاهد في سنة ثلاثمائة أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب؟.

وأطال الكلام في ذلك بإسهاب^(٢).

وقال الحافظ ابن الجزري: بلغنا عن بعض من لا علم له أنّ القراءات الصحيحة هي التي عن هؤلاء السبعة. بل غلب على كثير من الجهال أنّ الصحيحة هي التي في الشاطبية

(١) جمال القراء: ص ١١١. وراجع المرشد الوجيز: ص ٦٦٠.

(٢) راجع الإيانة: ص ٢ - ١٠. وراجع أيضاً المرشد الوجيز: ص ١٥٦ - ١٥٣.

والتيسير^(١). وحتى أن بعضهم يطلق على ما ليس فيهما أو لم يكن عن هؤلاء السبعة اسم الشاذ. وربما كان كثير مما لم يكن فيهما أو لم يكن عن السبعة أصحّ مما فيهما أو مما عنهم. وإنما أوقع هؤلاء في الشبهة أنهم سمعوا نزول القرآن على سبعة أحرف، وسمعوا قراءات السبعة، فظنوا أنّها هي المشار إليها في الحديث.

قال: ولذلك كره كثير من الأئمة المتقدمين اقتصار ابن مجاهد على سبعة من القراء، وخطأوه في ذلك، وقالوا: ألا اقتصر على دون هذا العدد أو زاده، أو بين مراده ليخلص من لا يعلم من هذه الشبهة^(٢).

قال جلال الدين السيوطي: وقد اشتدّ إنكار أئمة هذا الشأن على من ظنّ انحصار القراءات المشهورة في مثل ما في التيسير والشاطبية. وآخر من صرّح بذلك هو الشيخ تقي الدين السبكي^(٣).

تلك استنكارات الأئمة موجّهة إلى ابن مجاهد، باعتباره أوّل من جمع القراءات في السبع واقتصر عليها. أما هل أثرت تلكم الاستنكارات؟ أمّا العامة فجزروا على سيرتهم الأولى منذ مطلع القرن الرابع، مقتصرين على القراء السبعة في تقليد أعمى محض.

وأما العلماء والمصنّفون الذين جاؤوا بعد، فلم يستطيعوا الحياد عن مجرى العامة، فنسجوا على منوالهم القصير، وجزوا معهم في مهبط المسيل.

فهذا أبو محمّد مكّي بن أبي طالب (ت ٤٣٧ هـ) - أشدّ المشنّعين على الحصر في السبع - صنّف كتابه «الكشف عن وجوه القراءات السبع» فحسب.

وهذا الإمام أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤ هـ) ألف كتابه «التيسير» في القراءات السبع.

والإمام أبو عبد الله محمّد بن شريح الاشبيلي (ت ٤٧٦ هـ) ألف كتابه «الكافي» في السبعة ورواتهم.

(١) هما كتابان. الأوّل منهما لأبي محمّد القاسم بن ضيرة الشاطبي، والثاني لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني.

(٢) نشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٣٦. (٣) الإتيان: ج ١ ص ٨١، وفي طبعة ١٣٨٧ هـ: ج ١ ص ٢٢٥.

والإمام أبو حفص عمر بن القاسم الأنصاري الأندلسي صنّف كتابه «المكرّر فيما تواتر من القراءات السبع وتحرّره».

والإمام أبو محمّد القاسم بن فيرة الشاطبي (ت ٥٩٠ هـ) نظّم قصيدته، «الشاطبية» المسماة بحرر الأمانى ووجه التهاني في القراءات السبعة، وذكر لكلّ قارئ راويين. كما جرت عليه العائمة تقليداً إلزامياً لابن مجاهد.

وهكذا غيرهم من مؤلّفين وغيرها من مؤلّفات، جروا وجرت على نفس المنوال في حصر محصور.



نعم، زاد بعض المتأخّرين ثلاثة تسمياً للعشرة، وذكر لكلّ واحد منهم راويين أيضاً، تقليداً لما فعله ابن مجاهد في السبعة.

من هؤلاء: الإمام شمس الدين أبو الخير ابن الجزري (ت ٨٣٣ هـ) صنّف كتابه الكبير «النشر في القراءات العشر». ثمّ «التحبير» في قراءات الأئمة العشرة. ونظّم قصيدة على نفس النمط، أسماها «طيبة النشر في القراءات العشر».

وجرى مجراه من جاء بعده، حتّى العصر الأخير، كـ«المهذّب في القراءات العشر» تأليف المعاصر محمّد سالم محيسن أستاذ في معهد القراءات بالأزهر.

واختار بعضهم من قارئى الشواذ أربعة، ليضيفهم على العشرة، ليصبح عدد القراء المعتمدين - حسب تقديرهم - أربعة عشر. وجاء كتاب «إتحاف فضلاء البشر في قراءات الأربعة عشر» تأليف أحمد بن محمّد الدميّاطي (ت ١١١٧ هـ) على هذا النمط المبتدع.

أما نحن - معاشر الإماميّة أتباع مذهب أهل البيت (عليهم السلام) - فلا نملك دليلاً يسنّنا في هذا الشطط من الرأي والاختيار غير المستند، سوى ما ثبتت لنا صحّته وفق الشروط التي تأتي، وهي قراءة واحدة، لأنّ القرآن واحد نزل من عند الواحد. والاختلاف إنّما جاء من قبل الرواة - أي القراء - حسب اجتهاداتهم الخاصّة. ولا عبرة بهم ذاتياً سوى الكشف عن القراءة الصحيحة التي هي الأصل، وذلك إذا اتّفقت القراء عليها، أو كانت الأغلبية معها، مع توفّر باقي الشروط.

القراء السبعة ورواتهم

ذكرنا أنّ حصر القراءات في الأئمة السبعة كان محض مصادفة واتفاق، على أثر جمع ابن مجاهد واقتضاره على من وصل إليه من القراءات السبع، ولم يكن متسع الرواية والرحلة - كما علّله الإمام الزركشي^(١) - أو لم يكن له سبب سوى نقص العلم وقلة معرفته بقراءات الأئمة الكبار غيرهم - كما علّله أبو حيان الأندلسي^(٢) - أو لم يكن قرأ بأكثر من السبع - كما عليه الإمام القُرّاب^(٣) ونحو ذلك من تعاليل تنم عن قصور ابن مجاهد في هذا الشأن.

فكان من ثمّ تقصير وإزراء بحق آخرين، معن هو أعلى رتبة وأجلّ قدرًا من هؤلاء السبعة. كما جاء في كلام أبي محمد مكي^(٤) ناقماً على مسبّع السبعة.

وذكر مكي في تعليل ذلك: أنّ ابن جبير صنّف قبل ابن مجاهد كتاباً في القراءات واقتصر على خمسة، اختار من كلّ مصر إماماً واحداً، باعتبار أنّ المصاحف التي أرسلها عثمان كانت خمسة إلى هذه الأمصار الخمسة. ويقال: إنه وجّه بسبعة، هذه الخمسة واليمن والبحرين. لكن لما لم يسمع لهذين المصنفين خبر، وأراد ابن مجاهد مراعاة عدد المصاحف السبعة، استبدل من غير البلدين قارئين، فاخترهما من الكوفة أيضاً، فصادف بذلك موافقة العدد الذي ورد به حديث الأحراف السبعة.

قال: وكان أحد السبعة المعروفين يعقوب الحضرمي، فأثبت ابن مجاهد اسم الكسائي وحذف يعقوب^(٥).

(١) البرهان في علوم القرآن: ج ١ ص ٢٢٧.

(٢) الإيقان لجلال الدين السيوطي: ج ١ ص ٢٢٤ طبعة ١٣٨٧ هـ.

(٣) هو الإمام إسماعيل بن إبراهيم ابن القُرّاب صاحب كتاب «الشافي». (راجع النشر في القراءات العشر لابن الجزري: ج ١ ص ٤٦).

(٤) راجع الإبانة: ص ٥-٨، والعرشد الوجيز: ص ١٥٦، والإيقان: ج ١ ص ٢٢٤.

(٥) راجع الإبانة: ص ٥-٨، والعرشد الوجيز: ص ١٥٦، والإيقان: ج ١ ص ٢٢٤.

قلت: وهو تعليل غريب، وعلى أيته حال فإنَّ القراءات المعروفة عبر العصور بعد حادث ابن مجاهد هي السبع، وغيرها هجرت تدريجياً، وأوشكت أن تذهب أدراج الرياح. وما ذاك إلا أثر سيء من تلك المأساة التي قام بها ابن مجاهد.

ومن ثمَّ فإنَّنا في هذا العصر نجد أنفسنا مضطَّرين تجاه هذه السبع لا غيرها، فالواجب هو التحفُّظ عليها ومدارستها وممارستها لتلا تضيع كما ضاعت أخواتها من قبل.



أما القراء السبعة الذين قرأوا بهذه القراءات الباقية فإليك فهرس أسمائهم وأسماء راويين من روايتهم، حسب ما جاء في كتاب «السبعة» لابن مجاهد، وإلا فالرواة عنهم أكثر من ذلك:

١- عبد الله بن عامر اليحصبي، قارئ الشام (ت ١١٨).

وراوياه هما: هشام بن عمار، وابن ذكوان، ولم يدركاه، لأنَّ هشاماً ولد عام ١٥٣ ومات ٢٤٥، وابن ذكوان ولد عام ١٧٣ ومات ٢٤٢ ومن ثمَّ لم يعرف السبب في اختيار ابن مجاهد هذين للرواية عن ابن عامر؟!

٢- عبد الله بن كثير الداري، قارئ مكَّة (ت ١٢٠).

وراوياه هما: البيهقي، وقنبل، ولم يدركاه أيضاً، لأنَّ الأوَّل ولد سنة ١٧٠ ومات ٢٥٠، والثاني ولد ١٩٥ ومات ٢٩١.

٣- عاصم بن أبي النجود الأسدي، قارئ الكوفة (ت ١٢٨).

وراوياه هما: حفص بن سليمان «ربيبه» (٩٠-١٨٠)، وأبو بكر شعبة بن عتيَّاش (٩٥-١٩٣)، وكان حفص أضبط بقراءة عاصم.

٤- أبو عمرو زبَّان بن العلاء المازني، قارئ البصرة (ت ١٥٤).

وراوياه هما: حفص بن عمر الدوري (ت ٢٤٦)، وصالح بن زياد السوسي (ت ٢٦١)، ولم يدركاه، وإنما رويَا عن البيهقي عنه.

٥- حمزة بن حبيب الزيات قارئ الكوفة أيضاً (ت ١٥٦).

وراوياه هما: خلف بن هشام البزار (١٥٠ - ٢٢٩). وخلاد بن خالد الشيباني (ت ٢٢٠).
رويا عنه بالواسطة.

٦ - نافع بن عبد الرحمان الليثي، قارئ المدينة (ت ١٦٩).

وراوياه هما: «قالون» ربيب نافع، واسمه عيسى بن ميناء (١٢٠ - ٢٢٠) و«ورش»
عثمان بن سعيد (١١٠ - ١٩٧).

٧ - علي بن حمزة الكسائي، قارئ الكوفة أيضاً (ت ١٨٩).

وراوياه هما: الليث بن خالد البغدادي (ت ٢٤٠) و«الدوري» حفص بن عمر الدوري
(ت ٢٤٦ هـ) راوي أبي عمرو المازني أيضاً.

وزاد المتأخرون ثلاثة، تسمياً للعشرة، وهم:

٨ - خلف بن هشام - راوي حمزة الزيات - وقارئ بغداد (ت ٢٢٩).

وراوياه هما: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المروزي، وراق خلف (ت ٢٨٦)، وأبو
الحسن إدريس بن عبد الكريم (ت ٢٩٢).

٩ - يعقوب بن إسحاق الحضرمي، قارئ البصرة (ت ٢٠٥).

وراوياه هما: «رويس» محمد بن المتوكل اللؤلؤي (ت ٢٣٨) وروح بن عبد المؤمن
الهدلي (ت ٢٣٥).

١٠ - أبو جعفر يزيد بن القعقاع المخزومي، قارئ المدينة (ت ١٣٠).

وراوياه هما: «ابن وردان» عيسى الحذاء (ت ١٦٠)، و«ابن جتاز» سليمان بن مسلم
الزهري (ت ١٧٠).

ولحق هؤلاء أربعة، قرأوا بالشواذ، وقد اعتبرت قراءاتهم، وقبلتها العامة، وهم:

١١ - «الحسن البصري» ابن يسار، قارئ البصرة (ت ١١٠).

وراوياه: شجاع بن أبي نصر البلخي (١٢٠ - ١٩٠)، وحفص بن عمر الدوري (ت

٢٤٦). رويًا عنه بالإسناد.

١٢ - «ابن محيصة» محمّد بن عبد الرحمان، قارئ مكّة مع ابن كثير (ت ١٢٣).
ورواياه هما: أحمد بن محمّد الزيّري (١٧٠ - ٢٥٠)، ومحمّد بن أحمد بن أيّوب بن
شيبوذ (ت ٣٢٨). رويًا عنه بالإسناد.

١٣ - يحيى بن المبارك اليزيدي، قارئ البصرة (ت ٢٠٢).
ورواياه هما: سليمان بن الحكم الخياط (ت ٢٣٥)، وأحمد بن فرج الضرير (ت ٣٠٣)
رويًا عن الدوري عنه.

١٤ - «الأعمش» سليمان بن مهران الأسدي، قارئ الكوفة (ت ١٤٨).
ورواياه هما: محمّد بن أحمد الشيبوذّي البغدادي (٣٠٠ - ٣٨٨). والحسن بن سعيد
المطوّعي البصري (ت ٣٧١). رويًا عنه بالواسطة.

هؤلاء أربعة عشر قارئاً وثمانية وعشرون راوياً، ذكرناهم تبعاً لما ذكره القوم،
ولميس الحاجة إلى معرفتهم بالذات، في خصوص القراءات الدارجة الموجودة اليوم.

ملحوظات قصيرة

١ - قال أبو عمرو الداني: ليس في القراء السبعة من العرب سوى اثنين: عبد الله بن عامر
اليحصي قارئ دمشق، وأبي عمرو زيان بن العلاء المازني قارئ البصرة^(١).
قلت: أمّا ابن عامر فكان يزعم أنّه من حمير، غير أنّ ابن حجر ذكر أنّه ممّن يغمز في
نسبه^(٢).

وكذا أبو عمرو زيان بن العلاء قيل: إنّهُ من مازن تميم، لكن حكى القاضي أسد اليزيدي
أنّه من «فارس» - شبراز - من قرية يقال لها «كازرون» وهي معمورة اليوم^(٣).



(٢) تهذيب التهذيب: ج ٥ ص ٢٧٤ رقم ٤٧٠.

(١) التيسير في القراءات السبع: ص ٦.

(٣) غاية النهاية في طبقات القراء: ج ١ ص ٢٨٨.

٢- أربعة من القراء السبعة هم من شيعة آل البيت عليهم السلام بالتصريح ومن المحافظين الثقات :
عاصم بن أبي النجود، وأبو عمرو زيان بن العلاء، وحزمة بن حبيب، وعلي بن حمزة
الكسائي^(١) وواحد من أشياخ معاوية، وهو ابن عامر، كان لا يتورع الكذب والفسوق^(٢)
وإثنان - هما: ابن كثير المكي ونافع المدني - مستورا الحال. لكن نسبتهما إلى «فارس»
بالخصوص^(٣) ربّما تمّ عن موقفهما من مذهب أهل البيت عليهم السلام لأنهم أسبق من عرف الحقّ
ولمسه في هذا الاتجاه.



٣- قال أبو محمّد مكي بن أبي طالب: وأصحّ القراءات سنداً نافع وعاصم وأفصحها أبو
عمرو والكسائي^(٤).

وقال ابن خلكان: كان عاصم المشار إليه في القراءات^(٥).

وقال أحمد بن حنبل: كان أهل الكوفة يختارون قراءة عاصم، وأنا أختارها^(٦).

وقال الخوانساري: وظلّت قراءته هي الدارجة بين المسلمين، وكانت تكتب بالسواد،
وباقي القراءات تكتب بألوان أخر للتمييز^(٧).

قال يحيى بن معين: الرواية الصحيحة التي رويت من قراءة عاصم هي رواية حفص^(٨).

(١) راجع تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص ٣٤٦.

(٢) فقد كذب في سنة ولادته، وفي انتسابه إلى حمير. وفي إسناد قراءته إلى شيوخ لم يلق بهم، أو إلى أناس لم يكونوا
مقرنين كعثمان ومعاوية. قال: قرأت على معاوية! (راجع معرفة القراء الكبار: ج ١ ص ٦٧).

ومن ثم بعث سليمان بن عبد الملك مهاجراً لئلا يحكيه عن إمامة المسجد بدمشق ويقول له: تأخر فلن يتقدم منا دعيت! (راجع
المصدر السابق: ص ٦٨).

(٣) فإنّ ابن كثير ينهي نسبه إلى زبّان بن فيروزان بن هرمز. من أبناء فارس الذين بنتهم كسرى في أسطول بحري لإنفاذ
سنة من الأبحاش، فطردهم عنها وأقاموا هناك مرابطين. وكان نافع أصله من إصهان. (راجع التيسير: ص ٤، وغاية

النهاية: ج ٢ ص ٢٣٠ و ج ١ ص ٤٤٣. (٤) الإفتان: ج ١ ص ٢٢٥ طبعة ١٣٨٧ هـ.

(٥) وفيات الأعيان: ج ٣ ص ٩. (٦) تهذيب التهذيب: ج ٥ ص ٢٩.

(٧) روضات الجنّات: ج ٥ ص ٤ طبعة ١٣٩٥ هـ. (٨) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ١٥٦.

قلت: ومن ثمَّ فالقراءة المعروفة عن عاصم في جميع الأعصار هي التي برواية حفص، وهو موضوع بحثنا في الفصل التالي.

حفص وقراءتنا الحاضرة

كانت ولا تزال القراءة الدارجة بين المسلمين - منذ العهد الأوَّل حتى عصرنا الحاضر - هي القراءة التي تتوافق مع قراءة عاصم برواية حفص، وكان لذلك سببان: الأوَّل: ما أشرنا إليه سابقاً، أنَّ قراءة حفص كانت هي قراءة عامة المسلمين، وأنَّ النسبة مقلوبة، حيث كان حفص وشيخه عاصم حريصين على الالتزام بما وافق قراءة العامة والرواية الصحيحة المتواترة بين المسلمين، وهي القراءة التي أخذها عاصم عن شيخه أبي عبد الرحمان السلمي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يكن علي عليه السلام يقرأ إلا بما وافق نصَّ الوحي الأصيل المتواتر بين المسلمين.

وهذه القراءة أقرأها عاصم لتلميذه حفص، ومن ثمَّ اعتمدها المسلمون في عامة أديارهم، نظراً إلى هذا التوافق والوئام، وكانت نسبتها إلى حفص نسبة رمزية، تعييناً لهذه القراءة. فمعنى اختيار قراءة حفص: اختيار قراءة اختارها حفص، لأنَّها قراءة متواترة بين المسلمين منذ الأوَّل.

الثاني: أنَّ عاصماً بين القراء المعروفين كان فريداً بسمات وخصائص، جعلته علماً يشار إليه بالبنان، فقد كان ضابطاً متقناً للغاية، شديد الحذر والاحتياط فيمن يأخذ عنه القرآن متنبهتاً، ومن ثمَّ لم يأخذ القراءة أخذاً إلا من أبي عبد الرحمان السلمي، عن علي عليه السلام. وكان يعرضها على زرِّين حبيش عن ابن مسعود.

قال ابن عيَّاش: قال لي عاصم: ما أقرأني أحد حرفاً إلا أبو عبد الرحمان، وكان أبو عبد الرحمان قد قرأ علي عليه السلام، فكنت أرجع من عنده فأعرض علي زرِّ، وكان زرِّ قد قرأ

على عبد الله. فقلت لعاصم: لقد استوتقت^(١). الأمر الذي جعله مشاراً إليه في القراءات، على حدّ تعبير ابن خُلِّكان^(٢).

وهكذا في جميع أدوار التاريخ كانت قراءة عاصم هي القراءة المفضَّلة التي راجت بين عمّامة المسلمين، واتَّجهوا إليها في صورة جماعية.

هذا القاسم بن أحمد الخياط الحاذق الثقة (ت ح ٢٩٢ هـ) كان إماماً في قراءة عاصم، ومن ثمّ كان إجماع الناس على تفضيله في قراءته^(٣).

وكان في حلقة ابن مجاهد - مقرأ بغداد على رأس المائة الرابعة - خمسة عشر رجلاً خصّيصاً بقراءة عاصم، فكان الشيخ يقرّهم بهذه القراءة فقط، دون غيرها من قراءات^(٤).

وكان نفظويه إبراهيم بن محمّد (ت ٣٢٣ هـ) إذا جلس للإقراء - وكان قد جلس أكثر من خمسين عاماً - يتدبّر بشيء من القرآن المجيد على قراءة عاصم فحسب، ثمّ يقرّ غيرها^(٥).

وهكذا اختار الإمام أحمد بن حنبل قراءة عاصم على قراءة غيره، لأنّ أهل الكوفة - وهم أهل علم وفضيلة - اختاروا قراءته^(٦). وفي لفظ الذهبي: قال أحمد بن حنبل: كان عاصم ثقة، أنا أختار قراءته^(٧).

وقد حاول الأئمة اتّصال أسانيدهم إلى عاصم برواية حفص بالخصوص، قال الإمام شمس الدين الذهبي: وأعلى ما يقع لنا القرآن العظيم فهو من جهة عاصم، ثمّ ذكر إسناده متّصلاً إلى حفص عن عاصم عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب وعن زرّ عن عبد الله، كلاهما عن النبي ﷺ عن جبرائيل عليه السلام عن الله عزّ وجلّ^(٨).



- | | |
|---|--|
| (١) معرفة القراء الكبار للذهبي: ج ١ ص ٧٥. | (٢) وقفات الأعيان: ج ٣ ص ٩ و ٣١٥. |
| (٣) الطبقات لابن الجوزي: ج ٢ ص ١٧. | (٤) معرفة القراء الكبار للذهبي: ج ١ ص ٢١٧. |
| (٥) لسان الميزان لابن حجر: ج ١ ص ١٠٩. | (٦) تهذيب التهذيب لابن حجر: ج ٥ ص ٣٩. |
| (٧) ميزان الاعتدال للذهبي: ج ٢ ص ٣٥٨. | (٨) معرفة القراء الكبار: ج ١ ص ٧٧. |

هذا من جانب، ومن جانب آخر كان حفص هو الذي أشاع قراءة عاصم في البلاد، وكان معروفاً بالضبط والإتقان، ومن ثمّ أقبل جمهور المسلمين إلى أخذ قراءة عاصم منه بالخصوص.

هذا فضلاً عن أنّ حفصاً كان أعلم أصحاب عاصم بقرآته، ومفضلاً على زميله أبي بكر بن عيَّاش في الحفظ وضبط حروف عاصم.

قال أبو عمرو الداني: حفص هو الذي أخذ قراءة عاصم على الناس تلاوة، ونزل بغداد فأقرأ بها، وجاور بمكّة فأقرأ بها^(١).

قال ابن المنادي: كان الأولون يعدّون حفصاً في الحفظ فوق ابن عيَّاش، ويصفونه بضبط الحروف التي قرأها على عاصم^(٢).

قال الشاطبي: وبالإتقان كان مفضلاً^(٣).

أمّا أهل النقد والتمحيص فيرون من رواية حفص عن عاصم هي الرواية الصحيحة. قال ابن معين: الرواية الصحيحة التي رويت من قراءة عاصم هي رواية حفص بن سليمان^(٤). ومن ثمّ فإنّ القراءة التي راجت بين المسلمين قاطبة، هي قراءة عاصم من طريق حفص فقط.



هذا فضلاً عن أنّ إسناده حفص إلى شيوخه إلى علي أمير المؤمنين عليه السلام إسناده ذهبي عال لا نظير له في القراءات.

أولاً: إنّ عاصماً لم يقرأ القراءة التامة على أحد سوى شيخه أبي عبد الرحمان السلمي الرجل العظيم نبلاً ووجاهةً، وإنّما كان يعرض قرآته على غيره لغرض الإتقان فحسب.

قال ابن عيَّاش: قال لي عاصم: ما أقراني أحد حرفاً إلا أبو عبد الرحمان السلمي وكان قد قرأ علي عليه السلام، وكنت أرجع من عنده فأعرض علي زراً، وكان قد قرأ علي عبدالله^(٥).

(١) الطبقات لابن الجزري: ج ١ ص ٢٥٤. (٢) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ١٥٦.

(٣) شرح الشاطبية «سراج القاري»: ص ١٤. (٤) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ١٥٦.

(٥) معرفة القراء الكبار للذهبي: ج ١ ص ٧٥.

ثانياً: إنّه لم يخطئ شيخه السلمي في شيء من حروفه، علماً منه أنّ شيخه لم يخطئ علياً عليه السلام في شيء من قراءته.

قال: لم أخالف أباً عبد الرحمان السلمي في شيء من قراءته، فإنّ أباً عبد الرحمان لم يخالف علياً في شيء من قراءته^(١).

ثالثاً: إنّ عاصماً خصّ بهذا الإسناد الذهبي الرفيع ربيبه حفصاً دون غيره، وهي فضيلة كبرى امتاز بها حفص على سائر القراء إطلاقاً، وهي التي أهلته لإقبال عمّة المسلمين على قراءته فحسب. قال حفص: قال لي عاصم: ما كان من القراءة التي أقرأتك بها فهي القراءة التي قرأت بها على أبي عبد الرحمان السلمي عن علي عليه السلام، وما كان من القراءة التي أقرأتها أباً بكر بن عتاش فهي القراءة التي كنت أعرضها على زرّ بن حبيش عن ابن مسعود^(٢).



وهل خالف حفص شيخه عاصماً في شيء من قراءته؟

قال ابن الجزري: وذكر حفص أنّه لم يخالف عاصماً في شيء من قراءته إلا في حرف الروم: «الله الذي خلقكم من ضعف...» قرأه بالضمّ وقرأه عاصم بالفتح^(٣).

قال أبو محمّد مكّي: قرأ أبو بكر وحزمة بفتح الضاد في الثلاثة^(٤). وقد ذكر عن حفص أنّه رواه عن عاصم، واختار هو الضمّ لرواية ابن عمر، قال: قرأت على رسول الله صلى الله عليه وآله «من ضعف» بالفتح. قال: فردّ عليّ النبي صلى الله عليه وآله «من ضعف» بالضمّ في الثلاثة.

قال مكّي: وروي عن حفص أنّه قال: ما خالفت عاصماً في شيء مما قرأت به عليه إلا في ضمّ هذه الثلاث كلمات^(٥).

لكنّ الصحيح أنّ هذه النسبة غير ثابتة، ومن ثمّ لم يبتّ مكّي في إسناد ذلك إلى حفص، وإنّما ذكره عن تريب وسكّ بلفظة المجهول: «ذكر عن حفص» و«روي عن حفص» كأنّه لم تثبت عنده صحّة ذلك قطعياً. وهذا هو الذي نرجّحه نحن، نظراً لأنّ وثوق مثل حفص بابت

(١) المصدر السابق، الطبقات: ج ١ ص ٢٤٨. (٢) طبقات القراء لابن الجزري: ج ١ ص ٢٤٨.

(٣) المصدر السابق: ص ٢٥٤، والآية ٥٤ من سورة الروم. (٤) كلمة «ضعف» مكرّرة في الآية ثلاث مرات.

(٥) الكشف عن وجوه القراءات: ج ٢ ص ١٨٦.

عمر الهائم في مذاهبه لم يكن بمرتبة توجب ترجيحه على الوثوق بشيخه الضابط الأمين، إذ كانت قراءة عاصم ترتفع إلى مثل علي عليه السلام في سلسلة إسناد ذهبي رفيع، وقد أتقنه عاصم إتقاناً، فأودعه ربيبه ووثقته حفصاً، الأمر الذي لا ينبغي الارتياح فيه لمجرد رواية رواها رجل غير موثوق به إطلاقاً.

إذ كيف يخفى مثل هذا الأمر - في قراءة آية قرآنية - على سائر الصحابة الكبار الأئمة، ويديه النبي صلى الله عليه وسلم لابن عمر اختصاصاً به؟! وهل يعقل أن يترك حفص قراءة ضمن شيخه الثقة أنها قراءة علي عليه السلام في جميع حروفها

كاملة أخذها عن شيخه السلمي في إخلاص وأمانة لمجرد رواية لم تثبت صحتها؟! وإذ كنا نعرف مبلغ تدقيق الكوفيين - ولا سيما في عصر التابعين - ومدى ولائهم لآل البيت عليهم السلام وأتاهم لأمثال ابن عمر المتفكك الشخصية تقطع بكذب الإسناد المذكور وأن حفصاً لم يخالف شيخه عاصماً في شيء من حروفه إطلاقاً، كما لم يخالف عاصم شيخه السلمي في شيء من قراءته، لأن السلمي لم يخالف علياً أمير المؤمنين عليه السلام. هذا هو الصحيح عندنا.

فالصحيح أن حفصاً لم يقرأ بالضم ولم يخالف شيخه عاصماً إطلاقاً.

صلة الشيعة بالقرآن الوثيقة

لم يبعثنا على عقد هذا الفصل سوى أنا وجدنا في كلمات بعض من تعوزهم الحرية في التفكير ويفضلون تقليد أسلافهم في الحقد على أمّة كبيرة من المسلمين لا ذنب لهم سوى تمسكهم بولاء آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم عملاً بوصيئته ^(١) وإجابة لدعوة القرآن الكريم ^(٢). فقد وجّهوا إلى الشيعة تمهاً كثيرة إفكاً وزوراً هم منها براء، منها: نسبة مصحف خاص

(١) كما في حديث الثقلين وحديث السفينة وغيرها.

(٢) كما في قوله تعالى: «قل لا أسألكم عليه أجر إلا المودة في القربى» الشورى: ٢٣.

إلهم أطلقوا عليه اسم «المصحف الشيعي»^(١)، في حين أن الشيعة أنفسهم لم يسموا به هكذا مصحف في جميع أدوار تاريخهم المجيد.

وقد واجه هذه النسبة بالإنكار الشديد جماعة من الباحثين المتأخرين^(٢) ومن أهمهم جولد تسهر الذي عالج علاقة الشيعة الخاصة بالنص القرآني الرسمي الموجود بأيدينا^(٣). واستيضاحاً لهذا الجانب - مدى صلة الشيعة بالنص الموجود - نعرض ما يلي:

نحن إذ عرضنا تاريخ القرآن المجيد والأدوار التي مرت عليه جيلاً بعد جيل وجدنا أن هذا النص الموجود بهذا الوضع الراهن هو صنيع جهود الشيعة بالذات، وهم الذين سهروا على حفظه وضبطه وإتقانه، وعملوا في تحسينه وتشكيله وتطويره من جميل إلى أجمل في عمل مستمر. فالحقيقة - إن كان هناك مصحف شيعي - تقضي بأن يطلق هذا الاسم على المصحف الموجود، نسبة إلى أئمة الشيعة وقرائهم وحفاظهم وفتانهم عبر التاريخ، وإليك بإيجاز:

كان عليّ أمير المؤمنين عليه السلام أول من أبدى فكرة جمع القرآن بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة. وإن كان جمعه هو رُفض، لكن فكرة الجمع أثرت أثرها في نفس الوقت. ولم يكن الاختلاف بين الجمعيتين في ذات القرآن.

وكانت المصاحف الرئيسية التي جمع فيها القرآن كله على ذلك العهد - قبل توحيدها - هي: ما جمعه عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وأبو الدرداء والمقداد بن الأسود، ممن عرفوا بالولاء الخاص للبيت النبوي الرفيع، ولم يكن سائر المصاحف بذلك الاعتبار. وكانت صحف أبي بكر غير منتظمة بين دفتين.

وأول من جاء بفكرة توحيد المصاحف على عهد عثمان هو حذيفة بن اليمان في قصة

(١) راجع القرآن وعلومه في مصر للدكتور عبد الله خورشيد: ص ٨٦. فإنه عالج ما بين الشيعة وهذه النسبة من صلة، وفندنا على أساس تاريخي.

(٢) راجع تاريخ آداب العرب لمصطفى صادق الرافعي: ج ٢ ص ١٥ - ١٦. ومقدمة حياة محمد لموير: ص ٣٥ - ٣٦. وتاريخ المساجد الأثرية لعسن عبد الوهاب: ص ٩٢. وهامش فضائل القرآن لابن كثير بقلم رشيد رضا: ص ٤٨ رقم ٢ و ٣.

(٣) راجع مذاهب التفسير لجولد تسهر: ص ٢٩٢.

سلفت، وكان أبي بن كعب هو الذي تصدّى إملاء القرآن على لجنة استنساخ المصاحف الموحّدة، وكانوا يراجعونه فيما أشكل عليهم من ثبت الكلمات.

وكان تشكيل المصحف وتنقيطه على يد أبي الأسود الدؤلي وتلميذه نصر بن عاصم ويحيى بن يعمر. وأوّل من تنوَّق في كتابة المصحف وتجويد خطّه هو خالد ابن أبي الهياج صاحب علي عليه السلام، ثمّ كان ضبط الحركات على الشكل الحاضر على يد الأستاذ الكبير خليل بن أحمد الفراهيدي، وكان هو أوّل من وضع الهمز والتشديد والرّوم والإشمام.

أمّا القراءات فإنّ الشيعة هم الذين درسوا أصولها وأحكموا قواعدها وأبدعوا في فنونها وأطوارها في أمانة وإخلاص.

كان أربعة - إن لم نقل ستة - من القراء السبعة شيعة، فضلاً عن غيرهم من أئمة قراء كبار، كابن مسعود، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، والمقداد، وابن عباس، وأبي الأسود، وعلقمة، وابن السائب، والسلمي، وزرّ بن حبيش، وسعيد بن جبير، ونصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، وعاصم بن أبي النجود، وحرمان بن أعين، وأبان بن تغلب، والأعمش، وأبي عمرو بن العلاء، وحمزة، والكسائي، وابن عيّاش، وحفص بن سليمان، ونظرائهم من أئمة كبار، هم رؤوس في القراءة والإقراء في الأمصار والأعصار.

أمّا القراءة الحاضرة - قراءة حفص - فهي قراءة شيعيّة خالصة، رواها حفص وهو من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام^(١) عن شيخه عاصم وهو من أعيان شيعة الكوفة الأعلام^(٢) عن شيخه السلمي^(٣) وكان من خواصّ علي عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله ﷺ عن الله عزّ وجلّ.

(١) ذكره الشيخ أبو جعفر الطوسي في أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، وقال: أسند عنه (راجع لرجال: ص ١٧٦).

(٢) ذكره مؤلّف نقض الفضائح شيخ ابن شهر آشوب وأبي الفتح الرازي. (راجع للتأسيس للمصدر: ص ٣٤٦، والمجالس للقاضي: ج ١ ص ٥٤٨).

(٣) ذكره ابن قتيبة في أصحاب علي عليه السلام، ومثّن حمل عنه الثقة. (راجع للمعارف: ص ٢٣٠). وعده البرقي في رجاله من خواص الإمام عليه السلام من مضر. (راجع للتأسيس: ص ٣٤٢).

القراءات بين الصحّة والشذوذ

ضابط قبول القراءة

ذكر أئمة الفنّ لقبول القراءة شروطاً ثلاثة:

١- صحّة السند.

٢- موافقة الرسم.

٣- استقامة وجهها في العربية.

وإذا فقد أحد هذه الشروط تصبّح القراءة شاذّة، لا تصحّ القراءة بها، لا في صلاة ولا في غيرها، وتسقط عن اعتبارها قرآناً رأساً. سواء كانت من السبعة أم من غيرهم. قال مكّي بن أبي طالب: إذا اجتمع في القراءة ثلاثة أشياء: قوّة وجه العربية، وموافقة المصحف، واجتماع العائمة عليه - والعائمة هم: أهل المدينة وأهل الكوفة - فذلك عندهم حجّة قوية توجب الاختيار.

وربّما أريد من العائمة أهل الحرمين: مكّة والمدينة، وربّما جعلوا الاعتباري بما اتّفق عليه نافع وعاصم. فقراءتهما أولى القراءات وأصحّها سنداً وأفصحها في العربيّة. ويتلوها في الفصاحة خاصّة قراءة أبي عمرو والكساني^(١).

وقال أبو شامة: كلّ قراءة ساعدها خطّ المصحف مع صحّة النقل فيها ومجبتها على الفصيح من لغة العرب فهي قراءة صحيحة معتبرة. فإن اختلفت هذه الأركان الثلاثة أطلق على تلك القراءة أنّها شاذّة وضعيفة. أشار إلى ذلك كلام الأئمة المتقدّمين، ونصّ عليه

الشيخ المقرئ أبو محمّد مكي بن أبي طالب القيرواني في كتاب مفرد - هو كتاب «الإبانة» - وقد ذكره شيخنا أبو الحسن في كتابه «جمال القراء»^(١) قال: ولا يلتزم فيه تواتر، بل تكفي الأحاد الصحيحة مع الاستفاضة^(٢). وتقدّم قوله: وهناك - أي دون إثبات تواتر كل فرد فرد من القراءات إلى النبي ﷺ - تسكب العبرات، فإنها من ثمّ لم تنقل إلا أحاداً، إلا اليسير منها^(٣).

وقال الحافظ الضابط، إمام القراء المتأخّرين، أبو الخير محمّد بن محمّد بن الجزري: كلُّ قراءة وافقت العربية - ولو بوجه - ووافقت أحد المصاحف العثمانية - ولو احتمالاً - وصحّ سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردّها ولا يحلّ إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين. ومتى اختلّ ركن من هذه الأركان الثلاثة، أطلق عليها ضعيفة أو شاذّة أو باطلة، سواء أكانت عن السبعة أم عنن هو أكبر منهم. قال: هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف. صرح بذلك الإمام الحافظ أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ونصّ عليه في غير موضع الإمام أبو محمّد مكي بن أبي طالب، وكذلك الإمام أبو العباس أحمد بن عتار المهدي، وحقّقه الحافظ أبو القاسم عبد الرحمان بن إسماعيل، المعروف بأبي شامة. وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافة^(٤).

هذه شروط ثلاثة عبّروا عنها بالأركان، إذا توفّرت في قراءة فهي صحيحة ومقبولة، وإذا اختلّ أحدها فهي شاذّة مردودة.

ورأيت التصريح بها في كلام أئمة القرن منن يرجع إليهم في هذا الشأن، ومع ذلك فإن بعض المؤلفين غير الاختصاصيين أخذ اعتبار التواتر بدل شرط صحّة السند. هكذا جاء في كلام الشيخ أبي قاسم النويري. قال: عدم اشتراط التواتر قول حادث،

(٢) المصدر: ص ١٧٦.

(١) المرند الوجز: ص ١٧٦ - ١٧٧.

(٤) النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٩.

(٣) المصدر: ص ١٧٨.

مخالف لإجماع الفقهاء والمحدثين.

وقد ردَّ عليه الإمام شهاب الدين القسطلاني، بأنَّ التواتر إذا ثبت لا يحتاج إلى الركنين الآخرين، من الرسم والعربية، لأنَّ ما ثبت متواتراً قطع بكونه قرآناً، سواء وافق الرسم أم خالفه^(١).

قلت: ولعلَّ مشترط التواتر قد خلط عليه مسألة «تواتر القرآن» بمسألة «تواتر القراءات» وقد تقدَّم: أنَّهما حقيقتان متغايرتان^(٢).

وهكذا جعل الأستاذ محمَّد سالم محسن - وهو مدرِّس بمعهد القراءات بالأزهر - شرط التواتر بدل صحة السند^(٣) مخالفاً في ذلك تصريحات الأئمة المحققين. ويعذر أمثال هؤلاء بعدم الاضطلاع بأصول الفنِّ، ولم يدركوا أنَّ اشتراط التواتر في كلِّ فرد من أحرف الخلاف يذهب بكثير من القراءات الثابتة عن السبعة وغيرهم. صرَّح بذلك الإمام القسطلاني^(٤).

تحقيق الأركان الثلاثة

قال ابن الجزري: وقولنا - في الضابط - «ولو بوجه» نريد وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضرُّ مثله إذا كانت القراءة ممَّا شاع وذاع، وتلقَّاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم والركن الأقوم. وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية.

فكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يُعتبر إنكارهم، بل أجمع الأئمة المقتدئ بهم من السلف على قبولها؟ كإسكان «بارئكم»^(٥) و«يامرکم»^(٦). ونحوه: «سبأ»^(٧)

(١) لطائف الإشارات لمنون القراءات للقسطلاني: ج ١ ص ٦٩.

(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ج ١ ص ٣١٨. (٣) المهذب في القراءات العشر: ج ١ ص ٢٧.

(٤) اللطائف: ج ١ ص ٧٠. (٥) البقرة: ٥٤.

(٦) جاءت في سبع موارد من القرآن، وقد فصلها في الجزء الثاني من النشر: ص ١٢ - ١٣. وتقدَّم في فصل «قراءات شاذة من

الصحف» (٧) النمل: ٢٢. سبأ: ١٥.

و«يا بني»^(١١) و«مكر السيء»^(١٢) و«ننجي المؤمنين» في الأنبياء^(١٣). والجمع بين الساكنين في تاءات البزّي، وإدغام أبي عمرو و«اسطاعوا»^(١٤) لحمزة، وإسكان «فَنَعْمًا»^(١٥) و«يهدي»^(١٦). وإشباع الياء في «يرتعي»^(١٧) و«يتقي ويصبر»^(١٨) و«أفئدة من الناس»^(١٩). وضمّ «للملائكة اسجدوا»^(٢٠)، ونصب «كن فيكون»^(٢١)، وخفض «والأرحام»^(٢٢)، ونصب «ليجزى قوماً»^(٢٣)، والفصل بين المضامين في الأنعام^(٢٤)، وهمز «سأقيها»^(٢٥)، ووصل «وإنّ إلياس»^(٢٦)، وألف «إنّ هذان»^(٢٧) وتخفيف «ولا تتبعان»^(٢٨)، وقراءة «ليكة»^(٢٩) في الشعراء ووص. وغير ذلك^(٣٠).

قلت: انظر إلى هذا التناقض في كلام هذا الرجل المحقق المضطلع بأصول الفن. كيف

(١١) جاءت في ستة موارد من القرآن. (٢) فاطر: ٤٣.

(٣) آية ٨، قرأ ابن عامر بنون واحدة وتشديد الجيم شيئاً للمفعول ونصب المؤمنين. (الكشف: ج ٢ ص ١١٣).

(٤) الكهف: ٩٧.

(٥) البقرة: ٢٧٦، النساء: ٥٨، قرأ أبو جعفر بإسكان العين. ووافقه الزبيدي والحسن. (إتعاظ فضلاء البشر: ص ١٦٥). وبما أنّ الهمزة مشددة عند الكلّ فيجتمع ساكنان على غير حذّه.

(٦) بونس: ٣٥، قرأ أبو جعفر أيضاً - بإسكان الهاء مع تشديد الذال. وبذلك يجتمع ساكنان على غير حذّه. (الإتعاظ: ص

(٧) يوسف: ١٢.

(٢٤٩).

(٨) إبراهيم: ٣٧.

(٨) يوسف: ٩٠.

(٩) قرأ أبو جعفر بضمّ التاء وصلوا. (الإتعاظ: ص ١٣٤). (١١) جاءت في ثمانية موارد من القرآن.

(١٢) النساء: ١.

(١٣) الجنّة: ١٤، وقد قرأ أبو جعفر شيئاً للمفعول ونصب «قوماً». (الإتعاظ: ص ٣٩٠).

(١٤) النمل: ٤٤.

(١٤) الأنعام: ١٣٧.

(١٦) الصافات: ١٢٣، وقد قرأ ابن عامر بوصل همزة «إلياس» في حين أنّ الكلمة أعجمية وهمزتها قطع. (الإتعاظ: ص

(١٧) طه: ٦٣. (راجع التفسير الكبير: ج ٢٢ ص ٧٤).

(٣٧٠).

(١٨) بونس: ٨٩، قرأ ابن ذكوان بتخفيف النون على النفي. (المقراطي: ج ٨ ص ٣٧٦). وهذه محاولة لتوجيه القراءة. وألا فظاير

السياق كون «لا» ناهية. وعليه فإن كانت النون نون رفع فيجب إسقاطها للجزم. وأمّا نون التأكيد الخفيفة فلا تلتحق النمل

المشّي وجماعة النساء. (١٩) الشعراء: ١٧٦، ص: ١٣.

(٢٠) الشعراء: ١٧٦، ص: ١٣.

(٢٠) راجع النشر في القراءات العشر: ج ١ ص ٨٠.

يحايي بحقائق علميَّة هنا ، ويعترف بها في موضع آخر؟! إذ كلُّ ما ذكره هنا إنما هي قراءات شاذَّة ، لا يجوز هو ولا غيره من الأئمَّة قراءتها في الصلاة ، ومع ذلك فقد استشهد بها تديلاً على تقديم ما صحَّ سنده عن القارئ ، على قواعد اللغة المقرَّرة ، وستعرِّض لذلك .



قال ابن الجزري : ونعني بموافقة أحد المصاحف : ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض . كقراءة ابن عامر : « قالوا اتَّخذ الله ولداً »^(١) بغير واو . و« بالزبر وبالكتاب المنير »^(٢) بزيادة الباء في الاسمين ، ونحو ذلك ، فإنَّ ذلك ثابت في المصحف الشامي^(٣) . وكقراءة ابن كثير : « جئات تجري من تحتها الأنهار »^(٤) بزيادة « من » ، فإنَّ ذلك ثابت في المصحف المكي^(٥) .

وكذلك « فإنَّ الله هو الغني الحميد »^(٦) بحذف « هو »^(٧) .

وكذا « سارعوا »^(٨) بحذف الواو^(٩) .

وكذا « منهما منقلباً »^(١٠) بتثنية الضمير^(١١) .

إلى غير ذلك من مواضع كثيرة في القرآن ، اختلفت المصاحف فيها ، فوردت القراءة عن أئمَّة تلك الأمصار على موافقة مصحفهم ، فلو لم يكن ذلك كذلك في شيء من المصاحف العثمانية لكانت القراءة بذلك شاذَّة ، لمخالفتها الرسم المجمع عليه .

قال : وقولنا بعد ذلك « ولو احتمالاً » نعني به ما يوافق الرسم ولو تقديراً ، إذ موافقة الرسم قد تكون تحقيقاً وهو الموافقة الصريحة ، وقد تكون تقديراً وهو الموافقة احتمالاً ، فإنَّه قد خولف صريح الرسم في مواضع إجماعاً ، نحو « السموات » و« الصلحت »^(١٢)

(١) البقرة : ١٦٦ .

(٢) آل عمران : ٨٤ .

(٣) وابن عامر شامي أيضاً .

(٤) التوبة : ١٠٠ .

(٥) وابن كثير مكي أيضاً .

(٦) الحديد : ٢٤ .

(٧) في مصحف المدينة والشام .

(٨) آل عمران : ٨٣٣ .

(٩) في مصحف المدينة والشام .

(١٠) الكهف : ٣٦ .

(١١) في مصحف المدينة والشام .

(١٢) فدرست بلا ألف ، وقرئت بألف .

و«الليل»^(١) و«الصلوة» و«الزكوة»^(٢) و«الربوا»^(٣). ونحو «لنظر كيف تعملون»^(٤) و«جاء»^(٥) في الموضوعين^(٦).

وقد توافق بعض القراءات الرسم تحقيقاً، وبواقفه بعضها تقديراً. نحو «ملك يوم الدين» فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف، فقراءة الحذف تحتمله تحقيقاً. كما كتب «ملك الناس» وقراءة الألف محتملة تقديراً. كما كتب «مالك المملك» فتكون الألف حذفت اختصاراً.

وكذلك «النشأة»^(٧) حيث كتبت بالألف. وافقت قراءة المدّ تحقيقاً. ووافقت قراءة القصر تقديراً، إذ يحتمل أن تكون الألف صورة الهمز على غير القياس، كما كتب «موتلاً»^(٨). وقد توافق اختلافات القراءات الرسم تحقيقاً، نحو: «أنصار الله»^(٩). و«فنادته الملائكة»^(١٠)، و«يغفر لكم»^(١١)، و«يعملون»^(١٢)، و«هيت لك»^(١٣)، ونحو ذلك^(١٤). قال: وقولنا «وصحّ سندها» فإننا نعني به أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله.

(١) قد رسمت بلام واحدة، وتقرأ بلامين. (٢) رسمت بواو. وتقرأ بألف.

(٣) رسمت بواو وألف، ولا تقرأ الواو.

(٤) رسمت بنون واحدة، وتقرأ بنونين «لنظر كيف تعملون» يونس: ١٤.

(٥) رسمت بألف بعد الجيم، والصحيح: «جاء» ما ضيى لبني للفعول.

(٦) الزمر: ٦٩، الفجر: ٢٣.

(٧) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والمدّ والهمز بعد الألف: «النشأة» - كالكتابة -: وقرأ الباقون بغير مدّ ولا ألف: «النشأ» - كالرافة -.

(٨) الكشف: ج ٢ ص ١٧٨. (٩) الكهف: ٥٨. أي كما كتبت الهمزة في صورة باء.

(١٠) آل عمران: ٥٢، الصف: ١٤. (راجع النشر: ج ٢ ص ٢٤٠).

(١١) آل عمران: ٣٩. قرأ حمزة والمكسائي وخلف: «فناديه الملائكة» بألف مسالة بعد اللام، وتكتب بصورة باء. وقرأ الباقون:

«فنادته الملائكة» بناء التأنيث. والخط يحتمل كلنا للقراءتين. (النشر: ج ٢ ص ٢٣٩).

(١٢) آل عمران: ٣٦. يقرأ بالنون وبالياء. (١٣) البقرة: ٩٦. يقرأ بالياء وبالطاء.

(١٤) يوسف: ٢٣. قرأ نافع وابن عامر: «هيت» بكسر الهاء، وفتح التاء وباء ساكنة في الوسط. وقرأ هشام همزة ساكنة في

الوسط، وقرأ الباقون بفتح الهاء، والتاء من غير همز، وابن كثير ضمّ التاء. كل ذلك يحتمله الخطّ المعاري عن النقط

والتشكيل. (الكشف: ج ٢ ص ١٨. (١٤) النشر في المقراءات المشتر: ج ١ ص ١٦ - ١٢.

وهكذا حتّى تنتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن الضابطين له، غير معدودة عندهم من الغلط، أو مما شذّبها بعضهم.

قال: وقد شرط بعض المتأخرين «التواتر» وأنّ ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به قرآن. وهذا ممّا لا يخفى ما فيه، فإنّ التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الأخيرين من الرسم وغيره. إذ ما ثبت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله، وقطع بكونه قرآناً، سواء وافق الرسم أم خالفه، وإذا اشترطنا التواتر في كلّ حرف من حروف الخلاف انتفى كثير من أحرف الخلاف الثابت عن هؤلاء الأئمة السبعة وغيرهم. ولقد كنت قبل أجنح إلى هذا القول، ثمّ ظهر فساده، وموافقة أئمة السلف والخلف^(١).

مناقشة هذه الأركان

تلك شروط ثلاثة (السند والرسم والعربية) ذكرها السلف وتبعهم عليها الخلف تقليدياً، من غير ما تحقيق عن واقع الأمر، وهل تصلح هذه الأركان حلاً لمشكلة «اختلاف القراءات»؟

إنّها مشكلة لا تحلّ بهكذا مسائل شكلية لا واقع لها، إذا ما جاس الباحث خلال الديار. وقد لمس الأئمة القدامى قصور هذه الأركان عن التعريف بصحيح القراءة، ومن ثمّ أخذوا في تحريفها وتحويلها يميناً ويسرة، ولكن من غير جدوى، فاستبدلوا من شرط «التواتر» - الذي كان رانجاً على ألسنة غوغاء الناس - كفاية صحّة الإسناد، ولكن إذا لم يوجد لبعض القراء إسناد فماذا؟

وكذلك شرط «موافقة الرسم»، رسم أيّ مصحف؟ أهو مصحف عثمان «الأمّ»؟ فلم يكن بمعرض العمامة. أم هي المصاحف الأولى المبعوثة إلى الآفاق؟ فلم يعد لها وجود منذ عام ٧٤هـ، حيث جمعها الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان في مرسوم سلطاني عام. وقد حاول

بعض الأئمة (الإمام مالك) العثور على نسخة منها فلم يستطع.

ثمّ إنّ قيد «ولو احتمالاً» يذهب بأثر هذا الاشتراط رأساً.

وأما شرط «العربية» فقيّد «ولو بوجه» أبطل أثره نهائياً، إذ ما من قراءة شاذة إلا ولها وجه في العربية ولو بعيداً.
هذا إجمال مناقشتنا في هذه البنود التي اعتبروها شروطاً أساسية لمعرفة صحيح القراءة عن ضعيفها، وإليك التفصيل:



أما موافقة «الرسم» - وهو عمدة الشروط - فالمصحف الأم مصحف عثمان المختص به، أو مصحف المدينة المودع في مسجدها، فإنه لم يكن بمعرض العموم، فضلاً عن أن المعتمد في تصريح الجماعة هو مطلق المصاحف العثمانية الأولى، لا خصوص المصحف الأم.
قال الإمام شهاب الدين القسطلاني: «وأما قول القائل: «ووافق لفظه خط المصحف، المصحف الإمام» ففيه نظر، من جهة تقييده بالإمام، وهو مصحف عثمان الذي أمسكه لنفسه، لأن المعتمد موافقة أحد المصاحف العثمانية، كما في النشر وغيره^(١).
ودليلاً على ذلك أنهم اکتفوا بموافقة سائر المصاحف كمصحف الشام ومكة وغيرهما. فقد أجازوا قراءة ابن كثير - قارئ مكة - «تجري من تحتها الأتهار» بزيادة «من» لأن مصحف مكة كان مشتملاً عليها^(٢)، وإن كان مصحف المدينة خالياً عن ذلك «تجري تحتها الأتهار»^(٣).

وقرأ ابن عامر - قارئ الشام - «ولدار الآخرة» بلام واحدة، لأن مصحف الشام كان هكذا. وقرأ الباقر بن بلامين «وللدار الآخرة»^(٤).
فلم يكن مقياس «موافقة المصحف» هو المصحف الإمام، بل جميع المصاحف العثمانية - الخمسة أو السبعة - المبعوث إلى الآفاق.

ولكن كيف الحصول على موافقتها؟ ولم يعد لها وجود، قبل أن ينتهي القرن الأوّل، إذ لم يمض على حياتها أقل من نصف قرن إلا وقد أكل عليها الزمان وشرب، ولم يبق لها أثر على

(١) لطائف الإنجازات لفنون القراءات: ج ١ ص ٦٨. (٢) للكشف: ج ١ ص ٥٠٥.

(٤) الأتعام: ٢٢، راجع للكشف: ج ١ ص ٤٢٩.

(٣) التوبة: ١٠٠.

صفة الوجود.

وذلك منذ أن تحوّل الخطّ (خطّ المصحف بالخصوص) من حالته البدائية الأولى إلى مراحل جديدة - أيّام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفيّ على العراق، ابتداءً من سنة ٧٤ هـ فما بعد - فقد أخذت المصاحف في تطوّر وتحسّن في خطّها ونقطةها وتشكيلها وسائر المحسّنات.

وقد بعث الحجاج بمصاحف من الطراز الحديث إلى الآفاق، وأمر بجمع سائر المصاحف، ومنها المصاحف العثمانية الأولى، وحتى أنّ المصحف الإمام - وكان محتفظاً به في وعاء في المسجد النبوي ﷺ - أخفاه آل عثمان ضمناً به.

حكى أبو أحمد العسكري في كتاب «التصحيف»: أنّ الناس غيروا يقرأون في مصحف عثمان بن عفّان نيّفاً وأربعين سنة، إلى أيّام عبد الملك بن مروان، ثمّ كثر التصحيف وانتشر بالعراق، ففزع الحجاج بن يوسف إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشبهة علامات... (١)

قال ابن وهب: سألت مالكا عن مصحف عثمان، فقال: ذهب (٢).

ويروي الشاطبي عن مالك أنّه قال: «إنّ مصحف عثمان تغيب فلم نجد له خبراً بين الأشياخ» (٣). وفي كلامه هذا أنّه حاول العثور عليه فلم يستطع. الأمر الذي يدلّ على انقطاع أثره من صفحة الوجود بالكلية، وإلاّ فلو كان له وجود لما كان يختفي عن مثل مالك.

تلك حالة المصاحف العثمانية الأولى لم يعد لها أثر في الوجود. أمّا سائر المصاحف فلا تصلح مقياساً لموافقتها أو مخالفتها. لأنّ قيمة تلك المصاحف الأولى كانت باعتبار انتماها إلى الصحابة الأوّلين، أمّا غيرها فلم يثبت لها هذا الاعتبار.

ولعلّك تقول: يحتمل أنّ تلك المصاحف المتأخّرة كتبت على نفس كتابة المصاحف الأولى حرفياً. قلت: هذا احتمال، ولا يمكننا أن نعلم احتمالاً نحتمله ما لم نستوثق من تحقّقه واقعاً قطعياً. هذا فضلاً عن التصريح بأنّها كتبت على أسلوب حديث كان يختلف عن

(١) التصحيف: ص ١٣. (راجع ابن خلكان - في ترجمة الحجاج -: ج ٢ ص ٣٢).

(٢) البرهان في علوم القرآن: ج ١ ص ٢٢٢. (٣) وفاة الوفاء: ج ٢ ص ٦٦٩.

أسلوب المصاحف الأولى بكثير. وإلا لم تعد حاجة إلى جمعها، فكانت تنقُط وتشكّل فحسب، أمّا إبعادها عن صفحة الوجود فلا سبب له سوى التفسير الجذري الحاصل فيما بعد. نعم. أصل إملاء الخطّ في صورته البدائية بقي محفوظاً نسبياً، لم يمسه بيد إصلاح، حسب ما قدّمنا. وسجّل جزئياته أرباب المصاحف كابن الأنباري وابن أبي داود وغيرهما، وكانوا هم حلقة الاتصال بيننا وبين المصاحف الأولى بعض الشيء، الأمر الذي لا نستطيع الاستيثاق بكليته تماماً.

وأخيراً فإنّ إضافة قيد «ولو احتمالاً» ذهبت بفائدة هذا الاشتراط، حيث أكثر القراءات الشاذة بل والمرفوضة بالإجماع أيضاً يمكن توفيقها مع ظاهر الرسم، حيث لا نقط ولا تشكيل ولا ألقات ولا غير ذلك من علامات فارقة حسبما تقدّم.

مثلاً قراءة ابن مقسم: «خلصوا نجياً» بالياء^(١) يحتملها الخطّ وكذا قراءة ابن محيصن: «فلا تسمت بي الأعداء» بفتح تاء المضارعة^(٢). وقراءة أبي حنيفة: «إنما يخشى الله بالرفع - من عباده العلماء - بالتّصّب»^(٣). وقراءة الحسن: «لا ريباً فيه» بالنصب والتنوين^(٤). وقراءته: «ظلمات» بسكون اللام حيثما وقع في القرآن^(٥). وقراءته: «يخطف» بكسر الياء والخاء والطاء مع تشديدها^(٦). وقراءته: «وعلم آدم» بالبناء للمجهول^(٧). وقراءة المطوعي: «يسمعون كلم الله» بلا ألف وكسر اللام^(٨). وقراءة ابن السميع: «ننجيك» بالحاء^(٩). وقراءة الحسن: «أو تنسها» بناء الخطاب^(١٠). وقراءة ابن

(١) إعجاز القرآن للرافعي: قانون التفسير ص ١٧٠. والآية هكذا: «خَلِّصُوا نَجِيًّا» يوسف: ٨٠.

(٢) إتحاف فضلاء البشر: ص ٢٣١. تأويل مشكل القرآن: ص ٦٦. والآية ١٥٠ من سورة الأعراف.

(٣) تفسير القرطبي: ج ٦٤ ص ٣٤٤. والآية ٢٨ من سورة فاطر.

(٤) القراءات الشاذة لعبد الفتح: ص ٢٣. وجاءت في عشرة موارد من القرآن هكذا: «لا ريب فيه».

(٥) المصدر السابق: ص ٢٤. والكلمة جاءت في ثلاثة وعشرين مورداً من القرآن.

(٦) المصدر السابق: ص ٢٥. والآية ٢٠ من سورة البقرة. (٧) المصدر السابق: ص ٢٦. والآية ٣٦ من سورة البقرة.

(٨) المصدر السابق. وفي الآية هكذا: «يسمعون كلام الله» البقرة: ٧٥.

(٩) تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٣٧٩. وجاءت في القرآن «تنسها» يونس: ٩٢.

(١٠) القراءات الشاذة: ص ٢٩. وجاءت في القرآن «ننجيك» يونس: ٩٢.

محصن: «فأحيا به الأرض» بضم هاء الضمير^(١١)، وقراءة قتادة: «فأقبلوا أنفسكم» بالياء^(١٢)، وقراءة ابن زيد «فاذا عزمت» بضم التاء^(١٣)، وقراءة الحسن: «فرغ عن قلوبهم» بالراء المهملة والغين المعجمة^(١٤)، كل ذلك يحتمله الخط العاري عن النقط والتشكيل. وغير ذلك مما يطول، راجع كتب الفراءات الشاذة تجد غالبية تلكم القراءات يمكن توفيقها مع ظاهر الرسم الأوّل. فأين «موافقة الرسم» من صلاحية كونها دليلاً على تعيين الفراءة الصحيحة عن الشاذة؟!



أما شرط «السند» لتكون القراءات بأسرها متصلة الإسناد إلى النبي ﷺ فهذا شيء لا نستطيع تعقله، فضلاً عن إمكان إثباته. أولاً: القراء مختلفون في القراءات، وكل قارئ له أسلوب خاص ومنهج يختص به دون من سواه. وله في كل آية فنون من أنواع القراءات، بل في كل كلمة يقرأها على أساليب يتدعها كفن. أفهل يصح أن ننسب كل هذه القراءات المتنوعة من كل قارئ قارئ في جميع آي القرآن إلى النبي ﷺ؟! أفهل نستطيع أن ننسب مثل تاءات البري^(١٥) وإدغام أبي عمرو^(١٦) وإسكان

(١١) المصدر السابق: ص ٣٦. وجاءت في أربع موارد من القرآن.

(١٢) تفسير القرطبي: ج ٤ ص ٢٥٢، وجاءت في القرآن «فأقبلوا أنفسكم» البقرة: ٥٤.

(١٣) المصدر السابق، والآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(١٤) إتباع فضلاء البشر: ص ٣٦٠، والقراءة المأثورة: «فرغ عن قلوبهم» ص ٢٣.

(١٥) هو صاحب قراءة ابن كثير من السبعة، توفي ٢٥٠ هـ كان يتد التاء التي تكون في أوائل الأفعال المستقبلية حالة للوصل.

نحو: «ولا تيسموا الغيب» البقرة: ٢٦٧. وهي لغة غريبة عن متعارف العرب إطلاقاً. (انظر التيسير: ص ٨٣، والنشر: ج

٢ ص ٢٢٢، والكشف: ج ١ ص ٣١٤).

(١٦) هو أحد السبعة، توفي سنة ١٥٤ هـ، كان يدمغ المثلين إذا كان من كلمتين، سواء سكن ما قبله أو تحرك. نحو: «شهر

رمضان» البقرة: ١٨٥. وهو من الجمع بين ساكنين على غير حدّه. (انظر التيسير: ص ٢٠).

حمزة^(١١) ونير الكسائي^(١٢) ومدة ورش^(١٣) وغير ذلك من مبتدعات القراء المستنكرة، إلى رسول الله ﷺ؟

قال ابن قتيبة: ولا يجعل لحن اللاحنين من القراء المتأخرين حجة على الكتاب. وقد كان الناس قديماً - على بدواتهم - يقرأون بلغاتهم وفق لهجاتهم الفطرية.

ثم خلف قوم بعد قوم من أهل الأمصار المتحضرين وأبناء العجم^(١٤) ليس لهم طبع اللغة (لم تكن اللغة من فطرتهم) ولا علم التكلف (لم يتقنوا علم العربية) فهفوا في كثير من الحروف (القراءات) وزلوا وقرأوا بالشاذ وأخلوا.

منهم رجل (حمزة) ستر الله عليه عند العوام بالصلاح. لم أر أكثر تخليطاً وأشد اضطراباً منه، نذ في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز، بإفراطه في المد والهمز والإشباع وإفحاشه في الإضجاع والإدغام. وقد شغف بقراءته العوام، رأوه عند قراءته مسائل الشديقين، دار الوريدين، راسخ الجبنيين، فتوهّموا أنّ ذلك لفضيلة وحذق بها.

وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ ولا خيار السلف ولا التابعين.

قال: وما أقل من سلم من هذه الطبقة من الغلط والوهم. فقد قرأ بعض المتقدمين (يريد الحسن البصري)^(١٥): «ما تلوته عليكم ولا أدراكم به»^(١٦) فهمز. وإنما هو من «دريت بكذا

(١) في قوله تعالى: «فما استطاعوا» الكهف: ٩٧. فرأها: «فما استطاعوا» بإدغام التاء في الطاء مع سكون السين. (انظر التيسر: ص ١٤٦. والنشر: ج ٢ ص ٣٦٦).

(٢) كان ينير بالأحرف. أي يهزه. وقرش لم تكن تهمز في كلامها. فلا نقول في «النبى»: «النبى». (انظر النهاية: ج ٥ ص ٧) وقد تقدّم ذلك.

(٣) هو صاحب قراءة نافع من السبعة. توفي سنة ١٩٧ هـ كان هو وحمزة أطول القراء مدأ (راجع التيسر: ص ٣٠. والإتحاف: ص ٣٧).

(٤) يريد غالبية القراء المعروفين. وهم من أبناء العجم. قال الداني: وليس في القراء السبعة من العرب غير ابن عامر وأبي عمرو، والباقيون هم موال. (التيسر: ص ٦).

(٥) راجع القراءات الشاذة لابن خالويه: ص ٤٦. والبحر المحيط: ج ٥ ص ١٢٣.

(٦) والقراءة المعروفة هكذا: «ما تلوته عليكم ولا أدراكم به» يونس: ١٦.

وكذا».

وقرأ (أي الحسن أيضاً): «وما تنزلت به الشياطين» توهم أنه جمع بالواو والنون^(١).

وقرأ الأعمش^(٢): «وما أنتم بمصرخي»^(٣) بكسر الياء، كأنه ظن أن الباء تخفض الحرف كله وأتبعه على ذلك حمزة^(٤).

وجعل يسرد من أمثال هذه القراءات الغريبة من أئمة السلف. مما لا يمكن استنادها إلى رسول الله ﷺ قطعياً.

وبعد، كيف يصح لنا أن ننسب أمثال هذه الغرائب - باسم القراءات السبع أو الحروف السبعة - إلى رسول الله ﷺ؟! وهل ذلك إلا جفاء وظلم بساحة قدسه الشريف؟!.

نعم، غاية ما هناك أن أرباب كتب القراءات لفقوا لكل قارئ إسناداً متصلًا إلى النبي ﷺ. وهذا لا يعني إسناد جميع قراءاته وأفانها وتنوعاتها إليه ﷺ.

هذا فضلاً عن أنها أسانيد تشريفية مصطنعة، كما لم يعرف لبعض القراء إسناد ظاهر كابن عامر مثلاً، حسبما تقدم.

ثانياً: كيف خفيت رواية تلك القراءة عبر عشرات السنين حتى ظهرت على يد أحد هؤلاء القراء؟ فهذا الكسائي (توفي سنة ١٩٨ هـ) له قراءات خاصة، وبعضها مستنكرة، كيف

خفيت على من تقدمه لمدة قرن ونصف، ثم ظهرت على لسانه هو؟

ثالثاً: ما تلك الاستنكارات على كثير من القراءات السبعة إن كانت قراءاتهم جميعاً مأثورة بالأثر الصحيح عن رسول الله ﷺ؟

(١) راجع القراءات الشاذة: ص ٨-١٠، والكشاف: ج ٣ ص ١٢٩، والبحر المحیط: ج ٧ ص ٤٦، وتفسير القرطبي: ج ١٣ ص

١٤٢، وجاءت الآية في القرآن هكذا: «وما تنزلت به الشياطين» الشعراء: ٢١٠.

(٢) راجع البحر: ج ٥ ص ٤١٩، والإتحاف: ص ٢٧٢، والكشاف: ج ٢ ص ٣٠٠.

(٣) إبراهيم: ٢٢.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ص ٥٨-٦٤.

وما تلك التعاليل والحجج الاجتهادية لتوجيه القراءات؟ إذ لم تعد حاجة إلى تعاليل لو كانت منقولة عن النبي ﷺ بسند صحيح! وقد تقدّم توضيح ذلك جميعاً.



أما اشتراط «موافقة العربية» فقد حطّ من قيمته، أو ألغى أثره بالمرّة، إضافة قيد «ولو بوجه»، ولا سيّما مع تعميم القسطلاني: «سواء كان راجحاً أم مرجوحاً»^(١).

إذ ما من قراءة مهما كانت شاذة فإنّها لها توجيهها في العربية، بعد أن كانت قواعد ذات مطاطية قابلة للانعطاف مع مختلف الوجوه.

نعم، لا بدّ لهم من إضافة هذا القيد، بعد أن كانت القراءات ولا سيّما السبع ذات طابع تحميلي، فيجب قبولها، ومن ثمّ يجب توجيهها حسب الإمكان.

إنّ هذه الأركان وضعت على ضوء التسالم على القراءات السبع أو العشر، ومن ثمّ يجب تحويرها بما يتفق معها، فهي علاج للفضية بعد وقوعها. فاللازم هو التصرف في الشرائط بما يتلاءم ووجوه القراءات، وليست القراءات هي التي تناقش على ضوء هذه الأركان.

ولذلك تجدهم يعالجون حدود هذه الشرائط حسب ما ورد من قراءات هؤلاء السبعة أو العشرة، ولم نرهم يناقشون قراءة مأثورة عن هؤلاء على ضوء الأركان المذكورة.

قال الداني - بعد حكاية إنكار سيويه لإسكان أبي عمرو في مثل «بارئكم» و«يأمركم» -: والإسكان أصحّ في النقل وأكثر في الأداء، وهو الذي اختاره وأخذ به.

قال: وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفضى في اللغة والأقيس في العربيّة، بل على الأثبت في الأثر والأصحّ في النقل، والرواية إذا ثبتت عنهم لم يردها قياس عربية ولا فسوّ لغة، لأنّ القراءة سنّة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها^(٢).

انظر إلى هذا الترسّ والاختيار التقليدي المحض، وإن دلّ فإنّما يدلّ على مبلغ ضغط التحميل المذكور.

وسنبحث عن مناشئ هذا التحميل الذي تحقّق على يد قارئ بغداد الرسمي «ابن

(٢) نغلاً عن كتابه «جامع البيان»، الشرح ج ١ ص ٦٠.

(١) راجع لطائف الإشارات: ج ١ ص ٦٧.

مجاهد» على رأس القرن الرابع، كما أنّ المذاهب الفقهية انحصرت - في نفس الوقت - في أربعة، وأغلق باب الاجتهاد وحرّية اختيار المذهب خارج الأربعة.

يقول ابن الجزري: وقولنا في الضابط «ولو بوجه» نريد وجهاً من وجوه النحو، سواء كان أفصح أو فصيحاً، مجمماً عليه أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضرّ مثله إذا كانت القراءة متأشاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو (أي الإسناد الصحيح إلى الفارسي) الأصل الأعظم والركن الأقوم. وهذا هو المختار عند المحققين في ركن موافقة العربية. فكم من قراءة أنكروها بعض أهل النحو أو كثير منهم ولم يُعتبر إنكارهم، بل أجمع الأئمة المقتدى بهم من السلف على قبولها؟^(١) ... ثمّ يذكر أمثلة من قراءات أنكروها أئمة النحو، لكنّها وقعت مورد القبول، لأنّها مأثورة عن القراء بالإسناد الصحيح.

وهكذا يقول الفسطلاني: والمراد باستقامة وجهه في العربية، سواء كان راجحاً أم مرجوحاً، كقراءة حمزة: «والأرحام» بالجرّ، وقراءة أبي جعفر: «ليجزى قوماً» بالبناء للمفعول ونصب «قوماً»، والفصل بين المضافين في قوله: «وكمذلك زَيْن لكثير من المشركين... الآية»^(٢).

انظر إلى هذا التهاافت في الاختيار، تراهم لا يتجاوزون حدود تقليد مفروض عليهم ويزعمونه تحقيقاً في البحث وحرّية في الاختيار.

إنّ أكثر القراءات التي جاءت في كلام ابن الجزري وغيره هي من الشواذ المخالفة لقواعد اللغة رأساً، ولا يجيز الفقهاء قراءتها في صلاة ولا في غيرها، وقد تقدّم إنكار أحمد بن حنبل كثيراً من قراءات حمزة، وكذلك غيره، ومع ذلك فإنّ بعضهم يقف من هذه القراءات موقف المتحمّس الحادّ من غير مبرّر مفعول.

يقول ابن السبكي: القراءات السبع - التي اقتصر عليها الشاطبي، والثلاثة التي هي قراءة أبي جعفر وقراءة يعقوب وقراءة خلف - متواترة، معلوم من الدين بالضرورة، وأنّه منزل على رسول الله ﷺ، لا يكابر في شيء من ذلك إلّا جاهل. وليس تواتر شيء منها مقصوداً

على من قرأ بالروايات، بل هو متواتر عند كل مسلم يشهد الشهادتين، وحظ كل مسلم وحقه أن يدين الله تعالى ويجزم يقينه بأن ما ذكرنا متواتر معلوم باليقين لا تنطرق الظنون ولا الارتياح إلى شيء منه.

ويتعقبه الفسطلاني: فقد علم أن السبع متواترة اتفاقاً، وكذا الثلاثة، وأن الأربعة بعدها شاذة اتفاقاً^(١).

انظر إلى هذا التحمس الأعمى الذي يبدو عليه أثر التحميل بوضوح، وإلا فما وجه الانحصار في هؤلاء السبعة؟ وفي غيرهم من هو أفضل منهم وأتقن وأولى.



وفيما يلي عرض موجز عن قراءات شاذة يمكن توجيهها وفق وجه من وجوه العربية. الأمر الذي يكفيك دليلاً على سقوط هذا الاشتراط، وعدم صلاحه لتمييز القراءة الصحيحة المقبولة، عن الشاذة المرفوضة:

* قرأ أبو حنيفة وعمر بن عبد العزيز: «إنما يخشى الله من عباده العلماء» برفع اسم الجلالة ونصب العلماء^(٢).

ويمكن توجيه هذه القراءة بتفسير «الخشية» - هنا - بمعنى الإجلال والتعظيم لا الخوف^(٣).

* قرأ الحسن: «هو الله الخالق البارئ المصور» بفتح الواو المشددة والراء وتوجيه

(١) المصدر السابق: ص ٧٦. ويشبه ذلك أيضاً اعتذار ابن مطرف في كتاب «الفرطين»: ج ٢ ص ١٥ - الذي اختصره عن تأويل مشكل القرآن - حيث بطوي الكلام على حمزة فائلاً: وباقي الباب لم أكتب لما فيه من الطعن على حمزة، وكان أروع أهل زمانه.

وعلق السيد أحمد صفر على هذا الاعتذار العاطفي فيقول: هكذا قال ابن مطرف، وهو قول يدل على عصبية مضلّة، وغفلة عن قيمة الحقائق العلمية، وأبي فائدة أعظم من أن يبين ابن قتيبة في باقي الباب أوهام القراء التي وهموا فيها وسجلها عليهم العلماء، الأبيات ويتوا غلطهم فيها؟ وهل طعن ابن قتيبة في حمزة بغير الحق؟ (هامش تأويل مشكل القرآن: ص ٥٩).

(٢) القرطبي: ج ١٤ ص ٣٤٤، والآية ٢٨ من سورة فاطر. (٣) راجع البرهان: ج ١ ص ٣٤١.

بتقدير «المصوّر» مفعولاً به للباري، مراداً به المخلوق^(١).

* وقرأ الأعمش والحسن: «وهو يطعم ولا يطعم» على بناء الفعل الأوّل للمفعول،

والثاني للفاعل. وتأويل الضمير في «وهو» بإرجاعه إلى «وليتاً»^(٢).

* وقرأ جابر بن زيد: «فإذا عزمت فتوكّل على الله» بضم تاء «عزمت» على تأويل:

فإذا أرشدتك إليه وجعلتك قاصداً له^(٣). ونسبت هذه القراءة إلى الإمام جعفر بن محمد

الصادق^(٤) أيضاً، لكنّها لم تثبت عندنا.

* وقرأ الحسن: «شهد الله أنّه لا إله إلا هو» بكسر «إنّ» على إجراء «شهد» مجرى

«قال»^(٥).

* ومن السبعة قرأ حمزة: «واتّقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» بخفض «الأرحام»

عطفاً على الضمير في «به»^(٦) والعطف على الضمير وإن كان قبيح عند البصريين، لكنّه جاء

في أشعار العرب، وقد أجازوه الكوفيتون على ضعف^(٧).

* وقرأ ابن عامر: «فإنّما يقول له كن فيكون»^(٨) بنصب «فيكون». ووافقه الكسائي

على النصب في سورة النحل: ٤٠ ويس: ٨٢. وهو مشكل ضعيف^(٩). لكنّه وجه في

العريّة. ومن ثمّ قرأ به الكسائي.

* وقرأ ابن عامر أيضاً: «وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركائهم»^(١٠)

«زين» مبنياً للمفعول، و«قتل» مرفوعاً، و«أولادهم» منصوباً، و«شركائهم» بالخفض.

(١) القراءات الشاذة لعبد الفتاح: ص ٨٩، والآية ٢٤ من سورة العنكبوت.

(٢) للبرهان: ج ١ ص ٣٤١، والآية ١٤ من سورة الأنعام.

(٣) المصدر السابق، وراجع القرطبي: ج ٤ ص ٢٥٢، ومجمع البيان: ج ٢ ص ٥٢٦، والآية ١٥٩ من سورة آل عمران.

(٤) إنباح فضلاء البشر: ص ١٧٢، والآية ١٨ من سورة آل عمران.

(٥) الكشف: ج ١ ص ٣٧٥، والآية ٦ من سورة النساء. (٦) إملأ أبي البقاء: ج ١ ص ١٦٥.

(٧) لقيط: ١١٧. (٨) الكشف: ج ١ ص ٢٦١.

(٩) الأنعام: ١٣٧.

فقد فصل بين المتضافين ، وقدّم المفعول على الفاعل المضاف إليه . وهذه القراءة فيها ضعف ، للتفريق بين المضاف والمضاف إليه ، وهذا إنما يجوز في الشعر ، وأكثر ما يجوز في الشعر مع الظروف لاتساعهم فيها ، وهو مع المفعول به في الشعر بعيد ، فأجازته في القرآن أبعد^(١) .

✽ وقرأ نافع : «فيم تبشرون» بكسر النون ، وغلطه أبو حاتم^(٢) لأن نون الرفع لا تكسر لئلا تصير تابعة . وقد جاء ذلك في الشعر^(٣) .

✽ وقرأ أبو جعفر - هو من العشرة - : «ليجزى قوماً»^(٤) بالياء المضمومة وفتح الزاي مبنياً للمفعول . مع نصب «قوماً» . وتأويل ذلك : أن يجعل المصدر نائباً عن الفاعل . أي يجزى الجزاء ، وهو ضعيف ، لا سيما مع ذكر المفعول به . قاله القاضي^(٥) .

والقراءات من هذا النمط كثيرة ، والمحاولات في توجيههن أكثر ، ولقد كان الاهتمام بشأن القراءات وتوجيههن وفق القواعد العربية صنعة أقوى من توجيه القراءة المشهورة . قال الإمام بدرالدين الزركشي : وتوجيه القراءة الشاذة أقوى في الصناعة من توجيه المشهورة . ومن أحسن ما وضع فيه كتاب «المحتسب» لأبي الفتح ، إلا أنه لم يستوف . وأوسع منه كتاب أبي البقاء العكبري . وقد يستشع ظاهر الشاذ يادئ الرأي في دفعه التأويل^(٦) . ثم جعل يسرد أمثلة مما قدّمنا .

قلت : فما موقعية اشتراط «موافقة العربية» معياراً لتعيين القراءة الصحيحة عن الشاذة؟! وكلّ قراءة مهما شذت فإن لها تأويلاً مكنياً يتوافق مع وجه من وجوه العربية ولو بعيداً ، كما تقدّم .

وقد وضع كثير من القدامى والمتأخرين رسائل لمعالجة القراءات الشاذة وتوجيهها من لغة العرب ، الأمر الذي يجعل من اشتراط العربية لفظاً محضاً .

(٢) البحر المحيط : ج ٥ ص ٤٥٨ ، والآية ٥٤ من سورة الحجر .

(١) للكشف : ج ١ ص ٤٥٤ .

(٤) اللجانية : ١٤ .

(٣) إبلان أبي البقاء : ج ٢ ص ٧٦ .

(٦) البرهان : ج ١ ص ٣٤١ .

(٥) الإنصاف : ص ٣٩٠ .



ولعلّ معترضاً يقول: هب أن كل واحد من الأركان الثلاثة لا يفي بتعيين القراءة الصحيحة، لكنّها جميعاً صالحة للإبقاء بذلك، حيث لا يمكن اجتماعها إلا في قراءة صحيحة.

قلنا: أمّا اشتراط السند فافراه عتي السلام، إذ لا نملك لأحاد القراءات إسناداً متصلاً إلى النبي ﷺ واحدة واحدة، فكيف بصحّته أو تواتره؟ إذ غاية ما هناك أن لكل قارئ شيخاً، ولشيخه أيضاً شيخ، وهكذا، أمّا أن أحاد قراءاته جميعاً مأخوذة من شيخه ذلك فهذا أمر لا يمكن إثباته، حيث كانت اجتهادات القراء أنفسهم هي من أكبر العوامل لاختياراتهم في القراءات. فهذا الكسائي مثلاً لم يكن يحسب لمشيخته فيما كان يختاره من وجه حساباً، وكذا غيره من القراء، ولا سيّما النحويين منهم، كما سيأتي^(١).

هذا فضلاً عن الشك في أصل تلكم الأسانيد، ولعلّها مصطنعة تشريفياً حسبما تقدّم. وبقي الشرطان الآخرا - موافقة الرسم والعربية -، غير أن قيد: «ولو احتمالاً» و«ولو بوجه» أبطل أثرهما، بعد إمكان التوفيق بين القراءات الشاذة ومرسوم الخطّ والعربية ولو بعيداً. فالصحيح أن هذه الشروط الثلاثة لا نفي علاجاً بالموضوع، وإنّما ذكرها من ذكرها ظاهرياً، وتبعه غير تقليدياً من غير تحقيق.

اختيارنا في ضابط القبول

ونحن إذ كنّا نعتبر القرآن ذا حقيقة ثابتة ومستقلاً بذاته متفائراً عن القراءات جملة فإنّ مسألة «اختيار القراءة الصحيحة» عندنا منحلّة. وهي التي تتوافق مع النصّ المتواتر بين المسلمين، منذ الصدر الأوّل فإلى الآن. ولم يكن اختلاف القراءات سوى الاختلاف في كيفية التعبير عن هذا النصّ حسب اجتهادات القراء، ولا عبرة بهم إطلاقاً، وإنّما الاعتبار بالنصّ الأصل المحفوظ كاملاً على يد الأئمة عبر الأجيال.

(١) وراجع معرفة القراء: ج ١ ص ١٠٠.

وقد تقدّم كلام الإمام بدر الدين الزركشي: القرآن والقراءات حقيقتان متفائرتان ... الخ^(١).

وكلام سيّدنا الأستاذ الإمام الخوئي^(٢): تواتر القرآن لا يستلزم تواتر القراءات، لأنّ الاختلاف في كيفية (أداء) الكلمة لا ينافي الاتفاق على أصلها ... الخ^(٣).

وهكذا تعاهد المسلمون نصّ القرآن أمّة عن أمّة. نقلاً متواتراً في جميع خصوصياته الموجودة. نظماً وترتيباً، ورسماً وقراءة، بكلّ أمانة وإخلاص عبر العصور، معجزة قرآنيّة خالدة: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(٤) أي على يد هذه الأمّة مع الأبدية.

وعليه فالقراءة الصحيحة هي التي تتوافق مع هذا النصّ المتفق عليه لدى عمّة المسلمين. وغيرها شاذة غير جائزة إطلاقاً، ولا سيّما إذا كانت تخالفه جوهرياً، فباطلة بالإجماع.

وتوضيحاً لهذا الإجمال لابدّ من تمهيد مقدّمة، نستوضح فيها مسألة «تواتر النصّ القرآني» ثمّ التعرّج إلى مسألة «اختيار القراءة الصحيحة» نظراً للعلاقة القرينة بين المسألتين في صميم هذا البحث، وإليك بإيجاز:

تواتر القرآن

مما يبعث على اعتزاز جانب هذه الأمّة هو تحفظهم على كتاب الله نصّاً واحداً كما أنزل على النبي محمّد^(ص) طول التاريخ.

المسلمون - على اختلاف نزعاتهم وتباين آرائهم ومذاهبهم - اتفقوا كلمة واحدة منذ الصدر الأوّل عهد الصحابة الأوّلين وهكذا عبر الأجيال أمّة بعد أمّة حتّى العصر الحاضر وسيبقى مع الدهر على نصّ القرآن الأصل في جميع حروفه وكلماته، ونظمه وترتيبه وقراءته، تلقّوه من الرسول الأعظم^(ص)، وتوارثوه يدأ بيد في حيطة كاملة وحذر فائق.

(٢) راجع البيان: ص ١٧٣.

(١) راجع البرهان: ج ١ ص ٣١٨.

(٣) المعبر: ٩.

وما نقرأه اليوم هو الذي كان يقرأه المسلمون في العهد الأوّل. وما نجدّه اليوم من النصّ المثبت بين الدفتين هو الذي أنبته السلف الصالح كما أخذوه من في رسول الله ﷺ بلا تحوير ولا تحريف قطّ.

حدّث محمد بن سيرين (ت ١١٠ هـ) عن عبيدة السلماني (ت ٧٣ هـ) قال: القراءة التي عرضت على النبي ﷺ في العام الذي قبض فيه هي القراءة التي يقرأها الناس اليوم^(١).

وقال خلّاد بن يزيد الباهلي (ت ٢٢٠ هـ): قلت ليحيى بن عبد الله بن أبي مليكة (ت ١٧٣ هـ): إن نافعاً حدّثني عن أبيك عن عائشة أنّها كانت تقرأ: «إذ تلقونه» - بكر اللام وضمة القاف^(٢) - وتقول: إنّها من ولق الكذب! فقال يحيى: ما يضرّك أن لا تكون سمعته عن عائشة، وما يسرّني أنّي قرأتها هكذا، ولي كذا وكذا! قلت: ولم؟ وأنت تزعم أنّها قد قرأت! قال: لأنّه غير قراءة الناس. ونحن لو وجدنا رجلاً يقرأ بما ليس بين اللوحين ما كان بيننا وبينه إلا التوبة أو نضرب عنقه. نجى به نحن عن الأئمّة عن النبي ﷺ عن جبرائيل عن الله عزّ وجل، وتقولون أنتم: حدّثنا فلان الأعرج عن فلان الأعمى! أنّ ابن مسعود يقرأ ما بين اللوحين، ما أدري ماذا! إنّما هو والله ضرب العنق أو التوبة^(٣).

انظر إلى هذا الوصف الجميل عن تواتر النصّ وأصالته، يرويه أئمّة عن أئمّة عن رسول الله ﷺ، لا فلان عن فلان!

ويجعل المعيار لمعرفة القراءة الصحيحة هي: «قراءة الناس». ويجعل غيرها شاذة لا تجوز قراءته بتاتاً أو يضرب عنق قاريها، وليس سوى أنّه خارج عن قراءة الناس!

قال هارون بن موسى الأزدي صاحب القراءات (ت ح ٢٠٠ هـ): ذكرت ذلك لأبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) - أي القراءة المعزّوة إلى عائشة - فقال: قد سمعت هذا قيل أن تولد - خطاباً إلى هارون - ولكنّا لا نأخذ به. وفي رواية أخرى قال أبو عمرو: إنّي أتهم

(١) الإفتان: ج ١ ص ٥٠.

(٢) والقراءة المشهورة: «تلقونه» بفتح اللام والقاف المشدّدة. (النور: ١٥).

(٣) المرشد الوجيز: ص ١٨٠.

الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة^(١).

فقد جعل أبو عمرو من «رواية العامة» مقياساً لمعرفة القراءة الصحيحة الجائزة، وأما غيرها فمردود وغير جائز الأخذ إطلاقاً.

وقال محمّد بن صالح (ت ١٦٨ هـ): سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو بن العلاء: كيف قرأ «لا يعذب عذابه أحد. ولا يوثق وثاقه أحد»^(٢)؟ فقال: «لا يعذب» بالكسر، فقال له الرجل: كيف؟ وقد جاء عن النبي ﷺ «لا يعذب» بالفتح! فقال له أبو عمرو: لو سمعت الرجل الذي قال: سمعت النبي ﷺ، ما أخذت عنه، أو تدري ما ذلك؟ لأنّي أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة^(٣).

هذه الرواية كسابقتها في جعل «ما جاءت به العامة» معياراً لمعرفة القراءة الصحيحة عن الشاذة.

وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ): كل ما كان من القراءات موافقاً لمصحفنا غير خارج من رسم كتابه جاز لنا أن نقرأ به. وليس لنا ذلك فيما خالفه، لأنّ المتقدّمين من الصحابة والتابعين قرأوا بلغاتهم وجرّوا على عاداتهم وخلّوا أنفسهم وسوم طبائعهم، فكان ذلك جائزة لهم ولقوم من القراء بعدهم مأمونين على التنزيل عارفين بالتأويل، فأما نحن معشر المتكلمين فقد جمعنا الله بحسن اختيار السلف لنا على مصحف هو آخر العرض، وليس لنا أن نعدوه، كما كان لهم أن يفسّروه وليس لنا أن نشّره. ولو جاز لنا أن نقرأه بخلاف ما ثبت في مصحفنا لجاز لنا أن نكتبه على الاختلاف والزيادة والنقصان والتقديم والتأخير، وهناك يقع ما كرهه لنا الأئمّة الموقّون^(٤).

هذا كلام إمام محقق، يجعل من «مصحفنا» - معشر المسلمين - مقياساً لمعرفة القراءة الصحيحة، وينبّه على أنّ اختيار السلف «هو آخر العرض» الذي لا يمكن تغييره بتاتاً:

(١) المصدر: ص ١٨٦.

(٢) الفجر: ٣٥ و ٣٦.

(٣) ساهل العرفان: ج ١ ص ٤٥٢ نغلاً عن سجد المقرئين لابن الجزري.

(٤) نأويل مشكل القرآن: ص ٤٢.

«وليس لنا أن نعدوه».

وقال الحجة البلاغي : ومن أجل تواتر القرآن الكريم بين عامة المسلمين جيلاً بعد جيل استمرت مادته وصورته وقراءته المتداولة على نحو واحد، فلم يؤثر شيئاً على مادته وصورته ما يروى عن بعض الناس من الخلاف في قراءته من القراء السبعة المعروفين وغيرهم. فلم تسيطر على صورته قراءة أحدهم أتباعاً له ولو في بعض النسخ، ولم يسيطر عليه أيضاً ما روي من كثرة القراءات المخالفة له مما انتشرت روايته في الكتب كجامع البخاري ومستدرک الحاكم.

وإن القراءات السبع فضلاً عن العشر إنما هي في صورة بعض الكلمات لا زيادة كلمة أو نقصها، ومع ذلك ما هي إلا روايات آحاد عن آحاد لا توجب اطمئناناً ولا وثوقاً، فضلاً عن وهنها بالتعارض ومخالفتها للرسم المتداول المتواتر بين عامة المسلمين في السنين المتطاولة.

إذاً فلا يحسن أن يعدل في القراءة - عمّا هو المتداول في الرسم والمعمول عليه بين عامة المسلمين في أجيالهم - إلى خصوصيات هذه القراءات. مضافاً إلى أنّا - معاشر الشيعة الإمامية - قد أمرنا بأن نقرأ كما يقرأ الناس، أي نوع المسلمين وعامتهم^(١). وكلام شيخنا الإمام البلاغي هو الحكم الفصل في هذا المضمار، وسوف نبني عليه اختيارنا في هذا المجال، قدّس الله نفسه الشريفة.

وبذلك أيضاً على تواتر النصّ الموجود - من غير أن يؤثر عليه شيء من اختلاف القراءات - تلك المخالفات في رسم الخطّ وربما كتبت وفق قراءة العامة وثبتت رغم تقلبات الدهور ومرّ العصور، فلم تغرّها قراءة قارئ أو ريشة قلم كاتب.

من ذلك قوله تعالى: «لم يتسنّه»^(٢) الهاء زائدة للوقف، كتبت وقرئت هكذا منذ العهد الأوّل وثبتت على مرّ الدهور. قال عبد الله بن هانئ البربري - مولى عثمان -: كنت عند

(١) آلاء الرحمان: ج ١ ص ٣٠ الفصل الثالث من مقدّمة التفسير.

(٢) البقرة: ٢٥٩.

عثمان وهم يعرضون المصاحف ، فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها : «لم يتسنَّ» .
 وفيها : «لا تبديل للخلق الله» وفيها : «فأمهل الكافرين» فدعا بدواة فمحا اللامين وكتب
 «لخلق الله» ، ومحا «فأمهل» وكتب «قمهل» . وكتب «لم يتسنَّ» فألحق فيها الهاء^(١) .
 ولولا أنه السماع من رسول الله ﷺ لم يكتبها أبي بالهاء ، كما أن اختلاف القراء فيما بعد
 وتطور الكتابة والخط كليهما لم يؤثرا على تغيير الكلمة عما كتبها الأوائل وقرأها السلف
 ومن ورائهم عامة المسلمين عبر الأجيال .

وكذا قوله : «كتابه» و«حسابيه» و«ماليه» و«سلطانيه»^(٢) بإتيان هاء السكت لفظاً
 وخطاً ، وفتح ياء المتكلم كذلك ، من غير أن تكون للقراء في ذلك يد ، وإنما هي متابعة
 محضة لعامة المسلمين وروثها كذلك من السلف الأوّل ، فلا يمكن تغييرها أبداً . وأمثال
 ذلك كثير في القرآن الكريم .

وأيضاً فإن قضية تشكيل المصحف على يد أبي الأسود وتنقيطه على يد تلميذه نصر
 بن عاصم ويحيى بن يعمر لدليل حاسم على أن القرآن كان ذا حقيقة ثابتة في صدور
 المسلمين ، فجاء تقيدها في المصحف على يد زعماء الأمة ، خشية تحريف من لا عهد له
 بالقرآن .

وها تلك المصاحف المرسومة وفق المصطلح الأوّل باقية ، لا تختلف في إعرابها
 وحركاتها ومرسوم كلماتها عما بأيدينا من المصاحف الحاضرة .

ويزيدك وضوحاً وجود قطع قرآنية جاءت في كلمات السلف لغرض الاستشهاد أو
 التفسير أو نحو ذلك ، لا تختلف عن النصّ الموجود ، الأمر الذي يدلّ على ذلك التعاهد العام
 على نصّ واحد للقرآن ، تعاهد المسلمين في جميع العصور .

كما أن مخالفات جرت على ألسن بعض السلف وقعت موضع إنكار العامة وعرفت منذ
 العهد الأوّل أنها غير نصّ الوحي ، وسجلها التاريخ بعنوان الشذوذ أو الخطأ المحض .

(١) العائفة: ١٩ و ٢٠ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٨ و ٢٩ .

(٢) الإنفاق: ج ١ ص ١٨٣ .

من ذلك قراءة أبي بكر لما احتضر: «وجاءت سكرة الحق بالموت»^(١) قال أبو بكر الأنباري: لما احتضر أبو بكر أرسل إلى عائشة، فلما دخلت عليه قالت: هذا كما قال الشاعر:

لعمرك ما يغني الثراء ولا الفنى إذ حشرجت يوماً وضاق بها الصدرُ
فقال أبو بكر: هلاً قلت كما قال الله: «وجاءت سكرة الحق بالموت ذلك ما كنت منه
تحيد»^(٢).

ومنذ ذلك العهد هبَّ أرباب التاريخ والمفسرون والمحدثون يرمون قراءة هذه بالشذوذ المخالف للرسم^(٣). فلولا أن للقرآن حقيقة ثابتة معهودة عند الجميع لما كان لهذا الفوغاء سبب واضح. وقرأ عمر بن الخطَّاب، «والمسابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار الذين أتبعوهم بإحسان» قرأ برفع «الأنصار» وبإسقاط الواو من «والذين أتبعوهم»^(٤) لزعم زعمه، فهبَّ زيد بن ثابت يجادله في قراءته هذه الخارجة عن متعاهد العامة، فلم يستأزل عمر لكلام زيد حتى حاكمه إلى أبي بن كعب، فجعل أبي يستشهد بآيات أخرى حتى قيل^(٥):
وهكذا قراءة أبي حنيفة «إنما يخشى الله من عباده العلماء»^(٦) برفع اسم الجلالة ونصب العلماء^(٧).

وأنت إذا لاحظت المصاحف الأنريَّة القديمة وقارنتها مع المصاحف الحاضرة المخطوطة والمطبوعة فإنك تجدها جميعاً متحدة في الأسلوب والخط وثبت الكلمات في بنيتها وصورتها وما إلى ذلك، أما اختلاف الحركات فسوف نتعرض له.
كل ذلك دليل واضح على تلك الوحدة المتفق عليها عند المسلمين جميعاً في جميع

(١) والقراءة المأثورة: «وجاءت سكرة الموت بالحق» سورة ق: ١٩.

(٢) تفسير القرطبي: ج ١٧ ص ١٢-١٣، في أشهر الروايتين.

(٣) راجع البرهان: ج ١ ص ٣٣٥، والنشر: ج ١ ص ٢٦-٢٨.

(٤) الفتوى: ١٠٠. (٥) القرطبي: ج ٨ ص ٢٣٨.

(٦) فاطر: ٢٨.

(٧) وتنسب إلى عمر بن عبد العزيز أيضاً. (راجع تفسير القرطبي: ج ١٤ ص ٣٤٤).

الأدوار، الأمر الذي يكشف عن حرص هذه الأمة الشديدة على حراسة كتابها المجيد، تحقيقاً لمعجزة هذا الكتاب السماوي الخالد «إِنَّمَا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(١) أي على يد هذه الأمة على مرّ الدهور وكرّ العصور، فلم يزل ولا يزال باقياً ومحفوظاً عن كلِّ تغيير أو تبديل حتّى يوم النشور.

وإنَّ اختلاف القراء طول التاريخ لم يستطع تغييراً لا في لفظه ولا في خطّه، فيالها من معجزة خالدة. تبعت على اعتزاز هذه الأمة بكتابها المحفوظ على نصّ الوحي الإلهي عبر الأجيال.

وعليه فالمعيار لتعيين القراءة هي موافقتها مع النصّ الأصل المحفوظ لدى عائمة المسلمين، بشروط عرضها في الفصل التالي، وهناك نعالج مسألة تعارض الرواية أو اللغة مع القراءة المأثورة.

وهنا سؤال: إذا كانت القراءة الحاضرة هي ما تعاهده المسلمون أمة عن أمة فما وجه نسبتها إلى حفص؟ وستعرض للإجابة على ذلك، بأنّها نسبة مقلوبة، وأنَّ حفص هو الذي حاول موافقة قراءة العامة، ومن ثمّ قال أرباب التراجع: إنَّ قراءة حفص عن عاصم ترتفع إلى أمير المؤمنين علي^(ع). ولا شكَّ أنَّ قراءة^(٢) هي قراءة عائمة المسلمين المتواترة منذ العهد الأوّل، وسيوافيك تفصيل حلّ هذا الإشكال في فصل قادم.

ملاك صحّة القراءة

وبعد، فإذا قد تبيّن حديث تواتر القرآن وثبات نصّه الأصل مدى الأجيال فإنَّ ملاك صحّة القراءة هي موافقة ذلك النصّ المحفوظ لدى عائمة المسلمين، وتحقق هذه الموافقة في كلِّ قراءة إذا ما توفّرت فيها الشروط التالية:

أولاً: موافقتها مع الثبوت المعروف بين عائمة المسلمين، في مادّة الكلمة وصورتها وموضعها من النظم القائم، حسب تعاهد المسلمين خلفاً عن سلف.

(١) معرفة القراء الكبير: ج ١ ص ١١٧.

(٢) الحجر: ٩.

ثانياً: موافقتها مع الأفتح في اللغة والأفصح في العربية، ويعرف ذلك بالمقارنة مع القواعد الثابتة يقيناً من لغة العرب الفصحى.

ثالثاً: أن لا يعارضها دليل قطعي. سواء أكان برهاناً عقلياً أم سنّة متواترة أم رواية صحيحة الإسناد مقبولة عند الأئمة.

فإذا اجتمعت في قراءة هذه الشروط جميعاً فإنها هي القراءة المختارة. الجائزة في الصلاة وغيرها. أما الفاقدة لجميعها أو لبعضها فإنها تصبح شاذة، ولا أقل من الشك في ثبوتها قرآناً، فلا تجوز قراءتها في صلاة ولا في غيرها بعنوان أنها قرآن. وتوضيحاً لهذه البنود الثلاثة نعرض مايلي:

أما موافقة الثبت المعروف ففي أمور ثلاثة حسبما أشرنا:

١- في مادة الكلمة الأصلية: ففي مثل قوله تعالى: «فَتَّبِعْتُمَا» من التبيين. أو هي «فَتَّبِعْتُمَا» من التثبّت^(١) أيهما النصّ الأصل؟

وكذا قوله: «نَشْرُهَا» بالزاي، أو «نَشْرَهَا» بالراء^(٢).

وقوله: «إِذْ تَلَقُونَهُ» بفتح اللام والقاف المشددة من التلقّي بمعنى الأخذ، أو «تَلِيقُونَهُ» بكسر اللام وضمّ القاف من لوق الكذب^(٣).

وقوله: «وَأَدْمُرْ بِهِدْ أُمَّةً» بضمّ الهمز وتشديد الميم المفتوحة بمعنى المدة. أو «بعد أمة» بفتح الهمز وتخفيف الميم المفتوحة والهاء بمعنى الشّفة^(٤).

وقوله: «فَرَّعَ» بالزاي والعين من التفريع وهو إزالة الفزع بمعنى الخوف، أو «فَرَّعَ» بالراء والغين من التفريع وهو الإخلاء.

(١) الحجرات: ٦. قرأ حمزة والكسائي بالياء، وقرأ الباقون بالباء. (الكشف: ج ١ ص ٣٩٤).

(٢) البقرة: ٢٥٩. قرأ الكوفيون وابن عامر بالزاي، وقرأ الباقون بالراء. (الكشف: ج ١ ص ٣٦٠).

(٣) النور: ١٥. الثانية قراءة محمد بن السميع. والأولى قراءة الباقرين. (القرطبي: ج ١٢ ص ٢٠٤).

(٤) يوسف: ٤٥. الثانية منسوبة إلى ابن عباس، والأولى قراءة الباقرين. (القرطبي: ج ٩ ص ٢٠٦).

وقوله: «يقصّ الحقّ» بالصاد. أو «يقضي الحقّ» بالضاد مع الياء^(١).

وقوله: «وما هو على الغيب بضنين» بالضاد بمعنى «بخيل»، أو بالضاء بمعنى «متهم»^(٢).

وقوله: «تجري تحتها الأنهار» أو «من تحتها الأنهار» بزيادة «من»^(٣).

وتقدّمت أمثلة كثيرة على ذلك.

لا شك أنّ الصحيح في مثل ذلك هي إحدى القراءتين وتكون الأخرى باطلة، لأنّ المصحف أوّل ما شكّل ونقّط كان تشكيبه وتنقيطه على أحد الأمرين، وهو الذي كان معروفاً ومتعاهداً بين عامّة المسلمين، ولم يكن أبو الأسود ولا تلميذاه متردّين في وضع العلامن المذكورة، وثبتت الكلمات والحروف وفق مركزهم العام، كما تلقّوها يدأ بيد من غير ترديد أصلاً.

وإنّما الاختلاف جاء من قبل اجتهاد القراء المتأخّرين، شيئاً خارجاً عن النصّ الأصل المعروف عند عامّة الناس.

ومن ثمّ لما سأل الفضيل بن يسار الإمام الصادق عليه السلام عن حديث «نزل القرآن على سبعة أحرف» قال: كذبوا أعداء الله، ولكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد^(٤).

ثمّ لتعيين هذا الحرف الواحد جعل الإمام عليه السلام المقياس معهود عامّة المسلمين قال: «إقرأ كما يقرأ الناس». وفي رواية أخرى: «إقرأوا كما علمتم»^(٥).

فجعل المقياس «كما يقرأ الناس» أي عامّة المسلمين، ولم يعتبر من قراءة القراء شيئاً، والرواية الأخرى أصرح «كما علمتم» أي تعاهدتموه جيلاً عن جيل وأمة عن أمة، لا قراءة أفرادهم آحاداً.

(١) الأنعام: ٥٧، الأولى قراءة نافع وابن كثير وعاصم، والثانية قراءة الباقين. (الفرطبي: ج ٦ ص ٤٢٩).

(٢) التكويد: ٢٤، الثانية قراءة ابن كثير وأبي عمرو والكسائي، والأولى قراءة الباقين. (الإتحاف: ص ٤٣٤).

(٣) اللطوية: ١٠٠، الثانية قراءة ابن كثير وفق ثبت مصحف سكّة بالإنيات. (الإتحاف: ص ٢٤٤).

(٤) الكافي: ج ٢ ص ٦٣٠. (٥) راجع وسائل الشيعة: ج ٤ ص ٨٢١ - ٨٢٢.

وعلى ضوء هذا المقياس فقراءة «نشزها» بالزاي هي الصحيحة . لأن ثبت المصحف قديماً وحديثاً والذي تعاهدته الأمة هو بالزاي.

وهكذا الصحيح: «قتبيثوا»، و«بعد أمة»، و«فزع»، و«يقص» وهكذا، لنفس التعليل، والقراءة الأخرى ساقطة عندنا وغير جائزة إطلاقاً.

أما الجماعة فحيث وجدوا أنفسهم تجاه أمر واقع، وهو حجية القراءات - ولا سيما السبع - جميعاً، ومن ثم جعلوا يؤولون بركن «موافقة المصحف» بزيادة قيد «ولو احتمالاً»، وما ذاك إلا لتعليل بعد الوقوع، وتطبيق للمقياس على القراءات، لا عرض القراءات على المقياس.

ونحن في فسحة عن هذا المأزق، بعد أن لا نرى من حجية القراءات سوى واحدة، وهي التي وافقت ثبت المصحف المعروف، وغيرها ساقطة رأساً.



٢ - في صورة الكلمة: ونعني بها بنية الكلمة الاشتقاقية، ففي مثل قوله تعالى: «رئنا باعد بين أسفارنا» بصيغة الطلب، أو «باعد» بصيغة الماضي^(١)، حيث المادة واحدة، والاختلاف في بنية الكلمة الاشتقاقية، يتردد الأمر - لا محالة - في اختيار إحدى القراءتين.

وكذا قوله: «قال أعلم» بصيغة المتكلم، أو بصيغة الأمر^(٢).

وقوله: «وهل نجازي إلا الكفور» بصيغة المتكلم المعلوم، أو «بجازي» بصيغة الغائب المجهول^(٣).

وقوله: «حتى يطهرن» ثلاثياً بمعنى انقطاع الدم، أو «بطهرن» مزيداً فيه من باب التفعّل

(١) سبأ: ١٩، الثانية قراءة يعقوب من المشرة، والأولى قراءة الباقيين. (الإتعاظ: ص ٣٢٦).

(٢) البقرة: ٢٥٩، الثانية قراءة حمزة والكسائي والأولى قراءة الباقيين. (الكشف: ج ١ ص ٤١٢).

(٣) سبأ: ١٧، الثانية قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو وابن عامر وأبي بكر وأبي جعفر، والثانية قراءة الباقيين. (الإتعاظ: ص

على معنى التطهر بالماء^(١).

وقوله: «أو لامستم النساء» من باب المفاعلة كناية عن الجماع، أو «لَمَسْتُمْ» بمعنى مطلق الإساس^(٢).

ومن هذا القبيل اختلاف إعراب الكلمة بما يؤدي إلى اختلاف المعنى. كقوله: «وَأَرْجُلَكُمْ» بالخفض فيجب المسح، أو بالنصب فيجب الغسل^(٣) على احتمال مرجوح - عطفاً على مدخول «فاغسلوا» - زيّفه الشيخ أبو جعفر الطوسي بإيفاء وتفصيل^(٤). وأمّا النصب عطفاً على المحلّ من مدخول «وامسحوا» فهو الصحيح المختار حسبما يأتي. وفي مثل هذا الاختلاف أيضاً تكون إحدى القراءتين صحيحة والأخرى باطلة. على أصولنا حسبما تقدّم.

لكن وجه الاختيار هنا يختلف عن صورة اختلاف المادّة. فقد يكون وجه الاختيار هو العرف العامّ كما هناك، وقد يكون بالاعتبار القطعي، وقد يكون بمرجّح رواية صحيحة الإسناد، أو نحو ذلك ممّا ستعرّض له. ففي مثل «باعد» نختار صيغة الطلب لإجماع القراء المعروفين. وإجماعهم طريق إلى معرفة النصّ الأصل المعروف بين عامّة المسلمين. وفي «أعلم» نختار صيغة المتكلّم، حيث قراءة الأكثرية. ونظراً لعدم وجود من يطلب منه العلم سوى نفسه.

وفي «نجازي» نرجّح قراءة التّون بقرينة صدر الآية: «ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلاّ الكفور».

وفي «يطهرن» نرجّح التخفيف، نظراً لأنّ شرط جواز إتيانهنّ بلا كراهة أمران: انقطاع الدم والاعتسال. وأمّا على قراءة التشديد فيبقى أمر انقطاع الدم مسكوتاً عنه.

(١) البقرة: ٢٢٢. قرأه الحرميان وأبو عمرو وابن عامر وحفص مضوم للماء مخففاً، وقرأ الباقون بفتح الهاء، مشدداً. (الكشف: ج ١ ص ٢٩٤).

(٢) النساء: ٤٣، الثانية قراءة حمزة والكسائي، والأولى قراءة الباقين. (الكشف: ج ١ ص ٣٩٦).

(٣) المائدة: ٦، الثانية قراءة نافع وابن عامر الكسائي وحفص، والأولى قراءة الباقين. (الكشف: ج ١ ص ٤٠٦).

(٤) راجع التهذيب: ج ١ ص ٦٦ - ٧٥.

وفي «لامستم» يكون الترجيح مع الألف، لأنه إجماع المحققين من الفقهاء، وعليه روايات أهل البيت عليهم السلام

وفي «أرجلكم» نختار النصب لأن وجه الخفض عطفاً على لفظ المجرور يتنافى والنظرة الفقهية القائلة بوجوب الاستيعاب في مسح الرجلين طولاً، نظراً لبيان حدّي الممسوح في الآية، على ما يأتي في نهاية المقال. مضافاً إلى ورود روايات أهل البيت عليهم السلام بذلك، وهم أدري بما في البيت.

نعم، ليس الاختلاف في قراءة «كفوا» أو «هزأ» أو «هيت لك» ^(١) أو «أف» ^(٢) أو في مثل الإمالة والإشباع والتخفيف والتحقيق والإشمام والزوم وأمثال ذلك من هذا الباب، إذ أنها اختلافات في اللهجات وفي الأداء والتعبير، وقد أجاز النبي صلى الله عليه وآله وسلم للعرب أن تقرأ القرآن باللهجات المختلفة، حسبما فسرنا حديث «أنزل القرآن على سبعة أحرف» بذلك، كما ورد قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «فأقرأوا كيف شئتم» ^(٣).

وعليه فبأيها قرئت كانت صحيحة، اللهم إلا إذا خرجت عن متعارف العامة إلى حدٍّ يُستبشع منه. كما في أكثر إدغامات أبي عمرو والمدّ الزائد والتحقيق البالغ والتسبب ونحو ذلك. فإنها غير جائزة ولا تصحّ القراءة بها في الصلاة إطلاقاً.

٣- في موضع الكلمة: فالقراءة بالتقديم والتأخير باطلة، لأنها خارجة عن الرسم المعهود بين المسلمين. كما في قوله تعالى: «فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ» ^(٤). قرأ حمزة والكسائي بتقديم المفعول على الفاعل، والساقون بتقديم الفاعل على المفعول، والثانية هي المشهورة ^(٥) وكقراءة أبي بكر: «وجاءت سكرة الحق بالموت». والقراءة المأثورة هي:

(١) فرى بكسر الهاء وفتح التاء، وفتح الهاء وضمّ التاء، وفتح التاء وفتح الهاء وكسر التاء.

وبالجمع بين الياء والهاء. (مجمع البيان: ج ٥ ص ٢٢٢).

(٢) فرى بضمّ الهيمز وفتح التاء المشدّدة من غير تنوين، وبكسر الفاء منوثة، وبالكسر من غير تنوين، وبضمّ الفاء من غير تنوين، وبفتح الفاء من غير تنوين.

وتنوين، وبخلف الفاء أيضاً. (مجمع البيان: ج ٦ ص ٤٠٨).

(٤) التوبة: ١١١.

(٣) راجع تأويل مشكل القرآن: ص ٣٤.

(٥) تفسير القرطبي: ج ٨ ص ٢٦٨.

«وجاءت سكرة الموت بالحق»^(١).

ولا شك أن الترجيح في مثل هذا الاختلاف أيضاً مع المشهورة والأخرى باطلة، لمخالفتها الرسم والمتعاهد بين عامة المسلمين جميعاً.

وأما موافقة الأفضح في اللغة والأفشى في العريية، فلأن القرآن نزل على درجة أعلى من البلاغة، ويستحيل أن يستعمل كلمة يمجها الذوق العربي السليم، أو يخالف قياساً تسلّمته العرب الفصحى عادة طبيعية متعارفة. وإلا لكانت العرب تستغرب من القرآن في بدء أمره أو تستنكر منه ما يبطل به التحذّي الذي يصرخ به القرآن علانية على رؤوس الأشهاد.

إن إجازة القراءات الضعيفة وإسنادها إلى العهد الأول إجراء بشأن القرآن الكريم وحطّ من عظمتها الغالية.

إننا لانجيز مثل تاءات البرّي وإدغامات أبي عمرو ونبرات الكسائي ومدّات حمزة وكثير من تكلفات ابتدعها القراء تفنّناً بالقرآن وإتعاداً عن مألوف العرب الذين نزل القرآن على لغتهم وعلى أساليب كلامهم الدارج الفصيح.

وقد قال تعالى: «قرآناً عربياً غير ذي عوج»^(٢). «وهذا كتاب مصدق لساناً عربياً»^(٣). «كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون»^(٤). فقد شاء الله أن لا يكون في القرآن عوج، ولكن القراء تكلفوا فاعوجّوا بكثير من كلماته المستقيمة !!

وفي ضوء هذا البيان نخطئ - صريحاً - كثيراً من قراءات القراء المعروفين جاءت على خلاف أساليب لغة العرب الفصحى، فإن رعاية كتاب - هو لأمة كبيرة - أولى من رعاية نفر كانت تعوزهم المعرفة بأساليب الكلام الفصيح. وقد طعن ابن قتيبة في قراء لحنوا في القراءة. مثنّ ليس لهم طبع اللغة ولا علم التكلّف، فهفوا في كثير من الحروف وزلّوا وقرأوا

(١) المصدر: ج ١٧ ص ١٢، والآية ١٩ من سورة ق. (٢) الزمر: ٢٨.

(٣) فصلت: ٣.

(٤) الأحقاف: ١٢.

بالشاذّ وأخلّوا^(١).

فقراءة الحسن - وهو من الأربعة - : «وما تنزلت به الشياطين» غلط بلاريب^(٢) وكذلك قراءة ابن عامر - وهو من السبعة - : «قتل أولادهم شركائهم»^(٣) بإضافة «قتل» إلى «شركائهم» وفصل «أولادهم» - وهو مفعول به - بين المضاف العامل والمضاف إليه الفاعل.

قال أبو البركات ابن الأبياري: وأما نصب «أولادهم» وجرّ «شركائهم» فهو ضعيف في القياس جداً... ومثل هذا لا يكون في اختيار الكلام بالإجماع، واختلفوا في ضرورة الشعر، فأجازوه الكوفيون وأباه البصريون، وهذه القراءة ضعيفة في القياس بالإجماع^(٤). وهكذا قراءة حمزة - من السبعة - : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام»^(٥). بخفض «الأرحام» عطفاً على العائد المجرور. قال أبو محمّد: وهو قبيح عند البصريين. قليل في الاستعمال، بعيد في القياس، لأنّ المضمّر في «به» عوض من التنوين، ولأنّ المضمّر المخفوض لا ينفصل عن الحرف ولا يقع بعد حرف العطف، ولأنّ المعطوف والمعطوف عليه شريكان. فكما لا يجوز «واتقوا الله الذي تساءلون بالأرحام» فكذلك لا يجوز الخفض عطفاً^(٦) لأنّ الضمير المعطوف عليه - على هذا التقدير - عائد، ولا يصلح المعطوف أن يحلّ محلّ العائد.

وكذا قراءة ته: «إِنَّهُ مِنْ يَتَّقِي وَيَصْبِر» بإثبات الياء في الفعل الأوّل وإسكان الثاني^(٧)، ولا وجه لهذا الافتراق في حين أنّهما معاً في حيّز «من» الجازمة، بدليل الفاء بعدها. وقد تقدّم كثير من قراءات وقعت موضع إنكار أئمّة العربيّة. كانت مخالفة لقواعد اللغة

(١) راجع تأويل مشكل القرآن: ص ٥٨ - ٦٣.

(٢) راجع البحر المحیط: ج ٧ ص ٤٦، والكشاف: ج ٣ ص ١٢٩، والقراءة المأثورة: «وما تنزلت به الشياطين» الشعراء.

(٣) والقراءة المشهورة: «قتل أولادهم شركائهم» الأنعام: ١٣٧.

٢١٠.

(٤) البيان في غريب إعراب القرآن: ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٢. (٥) النساء: ١.

(٦) الكشاف عن وجوه القراءات السبع: ج ١ ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٧) المرشد الوجيز: ص ١٧٥، والقراءة المعروفة: «يَتَّقِي» يوسف: ٩٠.

التي تجري عليها لغة العرب الفصحى.

وبأنّ لنحکم قواعد العربية الفصحى على قراءات القراء، حيث لا نأتمن وقوفهم على أصول اللغة ولا معرفتهم التامة بأساليب الكلام البليغ الفصيح^(١).

دفاع مظلوم

قرأ أبو عمرو بن العلاء: «بارئكم» و«يأمركم» و«ينصركم» و«يشعركم» ونحو ذلك بالإسكان حيث وقع في القرآن^(٢)، وهو إسقاط لحركة إعرابية من غير سبب معروف، وعُلِّل بأنه شبه حركة الإعراب بحركة البناء، فأسكن حركة الإعراب استخفافاً لتوالي الحركات. تقول العرب: «أراك منتفخاً» بسكون الفاء.

قال أبو محمّد: وهو ضعيف مكروه. قال: فإنه فرق بين حركة الإعراب التي تدلّ على معنى، وبين حركة البناء التي لا تدلّ على معنى. وأيضاً فإنّ حركة الإعراب تتغيّر حسب تغيّر المعنى، فلم يجوز أن يلحقها تغيير آخر، وحركة البناء ثابتة، فجاز أن تتغيّر بالإسكان استخفافاً، وإسكان حرف الإعراب بعيد ضعيف، وإسكان حركة البناء إذا استقلت مستعمل كثير. قال: والاختيار تمام الحركات لأنّه الأصل، وعليه جماعة القراء، ولأنّ الإسكان إخلالٌ بالكلام وتغييرٌ للإعراب^(٣)، وقد أنكر سيويه قراءة الإسكان، ورآها باطلة في مذهب العرب الأصيل^(٤).

هذه قراءة أبي عمرو الرديئة، وهذا كلام جهابذة الفنّ وأساطين العربية المعترف بهم لدى الأئمّة أجمع.

ولكنّ أبا عمرو الداني - في كتابه «جامع البيان» - بعد أن ذكر إسكان «بارئكم» و«يأمركم» في قراءة أبي عمرو، وبعد حكاية إنكار سيويه لذلك، قال: والإسكان أصحّ في

(١) راجع فأويل المشكل لابن قتيبة: ص ٦٦، والمرشد الوجيز: ص ١٧٤.

(٢) النشر: ج ٢ ص ٢١٢. (٣) الكشف: ج ١ ص ٢٤١.

(٤) راجع كتاب سيويه: ج ٢ ص ٨-٣٠.

النقل وأكثر في الأداء، وهو الذي أختره وأخذ به - إلى أن قال: - وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفضى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأنبت في الأثر والأصح في النقل، والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها.

قال الزرقاني - تعقيباً على هذا الكلام -: وهذا كلام وجيه، فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله وسنة رسوله وكلام العرب، فإذا ثبت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قدّوا من قواعد، ووجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكمها فيه، والآكان ذلك عكساً للآية، وإهمالاً للأصل في وجوب الرعاية^(١).

قلت: عدم اعتماد القراء على الأفضى في اللغة والأقيس في العربية إنما هو لضعف معرفتهم بأصول الكلام الفصيح، ومن ثمّ خلطوا وخبطوا، كما خلط أبو عمرو الداني مسألة «أصالة القرآن» بمسألة «القراءات» وتبعه في هذا التخليط الغريب الأستاذ الزرقاني تقليدياً من غير تفكير.

إذ المتبع هو نص القرآن الأصل المتواتر بين المسلمين، وعليه اعتمد أئمة العربية في استقاء القواعد العامة المعتمد عليها، أما القراءات فشيء يرجع إلى اجتهادات القراء، واللحن متفش بينهم، وما أقل من سلم من هذه الطبقة من الغلط والوهم، ولا يجعل لحن اللاحنين حجة على الكتاب، على حدّ تعبير ابن قتيبة^(٢).

إنّا إذا وجدنا لحناً في قراءة قارئٍ نقوم في وجهه دفاعاً عن سلامة القرآن عن الاعوجاج، علماً بأن القرآن نزل على الصحيح الأوضح «قرآناً عربياً غير ذي عوج»^(٣). ويعذر القوم حيث حسبوا من أنفسهم تجاه أمر واقع، ومن ثمّ زعموا من كلّ قراءة أنّها متبعة، وفاتهم أن لا مستند لهذا التعبد الأعمى، ولا تثبت قرآنية القرآن بقراءة رويت عن

(٢) تأويل المتكلم: ص ٥٨ و ٦١.

(١) مناهل العرفان: ج ١ ص ٤٢٢.

(٣) الزمر: ٢٨.

فلان أو فلان، وقد أوضحنا أن لا سند لآحاد القراءات متصلاً إلى النبي ﷺ، ولا مساس لها بمسألة «تواتر القرآن» إطلاقاً.

إذا فتحكيم القواعد على القراءات ليس تحكيمياً لها على القرآن، بل تحكيمياً للتوصل إلى واقع القرآن. فكل قراءة وافقت الألفصح في اللغة والأفشى في العربية وتوفرت فيها سائر الشرائط تعتبرها صحيحة وتتسلمها قرآناً، بكاشف هذا التوافق.

والقواعد - التي نعتبرها مقاييس لمعرفة القرآن - هي المعترف بها لدى الجميع. والتي تسالمت عليها علماء اللغة والأدب، المستفاد من كلام العرب الأصيل. الأمر الذي يوجد عند نحاة البصرة أكثر وأدق مما عند الكوفيين، ومن ثم فإن وقفة مثل «الداني» المغربي في وجه مثل «سبويه» غريبة جداً.

وتساءل القوم: بماذا أنكر الإمام أحمد على حمزة قراءة، لولا أنه وجدها خارجة عن

أساليب التعبير العربي الأصيل في مداته وتوالي سكناته وما إلى ذلك؟!

وهل نتسلم قراءة من قرأ: «قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به» بالهمز لمجرد أنها قراءة بعض المتقدمين^(١)؟ في حين أنها تقلب معنى الآية، لأنها من «درى» بمعنى علم، لا من «دراً» بمعنى دفع.

وقراءته أيضاً: «وما تنزلت به الشياطين» وهي غلط محض^(٢).

وقراءة ابن محيىن: «فلا تشمت بي الأعداء»^(٣) بفتح تاء المضارعة ونصب «الأعداء». وإنما هو من: أشمت الله العدو، ولا يقال: شمت الله العدو^(٤).

وقراءة ابن عامر: «كن فيكون»^(٥) بالنصب. ومن الغريب أن مثل الكسائي تابعه في

(١) هي قراءة الحسن. (راجع البحر المحيط: ج ٤ ص ١٣٣). والقراءة: «المنورة»: «ولا أدراكم» يونس: ١٦.

(٢) أنظر تفسير القرطبي: ج ١٣ ص ١٤٢. والقراءة: «المنورة»: «الشياطين» الشراء: ٢١٠.

(٣) الأعراف: ١٥٠.

(٤) تأويل المشكل لابن قتيبة: ص ٦١. وانظر البحر المحيط: ج ٤ ص ٢٩٦.

(٥) البقرة: ١١٧. آل عمران: ٤٧ و ٥٩. الأنعام: ٧٢. النحل: ٤٠. مريم: ٣٥. يس: ٨٢. غافر: ٦٨.

التحل وبس^(١).

وقد أجمع المحققون على أنَّ النصب هنا ضعيف، كما اتَّفَق باقي الفراء على الرفع، لأنَّ «كن» ليس أمراً على حقيقته، لأنَّه ليس خطاباً لموجود، وإنما معناه: فإنَّما يكونه فيكون^(٢). وهكذا قراءات ضعيفة - تقدَّم بعضها - من السبعة وغيرهم تشي بضعف مقدرة قرآنها، وأنكرها المحققون من العلماء النقاد، سواء في مجال الفقاهاة أم في حقل الأدب الرفيع، فكيف نوافق على قرآئتها ونضرب بجميع الأصول والقواعد عرض الجدار؟! فاللَّذي تقتضيه قواعد التمحيص هو النظر في منشأ القراءة، فإن كانت عن مستند وثيق وعن دراية صحيحة الأصول تُقبل ويُعترف بقرآئتها أيضاً، وكلَّ قراءة خالفت أصول التمحيص الصحيح فهي ضعيفة شاذة يجب نيلها رأساً. سواء أكانت عن السبعة أم عن غيرهم، وتقدَّم كلام أئمة التحقيق في ذلك.



و أمَّا عدم المعارضة بالأقوى حجة، فلأنَّ القراءة إنَّما تكون حجة إذا لم يعارضها حجة أقوى. حسب قانون «التعادل والترجيح» في باب الأصول. فمثل «أرجلكم» قراءة بالخفض، وإن قرأ بها بعض كبار القراء لكنَّها حيث كانت معارضة للدليل الأقوى فهي مرفوضة كما رفضها جمهور المسلمين، وكانت علامة التثبيت الأولى، والتي كان عليها ثبت المصاحف هي علامة النصب. أمَّا الدليل الأقوى الَّذي يرجِّح النصب على الخفض فهو: اعتبار الاستيعاب - طولاً - في مسح الأرجل، نظراً لذكر الحد - بدءاً ومنتهى - في الآية الكريمة (من رؤوس الأصابع الأقدام إلى الكعبين). ولتوضيح هذا الجانب من المسألة الفقهية المستنبطة من الآية الكريمة لابدَّ من تمهيد مقدِّمة، هي:

(١) أنظر التيسير: ص ٧٦.

(٢) رابع التخصيل في غريب إعراب القرآن لابن الأنباري: ج ١ ص ١١٩ - ١٢٠، والكشف: ج ١ ص ٢٦١.

أَنَّ مَادَّةَ «مَسَحَ» يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ إِلَى الْمَفْعُولِ بِهِ . وَلَا يَحْتَاجُ فِي تَعْدِيتهِ إِلَى إِضَافَةِ حَرْفٍ فِي مَدْخُولِهِ ، لَكِنْ زِيَادَةُ الْبَاءِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنَ الْآيَةِ كَانَتْ لِنَكْتَةِ ، وَهِيَ : أَنَّهَا لَوْلَمْ تَزِدْ هُنَا لِاسْتَدْعَى إِضَافَةَ الْفِعْلِ «مَسَحَ» إِلَى مَتَعَلِّقِهِ ، اسْتِيعَابَ الْمَسْحِ لِمَحَلِّهِ اسْتِدْعَاءً بِالطَّبِيعِ .. كَمَا فِي كُلِّ فِعْلٍ أُطْلِقَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَتَعَلِّقِهِ . كَمَا فِي «فَاعْغَسِلُوا وَجُوهَكُمْ»^(١) اسْتَدْعَى اسْتِيعَابَ الْغَسْلِ لِجَمِيعِ صَفْحَةِ الْوَجْهِ طَوَّالاً وَعَرَضاً . وَمِنْ ثَمَّ لَوْلَمْ يَقْبِذْ الْغَسْلُ فِي الْيَدَيْنِ بِقَوْلِهِ «إِلَى الْمُرَافِقِ» لِاسْتَدْعَى اسْتِيعَابَ جَمِيعِ الْيَدِ حَتَّى الْمُنْكَبِ .

وَعَلِيهِ فَلَوْلَمْ تَزِدْ الْبَاءَ ، وَقِيلَ : «وَامْسَحُوا رُؤُوسَكُمْ» لِاسْتَدْعَى مَسْحَ الرَّأْسِ كُلِّهِ ، نَظِيرَ الْوَجْهِ ، حَرْفًا بِحَرْفٍ . فَزِيدَتْ لِتَكُونَ دَلِيلًا عَلَى كِفَايَةِ مَجْرَدِ الْمَسْحِ الْمَلْصِقِ بِالرَّأْسِ ، فَلَوْلَمْ يَضَعِ الْمَتَوَضِّعُ رَأْسَ إِبْصَعِهِ عَلَى رَأْسِهِ وَجَرَّهَا جَرًّا خَفِيفًا فَقَدْ صَدَقَ «لِصُوقِ الْمَسْحِ بِالرَّأْسِ» ، وَالْإِمْتِنَالُ يَقْضِي الْإِجْزَاءَ - كَمَا فِي الْأَصُولِ - وَلَا إِمْتِنَالُ عَقِيبَ الْإِمْتِنَالِ .

هَذَا فِي الرَّأْسِ ، أَمَّا فِي الرَّجْلِ ، فَلَمَّا جَاءَ ذِكْرُ الْحَدِّ لِلْمَسْحِ كَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى إِرَادَةِ اسْتِيعَابِ مَا بَيْنَ الْحَدَّيْنِ (رُؤُوسِ أَصَابِعِ الْقَدَمِ - الْكَعْبَانِ) طَوَّالاً . وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّهُ مَعْطُوفٌ عَلَى مَدْخُولِ «وَامْسَحُوا» بِزِيَادَةِ الْبَاءِ ، أَيِ مَحَلِّ الْمَجْرُورِ ظَاهِرِيًّا ، وَهُوَ النَّصْبُ .

نَعَمْ ، لَيْسَ النَّصْبُ عَطْفًا عَلَى مَدْخُولِ «فَاعْغَسِلُوا» كَمَا زَعَمَهُ الْقَائِلُ بِغَسْلِ الْأَرْجْلِ اسْتِنَادًا إِلَى قِرَاءَةِ النَّصْبِ فِي الْآيَةِ ، وَهُوَ فَهْمٌ مَخْطِئٌ وَاسْتِنْبَاطٌ مَعْوَجٌ ، بَعْدَ مَلَاخِظَةِ أَنَّ الْعَطْفَ مَعَ الْفَصْلِ بِالْأَجْنِبِيِّ مَرْفُوضٌ أَوْ مَرْجُوحٌ فِي اللُّغَةِ ، وَلَا يَحْمَلُ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ .

أَمَّا الرِّوَايَاتُ الْوَارِدَةُ عَنْ أُمَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ عليهم السلام الَّتِي تَمَسَّكُ بِهَا الشَّيْخُ الطُّوسِي رحمته الله ^(٢) دَلِيلًا عَلَى تَرْجِيحِ قِرَاءَةِ الْخَفْضِ ، فَالصَّحِيحُ مِنْهَا لَا دَلَالَهَ فِيهَا عَلَى ذَلِكَ ، لِأَنَّهَا وَرَدَتْ بِلَفْظِ «بِأَنَّ

(١) العائنة : ١٠

(٢) في التمهيد : ج ١ ص ٧٠ ، والخلاف : ج ١ ص ١٦ - كتاب الطهارة - السألة رقم ٣٩ .

القرآن نزل بالمسح»^(١). وهي تلتزم مع قراءة النصب على ما أوضحنا بيانه، ولا دليل فيها على إرادة قراءة الخفض.

نعم، وردت رواية ضعيفة - لا حجية في سندها بعد وجود الضعاف فيه - بأنها بالخفض^(٢)، وهي لا تصلح مستنداً لتأويل الآية على غير وجهها، فتدبر. وهذا من إفادات شيخنا الراحل العلامة الشيخ محمد رضا الإصفهاني طاب ثراه.

القراءة المختارة

أما القراءة التي نختارها - والتي تجسّعت فيها شرائط القبول أجمع - فهي قراءة عاصم برواية حفص بالخصوص، وذلك لأنها القراءة التي كانت عليها جماهير المسلمين وتلقوها يداً بيد منذ الصدر الأول حتى توالي العصور. وستأتي مزايا أخرى حوتها هذه القراءة بالذات دون غيرها من سائر القراءات. ولم تزل هذه القراءة موضع عناية العلماء والقراء في جميع أديوار التاريخ، ومن ورائهم عمّامة المسلمين في كافة الأقطار الإسلامية المترامية. هذا، ولكنّ الشايح بين الفقهاء هو جواز القراءة بالسبع في الصلاة وغيرها، الأمر الذي يمكن توجيهه على مشارب فقهاء السنّة، إمّا لأجل تواترها عندهم - كما يراه البعض - أو لانطباق حديث السبعة الأحرف عليها، حسبما زعمه آخرون. لكنّ الأمر يُشكل على ميانى فقهاءنا الإمامية الذين يرون من القرآن واحداً نزل من عند الواحد!

إذاً فما وجه تجويزهم القراءة بالسبع وغيرها؟ ولنذكر كلماتهم أولاً ثمّ دلالتهم بهذا الشّأن:

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: إنّ العرف من مذهب أصحابنا والشائع من أخبارهم ورواياتهم أنّ القرآن نزل بحرف واحد على نبيّ واحد، غير أنّهم أجمعوا على جواز القراءة بما يتداوله القراء، وأنّ الإنسان مخيّر بأيّ قراءة شاء قرأ^(٣).

(٢) تهذيب الأحكام: ج ١ ص ٧٠ رقم ١٨٨.

(١) وسائل الشريعة: ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٧.

(٣) التبيان: ج ١ ص ٧.

وقال الشهيد الأوّل: وتجاوز القراءة بالسبع والعشر لا الشواذ، ومنع بعض الأصحاب من العشر^(١).

وقال العلامة: يجب أن يُقرأ بالمتواتر من القراءات وهي السبعة، ولا يجوز أن يُقرأ بالشواذ ولا بالعشرة^(٢).

وهكذا غيرهم من علمائنا الأعلام، ووافقهم على جواز القراءة بإحدى السبع صاحب «الجواهر» في كلام طويل له بشأن إبطال دعوى تواتر القراءات السبع أو العشر، قال: أقصى ما يمكن تسليمه جواز العمل بها، أمّا تعيين ذلك وحرمة التعدي عنه فمحالّ منع^(٣).

ومن ثمّ قال صاحب العروة: الأحوط القراءة بإحدى القراءات السبع، وإن كان الأقوى عدم وجوبها، بل يكفي القراءة على النهج العربي، وإن كانت مخالفة لهم في حركة بنية أو إعراب^(٤).

وعلّق عليه سيّدنا الحكيم باشتراط التوافق مع إحدى القراءات المتداولة في عصر الأنمة^(٥) وهو تعليق متين.

وهكذا سيّدنا الأستاذ الخوئي^(٦) قال: الظاهر جواز الاكتفاء بكلّ قراءة متعارفة عند الناس ولو كانت من غير السبع.

ووافق السيّد الأصبهاني في «الوسيلة» صاحب «العروة» إلا أنّ سيّدنا الأستاذ الراحل الإمام الخميني^(٧) في «التحرير» زاد عليه بأنّ الأحوط عدم التخلف عمّا في المصاحف الكريمة الموجودة فيما بأيدي المسلمين^(٨). وهذا التقييد أيضاً متين.

هذه خلاصة كلمات الأصحاب تنبؤك عن دقّة في الاختيار.

ولننظر في دلائل هذا الاختيار:

قد يقال: إنّ الوجه في ذلك هو اعتقاد تواتر القراءات ولا سيّما السبع كما تقدّم عن

(٢) تذكرة الفقهاء، ج ١ ص ١١٥.

(١) الدروس، ص ٣٥.

(٤) العروة الوثقى، فصل ٢٤ في القراءة، المسألة ٥٠.

(٣) جواهر الكلام، ج ٩ ص ٢٩٨.

(٥) تحرير الوسيلة: ١٤ من بحث القراءة، والتدريج ١ ص ١٦٧-١٦٨.

الشهيد الثاني، الأمر الذي لا يلتزم مع وهن قضيتة نواتر القراءات السبع عند علمائنا الإمامية، بل وسائر المحققين من علماء الإسلام أجمع. وقد رجح عنه الشهيد أيضاً، وأوّل كلامه إلى إرادة وجود المتواتر فيما بأيدينا من القراءات الآن.

لكنّه أيضاً تأويل بعيد، إذ لازمه الاحتياط في القراءة بكلّ الوجوه، لإحراز الواقع المعلوم. كما نبّه عليه العلامة جارا الله الزمخشري في كلامه الآنف: والمصلّي لا تبرأ ذمته من الصلاة إلا إذا قرأ - فيما وقع فيه الاختلاف - على كلّ الوجوه.

هذا فضلاً عمّا يرد على هذا الاحتمال من الإشكال، وهو عدم إمكان اشتباه المتواتر بغيره. كما أورده عليه سبطه، وأورده أيضاً صاحب «المفتاح»^(١).

والمعروف في وجه هذا الاختيار ما أشار إليه الشيخ في كلامه المتقدم هو انعقاد إجماع الأصحاب على القبول وأتفاق رواياتهم عليه.

قال السيد الجواد العاملي: الدليل على وجوب الاختصار عليها أن يقين البراءة إنّما يحصل بذلك لاتفاق المسلمين على جواز الأخذ بها، إلا ما علم رفضه وشذوذه، وغيرها مختلف فيه. ومن المعلوم أنّها المتداولة بين الناس، وقد نطقت أخبارنا بالأمر بذلك، وانعقدت إجماعات أصحابنا على الأخذ به، كما سمعته عن «التيان» ومثله «مجمع البيان» وكذا «المنتهى». فجواز الأخذ بغيرها يحتاج إلى دليل. قال: ولولا ذلك لقلنا - كما قال الزمخشري -: لا تبرأ ذمّة المصلّي إلا إذا قرأ بما وقع الاختلاف فيه على كلّ الوجوه^(٢).

هذه هي عمدة الاستدلال على جواز الأخذ بالقراءات المعروفة؛ وتتلخّص في:

- ١ - سيرة المسلمين على الأخذ بها.
- ٢ - إجماع الفقهاء على جواز ذلك.
- ٣ - نظائر النصوص الواردة عن الأئمة عليهم السلام في الأمر بالعمل بما عند الناس والمعروف لدى المسلمين.

وناقش سيّدنا الحكيم عليه السلام - في هذه الوجوه - بأنّ المقطوع به من سيرة المسلمين منذ

الصدر الأوّل هو الأخذ بأيّ قراءة صحّت لديهم، وليست من السبعة فحسب، ولا سيّما وتأخر السبعة المعروفة عن العهد الأوّل.

وأما الإجماع فمستنده الرواية، وهي لا تعني خصوص هذه السبع التي تأخّرت معروفيتها عن زمن الصادق والكاظم عليهما السلام، وهما مصدر تلك النصوص. نعم، مقتضاهنّ جواز العمل بكلّ قراءة كانت معروفة على عهدهم عليهما السلام لا غير، فيشكل شمولها لبعض القراءات السبع ممّا لم تكن متداولة ذلك العهد أو حدثت متأخراً^(١).

والمناقشة متينة، سوى أنّ حمل النصوص على إرادة القراءات المتداولة لدى القراء - والتي كانت مستنداتها في الأغلب تعاليل اجتهادية وترجيحات نظرية أو استحسانية - بعيدٌ للغاية.

ومن طريف الأمر أنّ جماعة من محدّثي الفقهاء حملوا تلك النصوص على الاستصلاح والمجاراة مع العامّة.

قال المولى محسن الفيض: إذا كان اختلاف القراءة ممّا لا يسري إلى اختلاف المعنى فهذا موشع علينا بالقراءات المعروفة، وإلا فيحمل على أنّهم عليهم السلام لمّا لم يتمكّنوا من حمل الناسي على القراءة الصحيحة جوّزوا القراءة بغيرها، كما يشير إليه قولهم: اقرأوا كما تعلّمتم فسيجيئكم من يعلمكم.

قال: وعلى أيّ التقديرين فنحن في سعة منها جميعاً. وقد اشتهر بين الفقهاء وجوب الالتزام بعدم الخروج عن القراءات السبع أو العشر المعروفة لتواترها وشذوذ غيرها. والحقّ أنّ المتواتر من القرآن اليوم ليس إلّا القدر المشترك بين القراءات جميعاً دون خصوص آحادها، إذ المقطوع به ليس إلّا ذلك، إذ المتواتر لا يشتبه بغيره^(٢).

وكلامه هذا الأخير متناقض أو يزيد في إبهام الأمر، إذ لو كان المتواتر من القراءات هي المواضيع التي توافقت عليها القراء فالمواضع التي اختلفوا فيها ماذا يكون التكليف فيها، هل المكلف مخيّر فيها أم يجب عليه الاحتياط؟

ثمَّ إنَّ لازمَ كلامه أنَّ المواضع المختلف فيها ليست من القرآن المتواتر!!
وإن كان مراده أنَّ المتواتر موجود في هذه السبع من غير تعيين فهذا يتناقض مع قوله «إنَّ
المتواتر لا يشتهر بغيره»!! ومن ثمَّ فكلامه هنا مبهمٌ للغاية.

وواقفه على هذا الحمل المحدث البحراني، قال: الَّذي يظهر من الأخبار هو وجوب
القراءة بهذه القراءات المشهورة، لا من حيث ما ذكره من ثبوتها وتواترها عنه عليه السلام، بل من
حيث الاستصلاح والتقية^(١).

قلت: الواجب حينئذٍ النظر في النصوص التي هي عمدة الباب - وسنذكرها ضمن
النصوص الضافية الآتية - وهي وردت بتعبيرين:

١- الأمر بالقراءة على ما يقرأ الناس.

٢- الأمر بها كما تعلموه.

وهذا لا يعني سوى الأمر بالقراءة على ما تداوله جمهور المسلمين، لأنَّهم المعنيون
بالناس لا خصوص القراء. إذ لا وجه لهذا الاختصاص، ولا سيَّما بعدما عرفت أنَّ القرآن
شيء والقراءات شيء آخر، والأوَّل سبيله مجرى التواتر، والثاني هي الاجتهادات النظرية.
فلا بدَّ أنَّ المراد من قراءة الناس هي القراءة المتواترة المحتفظة لدى عامَّة المسلمين، والتي
توارثوها يدأ بيد وجيالاً بعد جيل.

وبذلك أيضاً تبيَّن أنَّ المقصود من التعلُّم هو التلقِّي الجماهيري سواء في البيوت على يد
الآباء والأُمَّهات، أم في الكتاتيب على يد المشايخ والمعلِّمين، أم في سائر الأوساط العامة
التي يتداول فيها القرآن على المسرح العام.

أمَّا ما هي هذه القراءة التي تداولتها العامَّة وتوارثها المسلمون أُمَّةً بعد أُمَّةٍ؟ فذكرنا أنَّها
هي القراءة المتوافقة مع ثبت النصِّ الحاضر حرفياً، وهي التي قرأ بها عاصم بن أبي النجود
برواية حفص بن سليمان. وقد توافقت عليها الأُمَّة لميزات وجدوها في قراءته، أشرنا إليها
آنفاً.

فذلكة البحث

والذي يتمخض من بحوثنا السالفة بشأن ملاك اختيار القراءة الصحيحة هو ما يلي:

١- مراجعة ثبت المصحف المتواتر خلفاً عن سلف، في مادة الكلمة وصورتها وموضعها الخاص.

٢- وعند احتمال وجهين أو وجوه فالمرجح هي قراءة عامة المسلمين أمّة عن أمّة، وهي محفوظة في الصدور، وفي عمارة المصاحف القديمة والحديثة.

٣- ومن الطرق إلى معرفة قراءة العامة هو إجماع القراء المعروفين أو اتفاق أكثرتهم الغالبة.

٤- وإذا تكافأ الاحتمالان أو استوت القراءتان فالترجيح مع الأوفق بالعربية والأفصح والأقضى في اللغة.

٥- وأخيراً فإذا قام دليل قطعي على اتباع قراءة فتكون هي الأفصح والأقوى سنداً لا محالة.

هذه زبدة ملاك اختيار القراءة وتميز المقبول عن المرفوض، كما تبين أن لا شأن للقراءات عندنا بالذات سوى أنها طرق إلى معرفة القرآن المتواتر عند عمامة المسلمين، وذلك إذا توفرت فيها شروط القبول.

ومن ثم فإن القراءة المختارة عندنا هي قراءة عاصم برواية حفص، لأنها هي القراءة المعروفة لدى المسلمين وتلقاها العلماء بالقبول.

نصوص ضافية

ورد من أمّة أهل البيت عليهم السلام نصوص ضافية^(١) بشأن القرآن الكريم تشير إلى أهمّ مواضيع بحوثنا الآنفة، وتشير بعمق نظر ودقّة تحقيق راعتها الأئمّة عليهم السلام بشأن هذا الكتاب

(١) مستخرجة من الكافي الشريف لثقة الإسلام الكليني عليه السلام: ج ٢ ص ٦٢٧ كتاب فضل القرآن باب النوادر رقم ٨ و ١٢ و ١٣

الخالء ، ومدى اهتمامهم بحراسة نصه بعيداً عن التحريف والتأويل :

١ - قال محمّد بن الوزّاق : عرضت على أبي عبد الله ؑ كتاباً فيه قرآن مختم معشر بالذهب ، وكتب في آخره سورة من ذهب ، فأريته إياه فلم يعب فيه شيئاً إلا كتابة القرآن بالذهب ، وقال : لا يعجبني أن يكتب القرآن إلا بالسواد كما كتب أوّل مرّة .

انظر إلى هذه الدقّة والحرص الشديد على سلامة القرآن . ليبقى محفوظاً كما كتب أوّل مرّة ، حتّى في لون الخطّ لئلا يشتهه بغيره من الزوائد والتحقينات المتأخّرة .

٢ - وقال الإمام محمّد بن علي الباقر ؑ : القرآن واحد نزل من عند واحد ، ولكن الاختلاف يبيىء من قبل الرواة .

يعني : قراءة واحدة ، فإن القرآن نزل بنصّ واحد وإنما الاختلاف في رواية ذلك النصّ حسب اجتهادات القرّاء .

وقد أوضحه الحديث التالي :

٣ - وقال الإمام جعفر بن محمّد الصادق ؑ : ولكنّه نزل على حرف واحد من عند الواحد .

عني ؑ نفي الفراءات المتداولة التي كان الناس يزعمونها متواترة عن النبي ؑ ، فإنكر ذلك ، حيث القرآن نزل بنصّ واحد . أمّا اختلاف اللهجات - حسبما فسّرنا بها الحروف السبعة - فلا ينفىها الإمام ؑ ، كما جاء في روايات أخرى .

٤ - قال سالم بن سلمة : قرأ رجل على أبي عبد الله ؑ وأنا أستمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرأها الناس . فقال أبو عبد الله ؑ : كفّ عن هذه القراءة ، اقرأ كما يقرأ الناس .

لعلّ الرجل كان يقرأ حسب تفنّن القرّاء بأوجه متنوّعة ، فنهره الإمام ؑ ، حيث يؤول ذلك إلى التلاعب بنصّ القرآن الكريم ، وأمره أن يلازم القراءة المعروفة التي يقرأها الناس ، أي عائمة المسلمين . فالقراءة الصّحيحة المأمور بها في الشريعة هي التي توارثتها الأئمّة عن الأئمّة عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل ؑ عن الله عزّ وجلّ . ولا عبرة بخصوص القرّاء الذين احترقوا فنّ القراءة كصنعة مبتدعة ، سوى التي توافق قراءة العائمة .

٥ - قال سفيان بن السمط : سألت أبا عبد الله ؑ عن تنزيل القرآن . قال : اقرأوا كما

علمتم.

سأل عن أصل النص الذي نزل عليه القرآن لأول مرة، حيث وجد القراء مختلفين فيه، فأجاب الإمام عليه السلام بأنه هو الذي يتعاهده المسلمون اليوم، فقله: «اقرأوا كما علمتم» أي يجب عليكم - خطاباً إلى عامة المسلمين - أن تقرأوا القرآن كما ورثتموه خلفاً عن سلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦ - قال علي بن الحكم: حدثني عبدالله بن فرقد والمعلمي بن خنيس قالا: كنا عند أبي عبدالله عليه السلام ومعنا ربيعة الرأي، فذكرنا فضل القرآن، فقال أبو عبد الله عليه السلام: نعم ضال. ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: أما نحن فنقرأ على قراءة أبي.

لعلهم تذكروا شيئاً من قراءات ابن مسعود غير المتعارفة، فنتبهم الإمام عليه السلام أنها غير جائزة، وأن الصحيح هي قراءة عامة المسلمين، ومن خرج عن المعهود العام فهو ضال، لأنه أخطأ طريقة المسلمين التي توارثوها كابراً عن كابر عن نبيهم العظيم. فلو كان ابن مسعود يقرأ القرآن على خلاف طريقة المسلمين - على تقدير صحته النسبة - فهو ضال. لأن الطريق الوسط هو الذي مشى عليه جماعة المسلمين، والحائد عن الجادة الوسطى ظال لا محالة أياً كان.

أما قوله: «أما نحن فنقرأ على قراءة أبي» أي أبي بن كعب، فإشارة إلى حادثة توحيد المصاحف على عهد عثمان، حيث كان المعلمي أبيتاً، والجماعة يكتبون على إملائه، ويرجعون إليه في تعيين النص الأصل عند الاختلاف. فالمصحف الموجود الذي عليه عامة المسلمين هو من إملاء أبي، فالقراءة وفق قراءة أبي كناية عن الالتزام بما عليه عامة المسلمين الآن.

٧ - وروى الصدوق عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعلموا القرآن بعريته، وإياكم والنبر فيه. - يعني الهمز -.

قال الإمام الصادق عليه السلام: الهمز زيادة في القرآن، إلا الهمز الأصلي مثل قوله: «الآن

يسجدوا لله الذي يخرج الخبء»^(١). وقوله: «لكم فيها دفء»^(٢). وقوله: «فاذكر أتم»^(٣).^(٤)

جاء في النسخ: «النبز» بالزاي، وهو خطأ هنا، وإنما هو «النبر» بالراء كما تقدّم عن نهاية ابن الأثير. وأنّ الكسائي كان ينبر بالقرآن.

والأمر بقراءة القرآن عربية خالصة كثير في أحاديث أنثمة أهل البيت عليهم السلام^(٥) حرصاً منهم على محافظة لغة القرآن الأصيلة هي لغة العرب الفصحى ولهجتهم الأفضى، فلا يتسرّب إليه لحن ولا يلحقه تغيير.

القراءات وأثرها في التفسير والأحكام

قد نعتبر القراءات ولاسيما السبع متواترات - كما اعتبرها قوم - فلذلك أشر بيتن في التفسير وفي مجال استنباط الأحكام. أمّا إذا لم نعتبرها جميعاً متواترة، سوى قراءة واحدة هي التي تسالم عليها عامة المسلمين وتوارثوها كابراً عن كابر عن رسول الله صلى الله عليه وآله والتي تحققت في قراءة حفص عن عاصم عن أبي عبد الرحمن السلمي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام. وكما قال الإمام أبو عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «القرآن واحد نزل من عند الواحد. ولكن الاختلاف يجيء من قِبَل الرواة»^(٦) أي من قبل اختلاف اجتهادهم في الحصول على ذلك النص الأصل الواحد... فعليه فلا موضع للاختلاف، لا في القراءة ولا في مجال الاستنباط والتفسير. فلأمدعي لهذا البحث رأساً.

إنّما الكلام، على الفرض الأوّل وعلى فرض ثبوت الاختلاف ولو جزئياً، فما أثره في التفسير وفي استنباط الأحكام؟

(١) النسل: ٢٥. (٢) التحل: ٥.

(٣) البقرة: ٧٢. (٤) معاني الأخبار: ص ٩٨.

(٥) رابع وسائل الشريعة: ج ٤ ص ٨٦٥ باب ٣٠ من أبواب قراءة القرآن.

(٦) الكافي: ج ٢، ص ٦٣٠.

لاشكَّ أنَّ الأثرَينِ على ذلك الفرض، لأنَّ الاختلاف في التعبير - بعد أن كانت تصاريف الكلمات تحمل معاني متخالفة طبعاً - قد يوجب تخالفاً في التفسير ويتعقّبهُ اختلافاً في الإنتاج الفقهي للأحكام. وقد تصبّح القراءات المختلفة متعارضة المفاد. كتعارض الروايتين الموجب لتهاافت فقه الحديث أحياناً، فلا بدّ من العلاج كما هناك.

وإليك نماذج من الاختلاف في القراءة ممّا أوجب اختلافاً في التفسير وكذا في استنباط الأحكام فيما حسبوا:

١ - قوله تعالى: «أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ...» في سورتي النساء: ٤٣ والمائدة: ٦.

فقد قرأ حمزة والكسائي وخلف: «لمستم النساء». ووافقهم الأعمش.^(١)

قالوا: فعلى قراءة المشهور يكون المعنى: جاءتم... وعلى القراءة الأخرى يحتمل الجماع أو الأعم منه ومن مجرد اللّمس. ومن ذلك اختلاف الفقهاء في مسألة تقض الوضوء بمجرد لمس بشرة المرأة.

قال ابن رشد: اختلف العلماء في إيجاب الوضوء من لمس النساء باليد أو بغير ذلك من الأعضاء الحساسة، فذهب قوم إلى: أن من لمس امرأة بيده مفضياً إليها، ليس بينها وبينه حجاب ولا ستر فعليه الوضوء وكذا من قبلها، لأنَّ القبلة عندهم لمس ما، سواء التذام لم يلتذ.

وبهذا القول قال الشافعي وأصحابه. لكنّه فرّق مرّةً بين اللّمس فأوجب عليه دون الملموسة، ومرّةً سوى بينهما. وأخرى فرّق بين الزوجة فأوجب دون غيرها من ذوات المحارم، ومرّةً سوى بينهما.

وذهب آخرون إلى الإيجاب إذا قارنته لذّة أو قصدها ما عدى القبلة فلم يشترطوا فيها اللذّة. وهو مذهب مالك وجمهور أصحابه.

ونفى قوم إيجاب الوضوء لمن لمس النساء، وهو مذهب أبي حنيفة ولكل سلف من الصحابة.^(٢)

ورويها هنا أحاديث عن عائشة قد تبدو عليها آثار الوهن:

فقد روي بالإسناد إلى عروة عن عائشة قالت: إن رسول الله ﷺ قَبِلَ بِعِضِ نَسَائِهِ ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ. فَقُلْتُ: مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ؟ فَضَحِكْتَ!
وفي حديث آخر قالت: كان رسول الله ﷺ يَصَلِّي وَأَنَا مُضْطَجِعَةٌ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقَبِيلَةِ. فَكَانَ إِذَا سَجَدَ غَمَزَ رِجْلِي!

وأحاديث أخرى لم يعتمدوا الأئمة وضعفها نُقَادَ الحديث. (١)

قلت: لاشك أن اللمس والعلامسة في هكذا تعابير (بالإفشاء إلى النساء) كناية عن الجماع لا يستريب فيه أحد. قال الزمخشري: ومن المجاز: لَمَسَ الْمَرْأَةَ وَلَا مَسَهَا: جَامِعَهَا. وَالْمَسْنِي أَمْرًا: زَوَّجْنِيهَا. وَفَلَانَةٌ لَا تَرُدُّ يَدَ لَامِسٍ: لِلْفَاجِرَةِ. وَفَلَانٌ لَا يَرُدُّ يَدَ لَامِسٍ: لِمَنْ لَا مَنَعَةَ لَهُ. (٢)

٢- قوله تعالى: «فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ قَرِيضَةً». (٣)

جاء في قراءة أبي بن كعب وكذا نسب إلى ابن عباس وابن جبير: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن». (٤)

زعموا أن الآية على قراءة المشهور تعني الاستمتاع بالزوجة إذا تزوجها، فستحق صداقها أجمع. وجاءت القراءة الثانية دليلاً على إرادة الزواج المؤقت! لكنهم غفلوا عن أن الآية بذاتها (حتى على القراءة الأولى) ناصتة على إرادة الزواج المؤقت. نظراً للتعبير بالأجر دون المهر. والأجر تجاه الاستمتاع، إذا لم يقترن بدليل آخر، ظاهر في إرادة نكاح المتعة دون الدائم. فقد جاءت القراءة الثانية شاهداً على هذا المعنى وإيضاحاً للمراد، كما هي عادة السلف من الزيادات التفسيرية أثناء تلاوة الآيات وذلك عند عدم الالتباس كما هنا.

(١) المصدر: والسنن الكبرى للبيهقي، ج ١، ص ١٢٦ و ١٢٨.

(٢) أساس البلاغة، ج ٢، ص ٣٥٤. (٣) النساء، ٤: ٢٤.

(٤) جامع البيان، ج ٥، ص ٩.

٣- قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ، وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ...»^(١).

قرأ نافع وابن عامر وعاصم برواية حفص والكسائي ويعقوب: «وأرجلكم» بالنصب. وقرأ أبو جعفر وأبو عمرو وابن كثير وعاصم برواية ابن عياش: «وأرجلكم» بالخفض.^(٢) حسبوا أن في قراءة النصب عطفًا على مدخول الفسل، وفي قراءة الخفض عطفًا على مدخول المسح؛ وبذلك اختلف أهل النظر: هل يجب غسل الأرجل أم مسحها؟

٤- قوله تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ، قُلْ هُوَ أَذَىٌّ، فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ...»^(٣).
قرأ حفص والمشهور: «حَتَّى يَطْهُرْنَ» بسكون الطاء وضمّ الهاء مخففة.
وقرأ ابن عياش وحمزة والكسائي وخلف: «حَتَّى يَطْهُرْنَ» بتشديد الطاء والهاء مفتوحة.^(٤)

قالوا: كان مقتضى القراءة بالتخفيف هو جواز وطئ الحائض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل. أمّا على القراءة بالتشديد فلا يجوز إلا بعد اغتسالها من الحيض. ومن ثمّ اختلف الفقهاء في ذلك!^(٥)

(٢) الشرح ج ٢، ص ٢٥٤.

(١) المائدة ٦: ٥.

(٤) الشرح ج ٢، ص ٢٢٧.

(٣) البقرة ٢: ٢٢٢.

(٥) راجع التمهيد ج ٢، ص ١٠٣-١٠٢.

مقارنة نموذجية بين قراءة حفص وقراءات تخالفها

كانت ولا تزال قراءة عاصم - برواية حفص - هي القراءة المفضّلة، والتي تقبلها جمهور المسلمين في جميع الأدوار والأعصار، وفي جميع البلدان والأمصار، وذلك لميزات كانت فيها، أهمّها:

أنّ عاصماً جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد الأمر الذي حُصِّ به الوصفُ في كتب تراجم القراء^(١). كما اختلفَ بعلوِّ الإسناد وارتفاعه إلى الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بواسطة واحدة، هو التابعي الكبير أبو عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي... وكانت قراءة الإمام هي قراءة رسول الله صلى الله عليه وآله بلا شك، عن جبرئيل عن الله عزَّ وجلَّ، فكانت هي الحجة المعبرة.

وحفصُ كان أتقن أصحاب عاصم وأعلمهم بقراءته. قال ابن معين: الرواية الصحيحة التي رويت من قراءة عاصم رواية حفص بن سليمان^(٢).

قال الشاطبي: ... وحفص... وبالإتقان كان مفضلاً^(٣).

وفي العرض التالي مقارنة نموذجية بين هذه القراءة وسائر القراءات التي تخالفها، ليتبيّن مدى قوتها وإتقانها حسب المقاييس أيضاً، فضلاً عن قوّة السند وإتقان المأخذ كما عرفت، وإليك ملتقطات من ذلك حسب ترتيب السور:

(١) دافع ابن الجزري في شرح طيبة النشر: ص ٩، والمكزّر لسراج الدين الأنصاري: ص ٥.

(٢) سراج القارئ (شرح الشاطبية): ص ٦٤.

(٣) المصدرين السابقين.

فمن سورة الفاتحة

«مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»^(١)

قرأ عاصم والكسائي: «مالك» بالألف. وقرأ الباقر وغير ألف.

وهكذا روى العياشي بإسناده إلى الحلبي: أَنَّ الإمامَ أبا عبد الله الصادق عليه السلام كان يقرأ «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ». والظاهر أَنَّهُ عليه السلام كان ذلك دأبه. نعم، كان كثيراً ما يقرأ بغير ألف أيضاً. لما رواه العياشي بإسناده عن داود بن فرقد، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقرأ مالا أحصي «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ» بغير ألف^(٢).

غير أن في نسبة «مَلِكِ» بغير ألف إلى الإمام عليه السلام نوع خفاء، إذ لعله كان يميل بالألف. كما هي عادة العرب في اللهج بالألفات المشالة غير المقلوية عن الواو أن يتلفظوا بمالة إلى الباء تقريباً، بحيث ربما لا يُحسُّ بقراءة الألف عند السامع، فحسب الراوي أَنَّهُ عليه السلام قرأ بغير ألف. والظاهر جواز القراءة بالوجهين، وإن كان الأرجح قراءة الألف، لكونها هي المحفوظة في صدور المسلمين عامتهم وخاصتهم، مما يدل على أنها هي الأصل المأثور متواتراً. ولأن الإمام عليه السلام كان يتداوم عليها، وإن كان قد يقرأ بغير ألف أحياناً، ولعل الثانية كانت للموافقة مع قراء الحجاز (مكة والمدينة) آنذاك^(٣).

وقد رجَّح الأخفش قراءة الألف، لأنَّ «مالكاً» يضاف في اللفظ إلى سائر المخلوقات (أي جميعها) يقال: مالك الناس والجن والحيوان، ومالك الرياح والظير وسائر الأشياء. ولا يقال ملك... قال: فلما كان ذلك كذلك كان الوصف بالملك - بكسر الميم - أعم من الوصف بالملك - بضم الميم - لأنه يملك جميع ما ذكرنا وتحيط به قدرته.

قال أبو زرعة - تعقياً على هذا الكلام -: قال علماؤنا: إنما يكون الملك - بالكسر - أبلغ في المدح فيما أُضيف إلى الله مما أُضيف إلى المخلوقين، لأنَّ أحدهم إنما يملك شيئاً دون

(١) تفسير العياشي: ج ١ ص ٢٢-٢٣.

(٢) الفاتحة: ٤.

(٣) ابن كثير قارئ مكة من السبعة مات سنة (١٢٠ هـ) ونافع قارئ المدينة مات سنة (١٦٦ هـ)، وعاش الإمام جعفر بن محمد

شيء والله يملك كل شيء^(١).

قلت: المُلْك - بالضم - هو السلطة، والأكثر كونها في السياسة الإدارية لأمة أو رقعة من الأرض. ومن ثم كان ملكوت السماوات والأرض بيده تعالى: «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٢).

والمِلْك - بالكسر - أعم وأشمل، وهو أساس المُلْك - بالضم - ومنشأه الأول. وهو في المخلوق عرضي اعتباري، وفيه تعالى أصيل حقيقي، لأنه تعالى إنما مَلَكَ الأشياء كلها بالصنع والإيجاد، فكان هو المالك لجميع الأشياء كلها ملكاً حقيقياً، وفي غيره اعتباري محض.

قال الراغب: المُلْك - بالضم - ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والمِلْك - بالكسر - كالجنس للمُلْك - بالضم - فكلُّ مُلْكٍ مِلْكٌ، وليس كلُّ مِلْكٍ مُلْكاً. قال تعالى: «قُلِ النَّسَمُ مَالِكِ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ»^(٣). «وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا»^(٤) وقال: «أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ»^(٥). «قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا»^(٦). وفي غيرها من الآيات.

وَرُجِحَ «مَالِكٌ» عَلَى «مِلْكٌ» بوجوه:

قال تغلب: إن مالكا أبلغ من ملك، لأنه قد يكون الملك على من لا يُملك، كما يقال مِلْكٌ الروم وإن كان لا يملكهم، ولا يكون مالكا إلا على ما يُملك.

وقال آخر: إن مالكا أبلغ في المدح للخالق من ملك، وملك أبلغ في مدح المخلوقين من مالك، لأن مالكا من المخلوقين يكون غير ملك إلا واحداً في كثير. وإذا كان الله مالكا فهو ملك إطلاقاً.

قال الشيخ: والأقوى أن يكون «مالك» أبلغ في المدح فيه تعالى، لأنه ينفرد بالملك

(١) حجة القراءات: ص ٧٩. (٢) جاءت في عشرة مواضع من القرآن.

(٣) آل عمران: ٢٦. (٤) الفرقان: ٣.

(٥) الأعراف: ١٨٨. (٦) يونس: ٣٦.

ويعلمك جميع الأشياء فكان أبلغ^(١).

وقال أبو علي الفارسي: يشهد لمن قرأ «مالك» من التنزيل قوله تعالى: «يَوْمَ لَا تَشْكُرُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ»^(٢). لأن قولك: «الأمر له» و«هو مالك الأمر» بمعنى، ألا ترى أن لام الجر معناها الملك والاستحقاق^(٣).

وأخيراً، والذي يحسم النزاع: أن المأثور عن السلف هي القراءة بالالف. وقد كان النبي ﷺ وكذا كبار صحابته يقرأون «مالك» بالالف، وأول من قرأها «ملك» بلألف هو مروان بن الحكم ومن على شاكلته ذلك العهد. ولم يثبت عن غيره من كبار الصحابة والتابعين الأعلام أنه قرأها بغير ألف^(٤).

ومن سورة البقرة

«وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ»^(٥).

قرأ نافع وراويه (قالون وورش) وابن كثير وأبو عمرو: «وَمَا يَخَادِعُونَ». واحتج أبو عمرو بأن الرجل إنما يخادع نفسه ولا يخدعها، أي يحاول ذلك ولا يحقق منه.

وقرأ عاصم وراويه (شعبة وحفص) وسائر الكوفيين وغيرهم: «وَمَا يَخْدَعُونَ». وحثتهم في ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم يخادعون الله والذين آمنوا... بقولهم: «آمنّا بالله واليوم الآخر»^(٦) فأثبت لهم مخادعتهم الله والمؤمنين.

فلو كان عقبه بأنهم لا يخادعون الله والمؤمنين وإنما يخادعون أنفسهم كان ذلك تنافياً في الكلام، إذ كان قد نفى في آخر الكلام ما أثبتهم في أوله.

(١) تفسير البيان: ج ١ ص ٣٥. (٢) الانطباع: ١٩.

(٣) مجمع البيان: ج ١ ص ٢٤.

(٤) قد فصلنا الكلام فيه عند الكلام عن قراءة السلف لسورة الحمد في كتابنا الكبير «التفسير الأتري الجامع». وراجع أيضاً:

سنن أبي داود، ج ٤، ص ٣٧، رقم ٤٠٠٠ و ٤٠٠١ كتاب العروف والقراءات. وجامع الترمذي، ج ٥، ص ١٨٥-١٨٦، رقم

٢٩٢٨، كتاب القراءات عن رسول الله. والمصاحف للجستاني، ص ٩٢-٩٤. وغيرها من مصادر ذكرناها هناك.

(٦) البقرة: ٨.

(٥) البقرة: ٩.

أما لو قرئ بغير ألف كان قد أُخبر أن المخادعة من فعلهم، لكن الخدع إنما يحيق بهم خاصة دون غيرهم من المؤمنين^(١).

توضيح ذلك: أن المخادعة هي محاولة الخدع. يجوز أن يقع ويجوز أن لا يقع، قال تعالى: «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ»^(٢). أما الخدع فهو تعبير عن تحققه ووقوع تأثير الخداع، الأمر الذي ينفيه تعالى بالإضافة إلى نفسه والمؤمنين. وإنما يحيق المكر السيء، بأهله.

وبذلك يتبين وهن احتجاج أبي عمرو، لأنهم لم يحاولوا خداع أنفسهم، وإنما وقع تأثير الخداع بأنفسهم من غير أن يكونوا أرادوه، قال تعالى: «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٣).

قال مكِّي بن أبي طالب: وقراءة من قرأ بغير ألف أقوى في نفسي، لأن الخداع فعل أنفسهم قد يقع وقد لا يقع، والخدع فعل وقع بلا شك. فإذا قرأت: «وما يَخْدَعُونَ» أخبرت عن فعل وقع بهم بلا شك، وأما إذا قرأت: «وما يُخَادِعُونَ» جاز أن يكون لم تقع بهم المخادعة. فـ«يخدعون» أمكن في المعنى....

قال أبو حاتم: العامة عندنا على قراءة «وما يَخْدَعُونَ»^(٤).



«وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ»^(٥).

قرأ عاصم وحزمة والكسائي: «يَكْذِبُونَ» بالتخفيف. وقرأ الباقر بالتشديد. وقراءة التخفيف هي الأشبه بسياق الآية، لأنهم إنما عوتبوا على كذبهم ونفاقهم، ولم يكن نكته تكذيب في ظاهر الكلام. «والله يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ»^(٦). فقد صحّت قراءة

(١) حجة القراءات: ص ٨٧.

(٢) الأنفال: ٦٢.

(٣) فاطر: ٤٣.

(٤) الكشف: ج ٦ ص ٢٢٥-٢٢٧.

(٥) البقرة: ١٠.

(٦) المنافقون: ١.

التخفيف ليكون الكلام على نظام واحد^(١).

«وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ الْحَقِّ»^(٢).

قرأ نافع وراويه (قالون وورش): «النبئين» بالهمز... وهو من النبر في القرآن المنهَى عنه صريحاً عن النبي ﷺ.

روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبي الله، فنهره وقال: لست نبي الله ولكني نبي الله. وفي رواية: إننا معشر قريش لا ننبر.

ولما حج المهدي العباسي قدم الكسائي يصلي بالناس، فهمز، فأنكر عليه أهل المدينة وقالوا: إنه ينبر في مسجد رسول الله ﷺ بالقرآن!!^(٣).

وقد روى الصدوق بإسناده عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: تعلموا القرآن بعريته. وإياكم والنبر فيه، يعني الهمز^(٤). قال الصادق عليه السلام: الهمز زيادة في القرآن، إلا الهمز الأصلي مثل قوله تعالى: «أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ»^(٥) وقوله: «لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ»^(٦) وقوله: «فَادَارَأْتُمْ فِيهَا»^{(٧) (٨)}.

وقرأ عاصم وسائر القراء: «النبئين» على الأصل المعهود من لغة قريش.

قال أبو محمد مكي بن أبي طالب: قرأ نافع وحده: النبيء والنبوءة والأنبياء والنبئين بالهمز - في جميع القرآن، إلا في موضعين من سورة الأحزاب^(٩) فإن قالون لم يهمزهما^(١٠). وهذا الكلام يستدعي أن ورشاً تبع نافعاً في الهمز بالجمع.

وهذا غريب، كيف أن نافعاً قارئ المدينة يخالف رأي نبيها وأهلها والمسلمين في النبر

(١) راجع حجة القراءات: ص ٨٩، والكشف: ج ١ ص ٢٢٨.

(٢) البقرة: ٦١.

(٣) نهاية ابن الأثير: ج ٥ ص ٧. وراجع التمهيد: ج ٢ ص ٦٤.

(٤) في نسخة الوسائل «النز» بالرأي، وهو تصحيف، والصحيح ما أتينا به بالراء المهملة.

(٥) النمل: ٢٥.

(٦) التحل: ٥.

(٧) البقرة: ٧٢.

(٨) وسائل المشيئة: باب ٣٠ من أبواب قراءة القرآن ج ١ ص ٤ ص ٨٦٥.

(٩) الآية: ٥٠ و ٥٣.

(١٠) الكشف: ج ١ ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

في القرآن؟

قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلا ويقول: تنبأ مسيلمة، بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبي كما تركوه في الذرية والبرية والخابية. إلا أهل مكة فإنهم يهزمون هذه الأحرف الثلاثة ولا يهزمون غيرها، ويخالفون العرب في ذلك^(١).

إذاً كانت قراءة عاصم وفق لغة قريش الذين نزل القرآن بلغتهم، كما كانت متوافقة مع الفصحح من لغة العرب جميعاً، وقد نزل القرآن عربياً وعلى لغتهم ولهجتهم... سوى أن (ورشاً) وشيخه (نافعاً) خالفاً قريشاً وسائر العرب أجمعين. وقد قال تعالى: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ»^(٢).



«قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا»^(٣)

قرأ نافع: «هُزْءٌ». والباقون: «هُزْءٌ». وقرأ حفص: «هُزُؤًا» بغير همز وضمتين، لأنه كره الهمز بعد ضمتين في كلمة واحدة فليتها، وهي المتوافقة مع لغة العرب الفصحح السليسة، وهي القراءة المعروفة عند عامة المسلمين.

قال مكّي: «هزواً، وكفواً، وجزءاً» قرأ حمزة بإسكان الزاي والفاء، وضمتها الباقون. وكلهم همز إلا «حفصاً» فإنه أبدل من الهمزة واواً مفتوحة على أصل التخفيف^(٤).

«إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ»^(٥)

قرأ نافع: «ولا تُسْأَلُ» نهياً ولا وجه له. إلا على مذهب فاسد تركناه^(٦). وقرأ عاصم والباقون: «ولا تُسْأَلُ» أي لست مسؤولاً عنهم، كما في قوله تعالى: «فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ. لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ»^(٧). ونظيرها من آيات نزلت تسليية لخاطره ﷺ، كانت نفسه الكريمة

(٢) الشعراء: ١٩٣-١٩٥.

(١) نهاية ابن الأثير: ج ٥ ص ٤.

(٤) راجع الكشف: ج ١ ص ٢٤٧، وحجّة القراءات: ص ١٠١.

(٣) البقرة: ٦٧.

(٦) راجع حجّة القراءات: ص ١١١.

(٥) البقرة: ١١٩.

(٧) العنكبوت: ٢١-٢٢.

تذهب عليهم حسرات أن لا يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً. ولعله ﷺ كان يخشى المسؤولية التي جاءت الإشارة إليها في قوله تعالى: «فَلْتَسْأَلُوا الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنْتَسْأَلَهُمْ أَلْمُرْسَلِينَ»^(١).

«وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً»^(٢).

قرأ نافع وابن عامر: «ولو ترى» خطاباً إلى النبي ﷺ وعليه فجواب الشرط محذوف مقدر، أي لرأيت أمراً فظيماً. وهكذا يبقى «أَنَّ الْقُوَّةَ» بلا محلٍّ للإعراب إلا بتقدير «لأنَّ القُوَّةَ...». وهذا كله تكلف^(٣).

وقرأ عاصم والباقون «ولو يرى» جرياً مع ظاهر الكلام من غير تكلف تقدير.

«فَأَنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»^(٤).

قرأ ورش عن نافع «الداعي» بالياء، لآتية الأصل^(٥).

وقرأ عاصم والباقون: «الداع» بغير ياء، وحجته أن ذلك في المصحف كذلك بغير ياء، فلا ينبغي أن يخالف رسم المصحف^(٦).

«وَزَلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ...»^(٧).

قرأ نافع: «حَتَّى يَقُولَ» بالرفع، زعماً أنها بمعنى «قال» على الماضي^(٨).

وقرأ عاصم والباقون بالنصب على الأصل، لأنَّ مدخول «حَتَّى» غاية للزلال، وتكون «حَتَّى» هنا بمعنى «إلى أن».

«قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَنْ لَا تُقَاتِلُوا»^(٩).

قرأ نافع: «هل عَسَيْتُمْ» بكسر السين، لغة رديئة. وقرأ عاصم والباقون بالفتح، لغة فصحن.

(١) الأعراف: ٦. (٢) البقرة: ١٦٥.

(٣) راجع حجة القراءات: ص ١٦٩. (٤) البقرة: ١٨٦.

(٥) راجع حجة القراءات: ص ١٢٧. (٦) راجع حجة القراءات: ص ١٢٧.

(٧) البقرة: ٢١٤. (٨) حجة القراءات: ص ١٢١.

(٩) البقرة: ٢٤٦.

قال أبو عبيد: القراءة عندنا هي الفتح، لأنها أعرف اللغتين. ولو كان الكسر صحيحاً لقُرئ «عسى ربنا...»^(١) بكسر السين، وقد أجمعوا هناك على الفتح لا غير.

قال مكّي: والفتح في السين هي اللغة الفاشية، وعليها أجمع القراء. ونافع معهم في غير ما هنا.

قال: وهو الاختيار. لإجماع القراء عليه مع المضمر والمظهر، وإنما خالفهم نافع وحده مع المضمر. وقد قال أبو حاتم: ليس للكسر وجه^(٢).

«إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُهَا وَنَهَا»^(٣).

قرأ عاصم: «تجارة» بالنصب خيراً، والاسم مضمر، والمعنى: «إِلَّا أَنْ تَكُونَ الْمَعَامَلَةَ تِجَارَةً حَاضِرَةً». وقرأ الباقون «تجارة» بالرفع. على أن تكون «كان» تامة. قياساً على قوله: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ قَبْلَهَا»^(٤).

لكن الرفع هناك كان لأجل الدلالة على عموم الحكم، يشمل كل معسر، وليس مخصوصاً بالمتبايعين فحسب، ومن ثم أجمعوا على الرفع هناك، فلا موضع للقياس عليه^(٥).

«وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ»^(٦).

قرأ ابن كثير وأبو عمرو: «فُرْهَانٌ» بضم الراء والهاء، جمع رَهْن. مثل سَقْفٍ وَسُقْفٍ. وقرأ عاصم والباقون: «فَرِهَانٌ» لأن جمع فَعَلَ على فِعَالٍ أقيس في العربية، نحو بَحْرٍ وَبِحَارٍ وَعَبْدٍ وَعِبَادٍ، وَكَعْبٍ وَكِعَابٍ، وَنَعْلٍ وَنِعَالٍ.

قال مكّي: جمع فعل على فعال كثير، وجمع فَعَلَ على فُعَلٍ قليل، وإنما أتى منه أشياء نواذر في الكلام. فيحمل القرآن على الكثير الفاشي وهو فعال، وهو الاختيار^(٧).

(١) القلم: ٣٢. (٢) راجع حجة القراءات: ص ١٤٠، والكشف: ج ١ ص ٢٠٣.

(٤) البقرة: ٢٨٠.

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٦) البقرة: ٢٨٣.

(٥) الكشف: ج ١ ص ٣٢٢.

(٧) الكشف: ج ١ ص ٣٢٣.

ومن سورة آل عمران

«فِيَّةً تَقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ»^(١).

وقرأ نافع: «تروهم» بالتاء بناءً منه على أن الخطاب مع اليهود^(٢). وقرأ عاصم والباقون بالياء. قال أبو عمرو: لو كانت بالتاء لكانت «مثليكم» قال مكّي: وقد كان يلزم من قرأ بالتاء أن يقرأ «مثليكم» وذلك لا يجوز. لمخالفة الخط^(٣).

«فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ»^(٤).

قرأ نافع وأبو عمرو: «وَمَنِ اتَّبَعَنِي» بالياء على خلاف مرسوم الخط وقرأ عاصم والباقون وفق رسم خط المصحف الشريف^(٥).

«قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ»^(٦).

قرأ ابن عامر: «بما وضعت» بضم التاء وقرأ عاصم - برواية حفص والباقون - بسكون التاء. إذ لو كان ذلك من كلامها لكان الأليق أن يكون: ربّ إني وضعتها أنثى وأنت أعلم بما وضعت^(٧).

ومن سورة النساء

«نُكِّفُوا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا»^(٨).

قرأ نافع: «مُدْخَلًا» بفتح الميم مصدرًا ثلاثياً^(٩).

وقرأ عاصم والباقون بالضم. ليتوافق المصدر مع الفعل، كما في سورة الإسراء: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقِي وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ»^(١٠) مصدرًا مزيداً باتفاق القراء. «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا»

(١) آل عمران: ١٣. (٢) حجة القراءات: ص ٨٥٤.

(٣) الكشف: ج ١ ص ٤٣٦. (٤) آل عمران: ٢٠.

(٥) حجة القراءات: ص ١٥٨. (٦) آل عمران: ٣٦.

(٧) حجة القراءات: ص ١٦٦. (٨) النساء: ٣٦.

(٩) حجة القراءات: ص ١٩٩. (١٠) الإسراء: ٨٠.

قرأ حمزة والكسائي: «أَوْ لَمَسْتُمْ ...»^(١) بغير ألف. وقرأ عاصم والباقون بالألف، وحيثهم ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «لامستم النساء» أي جامعتم، ولكن الله يُكَنِّي^(٢).

ومن سورة العائدة

«وَأَمْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَافِرِينَ»^(٣).

قرأ عاصم برواية حفص: «أَرْجُلِكُمْ» بالنصب. وهكذا قرأ نافع وابن عامر والكسائي. وقرأ برواية شعبة بالخفض، وهكذا ابن كثير وأبو عمرو وحمزة^(٤). وقد تكلمنا عن قراءة النصب وكونها هي المختارة وفق المذهب الصحيح في مسح الأرجل.

ومن سورة الأنعام

«أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهُدَاهُمْ اقْتَدِه»^(٥).

قرأ حمزة والكسائي: «اقْتَدِ». وقرأ عاصم والباقون: «اقتده» بهاء السكت وصلأ، وحيثهم أنها مثبتة في المصحف، فكروها إسقاط حرف من المصاحف^(٦).

«وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُهُمْ»^(٧).

قرأ ابن عامر: «شُرَكَائِهِمْ» بإضافة القتل إلى الشركاء مع فصل المفعول به. وقد خطأه الأئمة وسائر العلماء.

وقرأ عاصم والباقون: «شُرَكَاءُهُمْ» بإضافة القتل إلى الأولاد ورفع الشركاء فاعلاً

(١) النساء: ٤٣. (٢) حجة القراءات: ص ٢٠٥.

(٣) المائدة: ٦. (٤) حجة القراءات: ص ٢٢٣.

(٥) الأنعام: ٩٠. (٦) حجة القراءات: ص ٢٦٠.

(٧) الأنعام: ١٣٧.

للمصدر . وقد بحثنا عن ذلك سابقاً .

ومن سورة الأعراف

«وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ»^(١).

«بُشْرًا» بالباء . وكذا في سورتي الفرقان^(٢) . والنمل^(٣) . هذه هي قراءة عاصم وحده . قال أبو زرعة : وحجته قوله تعالى : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ»^(٤) وذلك أن الريح تبشّر بالمطر . قال : وكان عاصم ينكر أن تكون الريح تنشر . وكان يقول : المطرُ ينشر . أي يحيي الأرض بعد موتها . يقال : نشر وأنشر إذا أحيى^(٥) .

وقرأ حمزة والكسائي : «نُشْرًا» . وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : «نُشْرًا» . وقرأ ابن عامر «نُشْرًا» . ودلائلهم في ذلك غير وافية^(٦) .

ومن سورة هود

«يَأْتِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ»^(٧)

قرأ عاصم وحده : «يا بُني» بفتح الياء . وقرأ الباقون بالكسر . ويأتي نظيره في سورة لقمان .

ومن سورة النحل

«إِنْ تَحْرِضْ عَلَيْنَا فَمَا نُؤْتِيهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ»^(٨) .

قرأ عاصم وحمزة والكسائي : «لا يَهْدِي» بفتح ياء المضارعة وكسر الدال . وقرأ نافع

(١) الأعراف : ٥٧ . (٢) الفرقان : ٤٨ .

(٣) النمل : ٦٣ . (٤) الروم : ٤٦ .

(٥) حجة القراءات : ص ٢٨٦ . (٦) راجع الكشف : ج ١ ص ٤٦٥ .

(٧) هود : ٤٢ . (٨) النحل : ٢٧ .

والباقون: «لا يُهدى» بضمّ الياء وفتح الدال، بمعنى أنّ الذي أضلّه الله فلا هادي له^(١١). لكن يبقى ربط الكلام غير منسجم!

ومن سورة الكهف

«وَكَانَ لَهُ نَمْرٌ»^(٢)

«وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ»^(٣)

قرأ عاصم وحده «نَمْرٌ» «بِثَمَرِهِ»^(٤) بفتحتين. وقرأ أبو عمر: «ثَمْر» «بِثَمَرِهِ» بالضم فسكون. وقرأ الباقون: «ثَمْر» «بِثَمْرِهِ» بضمّتين.

والقياس مع عاصم بدليل «كَلَّمْنَا الْجَثِينِ أَتَتْ أَكُلْهَا...»^(٥) والأكل هو التمر^(٦). فضلاً عن موافقة جمهور المسلمين.

«وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا»^(٧)

قرأ حفص وحده: «لِمَهْلِكِهِمْ» على وزن مجلس بكسر اللام. وقرأ شعبة بفتح اللام. وقرأ نافع و**الباقون**: «لِمَهْلِكِهِمْ» بضمّ الميم وفتح اللام^(٨).

ومن سورة مريم

«تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَّقَطْنَ مِنْهُ»^(٩)

قرأ نافع والكسائي: «تَكَادُ» بالياء. وقرأ عاصم و**الباقون**: «تَكَاد» بالتاء^(١٠). وهو الأنسب، لأنّ الاسم جمع مؤنث سالم بالألف والتاء، ولا سيّما وضمير الجمع المؤنث العائد

(١) حجة القراءات: ص ٣٤٠. (٢) للكهف: ٣٤.

(٣) للكهف: ٤٢. (٤) للكهف: ٣٤.

(٥) الكهف: ٣٢. (٦) حجة القراءات: ص ٣٨٨.

(٧) الكهف: ٥٩. (٨) حجة القراءات: ص ٤١٦.

(٩) مريم: ٩٠. (١٠) حجة القراءات: ص ٤٢١.

عليها. ولا كذلك لو كان جمع مكسر ولو كان مؤنثاً حقيقياً، كما في «قال نسوة»^(١).

ومن سورة طه

«طه»^(٢)

قرأ أبو عمرو: «طاء هـ» بكسر الهمزة. وقرأ حمزة والكسائي «ط هـ» بالكسر فيهما. وقرأ حفص والباقون: «طاها». قال أبو زرعة: وهو الأصل، لأن العرب تقول: طاء، هاء^(٣).
«قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ»^(٤).

قرأ أبو عمرو: «هذين» بالتشديد والياء. وقرأ عاصم والباقون: «هذان» بالتخفيف والألف. لأنه الموافق لرسم المصحف الإمام^(٥).
وقد تكلمنا عن تفصيل ذلك في مجاله. ولأبي زرعة أيضاً كلام حول ذلك فراجع.

ومن سورة الأنبياء

«وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ»^(٦).

قال الفراء: الفراء يقرأونها بنونين، وكتابتها بنون واحدة. وذلك أن النون الأولى متحركٌ والثانية ساكنة، فلا تظهر الساكنة على اللسان، فلما خفيت حذفت^(٧).
فقد قرأ عاصم برواية حفص، وكذلك سائر القراء، بنونين مع إخفاء الثانية، وفق المعهود من لهجة العرب عند النطق بالنون الساكنة في الحالة السادسة، مما ذكره أئمة القراءة، منهم مكِّي بن أبي طالب فراجع^(٨).
هذا، ولكن ابن عامر وكذا شعبة قرأ «نُجِّي» بتشديد الجيم وسكون الياء.

(٢) طه: ١.

(١) يوسف: ٣٠.

(٤) طه: ٦٣.

(٣) حجة القراءات: ص ٤٥٠.

(٦) الأنبياء: ٨٨.

(٥) حجة القراءات: ص ٤٥٤.

(٧) أي فلما خفيت لساناً حذفت خطأً، وذلك في العهد الأوّل عندما كان الخطّ عند العرب في بدايته.

(٨) المكشوف: ج ١ ص ١٦٦.

قال الفراء: ولا تعلم لها جهة إلا احتمال اللحن، لأنَّه الم يسمُّ فاعله إذا خلا باسم رفعه. قال أبو زرعة: وقالوا أيضاً: «نجي» فعل لم يسمِّ فاعله وكان الواجب أن تكون الياء مفتوحة كما في «عزيّ وقُضي»^(١).

قال مكِّي بن أبي طالب: وحجّة من قرأ بنون واحدة أنّه بنى الفعل للمفعول فأضمر المصدر (أي نجى النجاء المؤمنين) ليقوم المصدر مقام الفاعل، ونصب «المؤمنين» على أنّه مفعول به. قال: وفيه بعدٌ من وجهين:

أحدهما: أنّ الأصل أن يقوم المفعول مقام الفاعل دون المصدر، فكان يجب رفع «المؤمنين» وذلك مخالف للخطّ.

والوجه الثاني: أنّه كان يجب أن تفتح الياء من «نجي» لأنّه فعل ماضٍ، كما تقول «رُمي» و«كلم» فأسكن الياء وحقّها الفتح، فهذا الوجه بعيد في الجواز.

قيل: إنّ هذه القراءة على طريق إخفاء النون الثانية في الجيم. قال مكِّي: وهذا أيضاً بعيد لأنّ الرواية بتشديد الجيم والإخفاء لا يكون معه تشديد.

وقيل: أدغم النون في الجيم. قال: وهذا أيضاً لا نظير له، لا تدغم النون في الجيم في شيء من كلام العرب لبعدهما بينهما.

قال: وإبما تعلق من قرأ هذه القراءة أنّ هذه اللفظة في أكثر المصاحف بنون واحدة، فهذه القراءة إذا قرئت (بتشديد الجيم، وضّمّ النون، وإسكان الياء) غير متمكّنة في العربية^(٢).

ومن سورة الشعراء

«نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ»^(٣).

قرأ حفص وأبو عمرو وابن كثير ونافع: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ» بتخفيف «نزل» ورفع «الروح».

(١) راجع معاني القرآن للفراء: ج ٢ ص ٢١٠. وحجّة القراءات لأبي زرعة: ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٢) الشعراء: ١٩٣.

(٣) الكشاف: ج ٢ ص ١١٣.

وقرأ الباقون: «نزلَ به الروحُ الأمينُ» بالتشديد والنصب^(١). أي نزل اللهُ الروحُ بالقرآن. ولا يخفى ما فيه من التعسف؟!

ومن سورة الروم

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ»^(٢)

قرأ حفص وحده: «للعالمين» بكسر اللام، أي العلماء جمع العالم. وهي القراءة المعروفة لدى الجمهور. قال أبو زرعة: وهو المتناسب مع ما قبل الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَكِرُونَ»^(٣) وما بعدها: «لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»^(٤).^(٥)

ومن سورة لقمان

«يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ»^(٦)

قرأ حفص وحده: «يا بني» بفتح الباء في جميع القرآن^(٧). وقرأ الباقون بكسرها في الجميع أيضاً. وأراد حفص «يا بُنَيَّاه» فرخَم ... وهو الأصوب في لسان العرب والأسلس تعبيراً في الكلام^(٨).

ومن سورة الصافات

«وَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَمِنَ الْفَاسِقِينَ»^(٩)

(١) حجة الفراءات: ص ٥٢٠. (٢) الروم: ٢٢.

(٣) الروم: ٢١. (٤) الروم: ٢٤.

(٥) حجة الفراءات: ص ٥٥٨. (٦) لقمان: ١٣.

(٧) رجاءت في ستة مواضع من القرآن.

(٨) راجع الحجة في الفراءات لأبي زرعة: ص ٥٦٤. وأيضاً: ص ٣٤٠.

(٩) الصافات: ١٢٣.

قرأ ابن عامر بغير همز في «الياس» زعماً منه أن اسمه كان «ياس» فدخلت عليه الألف واللام^(١).

والصحيح قراءة الباقيين بالهمز. بدليل ما بعدها «سلامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»^(٢)،^(٣)

ومن سورة النجم

«وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ»^(٤).

قرأ نافع وأبو عمرو: «عَادَلُولَىٰ» فأدغم نون التنوين من «عاداً» في اللام من «الأولى». قال أبو عثمان المازني: أساء عندي أبو عمرو في قراءته. لأنّه أدغم النون في لام المعرفة، واللام إنّما تحرّكت بحركة الهمزة وليس بحركة لازمة (أي ليست هي متحرّكة بذاتها)^(٥).

ومن سورة الواقعة

«يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ - إِلَىٰ قَوْلِهِ - وَحُورٌ عِينٌ»^(٦).

قرأ حمزة والكسائي: «وحورٍ عِينٍ» بالخفض. وقرأ عاصم والباقون بالرفع. قال الزجاج: الرفع أحسن الوجهين.

وقد اختلف الأئمة في وجه إعراب ذلك خفضاً ورفعاً، ولهم في ذلك تفصيلٌ عريض، فليراجع^(٧).

(١) معاني القرآن: ج ٢ ص ٣٩٢.

(٢) الصائغ: ١٣٠.

(٣) حجة القراءات: ص ١٦٠.

(٤) النجم: ٥٠.

(٥) حجة القراءات: ص ١٨٧.

(٦) الواقعة: ١٧-٢٢.

(٧) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢١٦، والكشف: ج ٢ ص ٣٠٤. وحجة القراءات: ص ٦٩٥.

ومن سورة المعارج

«كَلَّا إِنَّهَا لَأُظْنِي . نَزَّاعَةً لِلشَّوْنِي»^(١)

قرأ حفص وحده: «نَزَّاعَةً» بالنصب. وقرأ الباقون: «نَزَّاعَةً» بالرفع: فالنصب على أنه حال، وهو ظاهر معروف.

أما الرفع فقد اختلفوا فيه، قال الفراء: إنه بدل من «لَأُظْنِي». وقال الزجاج: إنه خبر بعد خير بلا فصل عاطف، كما تقول: إنه حللوا حامض^(٢).

وقد ذكر مكِّي للرفع وجوهاً خمسة^(٣). الأمر الذي ينبئك عن ضعفه.

ومن سورة المدثر

«وَالرُّجْزَ فَاهْبِجْ»^(٤).

قرأ حفص وحده: «وَالرُّجْزَ» بضم الراء، يعني الصنم.

وقرأ الباقون: «الرِّجْزَ» بالكسر، يعني العذاب^(٥) أي موجهه، وهو تكلف.

ومن سورة القيامة

«لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(٦)

قرأ ابن كثير: «لَا أُقْسِمُ» بلام تأكيد، وعليه فيبقى عطف «وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللُّوَامَةِ»

عطف نفي على إثبات، وهو كما ترى!

وقرأ عاصم والباقون: «لَا أُقْسِمُ...» كما هو المعروف^(٧).

«وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ»^(٨)

(٢) حجة القراءات: ص ٧٢٣-٧٢٤.

(١) المعارج: ١٥-١٦.

(٤) المدثر: ٥.

(٣) الكشف: ج ٢ ص ٣٣٦.

(٥) حجة القراءات: ص ٧٢٣، والكشف: ج ٢ ص ٣٤٧.

(٦) القيامة: ١.

(٧) حجة القراءات: ص ٧٣٥.

(٨) القيامة: ٢٧.

قرأ حفص وحده: «مَنْ رَاقٍ» بإظهار النون، إعلماً بانفصالها من الراء. وقرأ الباقون بالإدغام.

«أَلَمْ يَكْ نُطْفَةُ مِنْ مَنِيَّ يُسْنَى»^(١)

قرأ حفص وحده «يُسْنَى» بالياء لأن الضمير يعود على المنى. وقرأ الباقون بالتاء بالعود على النطفة، وهو بعيد^(٢).

ومن سورة المطففين

«كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ»^(٣)

قرأ حفص وحده: «بَلْ رَانَ» بإظهار اللام لأنها من كلمة، و«رَانَ» كلمة أخرى. وعليه قراءة الجمهور. وأدغم الباقون^(٤).

«وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ»^(٥).

قرأ حفص وحده: «فَكِهِينَ».

وقرأ الباقون: «فاكِهِينَ».

لكن قياس باب فَعِيلَ يَفْعَلُ - كَفَرِحَ يَفْرِحُ - لازماً، هو مجيء الصفة على فَعِيلٍ مكسور العين كَفَرِحَ. ولا يقاس على «حَدِرَ وحاذِرَ» أو «طَمِعَ وطامعٍ»^(٦) لأنها متعديان.

ومن سورة المسد

«وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ»^(٧)

قرأ عاصم وحده بنصب «حَمَّالَةَ» قطعاً على الذم، لأنها نكرة لا تقع وصفاً للمعرفة - كما

(٢) حجة القراءات: ص ٧٢٧.

(١) القيامة: ٢٧.

(٤) حجة القراءات: ص ٧٥٤.

(٣) المطففين: ١٤.

(٥) المطففين: ٣١.

(٦) رابع سنن القرآن: ج ٣ ص ٢٤٩. والكشف: ج ٢ ص ٣٦٦. وحجة القراءات: ص ٧٥٥.

(٧) المسد: ٤.

قاله القراء... (١)

وقرأ الباقون بالرفع خيراً أو نعتاً، وفيه ضعفٌ وبحاجة إلى تكلف. فراجع.

ومن سورة الإخلاص

«وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» (٢)

قرأ حفص وحده: «كُفُوًا» بضمّتين فالواو المفتوحة. وقرأ حمزة: «كُفْنَا» بالضمّ فالكون مهموزاً. وقرأ الباقون «كُفْنَا» بضمّتين مع الهمز.

وقراءة حفص هي المتوافقة مع خطّ المصحف الشريف بالواو (٣)، فضلاً عن موافقة الجمهور.

قال أبو زرعة: وتبع في ذلك قول العرب: «ليس لفلان كفو ولا مثل ولا نظير». والله جلّ وعزّ لا نظير له ولا مثل (٤).

هذا آخر ما أردنا تثبته في هذا المجال، ولم تكن الغاية الاستقصاء، والحمد لله وسلام على رسوله والأئمة الميامين.

(٢) الإخلاص: ٤.

(١) معاني القرآن: ج ٣ ص ٢٩٨.

(٤) حجة القراءات: ص ٧٧٧.

(٣) التيسير: ص ٢٢٦.

الناسخ والمنسوخ

في القرآن

- النسخ والإصلاحات التشريعية
- سلسلة تدوين هذا العلم
- خطورة معرفة الناسخ عن المنسوخ
- التعريف بالنسخ المصطلح
- حقيقة النسخ في التشريع
- الفرق بين النسخ والبداء
- الفرق بين النسخ والتخصيص
- شروط النسخ الخمسة
- صنوف النسخ في القرآن
- شبهات حول النسخ في القرآن
- عرض آيات منسوخة

الناسخ والمفسوخ في القرآن

النسخ والإصلاحات التشريعية

من طبيعة الحركة الإصلاحية الأخذة إلى التقدّم بوجه عامّ أن يتوارد على تشريعاتها نسخ متتابع حسب تدرّجها التصاعدي نحو قمّة الكمال. تلك طبيعة الحركة الإصلاحية محتمة، ولا سيّما إذا كانت الأُمَّة التي انبعثت فيها هذه النهضة التقدّمية أُمَّة متوغّلة في الضلال وبعيدة عن معالم الحضارة إلى حدّ كبير، حيث الانتشال بها من واقعها السحيق والانسجام مع سجيّتها المتوحّشة، لمّا يبدو مستعدّراً ويتطلّب طبيّ عقبات ومراحل متلاحقة.

وهكذا استدعت التشريعات الإسلامية نسخاً متتالياً منذ أن ظهرت الدعوة في مكّة المكرّمة وحتىّ إلى ما بعد الهجرة إلى المدينة المنوّرة، وقد انتهت شريعة النسخ - فيما يخصّ آي الذّكر الحكيم - بوفاة ﷺ حيث انقطاع الوحي.

وكانت ظاهرة النسخ أمراً لا بدّ منه في كلّ تشريع يحاول تركيز معالمه في الأعماق، والأخذ بيد أُمَّة جاهلة إلى مستوى عالٍ من الحضارة الراقية. الأمر الذي لا يتناسب مع الظفرة المستحيلة، لولا الأناة والسر التدريجي المستمرّ خطوة بعد خطوة.

ومن ثمّ فإنّ النسخ ضرورة واقعية تنطلّبها مصلحة الأُمَّة ذاتها، ولم يكذب ينكر ما لهذه الظاهرة الدينية من فائدة وعوائد تعود على الأُمَّة، وأعظم بها من حكمة الهيّة بالغة.

سلسلة تدوين هذا العلم

ولم يخف على العلماء ما لظاهرة النسخ من حكمة واقعية وحقيقة ثابتة لا محيص عنها،

ومن ثمَّ احتفلوا بشأنها وبذلوا عنايتهم البالغة نحو الاهتمام بها وأخذوا في دراستها والتحقيق من جميع جوانبها المتنوعة.

وأوَّل من عالَج الموضوع ودرسه دراسة فنيَّة وجمع أصوله في تدوين جامع هو: أبو محمَّد عبد الله بن عبد الرحمان الأصمَّ المسمعي من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام. له رسالة في الناسخ والمنسوخ.

ثمَّ تصدَّى جماعة من أصحاب الإمام الرضا عليه السلام للبحث عن ذلك وثبت نتائج بحوثهم في رسائل. منهم: دارم بن قبيصة التميمي الدارمي، وأحمد بن محمَّد بن عيسى القميّ والحسن بن عليّ بن فضال.

وفي القرن الثالث: قام المفسِّر الإماميِّ الكبير عليّ بن إبراهيم القميّ بتدوين رسالته خاصَّة بشأن الناسخ والمنسوخ في القرآن. وكذا محمَّد بن العباس المعروف بابن الحجّام، وأبو عبيد القاسم بن سلام «ت ٢٢٥ هـ»، وجعفر بن مبشر النخعي «ت ٢٣٥ هـ»، وأحمد بن حنبل «ت ٢٤١ هـ»، وسعد بن إبراهيم الأشعري القميّ «ت ٣٠١ هـ».

وفي القرن الرابع: أحمد بن جعفر البغدادي المعروف بابن المنادي «ت ٣٣٤ هـ»، وأبو جعفر أحمد بن محمَّد النحاس «ت ٣٢٨ هـ»، ومحمَّد بن محمَّد النيسابوري «ت ٣٦٨ هـ»، وأبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي «ت ٣٦٨ هـ»، ومحمَّد بن الحسن الشيباني الإمامي. أدرجه في مقدِّمة تفسيره «نهج البيان عن كشف معاني القرآن». ومحمَّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القميّ الشهير بالصدوق «ت ٣٨١ هـ».

وفي القرن الخامس: هبة الله بن سلامة «ت ٤١٠ هـ»، وعبد الفاهر البغدادي «ت ٤٢٩ هـ»، ومكيّ بن أبي طالب «ت ٤٣٧ هـ»، وعليّ بن أحمد بن حزم الأندلسي «ت ٤٥٦ هـ».

وفي القرن السادس: محمَّد بن بركات بن هلال السعدي «ت ٥٢٠ هـ» صاحب «الإيجاز في ناسخ القرآن ومنسوخه»، ومحمَّد بن عبد الله المعروف بابن العربي «ت ٥٤٣ هـ». وأبو الفرج عبد الرحمان بن الجوزي «ت ٥٩٧ هـ».

وفي القرن الثامن: يحيى بن عبد الله الواسطي «ت ٧٣٨ هـ»، وعبد الرحمان بن محمَّد

العتاقي «ت ح ٧٧٠هـ»، ومحمد بن عبد الله الزركشي «ت ٧٩٤هـ» ضمن كتابه «الرهان». وفي القرن التاسع: أحمد بن المتوَّج البحراني «ت ٨٣٦هـ»، وأحمد بن إسماعيل الابشيطي «ت ٨٨٣هـ».

وفي القرن العاشر: عبد الرحمان جلال الدين السيوطي «ت ٩١١هـ» ضمن كتاب «الإبتقان». ومحمد بن عبد الله الاسفراييني.

وفي القرن الثاني عشر: عطية الله بن عطية الأجهوري «ت ١١٩٠هـ».

وفي هذا القرن الأخير (الرابع عشر): كتب سماحة سيِّدنا الأستاذ الإمام الخوئي رحمته في الناسخ والمنسوخ في دراسة عميقة وافية ضمن مؤلفه القيم «البيان». وكتب الأستاذ مصطفى زيد: «النسخ في القرآن الكريم»، والأستاذ علي حسن العريض: «فتح المَنان في نسخ القرآن». وغيرهم ممَّا يطول.

خطورة معرفة الناسخ عن المنسوخ

فإن دَلَّ ذلك فإنَّما يدلُّ على مبلغ اهتمام علماء الأُمَّة بشأن وقوع النسخ في القرآن وتعمير الناسخ عن المنسوخ بشكل قاطع، علماً منهم بأنَّ ذلك هو أولي مقدمات فهم التشريع الإسلامي الثابت المستمر، ولا يمكن استنباط حكم شرعيٍّ مالم يعرف الناسخ عن المنسوخ. والثابت الباقي عن الزائل المتروك.

وروى أبو عبد الرحمان السلمي أَنَّ علياً عليه السلام مرَّ على قاضٍ فقال له: هل تعرف الناسخ عن المنسوخ؟ فقال: لا، فقال: هلكت وأهلكت. تأويل كلِّ حرف من القرآن على وجوه^(١). ولعلَّ هذا القاضي هو أبو يحيى المعرف. كما جاء في حديث سعيد بن أبي الحسن، أَنَّهُ لقي أبا يحيى هذا فقال له: أعرفوني أعرفوني يا سعيد، إِنِّي أنا هو. قال سعيد: ما عرفت أَنك هو. قال: فإِنِّي أنا هو، مرَّ بي علي عليه السلام وأنا أقضي بالكوفة فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنا أبو

(١) تفسير العتاشي، ج ١ ص ١٢ رقم: ١٠٩، الإبتقان، ج ٢ ص ٢٠ الطمعة الأولى.

يحيى . فقال : لست بأبي يحيى . ولكنك تقول : أعرفوني : ثم قال : هل علمت بالناسخ والمنسوخ ؟ قلت : لا . قال : هلكت وأهلك . فما عدت بعد ذلك أقضي على أحد . أنا فمك ذلك يا سعيد^(١) ؟

وقال الإمام الصادق عليه السلام لبعض متفهمي أهل الكوفة : أنت فقيه أهل العراق ؟ قال : نعم ، قال : فيم تفهمهم ؟ قال : بكتاب الله وسنة نبيه ، فقال له الإمام عليه السلام : أتعرف كتاب الله حق معرفته ؟ وتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال : نعم ، قال : لقد ادّعت علماً ، ما جعل الله ذلك إلا عند أهله^(٢) .

وفي حديث احتجاجه عليه السلام على الصوفية : ألكم علم بناسخ القرآن ومنسوخه ؟ - إلى أن قال : - وكونوا في طلب ناسخ القرآن من منسوخه ومحكمه من متشابهه وما أحل الله فيه من حرم ، فإنه أقرب لكم من الله وأبعد لكم من الجهل ، دعوا الجهالة لأهلها ، فإن أهل الجهل كثير وأهل العلم قليل ، وقد قال تعالى : «فوق كل ذي علم عليم»^(٣) .



وقد أصبح البحث عن النسخ في القرآن في هذا العصر مثار جدل عنيف ، من جراء طعون وجهها أعداء الإسلام إلى هذا الكتاب السماوي الخالد : كيف توجد فيه آيات منسوخة الحكم لا فائدة في ثبوتها سوى القراءة المجردة ؟ وهم غفلوا أو تغافلوا عن أن الثبوت القرآني لم يقم على أساس التشريع فحسب . إذ ليس في القرآن من آيات الأحكام سوى ما يقرب من خمسمائة آية ، من بضع وستة آلاف آية - وسنشرح هذه الناحية في حقل ردّ الشبهات - وربما وقف بعض الكتاب الإسلاميين عن ردّ هذه الشبهة وأمثالها ، فأنكر وجود آية منسوخة في القرآن - على ما نبحت - ومن ثم كان من ضرورة الباحث الإسلامي أن يعالج هذه المسألة معالجة فنية على أساليب النقد الراهن ، بعد أن كانت المسألة مما يعنى

(١) رسالة النسخ والمنسوخ لابن حزم (بهامش الجلائن) : ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) تفسير الصافي : المقدمة الثانية ج ١ ص ١٣ .

(٣) وسائل الشريعة : ج ١٨ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، والآية ٧٦ من سورة يوسف .

أخطر جانب من حياة المسلمين وهو كتابهم المعجز الخالد، فيقوم في وجه المعاندين سداً منيعاً؛ ومدافعاً عن كتاب الله المجيد الذي «لا ريب فيه»^(١) و«لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيمٍ حميد»^(٢).

وليكن بحثنا الحاضر مقتصرأً على مسألة «النسخ في القرآن» بصنوفه وشرائطه، وليس بحثاً عن مطلق النسخ في الشريعة، الذي هو بحث عام أصولي، خارج - بعض الشيء - عن صبغة البحث القرآني الذي هو موضوع كتابنا هذا، ومن الله التوفيق.

التعريف بالنسخ

جاءت تعاريف العلماء للنسخ مختلفة وفاءً وقصوراً لهذه الظاهرة الدينية، غير أنها جميعاً تشير إلى حقيقة واحدة نلخصها فيما يلي:

«هو رفع تشريع سابق - كان يقتضي الدوام حسب ظاهره - بتشريع لاحق، بحيث لا يمكن اجتماعهما معاً، إما ذاتاً إذا كان التنافي بينهما بيئاً، أو بدليل خاص من إجماع أو نص صريح».

إذا فرغ الحكم عن بعض أفراد الموضوع العام ليس نسخاً - في الاصطلاح - إذ لم يرتفع التشريع السابق نهائياً، وإنما اختص بسائر الأفراد، ومن ثم فهو تخصيص في العام، أو تقييد في الحكم المطلق.

وكذلك إذا كان الحكم محدوداً صريحاً من أول الأمر فارفعاؤه بانتهاء أمده لا يكون نسخاً في الاصطلاح، وإنما النسخ رفع حكم يكون بطبعه ظاهراً في البقاء والاستمرار لولا مجيء الناسخ ببيان جديد.

وهكذا إذا ارتفع تكليف عند مصادفة حرج أو اضطراب أو ضرر شخصي أو لمصلحة وقتية - على ما يفصلها الفقهاء - لا يكون من النسخ في شيء، إذ جميع ذلك لم يكن من

ارتفاع التشريع، وإنما تبدل الموضوع بطروء أحد هذه العناوين .
 كما لو جاز للمضطر أن يأكل من الميتة بقدر ما يسد رمقه، فإن مثل هذا الجواز لا يكون
 نسخاً للحرمة الأصلية التي كان موضوعها الإنسان المختار، وقد تبدل إلى إنسان مضطر.

حقيقة النسخ

النسخ في حقيقته الأولى - بمعنى «نشأة رأي جديد» - مستحيل عليه تعالى . إذ هو بذلك
 المعنى يستدعي تبدل رأي المتشرع، بظهور خطأ أو نقص في تشريعه السابق . عثر عليه
 متأخراً فأبدل رأيه إلى تشريع آخر ناسخ للأوّل، ويكون هذا الأخير هو الكامل الصحيح
 في نظره حالياً . ويجوز تبدل رأيه ثانياً وثالثاً إلى تشريع ثالث ورابع، وهكذا، مادام يحتمل
 خطأً في كلّ تشريع.

هذا المعنى إنّما يخصّ أولئك المتشرّعين غير المحيطين بالمصالح والمفاسد الكامنة
 وراء الأمور تلك الإحاطة الشاملة . أمّا العالم بالخفايا المحيط بجوامع الواقعيّات في طول
 الزمان وعرضه على حدّ سواء فيمتنع عليه خطأً في إصابة الواقع أو يفوته نقص كان غافلاً
 عنه ثمّ وجده، كلّ ذلك مستحيل بشأنه تعالى .

إذاً فالنسخ المنسوب إليه تعالى نسخ في ظاهره، أمّا الواقع فلا نسخ أصلاً، وإنّما هو
 حكم موقّت وتشريع محدود من أوّل الأمر، وأنّه تعالى لم يشرّعه حين شرّعه إلا وهو يعلم
 أنّ له أمداً ينتهي إليه، وإنّما المصلحة الواقعية اقتضت هذا التشريع الموقّت، وقد شرّعه
 تعالى وفق تلك المصلحة المحدودة من أوّل الأمر.

لكن لمصلحة في التكليف أخفى تعالى بيان الأمد، وأجلّه إلى وقته المحدود . ثمّ في
 نهاية الأمد جاء البيان إلى الناس: إنّ هذا التشريع قد انتهى بهذا الأجل.

فالنسخ في حقيقته الدينية ليس سوى تأخير بيان الأمد المضروب من الأوّل، ولعلّ في
 تأخير هذا البيان مصلحة للأمة، منها الاختبار بتوطينهم على الطاعة فيما كان التكليف
 السابق شاقاً مثلاً، وغير ذلك من مصالح يراها المولى الحكيم.

وعليه فالتعبير عن هذه الظاهرة الدينية بالنسخ تعبيرٌ ظاهريٌّ حسب ما كان يزعمه الناس، حيث فهموا من إطلاق التشريع السابق بقاءه واستمراره. وبعد أن جاء بيان الأمد متأخراً مصحوباً بتشريع لاحق حسبه نسخاً واقعياً للتشريع القديم، لما لمسا من خواص النسخ فيه. وهذه استعارة في التعبير وليس من الحقيقة في شيء.

الفرق بين النسخ والبداء

إذا كان النسخ في التشريع - بمعنى نشأة رأي جديد - مستحيلًا بحقه تعالى فهكذا البداء في التكوين - بنفس المعنى - مستحيل بشأنه تعالى، على حد سواء.

إذ لافرق بين النسخ والبداء، سوى أن الأول خاص بالتشريعات - اصطلاحاً - والثاني بالتكوينات. فإن كلاً منهما في مفهومهما الأصلي - وهو تبدل الرأي - ممتنع بالقياس إلى علمه تعالى الأزلي المحيط، بلا فرق.

إذا فكما أن النسخ إنما كان بمعناه الظاهري مستعملاً في الشريعة - وهو ظهور الشيء بعد خفاه على الناس - فكذلك البداء، ظهور أمر بعد خفاه. سوى أن الأول ظهور أمد حكم كان معلوماً عند الله خافياً على الناس، والثاني ظهور أمر أو أجل كان محتماً عنده تعالى من الأزل، وخافياً على الناس. ثم بدا لهم. أي ظهرت لهم الحقيقة.

والخلاصة: أن للبداء في التكوين - كالنسخ في التشريع - معنيين، يكون أحدهما مستحيلًا بشأنه تعالى، وجائزاً بالمعنى الآخر.

وبذلك يفسر قوله تعالى: «يسحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»^(١). وغيرها من الآيات.

بهتان مفضوح

تبيّن أن البداء الذي تقول به الشيعة - مستنداً إلى الآية الكريمة - هو بذلك المعنى

الجائز، نظير النسخ من غير فرق.

وأما ما نسبته بعض الكتاب السلف، وتابعهم عليه الخلف من غير تحقيق - من إسناد الشيعة البداء المستحيل إلى الله تعالى - فهو افتراء محض وبهتان زور، وهذه كتب الشيعة الكلامية وغيرها من كتب التفسير والحديث، كلها متفقة على تفسير البداء - المسند إلى الله - بمعناه الجائز، وهو الظهور للناس بعد خفاء^(١).

ونحن إذ لا نستغرب افتراءات السلف الموجهة إلى الشيعة، حيث البيئة الفاشمة هي التي وجهتهم ذلك التوجيه الخاطئ، لكننا نستغرب جداً من مناقبة الخلف ونسجهم على نفس ذلك المنوال المعوج، كالأستاذ الزرقاني^(٢) والأستاذ العريض^(٣) ومن لفت لفتهما، مشوا على نفس المنهاج الخاطئ من غير تحقيق عن جلي الأمر، وهذه كتب الشيعة مبسوطة بين أيديهم يفتلون^(٤) ويقتصرون على نقل تلكم الافتراءات الظالمة التي سجلها أسلافهم على أثر ضغط من حكومات غاشمة كانت لا تفسح المجال لجلالة الحقيقة التي كانت تعاكس أهدافهم في سياسة الاغتصاب.

الفرق بين النسخ والتخصيص

إطلاق النسخ على التخصيص كان شائعاً في متداول السلف، ومن ثم أكثروا القول في عدد الآي المنسوخة، فمن الضروري للباحث المعاصر أن يعرف معرفة دقيقة ما بين المصطلحين من فرق، ليستعمل كلًّا منهما في موضعه الخاص، ولا يذهب مذاهب الخلط

(١) راجع - بالخصوص - البيان للإمام الخوئي: ص ٤١٦. (٢) أنظر مناقب المرفان: ج ٢ ص ١٨٢ - ١٨٤.

(٣) أنظر فتح المسائل في نسخ القرآن لعلي حسن العريض: ص ٥٢ - ٥٦.

(٤) هذا «البيان» لسيدنا الأستاذ الإمام الخوئي تبيّن عرض فيه مسألة «البداء» على مستوى علمي دقيق وشامل. في مقال

ضابط جامع بين الإيجاز والوفاء. (راجع مقال «البداء» في التكوين: ص ٤٠٥ - ٤١٨).

وقد فضل القول في العلامة المجلسي طاب ربه في موسوعته القيمة «بحار الأنوار» وبحث عن مسألة البداء بحثاً

تحقيقياً على ضوء مذهب الشيعة المستنق من نصوص صادرة عن أهل البيت عليهم السلام وكلمات كبار العلماء المحققين

السلف. (راجع الجزء الرابع منه: ص ٩٢ - ١٣٤ من الطبعة الحديثة).

القديمة.

يفترق النسخ عن التخصيص: أن الأول قطع لاستمرار التشريع السابق بالمرّة. بعد أن عمل به المسلمون في فترة من الزمن طويلة أم قصيرة. أمّا التخصيص فهو قصر الحكم العام على بعض أفراد الموضوع، وإخراج البقية عن الشمول، قبل أن يعمل المكلفون بعموم التكليف.

فالنسخ اختصاص للحكم ببعض الأزمان. والتخصيص اختصاصه ببعض الأفراد. ذاك تخصيص أزمني، وهذا تخصيص فرديّ. ولا يشبهه أحدهما بالآخر.

نعم، يشتركان في جامع بينهما، هو: ارتكاب خلاف ظاهر بدائيّ في كلّ منهما، كان التشريع الأوّل ظاهراً بطبعه في الاستمرار، فجاء النسخ ليزيل هذا التوهم، ويبيّن أنّ الحكم كان محدوداً من الأوّل، وإن كان لا يعلم به الناس. وهكذا التخصيص، بيان للمراد الحقيقي من اللفظة الظاهرة بطبعها في العموم. فجاء المخصّص كاشفاً عن الواقع المقصود. فكان كلّ من النسخ والتخصيص أداة كشف عن المراد الحقيقي للمشرّع الأوّل الحكيم.

شروط النسخ

نستطيع على ضوء ما تقدّم أن نحدّد «النسخ في القرآن» تحديداً يميّزه عن كلّ ما يشبهه من نظائر بالشروط التالية:

أولاً: تحقّق التنافي بين تشريعين وقعا في القرآن - بحيث لا يمكن اجتماعهما في تشريع مستمرّ تنافياً ذاتياً، كما في آيات وجوب الصّح مع آيات القتال. أو بدليل قاطع دلّ على نقض التشريع السابق بتشريع لاحق، كما في آية الإمتاع إلى الحول مع آية الاعتداد بأربعة أشهر وعشرة أيّام وآية المواريث. فقد قام الإجماع على نسخ الأولى بالأخيرتين.

أمّا في صورة عدم التنافي بين آيتين، كما في آية الإنفاق وآية الزكاة. فلا نسخ اصطلاحياً وإن توهمه البعض، حيث تشريع الإنفاق في سبيل الله ثابت مستمرّ، مندوب إليه في الإسلام مع الأبد، والزكاة واجبة كذلك. ولا تنافي بين استحباب الأوّل ووجوب

الأخيرة أبدياً.

ثانياً: أن يكون التنافي كلياً على الإطلاق، لا جزئياً وفي بعض الجوانب، فإن هذا الثاني تخصيص في الحكم العام، وليس من النسخ في شيء. فأية القواعد من النساء^(١) لا تصلح ناسخة لآية الفض^(٢) بعد أن كانت الأولى أخص من الثانية، والخاص لا ينسخ العام، بل يخصه بما عده من أفراد الموضوع. وهكذا تحليل السمك والجراد لا يكون نسخاً لآية تحريم الميتة^(٣) حتى ولو فرضنا صدق الميتة على السمك الذي أخرج من الماء حيناً فمات، والجراد المأخوذ حيناً ثم يموت^(٤). فإن هذا تخصيص في الآية على الفرض لا نسخ^(٥).

ثالثاً: أن لا يكون الحكم السابق محدداً بأمد صريح، حيث الحكم بنفسه يرتفع عند انتهاء أمده، من غير حاجة إلى نسخ. فمثل قوله تعالى: «فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله»^(٦) لا يصدق عليه النسخ عندما تفيء الفئة الباغية وترجع إلى رشدتها والتسليم لحكم الله.

نعم، في مثل قوله تعالى: «أو يجعل الله لهن سبيلاً»^(٧) يصدق النسخ عندما يأتي البيان، لأن التلميح إلى تحديد الحكم معلقاً على بيان جديد لا يوجب ارتفاع الحكم إلا بعد أن يأتي حكم جديد، وما لم يأت البيان فالحكم الأوّل ثابت ومستمر على إحكامه. إذاً فالتحديد الذي يتنافى مع النسخ هو ما إذا كان الحكم بنفسه يرتفع بانقضاء الأمد المضروب له من الأوّل.

رابعاً: أن يتعلّق النسخ بالتشريعات، فلا نسخ فيما يتعلّق بالأخبار. فقولته تعالى: «ثلثة

(٢) النور: ٦٠.

(١) النور: ٦٠.

(٣) البقرة: ١٧٣.

(٤) بل هذا في المصطلح الأصولي «حكومة». فإن تذكية السمك والجراد شرعاً هو إخراج السمك وأخذ الجراد حينئذ تم.

يموتان.

(٥) راجع رسالة الناسخ والنسخ لابن حزم (بهاشم الجليلي): ج ٢ ص ١٦٦.

(٦) النساء: ١٥.

(٧) الحجرات: ٩.

من الأولين. وثلثة من الآخرين»^(١) لا يصلح ناسخاً لقوله: «ثلثة من الأولين. وقليل من الآخرين»^(٢) فيما زعمه مقاتل بن سليمان. لأن الآية إخبار عن واقعية لا تتغير بالوجوه والاعتبار.

وهكذا الإباحة الأصلية ترتفع بحدوث التشريع من غير أن يكون ذلك نسخاً. حيث تلك الإباحة لم تكن بتشريع، وإنما كانت بحكم العقل الفطري (البراءة العقلية) موضوعها: عدم التشريع فترتفع بالتشريع. فقوله: «فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره»^(٣) لا يصلح ناسخاً لقوله: «وما على الَّذِينَ يَتَّقُونَ من حسابهم من شيء»^(٤)، لأن جواز القعود قبل نزول آية النساء لم يكن مستفاداً من آية الأنعام، بل كان وفق الإباحة الأصلية. ونزلت آية الأنعام دفعاً لتوهم الحظر، حيث كان النهي خاصاً بالنبي ﷺ، فتوهم المسلمون شموله للمؤمنين أيضاً.

خامساً: التحفظ على نفس الموضوع، إذ عندما يتبدل موضوع حكم إلى غيره فإن الحكم يتغير لا محالة. حيث الحكم قيد موضوعه وليس هذا نسخاً. فمثل قوله تعالى: «إلا الَّذِينَ تابوا وأصلحوا وَيَتَّبِعُوا...»^(٥) لا يصلح ناسخاً لقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى...»^(٦)، لأن الذي يبين غير الذي يكتم^(٧). وهكذا كل استثناء أو تخصيص ورد على حكم عام. فقد زعموهما نسخاً على خلاف المصطلح، فيما سيأتي.

ومن هذا الباب ما إذا طرأ عنوان ثانوي يختلف حكمه عن العنوان الذاتي الأولي. كالاضطراب والحرج والتقية. تعرض شيئاً فتجعله جائزاً بعد أن كان بعنوانه الذاتي حراماً مثلاً، كالخمر تحل إذا اضطرت إلى شربها، وهذا لا يسمى نسخاً في الاصطلاح. نظراً لأن الحكم الأول ثابت للخمر بعنوانها الذاتي ولا يزال. وأما الحكم الثاني العارض فهو طارئ

(١) الواقعة: ٣٩ و ٤٠. (٢) الواقعة: ١٣ و ١٤.

(٣) النساء: ١٤٠. (٤) الأنعام: ٦٩.

(٥) البقرة: ١٦٠. (٦) البقرة: ١٥٩.

(٧) راجع ابن حزم (بهاشع الجلالين): ج ٢ ص ١٦٠.

بعنوان الاضطرار. ويرتفع برفع الاضطرار، وهذا من قبيل تبدل الموضوع بالنسبة إلى حالاته الطارئة التي يختلف الحكم الشرعي بحسبها. وعليه فقوله تعالى: «فمن اضطرَّ غير باعٍ ولا عادٍ فلا إثم عليه»^(١) ليس ناسخاً لقوله: «إنما حرّم عليكم الميتة والدم»^(٢). الأمر الذي اشتبه على كثير ممن كتب في النسخ.

صنوف النسخ في القرآن

النسخ في القرآن يتصوّر على أنواع، تعرّض لها القدامى والمحدثون، وقد مرّ عليها أكثرية الباحثين مرور الكرام، في حين أنّ منها ما هو مرفوض على مسرح التحقيق، بعيد عن كرامة القرآن، كتاب الله العزيز الحميد كلّ البعد. ونحن نجري على منوالهم في ذات التقسيم، مع تعقيب كلّ نوع بما تقتضيه أداة النقد والتمحيص التزيه بحوله تعالى:

١- نسخ الحكم والتلاوة معاً

بأن تسقط من القرآن آية كانت ذات حكم تشريعي، وكان المسلمون يتداولونها ويقرأونها ويتعاطون حكمها، ثمّ نسخت وبطل حكمها ومُحيت من صفحة الوجود رأساً. هذا النوع من النسخ مرفوضٌ عندنا، ويتحاشاه الكتاب العزيز. الذي «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»^(٣).

وقد حاول بعض القدامى من أهل الحديث^(٤) - وهكذا لفيف من المحدثين غير المحققين^(٥) - إثبات هذا النوع من النسخ في القرآن، بحجّة مجيئه في حديث صحيح الإسناد إلى عائشة، قالت: كان فيما أنزل من القرآن: «عشر رضعات معلومات يحرّم من» ثمّ

(٢) البقرة: ١٧٣.

(١) البقرة: ١٧٣.

(٤) راجع الإتيان لحلال الدين السيوطي: ج ٣ ص ٦٣.

(٣) فضلت: ٤٢.

(٥) راجع مناهل العرفان لعبد العظيم الزرقاني: ج ٢ ص ٢١٤.

نسخن بخمس معلومات . قالت : وتوفي رسول الله ﷺ وهنَّ فيما يقرأ من القرآن (١) .

قلت : هذا شيء غريب ، كيف يلتزم به من لا يرى التحريف في القرآن !

إذ يرجع إثبات هذا النوع من النسخ إلى القول بالتحريف ، بأن تكون آية ذات حكم تشريعي ، وكانت تنلئ حتى وفاة رسول الله ﷺ ثم نسيت ، وليس ذلك سوى إسقاط آية بعد وفاته ﷺ ، الأمر الذي تنكره جماعة المسلمين إطلاقاً .

والغريب أن الشيخ الزرقاني حاول إثباته بإجماع الفائلين بالنسخ من المسلمين بدليل وقوعه سمعاً (٢) .

غير أن المحققين من العلماء أطلوا هذا النوع من النسخ رأساً ، وحاول بعضهم تأويل الحديث ، بينما الآخرون ضربوا به عرض الجدار ، لأنه حديث واحد يرجع إلى التلاعب بالقرآن الكريم .

قال الإمام الزركشي : وقد تكلموا في قولها : «وهنَّ مما يقرأ» فإن ظاهره بقاء التلاوة ، وليس كذلك . فمنهم من أجاب بأن المراد قارب الوفاة . والأظهر أن التلاوة نسخت أيضاً ، ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاته ﷺ فتوفي بعض الناس يقرأها .

قال : وحكى القاضي أبو بكر في «الانتصار» عن قوم إنكار هذا القسم . لأن الأخبار فيه أخبار آحاد . ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد ولا حجة فيها (٣) .

وجعل الواحد من هذا النوع أيضاً ما روي عن أبي بكر ، قال : كنا نقرأ «لا ترغبوا عن آياتكم فإنه كفر» (٤) .

قال الإمام السرخسي : لا يجوز هذا النوع من النسخ في القرآن عند المسلمين . وقال بعض الملحدين ممن يستتر بإظهار الإسلام - وهو قاصد إلى إفساده - : هذا جائز بعد وفاته ﷺ أيضاً ، واستدل في ذلك بما روي أن أبا بكر الصديق كان يقرأ «لا ترغبوا عن

(١) راجع صحيح مسلم : ج ٤ ص ١٦٧ ، ومسنن الترمذي : ج ٣ ص ٤٥٦ .

(٢) الساهل : ج ٢ ص ٢٦٤ . (٣) البرهان : ج ٢ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٤) البرهان للزركشي : ج ٢ ص ٣٩ .

آبائكم فإنه كفر بكم». وأنس كان يقول: قرأنا في القرآن «بلغوا عنا قوماً أننا لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا». وقال عمر: قرأنا آية الرجم في كتاب الله ووعيناها. وقال أبي بن كعب: إن سورة الأحزاب كانت مثل سورة البقرة أو أطول منها!!

قال: والشافعي، لا يظنُّ به موافقة هؤلاء في هذا القول، ولكنه استدلَّ بما هو قريب من هذا في عدد الرضعات^(١)، فإنه صحَّح ما يروى عن عائشة: وأنَّ ممَّا أنزل في القرآن «عشر رضعات معلومات يحرمُّ من». فنسخن بخمس رضعات معلومات، وكان ذلك ممَّا يُتلى في القرآن بعد وفاة رسول الله ﷺ.

قال: والدليل على بطلان هذا القول قوله تعالى: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٢). ومعلوم أنَّه ليس المراد الحفظ لديه تعالى، فإنه بتعالى من أن يوصف بالفظلة أو النسيان. فعرَّفنا أنَّ المراد الحفظ لدينا. وقد ثبت أنه لا ناسخ لهذه الشريعة بوحى ينزل بعد وفاة رسول الله ﷺ، ولو جوَّزنا هذا في بعض ما أوحى إليه لوجب القول بتجويز ذلك في جميعه، فيؤدِّي ذلك إلى القول بأن لا يبقى شيء ممَّا ثبت بالوحي بين الناس في حال بقاء التكليف. وأيُّ قول أقبح من هذا؟! ومن فتح هذا الباب لم يأمن أن يكون بعض ما بأيدينا اليوم أو كلِّه مخالف لشريعة رسول الله ﷺ. بأن نسخ الله ذلك بعده. وألَّف بين قلوب الناس على أن ألهمهم ما هو خلاف شريعته. فلصيانه الدين إلى آخر الدهر أخبر الله تعالى أنه هو الحافظ لما أنزله على رسوله، وبه يتبيَّن أنه لا يجوز نسخ شيء منه بعد وفاته، وما ينقل من أخبار الآحاد شاذلاً يكاد يصحُّ شيء منها.

قال: وحديث عائشة لا يكاد يصحُّ، لأنه (أي الراوي) قال في ذلك الحديث: وكانت الصحيفة تحت السرير، فاشتغلنا بدفن رسول الله ﷺ فدخل داجن البيت فأكله. ومعلوم أنَّ بهذا لا ينعدم حفظه من القلوب، ولا يتعدَّر عليهم إثباته في صحيفة أخرى، فعرَّفنا أنه لا أصل لهذا الحديث^(٣).

(١) وهكذا أبو محمد ابن حزم استدللَّ بذلك. (انظر المحلِّي: ج ١٠ ص ١٥).

(٢) أصول الرخسي: ج ٢ ص ٧٨ - ٨٠.

(٣) المعجر: ٩.

قلت: في كلام هذا المحقق كفاية في إبطال هذا الزعم، وأن لا حجية في خبر واحد في هذا الشأن، ولا سيما جانب مساسه بكرامة القرآن، واستلزام التلاعب بأيه الكريمة بعد وفاته ﷺ، الأمر الذي تبطله آية الحفظ وضمانه تعالى في حفظ كتابه عن التحريف والزيادة والنقص، لأنّه كلامه المجيد يجب أن يبقى معجزة خالدة لدين الإسلام الخالد مع الأبدية.

قال الجزيري -رداً على الزعم المذكور-: إنَّ المسلمين قد أجمعوا على أنَّ القرآن هو ما تواتر نقله، فكيف يمكن الحكم بكون هذا قرآناً، فمن المشكل الواضح ما يذكره المحدثون من روايات الآحاد المشتملة على أنَّ آية كذا كانت قرآناً ونسخت. على أنَّ مثل هذه الروايات قد مهّدت لأعداء الإسلام إدخال ما يوجب الشكَّ في كتاب الله من الروايات الفاسدة. فهذه وأمثاله -إشارة إلى حديث عائشة- من الروايات التي فيها الحكم على القرآن المتواتر بأخبار الآحاد -فضلاً عن كونه ضاراً بالدين- فيه تناقض ظاهر^(١).

وقال الأستاذ الساميس: ما رواه مالك وغيره عن عائشة أنها قالت: كان فيما أنزل الله من القرآن عشر رضعات... إلخ حديث لا يصح الاستدلال به، لا تفاق الجميع على أنه لا يجوز نسخ تلاوة شيء من القرآن بعد وفاته ﷺ، وهذا هو الخطأ الصراح^(٢).

وقال تلميذه الأستاذ العريض: وهذا هو الصواب الذي نعتقه وندين الله عليه، حتّى نقفل الباب على الطاعنين في كتاب الله تعالى، من الملاحدة والكافرين، الذين وجدوا من هذا الباب نقرة يلجون منها إلى الطعن في القرآن الكريم، وحتّى نترّه كتاب الله تعالى عن شبهة الحذف والزيادة بأخبار الآحاد، فما لم يتواتر في شأن القرآن إثباتاً وحذفاً لا اعتداد به، ومن هذا الباب نسخ القرآن بالسنة الأحادية، بل حتّى المتواترة عند بعضهم، ونرفض كلّ ما ورد من الروايات في هذا الباب، وما أكثرها، كما ورد في بعض الأقوال عن سورة الأحزاب وبراءة وغيرها^(٣).

(١) الفقه على المذاهب الأربعة: ج ٣ ص ٢٥٧.

(٢) فتح الشان لملي حسن العريض: ص ٢١٦-٢١٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٢١٩.

٢- نسخ التلاوة دون الحكم

بأن تسقط آية من القرآن الحكيم، كانت قرأ، وكانت ذات حكم تشريعي، ثم نُسبت ومُحييت هي عن صفحة الوجود، لكن حكمها بقي مستمراً غير منسوخ.

وهذا النوع من النسخ أيضاً عندنا مرفوض على غرار النوع الأول بلا فرق، لأنَّ القائل بذلك إنما يتمسك بأخبار آحاد زعمها صحيحة الإسناد، متفلاً عن أن نسخ آية محكمة شيء لا يمكن إثباته بأخبار آحاد لا تفيد سوى الظن، وإنَّ الظنَّ لا يفني عن الحق شيئاً.

هذا فضلاً عن منافاته لمصلحة نزول نفس الآية أو الآيات، إذ لو كانت المصلحة التي كانت تقتضي نزولها هي احتمالها على حكم تشريعي ثابت، فلماذا ترفع الآية وحدها، في حين اقتضاء المصلحة بقاءها لتكون سنداً للحكم الشرعي المذكور.

ومن ثمَّ فإنَّ القول بذلك استدعى تشييع أعداء الإسلام وتعييرهم على المسلمين في كتابهم المجيد.

وأخيراً فإنَّ الالتزام بذلك - حسب منطوق تلك الروايات - التزام صريح بتحريف القرآن الكريم، وحاشاه من كتاب إلهي خالد، مضمون بالحفظ مع الخلود.

ولذلك فإنَّ هذا القول باطلٌ عندنا - معاشرة الإمامية - رأساً، لا ميرر له إطلاقاً، فضلاً عن مساسه بقداسة القرآن المجيد.

قال سيّدنا الأستاذ: أجمع المسلمون على أنَّ النسخ لا يثبت بخبر الواحد، كما أنَّ القرآن لا يثبت به، وذلك لأنَّ الأمور المهمة التي جرت العادة بشيوعها بين الناس وانتشار الخبر عنها لا تثبت بخبر الواحد. فإنَّ اختصاص نقلها ببعض دون بعض بنفسه دليل على كذب الراوي أو خطؤه. وعلى هذا فكيف يثبت بخبر الواحد أنَّ آية الرجم من القرآن وأنها نُسخت؟! نعم، جاء عمر بآية الرجم وأدعى أنَّها من القرآن، لكنَّ المسلمين لم يقبلوا منه، لأنَّ نقلها كان منحصرأ به، فلم يشتهوا في المصاحف، لكنَّ المتأخِّرين التزموا بأنَّها كانت

آية منسوخة التلاوة باقية الحكم^(١).

هذا، ولكن جُلُّ علماء أهل السنَّة بما فيهم من فقهاء كبار وأئمَّة محققين التزموا بهذا القول المستند إلى لفييف من أخبار آحاد زعموها صحيحة الإسناد، وهذا إثبات لكرامة القرآن على حساب روايات لا حجِّيَّة فيها في هذا المجال وإن فرضت صحيحة الإسناد في مصطلحهم، إذ صحَّة السند إنَّما تجدي في فروع مسائل فقهية، لا إذا كانت تمسُّ كرامة القرآن وتمهِّد السبيل لإدخال الشكوك على كتاب المسلمين.

هذا الإمام السرخسي - المحقِّق الأصولي الفقيه - بينما شدَّد التكير على القائل بالنسخ من النوع الأوَّل، إذا هو يلتزم به في هذا النوع، في حين عدم فرق بينهما فيما ذكره من استدلال لبطلان الأوَّل.

قال: وأما نسخ التلاوة مع بقاء الحكم فيبانه - فيما قال علماؤنا - أن صوم كفارة اليمين ثلاثة أيام متتابعة، بقراءة ابن مسعود: «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وقد كانت هذه قراءة مشهورة إلى زمن أبي حنيفة، ولكن لم يوجد فيها النقل المتواتر الذي يثبت بمثله القرآن، وابن مسعود لا يشك في عدالته وإتقانه، فلا وجه لذلك إلا أن نقول: كان ذلك معاً يتلى في القرآن - كما حفظه ابن مسعود - ثمَّ انتسخت تلاوته في حياة رسول الله ﷺ بصرف القلوب عن حفظها إلا قلب ابن مسعود ليكون الحكم باقياً بنقله، فإنَّ خير الواحد موجب للعمل به، وقراءته لا تكون دون روايته، فكان بقاء هذا الحكم بعد نسخ التلاوة بهذا الطريق^(٢).

قلت: غير خفي سخافة هذا الاستدلال وبشاعة هذا التأويل!



وفيما يلي عرض لما أسهبه ابن حزم الأندلسي بهذا الشأن، وهو الإمام المحقِّق صاحب مذهب واختيار، ومن ثمَّ فإنَّ ذلك منه غريب جداً.

قال: فأما قول من لا يرى الرجم أصلاً فقول مرغوب عنه، لأنَّه خلاف الثابت عن رسول

الله ﷺ، وقد كان نزل به قرآن، ولكنّه نُسخ لفظه وبقي حكمه. ثمَّ يروي عن سفيان عن عاصم عن زرّ، قال: قال لي أبيّ بن كعب: كم تعدّون سورة الأحزاب؟ قلت: إمّا ثلاثاً وسبعين آية أو أربعاً وسبعين آية، قال: إن كانت لتقارن سورة البقرة أو لهي أطول منها، وإن كان فيها لآية الرجم، قلت: أبا المنذر، وما آية الرجم؟ قال: «إذا زنى الشيخ والشيخة فارجموهما البتّة نكالاً من الله والله عزيزٌ حكيم».

قال: هذا إسناد صحيح كالشمس لا مغمز فيه.

ثمَّ روى بطريق آخر عن منصور عن عاصم عن زرّ، وقال: فهذا سفيان الثوري ومنصور شهدا على عاصم وما كذبا، فهما الثقتان الإمامان البدران، وما كذب عاصم على زرّ، ولا كذب زرّ على أبيّ.

قال أبو محمّد: ولكنّها نُسخ لفظها وبقي حكمها، ولو لم يُنسخ لفظها لأقرأها أبيّ بن كعب زرّاً بلا شك، ولكنّه أخبره بأنّها كانت تعدل سورة البقرة ولم يقل له: إنّها تعدل الآن، فصحّ نسخ لفظها.

ثمَّ يروي آية الرجم عن زيد وابن الخطّاب ويقول: إسناد جيد.

ويروي عن عائشة، قالت: لقد نزلت آية الرجم والرضاعة، فكانتا في صحيفة تحت سريري، فلما مات رسول الله ﷺ تشاغلنا بموته فدخل داجن فأكلها، قال: وهذا حديث صحيح. وليس هو على ما ظنّوا، لأنّ آية الرجم إذا نزلت حذفت وعُرفت وعمل بها رسول الله ﷺ، إلاّ أنّه لم يكتبها تُساخ القرآن في المصاحف، ولا أثبتوا لفظها في القرآن، وقد سأله عمر بن الخطّاب ذلك فلم يجبه، فصحّ نسخ لفظها، وبقيت الصحيحة التي كتبت فيها كما قالت عائشة، فأكلها الداجن ولا حاجة بأحد إليها^(١).

قلت: وإنّي لأستغرب هذا التمهّل الفاضح في كلام مثل هذا الرجل المعروف بالتحقيق ودقّة النظر والاختيار.

كيف يقول: لا حاجة إليها وهي سند حكم تشريمي ثابت! ثم كيف لا يعلم بالآية أحد من كتبة الوحي ولم يكتبوها سوى أنها كتبت في صحيفة وأودعت عند عائشة فحسب، وكيف أنها تركتها تحت سريرها لياكلها داجن البيت؟! كل ذلك لغريب يستبعده العقل السليم. والذي غرّه هؤلاء: أنها أحاديث جاءت في الصحاح الستة وغيرها^(١)، ولا بدّ لهم - وهم متعبّدون بما جاء فيها - أن يتقبّلوها على إعلانها مهما خالفت أساليب النقد والتحقيق.

هذا، وقد أكثر جلال الدين السيوطي من نقل هكذا روايات ساقطة^(٢). ومن قبله شيخه بدر الدين الزركشي، ولكن مع شيء من التردد^(٣) وقد أخذها بعض الكاتبين المحدثين أدلة قاطعة من غير تحقيق. قال - متشديقاً -: وإذا ثبت وقوع هذين النوعين كما ترى، ثبت جوازهما، لأنّ الوقوع أعظم دليل على الجواز كما هو مقرّر. وإذا بطل ما ذهب إليه المانعون له من ناحية الشرع كأبي مسلم ومن لفّقه، وبطل كذلك ما ذهب إليه المانعون له من ناحية العقل، وهم فريق من المعتزلة شدّد عن الجماعة، فزعم أنّ هذين النوعين الأخيرين مستحيلان عقلاً^(٤).

قلت: ما أشرف حكم العقل لولا أنّ أمثال الزرقاني حصروه في أصحاب الاعتزال، وجعلوا من أنفسهم بمعزل عن نور العقل الحكيم.

وأما الأستاذ العريض فقد ذهب هنا مذهباً تحقيقياً وأسهب في الردّ على هذا القول الفاسد دفاعاً عن كرامة القرآن. ونقل عن جماعة من معاصريه مواكبته على هذا الرأي السديد^(٥).

(١) راجع صحيح البخاري: ج ٨ ص ٢٠٩ - ٢١٠، وصحيح مسلم: ج ٥ ص ١١٦ و ج ٤ ص ١٦٧، والمستدرک: ج ٤ ص

٢٥٩، ومستند أحمد: ج ١ ص ٢٢ و ج ٢ ص ٤٣، وسنن الترمذي: ج ٤ ص ٢٩ و ج ٢ ص ٤٦.

(٢) راجع الإنفان: ج ٣ ص ٧٢ - ٧٥، والدرّ المنتور: ج ٤ ص ٣٦٦ في تفسير آية من سورة المعج.

(٣) راجع البرهان: ج ٢ ص ٢٥ - ٢٧.

(٤) راجع مناهل الرفان للزرقاني: ج ٢ ص ٢١٥ - ٢١٦.

(٥) راجع فتح السنان: ص ٢٢٤ - ٢٣٠.

٣- نسخ الحكم دون التلاوة

بأن تبقى الآية ثابتة في الكتاب يقرأها المسلمون عبر العصور سوى أنها من ناحية مفادها التشريعي منسوخة، لا يجوز العمل بها بعد مجيء الناسخ القاطع لحكمها. هذا النوع من النسخ هو المعروف بين العلماء والمفسرين، وأتفق الجميع على جوازه إمكاناً، وعلى تحققه بالفعل أيضاً، حيث توجد في القرآن الحاضر آيات منسوخة وآيات ناسخة.

نعم، كانت لهذا النوع من النسخ أنحاء ثلاثة، وقع الكلام في إمكان بعضها، نعرضها فيما يلي:

الأول: أن ينسخ مفاد آية كريمة بسنة قطعية أو إجماع محقق، كآية الإمتناع إلى الحول بشأن المتوفى عنها زوجها^(١) فإنها - بظاها - لا تنافي وآية العدد والمواريث، غير أن السنة القطعية وإجماع المسلمين أثبتا نسخها بآية العدد والمواريث. واستشكل بعضهم نسخ القرآن بالسنة، نظراً لأنَّ الأوَّل قطعي، والثانية ظنيَّة. والجواب: أنَّ مفروض الكلام ما إذا كانت السنة متواترة وقطعية الصدور أيضاً، ودعماً لإجماع الأمة في جميع العصور.

الثاني: أن ينسخ مفاد آية بآية أخرى، بحيث تكون الثانية ناظرة إلى مفاد الأولى ورافعة لحكمها بالتنصيص، ولولا ذلك لم يكن موقع لنزول الثانية وكانت لغواً. وهذا كآية النجوى^(٢) أوجبت التصدق بين يدي مناجاة الرسول ﷺ، ونسختها آية الإسفاق: «أأشفقتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات»^(٣).

وهذا النحو من النسخ لم يختلف فيه أحد.

الثالث: أن تنسخ آية بأخرى من غير أن تكون إحداها ناظرة إلى الأخرى سوى أنهم وجدوا التنافي بين الآيتين، بحيث لم يكن الجمع بينهما تشرعياً، ومن ثمَّ أخذوا من الثانية

التأخره نزولاً ناسخة للأولى.

ويجب أن يكون التنافي بين الآيتين كلياً - على وجه التباين الكلي - لا جزئياً وفي بعض الوجوه، لأن الأخير أشبه بالتخصيص منه إلى النسخ المصطلح، وقد تسامح بعض الباحثين، فأخذ من ظاهر التنافي - ولو جزئياً - دليلاً على النسخ، فقال بنسخ العام بالخاص ونسخ الإطلاق بالتفريد ولكن عمدة عذره هبوط مستواه العلمي في مبادئ علم الأصول.

ملحوظة: يشترط في هذا القسم الثالث، وجود نص صحيح وأثر قطعي صريح يدعمه إجماع القدماء، إذ من الصعب جداً الوقوف على تاريخ نزول آية في تقدمها وتأخرها، ولا عبرة ببيت آية قبل أخرى في المصحف، إذ كثير من آيات ناسخة هي متقدمة في ترتيبها على المنسوخة، كما في آية العدد^(١) وهي ناسخة لآية الإمتناع إلى الحول^(٢) وهذا إجماع.

كما أن التنافي - على الوجه الكلي - لا يمكن القطع به بين آيتين قرآنتين سوى عن نص معصوم، لأن للقرآن ظاهراً وباطناً ومحكماً ومتشابهاً، وليس من السهل الوقوف على كنه آية مهما كانت محكمة.

هذا، وقد أخذ سيدنا الأستاذ^(٣) من هذا الأخير مستمسكاً لتكران هذا النحو الثالث من النسخ، قال: والتحقيق أن هذا القسم من النسخ غير واقع في القرآن، كيف وقد قال الله عز وجل: «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٤).

لكن سنبين: أن لا تنافي بين الناسخ والمنسوخ في متن الواقع، وإنما هو تنافٍ ظاهري، إذ الحكم المنسوخ هو في الحقيقة حكم محدود في علم الله من أول تشريعه، غير أن ظاهره الدوام، ومن ثم كان التنافي بينه وبين الناسخ المتأخر شكلياً محضاً. وسيبدو ذلك بتوضيح أكثر عند الجواب عن الشبهة الثالثة الآتية.

(١) البقرة: ٢٣٤.

(٢) البقرة: ٢٤٠.

(٣) راجع البيان: ص ٢٠٦ الطبعة الثانية، والآية ٨٢ من سورة النساء.

المنسخ المشروط^(١)

هناك من أنواع النسخ ما نصلح عليه بالنسخ المؤقت أو النسخ المشروط. وهو ما إذا كان الحكم المنسوخ رهن ظروف وأحوال تغيرت إلى حالة أخرى استدعت تشريع حكم جديد، لكنّها مع ذلك صالحة للعود على حالتها الأولى، إمّا في رقعة أخرى من الأرض أو في فترة آتية من الزمان، فإنّ من الحكمة أن يعود الحكم المنسوخ إلى ساحة الوجود. فكلّ من الناسخ والمنسوخ، هو رهن حالة تخصّه، وقيد مصلحة تلتنم معه. فمادامت فالحكم يدوم معها، ولو زالت فالحكم يزول معها، وإذا مارجعت فإنّ الحكم يرجع معها... وهكذا..

مثاله: الصدقات الواجبة في سبيل الله: كان على المسلمين أن يقوموا بتجهيز بنية الدولة الماليّة مهما كلف الأمر، وهو الوارد في القرآن كثيراً باسم الإنفاق في سبيل الله. كان ذلك واجباً حتماً مادامت الحاجة باقية. ثمّ لما فرضت الزكاة وأخماس الغنائم والخراج ونحو ذلك، وزالت حاجة الدولة إلى مؤونة غيرها، زال ذلك التكليف. لكن إذا سادمت الأمتة حادثة أو كارثة تحتاج إلى مؤونة زائدة، أو عرض ما يستدعي صرف مال أكثر، فإنّ المصلحة تقتضي فرض ضرائب متناسبة مع حاجة الدولة، ويكون على عهدة المسلمين القيام بوظيفتها.

وعليه فمثل هذه الأحكام لا تعدّ منسوخة بقول مطلق، بل هي باقية مستمرة، لكن قيد شروط وأحوال، متى تحققت تنجزت أحكامها، كسائر الأحكام المترتبة على مواضعها، على نحو القضايا الحقيقيّة، حسب مصطلحهم.

وهكذا مسألة الصفح والمداراة مع الكفّار، كانت فريضة واجبة في صدر الإسلام يوم كان المسلمون في حالة ضعف. فإذا ما عاود الإسلام غريباً - لا سمح الله - كما بدئ غريباً، فإنّ ذلك الحكم يعود لامحالة. فليكن على ذكرٍ من أرباب الفنّ! والله العالم.

(١) ننهنّا عليه خلال التدريس على الطلبة في مطلع القرن الخامس عشر للهجرة.

النسخ المتدرج^(١)

وهو نوع آخر من النسخ. لم يُنسخ الحكم فيه صريحاً وفي بداية الأمر، وإنما عُرض للنسخ بتمهيد أسبابه المؤاتية نسخاً تدريجياً. وذلك فيما إذا دعت المصلحة الإقرار على شريعة كانت سائدة على الحياة العامة، بحيث لا يمكن قلع جذورها بسهولة، إلا بتمهيد مقدمات هي توهن من شأنها وتزعزع من شأونها، لتنتهار بنفسها نهائياً وفي نهاية المطاف. نظير التدرج في التشريع في مسألة محاربة الخمر وغيرها.

وهذا في مثل تشريع جواز ضرب النساء عند الشوز: «وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فِعْظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ...»^(٢).

هذا إقرار لتشريع جاهلي سابق، كان الرجال يتحكمون في أمر النساء ومن غير مبالاة. فجاء الإسلام ليحد من تلك السنة الجاهلة، بتضعيفها أولاً شيئاً فشيئاً، ثم هدمها رأساً وبقلع جذورها من الأساس.

كان أبناء الجاهلية يرون في ضرب النساء وإيلاهن مندوحة تأديبهن. وكان ذلك من حق القوامة عليهن فيما حسبوا. وهي فكرة قديمة كانت سائدة ومنتكنة في الأعماق، وحتى الآن في أوساط قبليّة، بل وفي كثير من أهل المدن الراقية، يرى الرجال من حقهم الشرعي أن يؤدّبوا نساءهم ولو بالضرب والإيلا، ولا حرج!

فكان في قلع جذور مثل تلك العادة الراسخة صعوبة وبحاجة إلى مرونة في العمل المستمر. الأمر الذي قام به الإسلام ضمن مكافحته لكثير من عادات جاهلية كانت ساطية. فقد أقرّ شريعة ضرب النساء لايئبتها، بل ليمهد السبيل إلى رفعها وقمعها. وقد نجح بالفعل -إذا ما لاحظنا سيرته الكريمة وسيرة أصحابه المرضيين ومن تبعهم بإحسان من المؤمنين في طول التاريخ.

ذلك أنه لما نزلت الآية هرعت جماعات من المسلمين إلى رسول الله ﷺ يستشفون

(١) تنبهنا له أخيراً ضمن تحقيقنا عن شؤون المرأة في الإسلام

حقيقة الأمر، فهناك أوضح لهم النبي أن ليس هناك ما حسبوا، وإنما هي ظاهرة شكلية وليست رخصة في ضرب النساء وإبراحهن. وأن الرجل إذا كان خيراً لا يجد في نفسه مبرراً دون تكريم زوجته. وأن الكريم من اتخذ من الرسول قدوة في حياته الزوجية، وهو ﷺ أير الناس بنسائه.

قال ﷺ: «أما يستحي أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد، يضربها أول النهار ثم يضاجعها آخره؟!».

ثم قال: «ولن يضرب خياركم» - وهو نفي تأييد تأكيداً على تلازمه مع الإيمان - وقال فيمن ضربوا نساءهم: «ليس أولئك خياركم». (١)

وفي جامع الأخبار - للصدوق - عن النبي ﷺ: «أبني أعجب ممن يضرب امرأته وهو بالضرب أولى منها. لا تضربوا نساءكم بالخشب فإن فيه القصاص، ولكن اضربوهن (أي أدبوهن) بالجوع والعري، حتى تريحا في الدنيا والآخرة». وفي حديث آخر: «احفظوا وصيتي في أمر نساءكم حتى تنجوا من شدة الحساب، ومن لم يحفظ وصيتي فما أسوأ حاله بين يدي الله!». (٢)

وفي هذا الحديث صراحة بأن المراد من الضرب - في الآية - هو التأديب، ولكن لا بالعصا والسوط - كما يفعل مع البهائم - ولكن بالتنزيق في المطعم والملبس ونحوهما وهو أوفق بتعديل المعيشة معها.

وفي حديث أبي جعفر الباقر عليه السلام عن النبي ﷺ: «أيضرب أحدكم المرأة ثم يظل معانقتها؟!». وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما المرأة لعبة، من اتخذها فلا يضيّعها». (٣) وقال عليه السلام: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي». وفي رواية أخرى: «ألا خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي». (٤)

(١) الدر المنثور، ج ٢، ص ١٥٥.

(٢) البهار، ج ١٠٢، ص ٢٤٩، رقم ٣٨، عن جامع الأخبار للصدوق (ط نجف)، ص ١٥٨.

(٤) المصدر، ص ١٢٢.

(٣) وسائل الشريعة، ج ١٤، ص ١١٩.

وقال: «ملعون ملعون من ضيَّع من يعول»^(١). وفي حديث آخر: «كفى بالمرء هلاكاً أن يضيَّع من يعول»^(٢). وفي حديث الحولاء، قال ﷺ: «لم يزل يوصيني جبرائيل بالنساء حتى ظننت أن لا يحلّ لزوجها أن يقول لها: أف»^(٣).

أما ترخيص الضرب فقد فسره النبي ﷺ ضرباً غير مبرِّح^(٤) والمبرِّح: المتعب المجهد. وبرِّح به الأمر: آذاه شديداً. والبرِّحاء: الشدة والأذى.

قال الحسن وغيره: ضرباً غير مبرِّح، غير مؤثر. أي لا يكون له أثر حمرة ولا سواد. ومن ثمَّ فهو ضرب خفيف لا يوجب الإيلام.

قال قتادة: ضرباً غير مبرِّح أي غير شائن. والشائن: ما غير لون الجلد.

وسئل ابن عباس: ما الضرب غير المبرِّح؟ قال: السواك وشبهه يضربها به^(٥). وهكذا روي عن الإمام أبي جعفر عليه السلام^(٦).

وجاء في فقه الرضا - لابن بابويه -: «والضرب بالسواك وشبهه ضرباً رقيقاً» أي يرفق ومدارة^(٧) إذن فهي ضربة عتاب يُنبؤك عن وداد، لا ضربة عقاب يتعقبها شقاق!

قال الشيخ أبو جعفر الطوسي: وأما الضرب، فإنه غير مبرِّح، بلاخلاف^(٨). وهذا دليل على إجماع الفقهاء على هذا التفسير!

وعليه فالحكم في الآية ترخيص ظاهري في الضرب، تمهيداً للتأكيد على المنع منه نهائياً. حيث مقتضى الإيمان الصادق هي متابعة النبي سنةً وسيرةً «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»^(٩) فضلاً عن وجوب

(١) من لا يحضره الفقه للصدوق، ج ٣، ص ١٠٣، برقم ٤١٧.

(٢) دعائم الإسلام للفاضل نعمان المصري، ج ٢، ص ١٩٣، برقم ٦٩٩.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ١٤، ص ٢٥٢، رقم ١٦٦٢٦. (٤) في خطبته في حجة الوداع، سيرة ابن هشام، ج ٤، ص ٢٥١.

(٥) جامع البيان، ج ٥، ص ٤٣-٤٤. (٦) مجمع البيان، ج ٣، ص ٤٤.

(٧) البحار، ج ١٠٤، ص ٥٨، باب النشوز والشقاق، رقم ٧. (٨) التبيان، ج ٣، ص ١٩١.

(٩) الأحزاب ٣٣: ٢١.

إطاعته فيما يقول.

إذن فالآية في ظاهرها منسوخة. وكان تفسيرها من قبل النبي هو الناسخ لهذا الظهور البدائي في واقع الحال.

وهكذا الأمر بشأن ملك اليمين، أقره الإسلام في ظاهره لاليعترف به كنظام، بل ليمهد السبيل إلى إلغائه في نهاية المطاف.

جاء الإسلام، والرّق نظام معترف به في جميع أنحاء العالم، بل كان عملة اقتصادية واجتماعية متداولة تعارفها الجميع ولا يستنكرها أحد، ولا يفكر في إمكان تغييرها - فضلاً عن إلغائها - أحد. لذلك كان تغيير هذا النظام أو محوه أمراً في حاجة إلى تدرّج ومهل وربما في فترة غير قصيرة.

كان الرقيق - في عرف الرومان - شيئاً، لا بشراً، شيئاً - كسائر الأمتعة - لاحقوق له البتة، وإن كان عليه كلّ ثقل من الواجبات.

جاء الإسلام ليرفع بالرقيق إلى مستواه الإنساني أولاً، وليجعله ردفاً مساوياً للسادة في جميع حقوقه الإنساني ثانياً، ثمّ تمهيد السبيل إلى تحريره نهائياً وإلغاء نظام الرّق طبيعياً في نهاية الأمر.

جاء في رسالة الحقوق للإمام زين العابدين عليه السلام: «وأما حق مملوكك فإن تعلم أنه خلق ربك وابن أبيك وأمتك ولحمك ودمك...»^(١).

ورغب في مخاطبتهم خطاب الإخاء وأن يقول السيّد لعبده: يا أضي.^(٢) فلا يقول أحدهم: هذا عبدي وهذه أمتي، وليقل فتاي وفتاتي.^(٣)

ويساهمهم في العمل المضني ويساووهم في الملبس والمأكل وسائر معاش الحياة، كما كان يفعل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام مع غلامه قنبر.^(٤)

(١) الغصال، أبواب الخمسين قفا فوق، ص ٥٦٨. (٢) مسائل علي بن جعفر، ص ١٨٨، برقم ٣٧٩.

(٣) مستد أحمد ج ٢، ص ٤٢٣ وفي غير موضع. (٤) بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٤٣-١٤٤، برقم ١٩.

قال الصادق عليه السلام: «من افترى على مملوكٍ عزَّر، لحرمة الإسلام»^(١).

وبذلك أصبح الرقيق في ظل الإسلام إنساناً كاملاً له كرامته الإنسانية وامتتاعاً بحقوق سائر المسلمين على سواء. وبذلك جازت إمامته^(٢) وتصديده المناصب الرسمية من الدرجة العالية في الإسلام.^(٣) كما وأخى النبي صلى الله عليه وآله بين بلال وأبي رويحة الخثعمي وبين زيد وعمه حمزة^(٤).

كل ذلك خطوات واسعة لتحرير الرقيق روحياً، برده إلى الإنسانية ومعاملته على أنه بشر كريم. وأن لا فرق بين السادة والعبيد من حيث أصالة النسب، كلهم بنو آدم، وآدم من تراب. ولكن الإسلام لم يكن ليكتفي بهذا المقدار، لأن قاعدته الأساسية العظمى هي المساواة الكاملة بين البشر، وهي التحرير الكامل لكل بشر. وكل الذي تقدم كان تمهيداً للوصول إلى هذه الغاية الكريمة، والتي كان النبي صلى الله عليه وآله يترقبها ترقباً: قال صلى الله عليه وآله: «ما زال جبرائيل يوصيني بالمعاليك حتى ظننت أنه سيجعل لهم وقتاً إذا بلغوا ذلك الوقت أعتقوا»^(٥).

والأمر الأساسي الذي قام به الإسلام منذ البدء، أن جفف منابع الرقِّ كلها، فيما عدا منبعاً واحداً لم يكن من المصلحة تجفيفه آنذاك، وذلك هو: رقَّ الحرب. فقد كان العرف السائد يومئذٍ هو استرقاق أسرى الحرب أو قتلهم وكان هذا العرف قديماً جداً. وجاء الإسلام والناس على هذا الحال، ووقعت بينه وبين أعدائه الحروب، فكان الأسرى المسلمون يُسترقون عند أعداء الإسلام فتُسلب حُرِّيَّاتهم ويعاملون الذلِّ والهوان. فلم يكن في وسع الإسلام أن يطلق سراح من يقع في يده من أسرى الأعداء، فليس من حسن السياسة أن تشجع عدوك بإطلاق أسراه، بينما أهلك وعشرتك وأتباع دينك بسامون الخسف والعذاب

(١) البحار، ج ٧٩، ص ١١٩، رقم ١٥.

(٢) قرب الإسناد للحميري: ص ٩٥ (ط نجف). راجع: البحار، ج ٨٨، ص ٤٣.

(٣) في حديث نأصر زيد وابنه أسامة قيادة الجيش وفيه كبار الأصحاب.

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ١٥١-١٥٢. (٥) من لايحضره الفقيه، ج ٤، ص ٧.

عند الأعداء. والمعاملة بالمثل هنا هي أعدل قانون تستطيع أن تستخدمه أو هي القانون الوحيد.

ومما هو جدير بالإشارة هنا، أن الآية الوحيدة التي تعرّضت لأسرى الحرب: «فَمَا مَتَأُ بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءُ. حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا»^(١) لم تذكر الاسترقاق للأسرى، حتى لا يكون هذا تشريعاً دائماً للبشرية، وإنما ذكرت الفداء أو إطلاق السراح بلا مقابل. لأن هذا وذاك هما القانونان الدائمان، اللذان يريد القرآن للبشرية أن تقصر عليهما معاملتها للأسرى في المستقبل الغريب أو البعيد. وإنما أخذ المسلمون حينذاك بمبدأ الاسترقاق خضوعاً لضرورة وقتية قاهرة لا فكاك عنها، وليس خضوعاً لنص في التشريع الإسلامي.

إذن فلم يلجأ الإسلام إلى هذا الطريق، ولم يسترقّ الأسرى لمجرد اعتبار أنهم ناقصون في آدميتهم، وإنما لجأ إلى المعاملة بالمثل فحسب. فعلق استرقاقه للأسرى على اتفاق الدول المتحاربة أو تبادل الأسارى كما تعارف فيما بعد وجرت عليه الدول جميعاً.

وهكذا يجد الباحث كثيراً من أعراف جاهلية جاراها الإسلام، ولكن لغرض إيمانها، لا ليسايرها، كما في مثل الظهار والإيلاء واللعان، وضع لها الإسلام أحكاماً شديدة ليكافحها ويقلع جذورها، وكذا مسألة ولاء العتق ولاء ضمان الجريرة والإمتاع بالميراث وغيرها.

شبهات حول النسخ في القرآن

وفي وقوع النسخ في القرآن شبهات قد تختلج بالبال أو تثيرها أصحاب التشكيك في محكمات الشريعة الطاهرة، منها: شبهات أوردتها ناكروا النسخ مطلقاً، فزعموا عدم إمكان النسخ في شريعة الله، وبالتالي عدم وقوعه في القرآن الكريم، وهي شبهات متنوعة ومختلفة المستوى، غير أننا نذكر منها الأهم:

الأولى: أن النسخ في التشريع كالبدء في التكوين مستحيل بشأنه تعالى، لأنهما عبارة

عن نشأة رأي جديد، وعتور على مصلحة كانت خافية في بدء الأمر، والحال أن علمه تعالى أزلي، لا يتبدل رأي ولا يتجدد له علم. فلا يُعقل وقوفه تعالى على خطأه في تشريع قديم لينسخه بتشريع جديد.

الجواب: أن النسخ كالبداء ليس على معناه الحقيقي الذي هو عبارة عن نشأة رأي جديد، وإنما هو ظهور للناس بعد خفاء عليهم، لمصلحة في هذا الإخفاء في بدء الأمر، حسبما تقدم تحقيقه.

فالشارع تعالى يشرع حكماً يكون بظاهره الدوام والاستمرار، حسبما ألفه الناس من دوام الأحكام المطلقة، لكنّه في الواقع كان من الأوّل محدوداً بأمَد. معلوم لديه تعالى، ولم يظهره للناس إلا بعد انتهاء الأمد المذكور، لمصلحة في ذلك الإخفاء وفي هذا الإظهار المتأخّر.

ولعلّ معترضاً يقول: لماذا كان تحديد في الأحكام، فإذا كانت في أصل تشريع الحكم مصلحة فلتمتصّ الدوام، وإن لم تكن مصلحة فلا مقتضى لأصل التشريع.

قلنا: إن المصالح تختلف حسب الظروف والأحوال، كصفات طبيب حاذق تختلف حسب اعتوار أحوال المريض واختلاف بيئته والمحيط الذي يعيش فيه، فربّ مصلحة تستدعي تشريعاً متناسباً مع بيئة خاصّة وفي مستوى خاص، فإذا تغيّرت الواقعية فإنّ المصلحة تستدعي تبديل تشريع سابق إلى تشريع لاحق يلئم مع هذا الأخير.

وأما لماذا لم ينه الشارع تعالى على هذا التحديد من أوّل الأمر؟ فلعنّ هناك مصلحة مستدعية لهذا الإخفاء، منها توطين نفوس مؤمنة وترويضها على الطاعة والانقياد، ولا سيّما إذا كان التشريع الأوّل أشدّ وأصعب، فيتبدّل إلى تشريع أسهل وأخفّ، تسهيلاً على الأمتة وتخفيفاً عليهم، رحمة من الله.

الشبهة الثانية: إن وجود آية منسوخة في القرآن ربّما يسبّب اشتباه المكلفين، فيظنّونها آية محكمة يعملون بها أو يلتزمون بمفادها، الأمر الذي يكون إغراء الجهل، وهو قبيح.

الجواب: أن مضاعفات جهل كلّ إنسان تعود إلى نفسه، ولم يكن الجهل يوماً ما عذراً

مقبولاً لدى العقلاء . فإذا كانت المصلحة تستدعي نسخ تشريع سابق بشرع لاحق فعلى المكلفين أن ينتبهوا هم على هذا الاحتمال في التشريع ، ولا سيما إذا كان التشريع في بدء حركة إصلاحية آخذة في التدرج نحو الكمال .

وهكذا كان في القرآن ناسخ ومنسوخ ، وعام وخاص ، وإطلاق وتقييد ، ومحكم ومتشابه ، وليس لأحد التسرع إلى الأخذ بآية حتى يعرف نوعيتها ، كما ورد التنبيه على ذلك في أحاديث مستفيضة عن أئمة الدين . قال علي عليه السلام لقاضي مرّ عليه : هل تعرف الناسخ من المنسوخ؟ فقال القاضي : لا . فقال أمير المؤمنين عليه السلام : إذا هلكت وأهلك ^(١) .

الشبهة الثالثة : إن الالتزام بوجود آيات ناسخة وآيات منسوخة في القرآن يستدعي وجود تنافٍ بين آياته الكريمة ، الأمر الذي يناقضه قوله تعالى : «أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً» ^(٢) . وبهذا الاستدلال تمسك سيدنا الأستاذ عليه السلام في نكران وجود هكذا نسخ في القرآن الكريم ^(٣) .

الجواب : إن الاختلاف الذي تنفيه الآية الكريمة هو ما إذا كان حقيقياً في ظرف الواقع . أما إذا كان شكلياً وفي ظاهر الأمر - كما بين الناسخ والمنسوخ - فلا تناقضه الآية إطلاقاً . مثلاً يشترط في الاختلاف الحقيقي (التناقض) أمور ثمانية ^(٤) منها وحدة الزمان ووحدة الملاك والشرط ، وإذا تخلف أحدها فلا تنافي ولا اختلاف ، كما في الناسخ . ظرفه متأخر ، وملاكه مصلحة أخرى . تبدلت عن مصلحة سابقة كانت مستدعية لذلك الحكم المنسوخ . إذا فالتنافي بين الناسخ والمنسوخ بدوي ظاهري ، أما بعد التعمق وملاحظة فترتي نزولهما والمناسبات المستدعية لنزول الأولى ثم الثانية فإن هذا التنافي والاختلاف يرتفع نهائياً .

(١) الإفتان : ج ٢ ص ٢٠ . المناهل : ج ٢ ص ٧٠ . بحار الأنوار : ج ٩٢ ص ٩٥ .

(٢) النساء : ٨٢ . (٣) راجع البيان : ص ٣٠٦ .

(٤) راجع المنطق للعلامة المنظر : ج ٢ ص ٤٢ .

الشبهة الرابعة: ما هي الحكمة وراء ثبت آية في المصحف هي منسوخة الحكم لتبقي مجرد ألفاظ يلوكها القراء عبر القرون؟! (الجواب):

الحكمة في وجود هكذا آيات منسوخة في القرآن هي الوقوف على مرونة الشريعة واتباع سياسة المجازاة مع حركة الزمان، ولاسيما في بدء تشريعها ومجابهة الصعوبات في طريق تنفيذها ومكافحتها تدريجياً. الأمر الذي كابدته الإسلام. ذلك أن الأمة الإسلامية في بدايتها - حين صدعها الرسول بدعوته - كانت تعاني فترة انتقال شاق، خصوصاً مع ما هو معروف عن العرب الذين شوفهوا بالإسلام، من التحمس لما يعتقدون أنه من مفاخرهم وأمجادهم. فلو أخذوا بهذا الدين الجديد فجأة، لأدّى ذلك إلى نقبض المقصود، ولفشلت الدعوة منذ بزوغها. لأنّ الطفرة، من نوع المستحيل الذي لا يطيقه الإنسان. من هنا جاءت الشريعة إلى الناس تمشي على مهل، متألفة لهم، متلطّفة في دعوتهم، مندرّجة بهم إلى الكمال رويداً رويداً، لتسير بهم من الأسهل إلى السهل. ومن السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب، حتى تمّ الأمر ونجح الإسلام نجاحاً باهراً.

خذ لذلك مثلاً تدريجية تحريم الخمر، وموقف الإسلام الحكيم تجاه مشكلة عرب الجاهلية بالأمس. مشكلة يحتسونها بصورة تكاد تكون إجماعية، ويأتونها لاعلى أنّها مجرد عادة، بل على أنّها أمانة القوة ومظهر الفتوة وعنوان الشهامة! فهل من المعقول أن ينجح الإسلام في فطامهم عنها، لولم يتألفهم ويتلطّف بهم، كأنه يشاركهم في شعورهم، وفي حدّ أنه أبقى أن يحرمها عليهم في وقت ربما استعدت فيه بعض النفوس لتسمع كلمة التحريم حين سألوهم ﷺ «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ»^(١)

وهكذا فليعمل الدعوة إلى الإسلام، في قمع مناسق الفساد والحوول دون تفضيته بين

العباد.

ملحوظة

ولعلك تستغرب بكلمة هي الأخيرة من رأينا في مسألة النسخ في القرآن، وهو: أن لا نسخ في آية قرآنية إطلاقاً، نسخاً بمعناه المصطلح، أي زوال حكم آية نهائياً ليخلفه حكم آخر من جديد أديتاً. هذا ليس في القرآن ولا شاهد له، حسيماً نقرّر الكلام حول آيات قيل بنسخها.

نعم الذي يوجد في القرآن هو النسخ بمعناه العام القديم، أي التخصيص لعموم أو التقييد لإطلاق، وهذا معروف لا حير فيه. وعليه فتقطع جذور الشبهة رأساً.

عرض آيات منسوخة

كان البحث لحدّ الآن متجهاً إلى إمكان وقوع النسخ في القرآن، ودفع شبهات أوردتها التاكرون. والآن جاء دور عرض آيات قيل بنسخها، بأن رُفِعَ حكمها وبقي نصّها ثابتاً في القرآن. ودار الجدل عنيفاً بين المثبتين والتاكرون، فلننظر لمن الغلب؟

١- آية النجوى

«يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةٌ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»^(١).

كان المسلمون يكثرون السؤال عن مسائل غير ذوات شأن، شاغلين أوقاته ﷺ الكريمة على غير طائل، فنزلت الآية بفرض صدقة درهم واحد عند كل مسألة، فرضاً على الأغنياء دون الفقراء. فأشفق أكثرية الصحابة عن المسألة ضناً بالمال.

قال المفسرون: لم يعمل بهذه الفريضة سوى أمير المؤمنين ؓ، كان له دينار فباعه بعشرة دراهم وجعل يتصدق بها واحدة واحدة إزاء كل مسألة حتى جاء الناس:

«أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُدَمُّوا بَيْنَ يَدَيِ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ»^(١).
وأقر سيدنا الأستاذ (طاب ثراه) نسخ فرض الصدقة في الآية الأولى. ولأنه من القسم الناظر الذي ارتضاه السيد الأستاذ.^(٢)

قلت: إن الآية تربية للمسلمين، فلا يشغلوا أوقات أولياء الأمور بمراجعات أكثرها لا طائل نحتها. اللهم إلا إذا كانت من ذوات الأثمان. وقد تنبه المسلمون مع الأبد - لهذا الأدب السياسي في سلوكهم مع الأولياء، وهم أحرص على مصالحهم في الشؤون العامة. دون إشغالها في مسائل خاصة وغالبيتها لفرض التفكك والموانسة لا غير.
فقد كان هذا الفرض والرفع كمرحية تبذت خلالها ضرورة دور التربية الجماعية وأدب السلوك مع الأئمة. وكانت تجربة ناجحة في حياة المسلمين ذلك العهد ولتبقي دستوراً عاماً مع الأبد. فلم يكن هناك نسخ، وفق مصطلحه الخاص.

٢- آية عدد المقاتلين

«يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِثِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ»^(٣).

كانت قوة الإيمان بالله والثقة به تستوجب مقابلة كل مؤمن بعشرة من الكفار. ونزلت الآية بذلك، وفرضت الجهاد فيما إذا بلغ المسلمون عشر عدد المقاتلين الكفار. لكن المسلمين أبدوا آنذاك ضعفاً فخفف الله عنهم، وفرض الجهاد فيما إذا بلغوا نصف الكفار المقاتلين.

والناسخ هو قوله تعالى: «الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِثِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ بِإِذْنِ اللَّهِ»^(٤).

(٢) راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ٣٩٨.

(١) المجادلة: ١٢.

(٤) الأنفال: ٦٦.

(٣) الأنفال: ٦٥.

وهكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام أَنَّ الواحد بالاثنتين نسخ الواحد بالعشرة. ^(١) ولا بدَّ أَنَّ النسخ - على فرضه - من القسم الناظر. كما قال سيدنا الأستاذ عليه السلام لكنَّه أنكر أصل النسخ هنا بحجة عدم فصل زَمَنِي بين الآيتين وظاهر السياق. ^(٢)

لكنَّه عليه السلام لم يبيِّن وجه دلالة السياق، مع أنَّه على العكس أدلَّ. نظراً للتعبير بقوله: «الآن حَقَّقَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا»، ممَّا يدلُّ على تأخَّر نزول الآية الثانية بفترة ربما غير قصيرة مرَّت خلالها تجربة قاسية ظهر منها ضعف المسلمين آنذاك عن مقابلة أضعافهم بعشرات وتناقلهم عن القيام بمثل ذلك التكليف الشاقِّ في نظرهم لفتور عزمهم وضعف مقدرتهم الإيمانية. كما لا وجه لحمل الآية الأولى على الاستحباب! ^(٣)

نعم هاتان الآيتان، كالآيتين السابقتين، من الأحداث والتجارب الحادة التي مرَّت على حياة المسلمين آنذاك، ولتكون نموذجاً تربوياً للأمة مع الأبد؛ إن كانوا على أهبة واستعداد وإخلاص صادق، كان أحدهم يقابل العشرة، وإلا فباتنين. ذلك لأنَّ المؤمن يجاهد على وضع الحق وفي سبيل العقيدة والإيمان، وأمَّا الكافر فهو في عَمَهٍ باهت «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ». ^(٤)

فهنا أيضاً عرض مسرحية تناوب عليها مختلف حالة المسلمين من ضعف إلى قوَّة ومن قوَّة إلى ضعف، على مدى الحياة، إذا فلا ناسخ ولا منسوخ.

٣- آية الإمتاع

«وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً إِلَى الْخَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» ^(٥).

كانت عدَّة المتوفَّى عنها زوجها - في الجاهلية - سنة كاملة، وكان إذا مات الرجل ألفت

(١) تفسير الصافي، ج ١، ص ٦٧٦.

(٢) راجع: البيان في تفسير القرآن، ص ٢٧٥-٢٧٦.

(٣) العشر ٥٩: ١٣.

(٤) المصدر.

(٥) البقرة: ٢٤٠.

المرأة خلف ظهرها شيئاً - بكرة أو ما شاكلها - فنقول: البعل (تريد المتجدد) أهون علي من هذه. فلا تكتحل ولا تتمشط ولا تستطيب ولا تتزوج إلى سنة. وكان ورثة الميت لا يخرجونها من بيتها، وكانوا يحرون عليها من تركة زوجها طول تلك السنة، فكان ذلك هو إرثها من مال زوجها المتوفى^(١).

وهذه الآية نزلت تقرّر جانباً من هذه العادة إلى أن نُسخت بآية الموارث وآية العدد.

قال السيد عبد الله شبر^(٢): هذه الآية منسوخة بالإجماع^(٣).

وفي الحديث عن أمير المؤمنين^(٤) وعن الإمامين الصادقين^(٥) في روايات منظفرة: هي منسوخة، نسختها آية «يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً»^(٥). ونسختها آية الموارث^(٦). وربما تبلغ مجموع روايات العامة والخاصة بهذا الصدد مبلغ التواتر^(٧).

والعمدة: إجماع علماء الأمة واتفاق كلمة المفسرين لم يشذّ منهم أحد.

هكذا كنت أحسب حساب الآية فيما سلف، وقد جادلت فيه سيدي الأستاذ^(٨) كثيراً، حيث رفضه لهذا المعنى وكان يرى إحكام الآية من غير نسخ! والآن وقد تنبّهت إلى دققة في الآية تجعل الترجيح مع رأي الأستاذ، وهي: أن الآية فرضت على الورثة أن لا يخرجوا زوجة أبيهم من عيشتها الأولى لمدة حول، ولكن الآية لم تجعل البقاء لها حتماً عليها: «فَإِنْ خَرَجْنَ فَلْجُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ». الأمر الذي يستأفي وكون بقائها مدة الحول عدّة لها. إذ ظاهر الآية أن لها أن تخرج خلالها وأن تتزوج متى شاءت.

والذي يبدو من ظاهر الآية: أن ذلك حكم أخلاقي، فلا يَسْرَعُوا إلى إخراج زوجة أبيهم من إلف عيشتها الأولى فور وفات أبيهم، فلا بد - أخلاقياً - أن تتنعم بعيشتها ويكون مفارقتها

(١) رسالة أصناف القرآن للشمساني ينقل العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٦.

(٢) تفسيره المختصر: ص ٧٦ ط مصر.

(٣) رسالة الشمساني ينقل بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٦.

(٤) تفسير الصافي: ج ١ ص ٢٠٤.

(٥) البقرة: ٢٣٤.

(٦) النساء: ١٢.

(٧) راجع وسائل الشريعة: باب ٣٠ من أبواب العدد ج ١٥ ص ٤٥١. والدر المنثور: ج ١ ص ٣٠٩.

لها عن طيب نفسها، حيث لا تجد أواصر الصلة بينها وبين الأولياء. وذلك إذا لم يكن لها ولد منه. والدليل على هذا المعنى: أن آية التريص بأربعة أشهر وعشراً نزلت قبلها «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا، فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ بَأَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ»^(١).

وقرينة أخرى: جاء في آية الحول: الوصية للمطلقات أيضاً: «وَالْمُطَلَّاتُ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّكِنِينَ»^(٢).

ولاشك أن متعة المطلقات غير واجبة^(٣) وإنما هي منحة أخلاقية يتصدق بها الزوج على زوجته حتى بعد مفارقتها له، كذلك متعة المتوفى عنها زوجها حولاً كاملاً أمر ندب إليه الشارع، رحمةً بها، وليست فريضة واجبة، كي ينسخها فرض الإرث وشريعة العدة، التي لا محيص عنها.

وقد أكد سيدنا الأستاذ ﷺ على الاستحباب، وهو الصحيح. وهكذا ذهب أبو مسلم إلى أن الآية غير منسوخة وأنها إصاء بشأن المتوفى عنها زوجها من غير أن يكون إلزامياً.

٤ - آية جزاء الفحشاء

«وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ فَبِأَن شَهِدُوا فامسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلاً. واللذان يأتيناها منكم فآذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما إن الله كان تواباً رحيماً»^(٤).

كانت المرأة إذا فجرت وقامت عليها الشهود حُبست في بيت وهو جرت إلا من يأتي إليها بطعام وشراب حتى تموت^(٥).

(١) البقرة: ٢، ٢٣٤.

(٢) في الآية: ٢٣٦ من سورة البقرة.

(٣) (٤) النساء: ١٥، ١٦.

(٥) راجع حديث الإمام الصادق ﷺ برواية العياشي: ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٢٨، وتفسير الصافي: ج ١ ص ٣٣٩.

وكان الرجل إذا فجر أودى بالتعير والسياب والكلام القبيح حتى يتوب^(١).
قال الإمام الصادق عليه السلام: هي منسوخة، والسبيل هي الحدود الجلد والرجم^(٢).
والأحاديث بهذا المضمون متظافرة، متفق عليها عند المفسرين. وهذا مما لا شك فيه،
ولا سيما بعد ملاحظة أن التشريع الإسلامي القائم بشأن الزناة هو الجلد أو الرجم، بإجماع
من الفقهاء، قديماً وحديثاً. أمّا ما ذكرته الآية الكريمة فلم يفت به أحد من الفقهاء إطلاقاً،
وهو دليل على إجماعهم على النسخ.

والفاحشة هي الزنا بإجماع المفسرين، وباتفاق الروايات المفسرة للآية^(٣).
نعم، شدّ أبو مسلم بقوله: المراد بالفاحشة في الآية الأولى هي المساحقة، وفي الآية
الثانية هي اللواط.

قال الطبرسي: وهذا القول (يعني مذهب أبي مسلم) مخالف للإجماع ولما عليه
المفسرون، فإنهم أجمعوا على أن المراد بالفاحشة هنا الزنا^(٤).
وذهب سيدنا الأستاذ عليه السلام إلى إحكام الآيتين، وفسر الفاحشة هنا وفق مذهب أبي مسلم،
بدليل تنبيه الموصول في الآية الثانية، فتكون هي بدورها قرينة على إرادة المساحقة في
الآية الأولى أيضاً.

قال: أمّا الإجراء المتخذ في الآية بشأن الفاجر والفاجرة فليس حدّاً لهما، بل هو من
قبيل دفع المنكر الثابت وجوبه في جميع الأمور المهمّة، بل في مطلق المنكرات الشرعية.
إذاً لا تنافي بين الآيتين وبين آيات الرجم والجلد الواردة بشأن الزناة^(٥).

٥- آية القوارث بالإيمان

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا

(١) الدر المنثور: ج ٢ ص ١٢٠، وتفسير الصافي: ج ١ ص ٣٢٩.

(٢) راجع تفسير العنابي: ج ١ ص ٢٢٨، وتفسير الصافي: ج ١ ص ٣٢٩.

(٣) مجمع البيان: ج ٣ ص ٢٠. (٤) المصدر.

(٥) البيان: ص ٣٢٩-٣٢٢.

وَتَصَرُّوا أَوْلِيَّكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ»^(١).

كان المسلمون الأوائل يتوارثون بالمؤاخاة في الدين دون التقارب النسبي . فكان إذا مات المؤمن ورثه أخوه في الإيمان والهجرة دون أخيه في النسب والرضاع ، حتى نُسِخ ذلك بآية أولي الأرحام . هذا ممَّا اتَّفَق عليه المفسرون .

قال أبو جعفر الباقر عليه السلام : كان المسلمون يتوارثون بالمؤاخاة الأولى^(٢) .

وقال علي بن إبراهيم : كان إذا مات الرجل ورثه أخوه في الدين دون ورثته ، فإنَّ الحكم كان في أول النبوة التوارث بالأخوة لا الولادة^(٣) .

وقال ابن عباس : جعل الله الميراث للمهاجرين والأنصار دون الأرحام^(٤) .

وقال السيّد عبد الله شبر : كان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والإيمان دون القرابة والرحم^(٥) .

وقال السيّد الطباطبائي : كان التوارث في صدر الإسلام بالهجرة والموالة في الدين^(٦) .

وقال السيوري : كانوا يتوارثون بالإسلام والهجرة لا بالقرابة^(٧) .

ثم لما وقعت الهجرة كانت المهاجرة شرطاً في التوارث زيادة على شرط الإيمان .

قال تعالى - تعقيباً على الآية الأولى - : «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالِكُمْ مِنْ وَلَا يَتَّبِعُهُمْ

مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرْتُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ»^(٨) .

وبعد واقعة بدر الأولى نزلت : «وَأَوْلُوا الْأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ

الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ»^(٩) .

(١) الأنفال: ٧٢ . (٢) مجمع البيان : ج ٤ ص ٥٦٦ .

(٣) راجع تفسير الصافي : ج ١ ص ٦٧٨ ، وتفسير القمي : ج ١ ص ٢٨٠ .

(٤) الدر المنثور : ج ٣ ص ٢٠٦ . (٥) راجع التفسير : ص ١٩٨ و ٣٩٧ طبعه مصر .

(٦) تفسير الميزان : ج ١٦ ص ٢٩٢ . (٧) كنز العرفان : ج ٢ ص ٣٢٤ .

(٨) الأنفال: ٧٢ . (٩) الأحزاب: ٦ .

فُنسخت التوارث بالإيمان والهجرة إلى التوارث بالقرابة والرحم^(١).
 قد يقول البعض: لا دليل في لفظ الآية على إرادة التوارث. ولعلها تعني النصرة
 والمعونة الودية - كما يراه الأصم -^(٢) ولا سيما إذا ضعفتا روايات التفسير بالتوارث. ولعله
 الأرجح، والله العالم.

٦- آيات المصحف

«قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ»^(٣).
 «وَذَكِّيرُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَقَرَارٍ حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ
 مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ»^(٤).
 الآية الأولى أمرٌ بالمصْفَحِ عن المشركين، إذ كان المؤمنون بمكة في ضعف شديد، والآية
 الثانية أمرٌ بالمصْفَحِ عن أهل الكتاب في بدء الهجرة حيث لم تلتئم بعد عرى شوكة المسلمين.
 فُنسخت الأولى بالإذن في القتال أولاً: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى
 نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ»^(٥). ثم التحريض عليه: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ»^(٦).
 وأخيراً باستئصال المشركين عامة: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ»^(٧).
 وكذا نُسخت الثانية بمنابذة أهل الكتاب: «حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ
 صَاغِرُونَ»^(٨).

وقال سيدنا الأستاذ: هاتان الآيتان (الجاثية: ١٤، والبقرة: ١٠٩) محكمتان غير
 منسوختين. أما الأولى فإن مفادها أدب أخلاقي وسلوك عاطفي مع الخصوم، وهو حكم

(١) راجع رسالة التعماني بنقل بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٨، وغيرها من التفاسير.

(٢) راجع مجمع البيان: ج ٤ ص ٥٦٦.

(٣) الجاثية: ١٤.

(٤) الحج: ٣٩.

(٥) البقرة: ١٠٩.

(٦) النوبة: ٥.

(٧) الأنفال: ٦٥.

(٨) التوبة: ٢٩.

تهذيباً لا يزال^(١). وأما الثانية فهي بمعزل عن النسخ المصطلح، حيث فيها تلميح بالتوقيت، ولأن أهل الكتاب لا يجوز مقاتلتهم لمجرد أنهم أهل كتاب، إلا مع ضمّ موجب آخر من إقدام منهم على حرب المسلمين أو إلقاء فتنة بينهم أو امتناعهم عن دفع الجزية^(٢). وقد أسبقنا الكلام عن آيات الصّح و أنّها من النسخ المشروط.

٧- آيات المعاهدة

هناك آيات تقرّر المعاهدات التي كانت بين رسول الله ﷺ وطوائف المشركين من قريش وغيرهم نسختها سورة التوبة في العام التاسع الهجري:

فمن الآيات التي تقرّر المعاهدة قوله تعالى: «فَخَذَوْهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَخْذُوا مِنْهُمْ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً. إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ»^(٣). ومنها قوله: «وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤَمَّنَةٍ»^(٤) وذلك أنّ من قتل مؤمناً خطأً من قوم لهم عهد كان يجب دفع دية إلى أهله الكفّار بموجب العهد.

ومنها قوله: «وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ»^(٥).

ومنها قوله: «وَأَتَوْهُمْ مَا أَنْفَقُوا... وَلَيْسَ أَلْوَا مَا أَنْفَقُوا»^(٦).

لذا صالح رسول الله ﷺ بالحديبية مشركي قريش على أن من أتاه من أهل مكة رده عليهم، ومن أتى مكة من أصحابه فهو لهم لا يردونه جاءت سبيعة الأسلمية مهاجرة لانذة بالنبي ﷺ، فأقبل زوجها يطلبها وهو مشرك، فقال: يا محمد اردد علي زوجتي وهذه طينة الكتاب لم تجف، فنزلت الآية «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ

(١) البيان: ص ٢٨٦.

(٢) البيان: ص ٣٠٨.

(٣) النساء: ٨٢.

(٤) النساء: ٨٩ و ٩٠.

(٥) الممتحنة: ٨٠.

(٦) الأنفال: ٧٢.

فَأَمَّا جُنُوهُهُ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِمْ إِنْ عَلِمْتُمْ هُوَهُمْ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَأَتَوْهُمْ - أي ولكن اعطوا أزواجهن - ما أنفقوا^(١) - من مهور وأصدقا - قال الزهري: لولا الهدنة لم يرذ إلى المشركين صدق^(٢).

قال قتادة: ثم نُسَخَ هذا الحكم بنزول براءة، فنَبَذَ كُلَّ عَهْدٍ إِلَى صَاحِبِهِ.

وهكذا نُسِخَتْ جميع الآيات التي كانت تقرر تلك المعاهدات.

نُسِخَتْهَا سُورَةُ بَرَاءَةِ «بَرَاءَةٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ...» فَأَخَذَهَا عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَرَأَهَا عَلَى مَلَائِكَةِ الْمُشْرِكِينَ بِالْمَوْسِمِ، مَعْلَنًا: مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَهْدٌ فَعَهْدُهُ إِلَى مَدَّتِهِ. وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَدَّةٌ فَمَدَّتُهُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ... وَلَمْ يَجِزْ بَعْدَ ذَلِكَ عَقْدَ مَعَاهِدَةٍ مَعَ الْمُشْرِكِينَ.

لكن نَبَّهْنَا عَلَى أَنَّ مِثْلَ هَذَا التَّدْرِجِ أَوْ التَّحْوِيلِ فِي التَّشْرِيعِ كَانَتْ سِيَاسَةٌ تَرْتَبِطُ مَعَ شُرُوطِهَا الْوَخَاصَّةِ، وَلَا يُمْكِنُ إِعْضَاؤُهَا رَأْسًا، فَلَوْ عَادَتْ الظُّرُوفُ عَادَتِ الْأَحْكَامُ عَلَى حَالَتِهَا الْأُولَى. لِاسْمِ اللهِ.

٨- تدرجية تشريع القتال

كان المسلمون - وهم بمكة - ممنوعين عن مناوشة المشركين، نظراً لموقفهم المتأرجح غير النابت، وكذلك بدء هجرتهم إلى المدينة بعد لم تماسك عرى شوكتهم.

ثم لما قوى جانبهم وترسخت مركزيتهم - كأئمة متماسكة لها كيان ولها حق إنبات الوجود - أذن لهم في منابذة من يحاول هدم هذا الكيان دفاعاً عن حقهم الإنساني العام.

وقد اجتاز تشريع الجهاد مراحل، ابتدأت بمجرد الإذن بعد تحريم سابق، وانتهت باستئصال المشركين: «أَيُّتِمَا تَقْتُلُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا»^(٣).

المرحلة الأولى: الإذن المجرد، ترخيصاً في الدفاع عن حقهم الإنساني: «أُذِنَ لِلَّذِينَ

(٢) مجمع البيان: ج ٩ ص ٢٧٤.

(١) المستحبة: ٦٠.

(٣) الأحزاب: ٦١.

يُحَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...»^(١).

المرحلة الثانية: مناوذة من كان يتعرض لهم من المشركين: «فَإِن لَّمْ يَعْزِلُوا فَسَبُّوا إِلَيْكُمْ السَّلَامَ وَيَكْفُرُوا أَيْدِيَهُمْ فَخَذُوا مِنْهُمْ وَأَقْتَلُوا مِنْهُمْ حَيْثُ تَقَعْتُمُوهُمْ»^(٢) «وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ»^(٣).

المرحلة الثالثة: مقاتلة من يلهمهم من الكفار دون من يبعد عنهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلظَةً وَاغْلَبُوا»^(٤). قال الحسن: كان هذا قبل الأمر بقتال المشركين كافة^(٥).

المرحلة الأخيرة: إعلان حرب عوان على عامة المشركين لغاية استئصالهم، لا يُعقد معهم عهداً ولا تُقبل منهم ذمّة: «وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُحَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً»^(٦) «فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوا مِنْهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ»^(٧).

وأما أهل الكتاب فقتال أو قبول جزية: «قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ»^(٨) ولا شك أن كل مرحلة لاحقة نسخت سابقتها وأصبح كل ناسخ بالأمس منسوخاً في غده وهكذا.

وقد أسبقنا أن هذا من النسخ المشروط والذي يدور مدار الشرائط والظروف وليس من النسخ الثابت المصطلح.

(٢) النساء: ٩١.

(١) الحج: ٣٩ و ٤٠.

(٤) التوبة: ٢٢٣.

(٣) الأنفال: ٦١.

(٦) التوبة: ٣٦.

(٥) مجمع البيان: ج ٥ ص ٨٤.

(٨) التوبة: ٢٩.

(٧) التوبة: ٥.

المحكم والمتشابه

وحقيقة التأويل

-التعريف بالمتشابه

-القرآن والتشابه

-حقيقة التأويل

-هل يعلم التأويل إلا الله؟

المحكم والمتشابه في القرآن

قال تعالى: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا. وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ»^(١).

وفي ذلك تصريح بأن في القرآن محكماً ومتشابهاً، فما هو المحكم وما هو المتشابه؟ المحكم من القول أو العمل: ما انسدت عليه مسارب الشبهة فيه. مأخوذ من الحَكَم -بفتحتين- بمعنى المنع والسدّ. ومنه حَكَمَةُ الفرس -بفتحات-: ما أحاط بحنكي الفرس ليمنعه من الاضطراب. فأحكامُ الكلام: إتقانه تعبيراً وإفادة بالمقصود. وهذا كأكثر آيات التشريع والمواعظ والآداب.

والمتشابه -على نقض المحكم-: ما احتمل تسرب الشبهة فيه. مأخوذ من الشَّبه بمعنى المُشَابَهة، لمشابهة الاحتمالات فيه، إن حقاً أو باطلاً. فالمتشابه: ما التبس أمره من قول أو فعل، له ظاهر مريب وإن كان يحتمل في واقعه حقاً لا مريبة فيه. ومن ثمّ فإنّ أهل الزيغ يتبعون متشابهات الشريعة لفرض تأويلها إلى حيث مطامعهم الفاسدة. وهذا كأكثر آيات الصفات والخليفة والتدبير.

والفرق بين المتشابه، حيث الحاجة إلى التأويل، والمبهم الذي هو بحاجة إلى التفسير:

أنَّ المتشابه، ما أبيهم معناه وعلاه غبارٌ من الإيهام. فهو بحاجة إلى رفع ذلك الإيهام ودفع هذا الإيهام. أمَّا المبهم فهو مجرد خفاء المعنى وإيهامه من غير إيهام أو إشارة للشك. وإذ كان التفسير هو رفع الإيهام، فإنَّ التأويل رفع إيهام ودفع إيهام معاً. فالتأويل نوع من التفسير، قد جمع بين الرفع والدفع.

وبطبيعة الحال تختلف عوامل التشابه عن عوامل الإيهام. حيث أهمَّ عوامل التشابه هو: علوُّ المعاني ودقَّتْها، وفي قصور الألفاظ عن إفادتها تماماً. لأنَّها وضعت لمعانٍ هابطة في مستوى العرف العام، فلم تكن بوسعها الإفاد بتلك المعاني الشامخة المتعالية عن أفهام العامة. إلا ظواهر شكلية لا يسير غورها إلا الراسخون في العلم! وهناك عوامل آخر ربما عرَّضت على الآية - في عهد متأخَّر - أخرجتها عن الإحكام إلى التشابه، لتصبح متشابهة بالعرض، على ما سنذكر.

وأما عوامل الإيهام المحوَّجة إلى التفسير، فتعود إلى جهات أخرى، منها: غرابة الكلمة عن المؤلف العام. نظراً لاختصاص استعمالها ببعض القبائل دون بعض، فجاء القرآن ليوحِّد اللغة باستعمال جميع لغات العرب، من ذلك «صلداً» بمعنى «نقيباً» في لغة هذيل. و«الإملاق» بمعنى «الجوع» في لغة لخم. و«المنسأة» بمعنى «العصا» في لغة حضرموت. و«الودق» بمعنى «المطر» في لغة جرهم. و«بُست» بمعنى «فتتت» في لغة كندة. وهلمَّ جرأ، الأمر الذي دَوَّنت لأجله كتب غريب القرآن، وهي كثيرة.^(١)

ومنها: إشارات عابرة جاءت في عرض الكلام، بحيث يحتاج فهمها إلى درس عادات و مراجعة تاريخ، كالنسيء في سورة التوبة: ٣٧. والنهي عن إتيان البيوت من ظهورها في سورة البقرة: ١٨٩. أو تعابير إجمالية يحتاج الوقوف على تفاصيلها إلى مراجعة السنَّة وأقوال السلف، كقوله تعالى: «أقيموا الصلوة» و«آتوا الزكاة» و«لله على الناس حجُّ البيت»

(١) منها رسالة تنضخ ما ورد في القرآن من لغات القبائل، مطبوعة في هامش تفسير الجلالين، نسبها جلال الدين إلى

وأمثال ذلك.

ومنها: تعابير عامّة صالحة لمعاني لا يعرف المقصود منها إلا بمراجعة ذوي الاختصاص، كالدابة في سورة النمل: «أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ»^(١)، والبرهان في سورة يوسف: «لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ»^(٢)، والكوثر في «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ»^(٣)، والروح في «يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ»^(٤) وأمثال ذلك.

ومنها: استعارات بعيدة الأغوار، يحتاج البلوغ إليها إلى سبر وتعمق كثير، كقوله تعالى: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا»^(٥) وقوله: «الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ»^(٦) ونحو ذلك.

ومن ثم قال الراجب: التفسير إمّا أن يستعمل في غريب الألفاظ، نحو البحيرة والسائبة والوصيلة، أو في وجيز كلام مبين بشرح، نحو أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وإمّا في كلام متضمن لقصّة لا يمكن تصويره إلا بمعرفتها، كقوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ»^(٧) وقوله: «يَسِّرْ لِلْيَسْرِ بِأَنَّ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا»^(٨).

هذه نماذج من عوامل الإبهام المحوجة إلى تفسير كاشف، وقد تبين أنها تختلف تماماً عن عوامل التشابه المستدعية لتأويل مقبول. وعليه فلا يشتبه مورد أحدهما بالآخر، وإن كانا يشتركان في خفاء المراد بالنظر إلى ذات اللفظ.

هل في القرآن متشابه؟

لا شك أنّ القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات في أكثرية غالبية مشتمل على

(١) النمل :٢٧-٢٨. (٢) يوسف :٢٢-٢٤.

(٣) النبأ :٧٨-٢٨. (٤) الرعد :٥٣-٤٩.

(٥) يس :٣٦-٦٥. (٦) التوبة :٩-٣٧.

(٧) البقرة :٢، ١٨٩، بئال إعجاز، ج ٢، ص ١٧٣، ط ٣.

آيات متشابهات في عدد قليل . قال تعالى : « هو الَّذِي أنزل عليك الكتاب منه آياتٌ محكماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب وأخرُ متشابهات »^(١).

ونسبة عدد المتشابهات إلى المحكمات نسبة هابطة جداً ، فلو اعتبرنا من مجموع آي القرآن الحكيم ما يربو على ستة آلاف آية ، فإنَّ المتشابهات لا تبلغ المائتين لو أخذنا بالتدقيق وحذف المكررات حسبما يوافقك نماذج منها ، وعليه فالمجال أمام مراجعة الكتاب العزيز والارتواء من مناهله العذبة واسع جداً .

وقد حاول البعض إنكار وجود أي متشابهة بالذات في القرآن . بحجة أنه كتاب هداية عامة « هذا بيانٌ للنَّاس »^(٢) ، وقد قال تعالى : « كتابٌ أحكمت آياته ثمَّ فصلت من لدن حكيمٍ خبيرٍ »^(٣).

ومن ثمَّ فالتشهير بالتشابه في آي القرآن إنما يعني التشابه بالنسبة إلى أولئك الزائغين الَّذين يحاولون تحريف الكلم عن مواضعه .

غير أن الإنكار لا يصلح علاجاً لواقعية لا محيص عنها . نعم ، لا يصطدم وجود المتشابه في القرآن مع كونه هداية عموم .

أولاً : ضالة جانب المتشابه ، بحيث كان الطريق أمام المستهدين يهدي القرآن الكريم فسيحاً جداً .

ثانياً : هداية الكتاب تعني كونه المصدر الأول للتشريع وتنظيم الحياة العامة ، وهذا لا يعني إمكان مراجعة الأفراد بالذات للقرآن في جميع أحكامه وتشريعاته . إذ لمثل ذلك اختصاصيون يعرفون من الكتاب مالا تعرفه العامة ، وهم يشكلون قيادة الأمة على هدى الكتاب ، وبذلك أصبح القرآن مصباحاً ينير درب الحياة على ركب الإنسانية بشكل عام .
أمَّا الإحكام في سورة هود فيعني الإتقان والسداد ، حيث القرآن ذو أساس مكين لا

(١) آل عمران : ١٢٨ .

(٢) آل عمران : ٧ .

(٣) هود : ١ .

يتضعض، وذو مشعل وضء لا ينطفئ مع الأبدية. قال تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ»^(١).

وسنعرض فيما يأتي أن من الآي المتشابهة ما هي متشابهة بالذات، وإنما يعرف الراسخون في العلم تأويلها الصحيح، بفضل جهودهم وتعمقهم في أغوار هذا الدين، ليستنبطوا من كنوزه المستورة لآي وهاجة تبهر العقول.



وحاول بعضهم في اتجاه معاكس، زاعماً أن جميع آي القرآن متشابهة، ومن ثم لا يجوز مسمها إلا بدلالة نص معصوم، وبذلك أسقط ظواهر الكتاب عن صلاحية الاستدلال بها أو الاستنباط منها لحكم شرعي، نظراً لقوله تعالى: «اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا»^(٢) وبما ورد: «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مَنْ خُوِطِبَ بِهِ»^(٣).

وهذا قصور وجفاء، حيث يقول تعالى: «أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا»^(٤). وقال رسول الله ﷺ: «فَإِذَا التَّبَسَّتْ عَلَيْكُمْ الْفَنَنُ كَقَطْعِ السَّبِيلِ الْمَظْلَمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ». كيف الرجوع إلى القرآن لوضح الملتبسات إذا كان هو ملتبساً؟ وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ فِيهِ مَنَارُ الْهُدَى وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، فَلِيَجْلُ جَالٌ بِبَصَرِهِ وَيَفْتَحُ لِلضِّيَاءِ نَظْرَهُ، فَإِنَّ التَّفَكَّرَ حَيَاةَ قَلْبِ الْبَصِيرِ، كَمَا يَمْشِي الْمَسْتَتِيرُ فِي الظُّلُمَاتِ بِالنُّورِ». وقد ورد أيضاً: «إِنَّ الْقُرْآنَ فِيهِ تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ وَتَحْصِيلٌ»، و«هُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلُ»، «ظَاهِرُهُ أُنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ»، «ظَاهِرُهُ حَكْمٌ وَبَاطِنُهُ عِلْمٌ»^(٥).

أما آية الزمر فتعني تناسق آي القرآن في الإجابة والإيفاء وقوة التعبير، «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»^(٦).

(١) الحجر: ٩ (٢) الزمر: ٢٣.

(٣) تفسير البرهان للمحدث البحراني: ج ١ ص ١٨ (٤) معتد: ٢٤.

(٥) الأحاديث مستخرجة من الكافي الشريف: ج ١ ص ٥٩٩ - ٦٠٠.

(٦) النساء: ٨٢.

لماذا في القرآن متشابهة؟

ولعلّ معترضاً يقول: هَلَا كانت جميع آي القرآن محكمات، فكان ذلك أسلم من الالتباس وأقرب إلى طرق الإهتداء العام!

قال الإمام الرازي: من الملاحظة من طعن في القرآن لأجل اشتغاله على المتشابهات، إذ كيف يكون القرآن مرجع الناس في جميع العصور مع وفرة دواعي الاختلاف فيه، حيث يجد صاحب كل مذهب مأربه في القرآن، بسبب اختلاف آياته في الدلالة والردّ. الأمر الذي لا يليق بالحكيم تعالى أن يجعل كتابه المبين معرضاً للجدل وتضارب الآراء، فلو كان جعله تقيماً من المتشابهات العشرة للشبهات كان أقرب إلى حصول الغرض والمقصود من الهداية العامة^(١).

وقد عالج ابن رشد الأندلسي - الفيلسوف العظيم - هذه الناحية معالجة دقيقة. صنّف فيها الناس إلى ثلاثة أصناف: صنف العلماء، وعنى بهم من في طبقتهم من أرباب الحكمة العالية. وصنف الجمهور. وهم عامة الناس ممن لم يحفظوا بحلى العلم شيئاً. وصنف بين بين. لا هم في مستوى العلماء ولا مع العامة، وعنى بهم أرباب المذاهب الكلامية من الأشاعرة وأصحاب الاعتزال.

قال: وهذا الصنف الأخير هم الذين يوجد في حقهم التشابه في الشرع، وهم الذين ذمهم الله تعالى. وأما عند العلماء فليس في الشرع تشابه، لأنهم يعرفون من كل آية وجه تخريجها الصحيح الذي قصده الشرع، والجمهور لا يشعرون بالشكوك العارضة. بعد أن كانوا أخذوا بالظواهر واستراحوا إليها من غير ترديد.

قال: إنّ التعليم الشرعي هو كالفداء النافع لأكثر الأبدان، نافع للأكثر وربما ضرراً بالأقل. ولهذا جاءت الإشارة بقوله تعالى: «وما يُضِلُّ به إلاّ الفاسقين»^(٢).

وهذا إنّما يعرض في الأقل من الآيات لأقل الناس. وهي الآيات التي تضمنت الإعلام

عن الأشياء المتغيبية عن الحس، ليس لها مثال في المحسوس، فجاء التعبير عنها بالشاهد الذي هو أقرب الموجودات إلى تلك الغائبات وأكثرها شبيهاً بها، فربما عرض لبعض الناس أن يأخذ بالمثال ذاته لتلزمه الحيرة والشك.

وهذا هو الذي سمي في الشرع متشابهاً، الأمر الذي لا يعرض للعلماء ولا للجمهور، لأن هؤلاء هم الأصحاء الذين يلائمهم الغذاء النافع الذي يوافق أبدان الأصحاء. أما غير هذين الصنفين فرضى، والمرضى هم الأقل من الناس، ولذلك قال تعالى: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»^(١) وهؤلاء هم أهل الجدل والمذاهب الكلامية.

قال: وقد سلك الشرع في تعاليمه وبرامجه الناجحة مسلكاً ينتفع به الجمهور ويخضع له العلماء، ومن ثم جاء بتعابير يفهمها كل من الصنفين: الجمهور يأخذون بظاهر المثال فيتصورون عن الممثل له ما يشاكل الممثل به ويقتنعون بذلك، والعلماء يعرفون الحقيقة التي جاءت في طي المثال.

مثلاً: لما كان أرفع الموجودات في الحس هو النور ضرب به المثال، وبهذا النحو من التصور أمكن للجمهور أن يفهموا من الموجودات فيما وراء الحس مما مثل لهم بأشياء متخيّلة محسوسة. فمتى أخذ الشرع في أوصاف الله تعالى على ظاهرها، لم تعرض للجمهور شك في ذلك. فإذا قيل: الله نور، وأن له حجائباً من نور، وأن المؤمنين يرونه في الآخرة كالشمس في رابعة النهار، لم تعرض للجمهور شبهة في حقيقة هذه التعابير. وكذلك العلماء لا تعرض لهم شبهة في ذلك، حيث قد تبرهن عندهم أن تلك الحالة هي مزيد علم ويقين. لكن إذا ما صرح بذلك للجمهور بطلت عندهم الشريعة كلها، وربما كفروا بما صرح لهم، لأن الجمهور يرون من كل موجود هو المتخيّل المحسوس، وأن ما ليس بمتخيّل ولا محسوس فهو عدَم عندهم.

فإذا قيل: إنَّ هناك موجوداً ليس بجسم ولا فيه شيء، مما يروونه لازم الجسميّة ارتفع عنهم التخيّل وصار عندهم من قبيل المعدوم. ولا سيّما إذا قيل لهم: إنّه لا خارج العالم ولا داخله ولا فوق ولا أسفل. ومن ثمّ لم يصرّح الشرع بأنّه ليس بجسم وإنّما اكتفى بقوله: «ليس كمثل شيء وهو السميع البصير»^(١). وقوله: «لا تُدرِكُهُ الأبصارُ وهو يُدرِك الأبصارَ وهو اللطيفُ الخبير»^(٢).

قال: وأنت إذا تأملت الشرع وجدته - مع أنّه قد ضرب للجسمهور في هذه المعاني المثالات التي لم يمكنهم تصوّرها إلاّ بذلك - قد نبّه العلماء على تلك المعاني بحقائقها. فيجب أن يوقف عند حدّ الشرع في نهج التعليم الذي خصّ به صنفاً صنفاً من الناس. وأن لا يخلط التعليمان فتفسد الحكمة الشريعة النبوية.

ولذلك قال ﷺ: «إنّا معشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم»^(٣).

وقد انتهج الإمام الرازي نفس المنهج، قال: والسبب الأقوى في هذا الباب أن القرآن كتابٌ مشتملٌ على دعوة الخواصّ والعوامّ جميعاً. وطبائع العوامّ تنبو في أكثر الأمر عن إدراك الحقائق، فمن سمع من العوامّ في أوّل الأمر إنبات موجود ليس بجسم ولا متخيّر ولا مشار إليه ظنّ أنّ هذا عدم ونفي فوق التعطيل. فكان الأصح أن يخاطبوا بألفاظ دالّة على بعض ما يناسب ما يتوهّمونه ويتخيّلونه، ويكون ذلك مخلوطاً بما يدلّ على الحقّ الصريح. فالقسم الأوّل - وهو الذي يخاطبون به في أوّل الأمر - يكون من باب المتشابهات، والقسم الثاني - وهو الذي يكشف لهم في آخر الأمر - هي المحكمات^(٤).



(١) الشورى: ١١. (٢) الأنعام: ١٠٣.

(٣) الكشف عن مناهج الأدلّة لابن رشد: ص ٨٩ و ٩٦ و ٩٧ و ١٠٧.

(٤) الضمير الكبير: ج ٧ ص ١٧٢، وهو خامس وجوه ذكرها بهذا الصدد.

وهذا المنهج الذي انتهجه الفيلسوفان في توجيه وجود المتشابه في القرآن معالجة للقضية في بعض جوانبها، وهي الآيات المتشابهة المرتبطة مع مسألة المبدأ والمعاد، وليس علاجاً حاسماً للمادة من جذورها، إذ تبقى آيات الخلق والتقدير، والقضاء والقدر، والجبر والاختيار، والعدل والعصمة، وما شاكل، خارجة عن إطار هذا العلاج.

أما العلاج الحاسم لمادة الإشكال في كل جوانب المسألة فهو أن وقوع التشابه في مثل القرآن - الكتاب السماوي الخالد - شيء كان لا محيص عنه، ما دام كان يجري في تعابيره الرقيقة مع أساليب القوم، في حين سمو فحواه عن مستواهم الهابط.

القرآن جاء بمفاهيم حديثة كانت غريبة عن طبيعة المجتمع البشري آنذاك، ولا سيما جزيرة العرب القاحلة عن أنحاء الثقافات، في حين التزامه في تعبيراته الكلامية نفس الأساليب التي كانت دارجة ذلك العهد، الأمر الذي ضاق بتلك الألفاظ، وهي موضوعة لمعانٍ مبتذلة وهابطة إلى مستوى سحيق من أن تحيط بمفاهيم هي في درجة راقية وبعيدة الآفاق. كانت الألفاظ والكلمات التي كانت العرب تستعملها في محاوراتها محدودة في نطاق ضيق حسبما كانت العرب تألفه من معانٍ محسوسة أو قريبة من الحس ومبتذلة إلى حد ما. فجاء استعمالها من قبل القرآن - الكتاب الذي جاء للبشرية على مختلف مستوياتهم مع الأبدية - غريباً عن المألوف العام.

ومن ثم قصرت أفهامهم عن إدراك حقائقها ما عدا ظواهر اللفظ والتعبير. إذ كانت الألفاظ تقصر بالذات عن أداء مفاهيم لم تكن تطابقها، ومن ثم كان اللجوء إلى صنوف المجاز وأنواع الاستعارات، أو الإيفاء بالكناية ودقائق الإشارات. الأمر الذي قرّب المفاهيم القرآنية إلى مستوى أفهام العامة من جهة، وبعدها من جهة أخرى. قرّبها من جهة إخضاعها لقوالب لفظية كانت مألوفة لدى العرب، وبعدها حيث سمو المعنى. كان بأسى الخضوع لقوالب لم تكن موضوعة لمثله، كما كان يأبى النزول مع المستوى الهابط مهما بولغ في إخضاعه، إذ اللفظ يقصر عن أداء مفهوم لا يكون قابلاً له ولا يتطابقه تماماً. هذا هو

السبب الأقوى لوقوع التشابه في تعبيرات القرآن بالذات، كما مرّ من مسألة الأمرين
الأمرين، وغيرها من مسائل كلامية غامضة تبحث عن شؤون المبدأ تعالى والمعاد،
ومسائل شؤون الخليقة وما انطوت عليه من أسرار وغوامض خافية على غالبية الناس.

مثلاً قوله تعالى: «وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة»^(١) تعبيرٌ
رمزيّ عن شأن الإنسان - بصورة عامّة - في الأرض، إنّه ذلك الموجود العجيب الذي يملك
في ذاته قدرة جبارة يضيق عنها الفضاء وتخضع لها قوى الأرض والسماء «وسخرّ لكم ما
في السماوات وما في الأرض جميعاً»^(٢). كل ذلك بفضل نبوغه واستعداده الخارق الذي
يمنحه القدرة على الخلق والإبداع، على أثر تفكيره وجهاده في الوصول إلى درجة
الكمال، وليتمثّل مظهريّته تعالى، فهو الموجود النموذجي لمظهرية ذي الجلال والإكرام،
ومن ثمّ كان خليفته في الأرض يومذاك ليصبح خليفته في عالم الوجود إطلافاً.

لم تكن العرب تستطيع إدراك هكذا تصوّر عن الإنسان، ولا كان يخطر ببالها أنّ لهذا
الإنسان شأناً في عالم الوجود، سوى أنّه الموجود الضعيف الذي تتألّب عليه الضواري، ولا
يقات إلا على لحوم بني جلدته سلباً ونهباً وإرافةً للدماء والفساد في الأرض.

ومن ثمّ لما جاء التعبير عن شأن آدم بهذا التعبير - ممّا ينم عن عظمة وإكبار - حسبوه
«المتصرّف في الأرض» عن جانب الله القابع في زاوية السماء، أو فسروه - كما في عصر
متأخّر - بأنّه الخلف عن مخلوق كان قبل آدم، الجنّ أو النسناس.

وهكذا الانجذاب بالآية يمنة ويسرة، ما دام لم يعرفوا من حقيقة الإنسان ولا أدركوا من
شأنه الخطير.



وهكذا جاء التعبير المجازي في آيتين لا تختلفان من حيث الأداء والتعبير، غير أنّ
إحدهما لما كانت تعبر عن معنى هو فوق مستوى العامّة حصل فيها التشابه، أمّا الأخرى

فكانت تعبيراً عن معنى محسوس، ومن ثم لم يقع فيها إشكال. فقوله تعالى: «إلى ربها ناظرة»^(١) فيها مجاز الحذف. أي إلى رحمة ربها. كما في آية أخرى نظيرتها: «واسأل القرية»^(٢) أي أهل القرية. غير أن الأولى صارت متشابهة لقصور أفهام العامة عن إدراك مقام الألوهة فحسبوا منها جواز رؤيته تعالى، أما الآية الثانية فلم تتوقف في فهم حقيقتها لآنها في معنى محسوس.

ونظير ذلك قوله تعالى: «يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود»^(٣) دعا جهل العامة بصفاته تعالى إلى فهم ساقٍ له سبحانه. في حين أن استعارة الساق للشدة عند العرب كان أمراً دارجاً، قال شاعرهم: «وقامت الحرب على ساقٍ»^(٤) أي أخذت في شدتها، فهم عندما يستمعون إلى هذا الشعر لا يترددون في فهم الحقيقة، إذ يعلمون أن لا رجل للحرب ولا ساق. أما في الآية الكريمة فيذهب وهمهم إلى وجود رجل له تعالى وساق، ومن ثم ذهب بعضهم إلى عقيدة التجسيم - تعالى الله عن ذلك -.

وقد ذهب سيدنا الطباطبائي^(٥) أيضاً إلى هذا الرأي، وذكر أن سبب وقوع التشابه في القرآن يعود إلى خضوع القرآن - في إلقاء معارفه العالية - لألفاظ وأساليب دارجة، هي لم تكن موضوعة لسوى معانٍ محسوسة أو قريبة منها، ومن ثم لم تكن تفي بتمام المقصود، فوقع التشابه فيها وخفي وجه المطلوب. نعم، إلا على أولئك الذين نفذت بصيرتهم وكانوا على مستوى رفيع. قال تعالى: «أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيلُ زبداً رابياً - إلى قوله - كذلك يضرب الله الحق والباطل، فأما الزبدُ فيذهب جفاً وأما ما ينفع الناس فيمكثُ في الأرض كذلك يضربُ الله الأمثال»^(٥). وهكذا القرآن تحتمله الأفهام على قدر استعداداتها، وفيه من المتشابهات ما تزول بتعميق النظر وإجادة التفكير،

(٢) يوسف: ٨٢.

(١) لقائمة: ٢٣.

(٤) البرهان للزركشي: ج ٢ من ٨٤.

(٣) القلم: ٤٢.

(٥) الرعد: ١٧.

فيبقى القرآن كله محكماً مع الأبد بسلام^(١).

وهكذا قال الشيخ محمّد عبده: إنّ الأنبياء بُعثوا إلى جميع أصناف الناس من داني وشريف، وعالمٍ وجاهل، وذكيٍّ وبليد. وكان من المعاني ما لا يمكن التعبير عنه بعبارة يفهمها كلّ أحد، ففيها من المعاني العالية، والحكم الدقيقة ما يفهمه الخاصّة، ولو بطريق الكناية والتعريض. ويؤمر العامّة بنفويض الأمر فيه إلى الله، والوقوف عند حدّ المحكم، فيكون لكلّ نصيبه على قدر استعداده^(٢).



وهناك عامل آخر كان ذا أثر في إيجاد التشابه في غالبية الآيات الكريمة، إذ لم تكن متشابهة من ذي قبل، وإنّما حدث التشابه فيها على أثر ظهور مذاهب جدلية، بعد انقضاء القرن الأوّل الذي مضى بسلام، إذ كانت العرب أوّل عهدا بنزول القرآن تستذوقه بمذاويقها البدائية الساذجة. حلواً بديعاً سهلاً بليغاً. أمّا وبعد ما احتبكت وشانج الجدل بين أرباب المذاهب الكلامية منذ مطلع القرن الثاني فقد راج التثبت بظواهر آيات تحريفاً بمواضع الكلم. ومن ثمّ غمّتها نوع من الإبهام والغموض الإصطناعيّين، وأخذت كلّ طائفة تتشبّث بما يروقها من آيات، لغرض تأويلها إلى ما تدعّم به مذاهبها.

ولا ريب أنّ القرآن حمّال ذو وجوه - كما قال أمير المؤمنين عليه السلام - لأنّه كما ذكرنا معتمد في أكثر تعابيره البلاغية على أنواع من المجاز والاستعارة والتشبيه، فأكسبه ذلك خاصيّة قبول الانعطاف في غالبية آياته الكريمة، ومن ثمّ نهى الإمام عليه السلام عن الاحتجاج بالقرآن تجاه أهل البدع والأهواء، لأنّهم يعمدون إلى تأويله بلا هوادة. قال عليه السلام لابن عباس - لمّا بعثه للاحتجاج على الخوارج -: لا تخصّمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه، تقول

(١) تفسير الميزان: ج ٣ ص ٥٨ - ٦٢ تلخيص واختزال.

(٢) تفسير المنار: ج ٣ ص ١٧٠ وهو ثالث وجوه ذكرها بهذا الصدد.

ويقولون. ولكن حاججهم بالسنة فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً^(١).

انظر إلى هذه الآية الكريمة: «وجوه يومئذ ناضرة. إلى ربها ناظرة»^(٢).

ربما لم تكن العرب تخطر ببالها إزادة الرؤية بالعين، كما قال الزمخشري: سمعت مستجدياً بمكة - بعدما أغلق الناس أبوابهم من حرّ الظهيرة - تقول: عُيِّنتي نويظرة إلى الله وإليكم^(٣). ولم يختلج ببال أحد أنها تقصد النظر بالتحديق إلى الله سبحانه، وإنما كان قصدها الانقطاع إليه وتوقع فضله ورحمته تعالى. وهكذا في الآية الكريمة نظراً إلى موقعية الحصر فيها، لكنّ الأشاعرة وأذئابهم من مشبهة ومجسّمة جمدوا على ظاهر الآية البدائي وأصروا على أنه النظر إليه تعالى بهاتين العينين اللتين في الوجه^(٤).

وهكذا لما سمعت العرب قوله تعالى: «ثم استوى على العرش يدبر الأمر»^(٥) ربما لم تفهم منه سوى استقلاله تعالى بملكوّات السماوات والأرض وتدبيره لشؤون هذا العالم، نظير قول شاعرهم:

ثم استوى بشر على العراق
من غير سيف ودم مهبraq
وقال آخر:

فلما علونا واستوتونا عليهم
تركناهم صرعى لنسر وكاسر
لكنّ الأشاعرة ومن ورائهم سائر أهل التشبيه أبوا إلا تفسيره بالاستقرار على العرش جلوساً مرتباً فوق السماوات العلوي، وقد ينزل إلى السماء الدنيا ليطلع على شؤون خلقه فيغفر لهم ويوجب دعاءهم، إذ لا يمكنه ذلك وهو مرتب على كرسيه فوق السماوات^(٦).

(١) نهج البلاغة، ج ٢ ص ١٢٦ من المکتب والوصايا رقم ٧٠.

(٢) القیامة: ٢٢ و ٢٣.

(٣) راجع الكشاف: ذیل لآية ٢٣ من سورة القیامة. وأساس البلاغة: مادة «نظر».

(٤) راجع الإبانة لأبي الحسن الأشعري: ص ١١ طبعة حيدرآباد الدکن.

(٥) يونس: ٣.

(٦) راجع الإبانة: ص ٣٥ فما بعد. ورسالة الردّ على الجهمية للدارمي: ص ١٣ فما بعد.

وعلى هذا السبيل. لما نزلت الآية: «وقالت اليهود يذ الله مغلولة غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَأُغْنُوا بِمَا قَالُوا بِلِ يَدَاؤِهِ مَبْسُوطَتَانِ يُفِيقُ كَيْفَ يَشَاءُ»^(١) لانظنَّ أَنَّ الْعَرَبَ فَهَمَّتْ مِنْهَا الْجَوَارِحَ وَالْأَعْضَاءَ، نَظِيرَ قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ»^(٢) لا يعني الجارحة المخصوصة كما زعمته المشبهة من أصحاب الحشو، وإنما عنى يد القدرة ونفي العجز عن التصرف فيما يشاء تعالى. أمَّا الْأَشْعَرِيُّ وَمَنْ حَذَا حَذْوَهُ فَأِنَّهُمْ قَدْ انْحَرَفُوا فِي فَهْمِ هَذَا الْمَعْنَى الظاهر، فأولوه إلى الجارحة، وقالوا إنَّ اللَّهَ يَدُورُ رِجْلًا وَعَيْنًا وَوَجْهًا وَمَا إِلَى ذَلِكَ، وقوفاً مع ظاهر الكلمة في القرآن^(٣).

(٢) الإسراء: ٢٩.

(١) المائدة: ٦٤.

(٣) راجع الإبانة: ص ٣٩ فما بعد. وغيرها من كتب القوم وهي كثيرة.

حقيقة التأويل

ما بين التأويل والتفسير من فرق

التأويل يستعمل بمعنى توجيه المتشابه، وهو تفعيل من «الأول» بمعنى الرجوع، لأنَّ المؤول عندما يخرج للمتشابه وجهاً معقولاً، هو آخذ بزمام اللفظ ليعطفه إلى الجهة التي يحاول التخريج إليها، ومن ثمَّ يستعمل في تبرير العمل المتشابه أيضاً كما في قصة الخضر عليه السلام، قال لصاحبه «سأنبؤك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً»^(١) أي سأطلعك على السرِّ المبرر لأعمالٍ أثارت شكوكك ودعتك إلى الاعتراض.

إذاً فكلّ لفظ أو عمل متشابه - أي مشير للريب - إذا كان له توجيه صحيح فهذا التوجيه تأويله لا محالة. وعليه فالفرق بين التفسير والتأويل، هو أنَّ الأوَّل توضيح ما لجانب اللفظ من إيهام، والثاني توجيه ما فيه من مثار الريب، وقد سبق ما بين عوامل الإيهام والتشابه من فرق.

هذا، وقد اصطلحوا أيضاً على استعمال التأويل في معنى ثانويٍّ للآية، فيما لم تكن بحسب ذاتها ظاهرة فيه، وإنما يتوصَّل إليه بدليل خارج، ومن ثمَّ يعبر عنه بالظن، كما يعبر عن تفسيرها الأوَّلي بالظهور، فيقال: تفسير كلِّ آية ظهرها، وتأويلها بظنها. والتأويل بهذا المعنى الأخير عامٌّ لجميع أي القرآن، كما في الأثر: ما في القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن. وقد سئل الإمام محمَّد بن علي الباقر عليه السلام عن ذلك فقال: ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما

قد مضى، ومنه ما لم يكن، يجري كما يجري الشمس والقمر^(١). وقال ﷺ أيضاً: ظهر القرآن الذين نزل فيهم، ووطنه الذين عملوا بمثل أعمالهم^(٢). فقد جاء التنزيل في كلامه ﷺ بمعنى التفسير، أي أن الآية مورد نزول يكشف عن مدلولها الأولي المنصرم، ويعبر عنه بسبب النزول، ولا غنى للمفسر عن معرفة أسباب النزول في كشف إبهام الآية، كما في آية النسيء^(٣)، وآية نفي الجناح عن السعي بين الصفا والمروة^(٤)، وآية النهي عن دخول البيوت من ظهورها^(٥)، ونحوها كثير.

نعم، هناك عموم ثابت أبدي تنطوي عليه الآية، وبذلك تشمل عاتمة المكلفين مع الأبدية، وهو وطنها وتأويلها الذي يعرفه الراسخون في العلم، ولولا ذلك لبطلت الآية. قال الإمام الباقر ﷺ: ولو أن الآية إذا نزلت في قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقي من القرآن شيء، ولكن القرآن يجري أوله على آخره ما دامت السماوات والأرض من خير أو شر^(٦). وقد صح عن رسول الله ﷺ قال: إن فيكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله. وهو علي بن أبي طالب^(٧).

فقد قاتل رسول الله ﷺ على تطبيق القرآن الخاص حسب مورد نزوله، وقاتل علي ﷺ على تطبيقه العام على مشايه القوم.

فقوله تعالى: «وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرُّ من أتى وأتوا البيوت من أبوابها وأتقوا الله لعلكم تفلحون»^(٨) نزلت رادعة لعادة جاهلية، كان الرجل إذا أحرم نقيب في مؤخر بيته نقباً، منه يدخل ومنه يخرج، وهذه العادة أصبحت لا وجود لها

(١) بصائر الدرجات: ص ١٩٥، بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٩٧ رقم ٦٤.

(٢) تفسير العتاشي: ج ١ ص ١١، بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٩٤ رقم ٤٦.

(٣) التوبة: ٣٧. (٤) البقرة: ١٥٨.

(٥) البقرة: ١٨٩. (٦) تفسير العتاشي: ج ١ ص ١٠، الصافي: ج ١ ص ١٤.

(٧) تفسير العتاشي: ج ١ ص ١٥-١٦. (٨) البقرة: ١٨٩.

بعد أن باد أهلها. غير أن الآية لم تمت بذلك وإنما بقي عموم ردعها عن إتيان الأمور من غير وجوهها بصورة عامة^(١) فهذا تأويلها إنما بقي عموم ردعها عن إتيان الأمور من غير وجوهها بصورة عامة^(٢) فهذا تأويلها المنطوي عليه الآية، يعمل بها مع الأبد.

وقوله تعالى: «قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين»^(٣) تفسيرها: إن الله هو الذي «أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يُخرجُ به زرعاً مختلفاً ألوانه»^(٤). وهذا معنى ظاهري يدل عليه ظاهر اللفظ. وجاء في تأويلها: إذا فقدتم حجة من حجج الله الذين كنتم ترتوون من عذب نعيمهم فمن الذي يأتيكم بحجة أخرى يواصل هديكم في ركب الحياة^(٥). وهذا المعنى يعبر عنه بالبطن، لا يجرأ أحد على بيانه إلا بنص معصوم. واستعارة ينوع الماء لمصدر الهداية الربانية شيء متناسب، فكما أن الماء هو أصل الحياة المادية، كذلك الهداية الإلهية هي أصل الحياة العليا السعيدة.

المعاني الأربعة للتأويل

قد استعمل لفظ «التأويل» في معانٍ أربعة. ثلاثة منها في مصطلح القرآن، والرابع في مصطلح أهل الحديث والتفسير.

أما الثلاثة التي جاءت في القرآن فهي:

١- توجيه المتشابه: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ، مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ، وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ. وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ...»^(٦) وقد مر الكلام فيه.

(١) راجع تفسير شتر: ص ٦٧ طبعة الكشميري.

(٢) راجع تفسير شتر: ص ٦٧ طبعة الكشميري.

(٣) الزمر: ٢٦.

(٤) التلوك: ٣٠.

(٥) راجع تفسير الصافي: ج ٣ ص ٧٢٧.

(٦) آل عمران ٣: ٧، وكذا في سورة الكهف: ١٨، ٨٧، ٨٢، بمعنى: توجيه العمل المتشابه.

وهو موضع بحثنا.

٢- تعبير الرؤيا: وجاء في القرآن في ثمانية مواضع من سورة يوسف (الآيات: ٦ و ٢١ و ٣٦ و ٣٧ و ٤٤ و ٤٥ و ١٠٠ و ١٠١).

وهو يعود إلى المعنى الأول أيضاً، حيث تأويل ظاهر الرؤيا المتشابه وتفسيره إلى حيث المقصود.

٣- مآل الأمر وعاقبته الكائنة. جاء بهذا المعنى في خمسة مواضع من القرآن (سورة النساء: ٥٩. سورة الإسراء: ٣٥. سورة الأعراف: ٥٣ مكررة. وسورة يونس: ٣٩). وهو معناه اللغوي البحت.

وأما الرابع -المفهوم العام المنطوي عليه الآية- فقد جاء استعماله في الأثر -حسبما مرّ عليك- وفي مصطلح أهل الحديث والتفسير.

آراء شاذة في معرفة التأويل

وليعلم أنّ الوجوه الأربعة للتأويل كانت من قبيل المعنى والتفسير، وهي مفاهيم ذهنيّة جاء التعبير عنها بالألفاظ، وربما كانت لها مصاديق في وجود الأعيان. والتأويل -وهو تفسير في نوعه الخاص- هو من قبيل المعنى والمفهوم، ولا ينبغي أن يشتبه بالمصداق. الأمر الذي التبس على ابن تيميّة فحسبه وجوداً عينياً، وتبعه على هذا الوهم. رشيد رضا في تفسير المنار!

زعم ابن تيميّة أنّ معرفة تأويل الشيء إنّما هو بمعرفة وجوده العيني، قال: «فإن الشيء له وجود في الأعيان، ووجود في الأذهان، ووجود في اللسان، ووجود في البيان. فالكلام لفظ له معنى في القلب، ويكتب ذلك اللفظ بالخط، فإذا عُرف الكلام وتُصوّر معناه في القلب وعُبر عنه باللسان، فهذا غير الحقيقة الموجودة في الخارج. وليس كلّ من عرف الأول عرف عين الثاني. مثال ذلك: أنّ أهل الكتاب يعلمون ما في كتبهم من صفة محمد ﷺ وخبره

ونعته. وهذا معرفة الكلام ومعناه وتفسيره. وتأويل ذلك هو نفس محمد المبعوث، فالمعرفة بعينه معرفة تأويل ذلك الكلام. وكذلك إذا عرف الإنسان الحج والمشاعر وفهم معنى ذلك، ولا يعرف الأمكنة حتى يشاهدها، فتكون تأويل ما عرفه أولاً...»^(١)

وقد أشاد السيد محمد رشيد رضا من هذه النظرة التيمية وأعجبته غاية الإعجاب، بل وفضلها على نظرة شيخه الإمام محمد عبده (ما يؤول إليه أمر الشيء)،^(٢) وحسبه منتهى التحقيق والعرفان، والبيان الذي ليس وراءه بيان، وأسهب في سرد كلامه.^(٣)

وهكذا ذهب سيدنا العلامة الطباطبائي رحمته الله إلى أن التأويل ليس من مداليل الألفاظ، وإنما هو عين خارجية، وهي الواقعية التي جاء الكلام اللفظي تعبيراً عنها. قال: الحق في تفسير التأويل أنه الحقيقة الواقعية التي تستند إليها البيانات القرآنية، من تشريع وموعظة وحكمة، وأنه موجود لجميع آي القرآن، وليس من قبيل المفاهيم المدلول عليها بالألفاظ، بل هي من الأمور العينية المتعالية من أن تحيط بها شبكات الألفاظ. وأن وراء ما نقرأه ونستعمله من القرآن أمراً هو من القرآن بمنزلة الروح من الجسد، والمتمثل من المثال وليس من سنخ الألفاظ ولا المعاني، وهو المعبر عنه بالكتاب الحكيم، وهذا بعينه هو التأويل، ومن ثم لا يَمَسُّه إلا المطهرون، قال تعالى: «إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ. فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ. لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ»^(٤). وقال: «بل هو قرآنٌ مجيد. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ»^(٥). وقال: «إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ. وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدِينَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ»^(٦).

فهذه الآيات تدل على أن القرآن النازل كان عند الله أمراً أعلى وأحكم من أن تناله

(١) راجع: تفسير سورة الإخلاص، ص ١٠٣. ورسالة الإكليل، ص ١٨، وهي مطبوعة ضمن مجموعة الرسائل الكبرى، ج ٢.

وتفسير المنار، ج ٣، ص ١٩٥.

(٢) راجع: تفسير المنار، ج ٣، ص ١٦٧، ذيل الآية: ٥٣ من سورة الأعراف.

(٣) راجع: تفسير المنار، ج ٣، ص ١٧٢-١٩٦. (٤) الواقعة: ٧٧-٧٩.

(٥) البروج: ٢١ و ٢٢. (٦) الزخرف: ٣ و ٤.

العقول أو عرضه التقطع والتفصيل، لكنّه تعالى عنايةً بعباده جعله كتاباً مقروءاً وألبسه لباس العربية، لعلهم يعقلون ما لم يكن لهم سبيل إلى تعقله ومعرفته ما دام في أم الكتاب. قال تعالى: «كتابٌ أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيمٍ خبيرٍ»^(١) فالإحكام هو كونه عند الله لا ثلثة فيه ولا تفصيل، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وآيةً آيةً وتنزيله على النبي ﷺ^(٢).



ولعل ما زعمه ابن تيمية ناجم عن خلط أمر المصداق بأمر التأويل، إذ لم يعهد إطلاق اسم «التأويل» على الوجود العيني، وإنما يطلق عليه اسم «المصداق» حسب مصطلح الفن. فإن كل لفظة لها مفهوم هو ما يتصوره الذهن من دلالة ذلك اللفظ. ولها مصداق هو ما ينطبق عليه ذلك المفهوم خارجاً، كالتفاحة لها مفهوم هو وجودها التصوري الذهني، ولها مصداق هو وجودها العيني الخارجي، ذو الآثار والخواص الطبيعية، ولم يعهد إطلاق اسم التأويل على هذا الوجود العيني للتفاحة أصلاً.

ومنشأ الاشتباه أخذ التأويل من أصل اشتقاقه اللغوي بمعنى «مآل الأمر» أي ما يؤول إليه أمر الشيء، كما في قوله تعالى:

«هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء»^(٣) أي ينتظر هؤلاء لينظروا إلى ما يؤول أمر هذا الدين، ويوشك أن يأتي اليوم الذي ينتظرونه، غير أن الفرصة قد فاتتهم ولات الساعة ساعة مندم.



أما رأي سيدنا الطباطبائي فلا يعدو توجيهاً لطيفاً للمرعومة المستقدمة، وتبدو عليه مسحة عرفانية غير مستندة، ومن ثم فهي غريبة شذت عنه. وقبل أن نتكلم في وجه تنفيذها يجب أن نعرف أن ليس اللوح المحفوظ شيئاً ذا وجود بذاته، كوعاء أو لوحة أو

(١) راجع نسر الميزان: ج ٥ ص ٢٥ و ٤٥ و ٤٩ و ٥٤ و ٥٥.

(٢) هود: ١.

(٣) الأعراف: ٥٢.

مكان خاص، مادياً أو معنوياً، كلاً، وإنما هو كناية عن علمه تعالى الأزلي الذي لا يتغير ولا يتبدل، وهو المعبر عنه بالكتاب المكنون وأم الكتاب أيضاً، وغيرهما من تعابير لا تعني سوى علمه تعالى المكنون الذي لا يطلع عليه أحد إطلاقاً.

وبعد فقوله تعالى: «وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم»^(١) لا يعني أن للقرآن وجوداً آخر في وعاء «أم الكتاب»، وإنما جاءت هذه الاستفادة الخاطئة من توهم المكان من قوله: «لدينا». بل المقصود: أن لهذا القرآن شأنًا عظيمًا عند الله في سابق علمه الأزلي والتعبير بأم الكتاب كان بمناسبة أن علمه تعالى هو مصدر الكتاب وأصله المتفرع منه.

وقوله تعالى: «إنه لقرآن كريم، في كتاب مكنون، لا يسفه إلا المطهرون»^(٢) يعني نفس هذا القرآن الذي بأيدي الناس، فهو من كتاب مكنون، أي قدر له البقاء في علمه تعالى الأزلي، وجاء هذا المعنى صريحاً بتعبير آخر: «إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون»^(٣) وقوله: «لا يسفه إلا المطهرون»^(٤) يعني لا يدرك كنه معناه ولا يبلغ الاهتداء به على الحقيقة إلا الذين طهرت نفوسهم عن الزيف والانحراف «ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين»^(٥).

وقوله تعالى: «بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ»^(٦) أي قدر في علمه أنه يبقى محفوظاً عن كيد الخائنين وتحريف المبطلين، لا يمسه بسوء أبداً. هذا، ولعلنا أوجزنا الكلام عن آيات تمسكوا بها في المقام، لأننا أجلنا البحث عن دلالتها إلى مجال التفسير إن شاء الله.



ثم لنفرض أن وراء هذا القرآن الذي بأيدينا قرآناً آخر، ذا وجود مستقل فما هي الفائدة

(١) الزخرف: ٤. (٢) الواقعة: ٧٧-٧٩.

(٣) الحجر: ٩. (٤) الواقعة: ٧٩.

(٥) البقرة: ٢. (٦) البروج: ٢١ و٢٢.

المتوختاة من ذلك؟ وهل هناك من يعمل به؟ أو أنه مذخور ليوم آخر. كالطعام يدخر لأيام الجذب أو المال يكتنز ليوم الحاجة والافتقار؟! وأخيراً، فما الذي دعا هؤلاء إلى تسمية ذلك القرآن المذخور - فرضاً - تأويلاً ووجوداً عينياً لهذا القرآن الحاضر؟ وهل يصح - إذا كان للشيء وجودان، وجود مبذول ووجود محفوظ - أن يطلق على وجوده الآخر عنوان التأويل لهذا الوجود؟!!

إن هذا إلا كلام منبعث عن ذوق عرفاني، بعيد عن مجالات الجدل والاستدلال، نعم، سوى استحسان عقلائي مجرد!

هل يعلم التأويل إلا الله؟

هنا سؤال ذو جانبين، أحدهما عام: هل يستطيع أحد أن يقف على تأويل المتشابهات؟ بل وعلى تأويل أي القرآن كله؟ والثاني خاص: ماذا يستفاد من الآية «وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا»^(١) بالذات؟ هل الواو للتشريك أو الاستئناف؟

وللإجابة على الجانب الأول للسؤال نقول: لاشك أن القرآن كما هو مشتمل على آيات محكمات مشتمل على آيات متشابهات. ولا محالة يقصده أهل الأهواء والأطماع الفاسدة، سعيًا وراء المتشابهات ابتغاء تأويلها وانحرافها إلى ما يلتزم وأهدافهم الباطلة، وقد جاء التصريح بذلك في نفس الآية: «فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء تأويله» فلولا وجود علماء ربانيين في كل عصر ومصر ينفون عنه تأويل المبطلين - كما في الحديث الشريف^(٢) - لأصبح القرآن معرضاً خصباً للشغب والفساد في الدين. فيجب - بقاعدة اللطف - وجود علماء عارفين بتأويل المتشابهات على وجهها الصحيح ليقفوا سدًا منيعاً في وجه أهل الزيغ والباطل دفاعاً عن الدين وعن تشويه أي الذكر

الحكيم.

وأيضاً، لو كانت الآي المتشابهة معاً لا يعرف تأويلها إلا الله لأصبح فسط كبير من آي القرآن لا فائدة في تنزيلها سوى تردد قراءتها، وقد قال رسول الله ﷺ: «ويل لمن لا كفا بين لحييه ثم لم يتدبرها». وقال تعالى: «كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب»^(١).

ولنفرض أن الأمة - عندما وقفت على آية متشابهة - راجعت علماءها في فهم تلك الآية، فأبدوا عجزهم عن معرفتها، فذهبوا والعلماء معهم إلى أحد الأئمة خلفاء الرسول ﷺ فكان الجواب: اختصاص علمها بالله تعالى، لكنهم لم يقتنعوا بهذا الجواب، فهبوا جميعاً إلى حضرة الرسول ﷺ ضارعين سائلين: ما تفسير آية أنزلها الله إليك لتدبرها؟ فإذا النبي ﷺ لا يفترق عن أحاد أمته في الجهل بكتاب الله العزيز الحميد!

أو ليست الأمم تسخر من أمة عثها وعلماءها وأئمتها ونبيها الجهل بكتابها الذي هو أساس دينها مع الخلود؟!

اللهم إن هذا إلا زعم فاسد وخط من كرامة هذه الأمة المفضلة على سائر الأمم بسنيها العظيم وكتابها الكريم.

أو ليس النبي ﷺ هو الذي أرجع أمته إلى القرآن إذا ما التبت عليهم الأمور كقطع الليل المظلم^(٢)؟ فيما إذا يرجعون إذا التبت عليهم القرآن ذاته؟!

وأخيراً، فإننا لم نجد من علماء الأمة - منذ العهد الأول فإلى الآن - من توقّف في تفسير آية قرآنية بحجة أنها من المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله. وهذه كتب التفسير القديمة والحديثة طافحة بأقوال المفسرين في جميع آي القرآن بصورة عامّة. سوى أن أهل الظاهر يأخذون بظاهر المتشابه، أما أهل التمهيص والنظر فيتمتقون فيه ويستخرجون تأويله الصحيح، حسبما يوافق العقل والنقل الصريح.

قال الشيخ أبو علي الطبرسي: ومما يؤيد هذا القول - أي إن الراسخين يعلمون التأويل - أن الصحابة والتابعين أجمعوا على تفسير جميع آي القرآن، ولم نرهم توقفوا على شيء منه لم يفسروه بأن قالوا: هذا متشابه لا يعلمه إلا الله^(١). وقال الإمام بدر الدين الزركشي: إن الله لم ينزل شيئاً من القرآن إلا لينتفع به عباده، وليدل به على معنى أراد، ولا يسوغ لأحد أن يقول: إن رسول الله ﷺ لم يعلم المتشابه. فإذا جاز أن يعرفه الرسول ﷺ مع قوله: «وما يعلم تأويله إلا الله» جاز أن يعرفه الربانيون من صحابته، والمفسرون من أمته. ألا ترى أن ابن عباس كان يقول: أنا من الراسخين في العلم. ولو لم يكن للراسخين في العلم حظ من المتشابه إلا أن يقولوا: «أمتنا» لم يكن لهم فضل على الجاهل، لأن الكل قائلون بذلك.

قال: ونحن لم نر المفسرين إلى هذه الغاية توقفوا عن شيء من القرآن، فقالوا: هذا متشابه لا يعلم تأويله إلا الله. بل أمرؤه على التفسير حتى فسرُوا الحروف المقطعة^(٢).

ماذا يُستفاد من الآية بصورة خاصة؟

أما بالنظر إلى ذات الآية فلمل دالتها على التشرية واضحة، إذ من الضروري لزوم رعاية المناسبة القريبة بين عنوان «المسند إليه» وفحوى مدلول «المسند»، وذلك فيما إذا تعنون المسند إليه بوصف خاص، فإنه يجب حينذاك من مراعاة ما بين هذه الصفة، والحكم المترتب على ذي الصفة من علاقة سببية أو شبهها، وهي التي لاحظها علماء الفن فيما أثار منهم: «مناسبة الحكم والموضوع». وهذا كقولنا: «العلماء باقون ما بقي الدهر» حيث كانت صفة العلم وأثاره البناء هي التي تستدعي الخلود للعلماء.

ومن ثم قد يستشتم نوعيّة الخبر من نفس عنوان الموضوع، قبل أن ينطق بالمخبر به، كما في قوله الشاعر:

إِنَّ الَّذِي سَمَكَ السَّمَاءَ بَنَى لَنَا
 بيتاً دعائمه أَعَزُّ وَأَرْفَعُ
 فقد لمسنا عظمة المخير به ورفعة شأنه من عنوان «سامك السماء» الذي جاء في
 الموضوع.

وعليه فنحن «الراسخون في العلم» بنفسه يستدعي أن يكون المنسوب إليهم من جنس
 ما يتناسب والمعرفة الكاملة، أمّا الإيمان الأعمى فلا مناسبة بينه وبين الرسوخ في العلم.
 وعليه فرعاية هذه المناسبة هي التي تستدعي وجوب التشريك، ليكون الراسخون في
 العلم - أيضاً - عالمين بتأويل المتشابهات.

شكوك واعتراضات

واعترض بأن مقتضى التشريك هو تساوي العلماء مع الله ولو في هذه الجهة الخاصّة،
 وقد قال تعالى: «ليس كمثله شيء»^(١).

وأجيب بأن شرف العلم هو الذي رفعها إلى هذه المنزلة المنيعة، كما في آية أخرى:
 «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط»^(٢).

واعترض آخر: ماذا تكون موقعية قوله: «يقولون آمناً به...» إذا ما اعتبرنا
 «والراسخون» عطفاً على «إلا الله»؟

والجواب: إنها جملة حالية موضعها النصب حالاً توضيحاً من الراسخين. قال
 الزمخشري: و«يقولون» كلام مستأنف موضح لحال الراسخين^(٣) ومقصوده من الاستيناف
 نفي رابطة الإسناد الغيري بينه وبين الراسخين. وهكذا صرح ابن قتيبة^(٤) وأبو البقاء

(٢) آل عمران: ١٨.

(١) الثورى: ١١.

(٣) الكشاف: ج ١ ص ٣٣٨ طبعة بيروت.

(٤) تأويل مشكل القرآن: ص ٧٢.

العكبري^(١) والشريف المرتضى^(٢) والزرکشي^(٣) والعلامة الطبرسي^(٤) والشیخ محمّد عبده^(٥). وغيرهم من أقطاب العلم والأدب القدامى والمحدثين.

وللآية نظائر كثيرة في القرآن، وفي الشعر القديم، جاء في سورة الحشر - في بيان مصرف الغنائم - قوله تعالى: «ما أفاء الله على رسوله - إلى قوله - للفقراء المهاجرين - إلى قوله - والأذنين تبتأوا الدار والإيمان - إلى قوله - والأذنين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالإيمان...»^(٦) فجملة «يقولون...» كلام مستأنف حال من «والأذنين جاؤوا...» المعطوف على ما قبله للتشريك معهم في استحقاق غنائم دار الحرب. وكذلك قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفاً صفاً»^(٧) فالمنصوب حال من «الملك» المعطوف على «ربك».

وقال يزيد بن المفرغ الحميري - بهجو عبّاد بن زياد -:

أصرمتَ حبلك في أمامة
من بعد أيام برمّة
فالسريح تبكي شجوها
والبرق يلمع في الفمامة^(٨)

قوله «والبرق» عطف على «السريح» للتشريك معه في البكاء، و«يلمع» حال من المعطوف، أي ويبكي البرق أيضاً في حال كونه لامعاً.

إذاً فلا غرو أن تكون «يقولون آمناً به...» جملة حالية موضحة لحال الراسخين، وسنذكر فائدة هذه الحال هنا.

واعترض ثالث - هو أقوى حجّة اعتمدها الإمام الرازي - قال: إنَّ الله مدح الراسخين

(١) إبله ما من به الرحمان: ج ١ ص ١٢٤.

(٢) أمالي الشريف المرتضى: ج ١ ص ٤٣١ - ٤٤٢ المجلس ٣٢.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج ٢ ص ٧٣.

(٤) مجمع البيان: ج ٢ ص ٤٦٠.

(٥) نثر السائر: ج ٣ ص ١٦٧.

(٦) العنبر: ٧ - ١٠.

(٧) الفجر: ٢٢.

(٨) راجع الأغاني لأبي الفرج: ج ١٧ ص ١١٢ طبع بيروت و ص ٥٥ طبع الساسي. وابن خلكان: ج ٦ ص ٢٤٦ رقم ٨٢١.

في العلم بأنهم يقولون: آمنا به. وقال في أول سورة البقرة: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ»^(١). فهؤلاء الراسخون لو كانوا عالمين بتأويل ذلك المتشابه على التفصيل، لما كان لهم في الإيمان به مدح، لأن كل من عرف شيئاً على سبيل التفصيل، فإنه لا بد أن يؤمن به. إنما الراسخون في العلم هم الذين علموا بالدلائل القطعية أن الله تعالى عالم بالمعلومات التي لا نهاية لها، وعلموا أن القرآن كلام الله تعالى، وعلموا أنه لا يتكلم بالباطل والعبث. فإذا سمعوا آية ودلت الدلائل القطعية على أنه لا يجوز أن يكون ظاهرها مراداً لله تعالى، بل مراده منه غير ذلك الظاهر، ثم فوّضوا تعيين ذلك المراد إلى علمه، وقطعوا بأن ذلك المعنى - أي شيء كان - فهو الحق والصواب، فهؤلاء هم الراسخون في العلم بالله، حيث لم يزعمهم قطعهم بترك الظاهر، ولا عدم علمهم بالمراد على التعيين، عن الإيمان بالله والجزم بصحة القرآن^(٢).

قلت: ليس كل من عرف الحق اعترف به وأذعن له، قال: تعالى: «يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون»^(٣). هذا، والمدح على الإيمان عن بصيرة أولى من المدح على إيمان أعمى. قال الإمام البيضاوي: مدح الراسخين في العلم بجودة الذهن وحسن النظر وإشارة إلى ما استعدوا للاهتمام به إلى تأويله، وهو تجرد العقل عن غواشي الحس^(٤). والتقييد بالجملة الحالية هنا جاء للإشارة إلى نكتة دقيقة هي: أن المتشابه متشابه على كل من العالم والجاهل جميعاً، سوى أن العالم بفضل علمه بمقام حكمته تعالى يجعل من المتشابه موضع تأمله ودقيق نظره، وبذلك يتوصل إلى معرفة تأويله الصحيح في نهاية المطاف.

توضيح ذلك: أن الناس تجاه المتشابه ثلاث فرق: فرقة تستريح إلى ظاهره، وهم غالبية العامة ممن لا معرفة له بأصول معارف الإسلام الجليلية. وفرقة تعتمد على المتشابه عن قصد

(٢) للتفسير الكبير: ج ٧ ص ١٧٧.

(١) البقرة: ٢٦.

(٤) أنوار التنزيل: ج ٢ ص ٥.

(٣) النحل: ٨٣.

التمويه لغرض تأويله إلى أهداف باطله ذريعة إلى تشويه الحقيقة . وهم أهل الزيغ والانحراف ممن يبغى الفساد بين العباد . وفرقة ثالثة - هم الراسخون في العلم المؤمنون حقاً - يقفون عند التشابه يتأملونه بدقيق النظر . ولسان حالهم : أن هذا التشابه - كأخيه المحكم - صادر عن مقام الحكمة تعالى وتقدس ، فلا بد أن وراء ظاهره التشابه حقيقة راهنة تكون هي المقصودة بالذات . وهذه الفكرة عن التشابه هي التي تدعو المؤمنين حقاً الراسخين في العلم إلى البحث والتحقيق عن تخريجه الصحيح .

والباحث الصادق أمام التشابه لا يضطرب اضطراب الجاهل الذي وضع إيمانه على حرف «فإن أصابه خيرٌ اطماناً به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة»^(١) ولا يتروغ مروغة المعاند العاشم . ليجعل من التشابه ذريعة للغيث والفساد في الأرض «أما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله»^(٢) .

وإنما يقف عنده وقفة المتأمل الفاحص عن جلي الأمر ، ولا شك أنه سوف يحتضن مطلوبه بفضل استقامته وثباته على إيمانه الصادق ، وقد جرت سنة الله في خلقه : أن من جدَّ وجد ومن لجَّ ولج . قال تعالى : «والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لم يحطب المحسنين»^(٣) .

وبالخلاصة : إن الراسخين في العلم بفضل ثباتهم على العقيدة الصادقة سوف يهتدون إلى معرفة تأويل التشابه كما أراد الله ، ويكون قولهم : «أما به كلٌّ من عند ربنا» تهيداً لطلب الحقيقة ، ونقطة باعثة نحو البحث عن طرق التحقيق والفحص .

وهكذا قال الشيخ محمد عبده : وأما دلالة قولهم : «أما به كلٌّ من عند ربنا» على التسليم المحض فهو لا ينافي العلم ، فإنهم إنما سلموا بالتشابه في ظاهره أو بالنسبة إلى

(٢) آل عمران : ٧ .

(١) الحج : ١٦ .

(٣) النكبات : ٢٩ .

غيرهم لعلمهم باتفاقه مع المحكم، فهم لرسوخهم في العلم ووقوفهم على حقّ اليقين لا يضطربون ولا يتزعزعون، بل يؤمنون بهذا وبذلك على حدّ سواء، لأنّ كلّاً منهما من عند الله ربنا، ولا غرو فالجاهل في اضطراب دائم والراسخ في ثبات لازم، ومن أطلع على صنوع الحقيقة لا تشبّه عليه المجاري، فهو يعرف الحقّ بذاته، ويرجع كلّ قول إليه، قائلاً: أمّنا به كلّ من عند ربنا^(١).

بقي هنا شيء وهو: أنّ الإمام الرازي - تأكيداً لاختياره الاختصاص - استمدّ بالأدب الرفيع! وقال: إنّ العطف بعيد عن ذوق الفصاحة، ولو أريد العطف لكان الأولى أن يقال: وهم يقولون أمّنا به، أو يقال: ويقولون أمّنا به^(٢).

وواقفه على هذا الذوق الأدبي! سيّدنا العلامة الطباطبائي، قائلاً: وظاهر الحصر كون العلم بالتأويل مقصوراً عليه تعالى. وظاهر الكلام أنّ الواو في «والراسخون» للاستيناف، لكونه طرفاً للترديد الواقع في صدر الآية «فأمّا الذين...». ولو كان للعطف الدالّ على التشريك لكان من أفضل الراسخين حينذاك هو الرسول الأعظم، فكان من حقّه أن يفرد بالذكر، تشريفاً بمقامه كما في قوله تعالى: «آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون»^(٣) وقوله: «ثمّ أنزل الله سكينة على رسوله وعلى المؤمنين»^(٤) وقوله: «وهذا النبيّ والذين آمنوا»^(٥).

قلت: إن كنتأرى لهذين العُلَمين منزلتهما الشامخة في مجال الحكمة والعلوم العقليّة فإنّ ذلك - بنفس المرتبة - أبعدهما عن عالم الأدب اللسني والعلوم النقليّة، لا سيّما وأنهما لم يذكرنا سبب تلك الاستدافة الغربية! وقد أسلفنا نقل كلام أئمّة الأدب في ترجيح العطف على الاستيناف.

(٢) التفسير الكبير: ج ٧ ص ١٧٧.

(١) تفسر المنار: ج ٣ ص ١٦٧.

(٤) التوبة: ٢٦.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

(٥) آل عمران: ٦٨.

هذا، وقد ذهب عن الإمام الرازي أن الجملة الحالية إذا صدرت بالفعل المضارع يجب تجريدها عن الواو البتة، قال ابن مالك في باب الحال من ألفتها في النحو:

وذا ت بدء بمضارع ثبت حوت ضميراً ومن الواو خلت

كما ذهب عن سيدنا الطباطبائي أن في القرآن كثيراً من عمومات تشمل النبي الأكرم ﷺ يقيناً ولم يفرد بالذكر، منها: قوله تعالى: «شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط»^(١) وقوله: «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ»^(٢) وقوله: «إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا»^(٣) وقوله: «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»^(٤) وغيرهن من آيات كثيرة جداً.

مزعومة المنكرين

نسب جلال الدين السيوطي القول باختصاص معرفة التأويل به تعالى إلى أكثرية السلف خصوصاً أهل السنة، قال: وأما الأكثرون من الصحابة والتابعين وأتباعهم ومن بعدهم - خصوصاً أهل السنة - فذهبوا إلى الثاني، أي القول بأن التأويل لا يعلمه إلا الله^(٥). وأظنه مبالغاً في هذه النسبة، ولا سيما بعد مراجعتنا لأقوال السلف أتضح عدم صحته النسبة. قال ابن تيمية: قول القائل: إن أكثر السلف على أن التأويل لا يعلمه إلا الله قول بلا علم^(٦) فإنه لم يثبت عن أحد من الصحابة أنه قال: إن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، بل الثابت عن الصحابة أن المتشابه يعلمه الراسخون. وقال - قبل ذلك -: إن السلف قد قال كثير منهم: إنهم يعلمون تأويله، منهم مجاهد مع

(١) فصلت: ٣٠.

(١) آل عمران: ٦٨.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) الحج: ٢٨.

(٤) الإنفان: ج ٢ ص ٣ الطبعة الأولى، وص ٥ - ٦ الطبعة الثانية.

(٥) دليل لمن كفره نمرود.

جلالة قدره، والربيع بن أنس، ومحمد بن جعفر بن الزبير، وابن عباس... وقد تكلم أحمد بن حنبل في تأويل كثير من آيات مشابهة إلى أن يقول: - وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة، منهم ابن قتيبة وأبو سليمان الدمشقي^(١).

وقال أبو جعفر الطبري: إن جميع ما أنزل الله من آي القرآن على رسوله ﷺ فإنما أنزله عليه بياناً له ولأئمة وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما لا حاجة بهم إليه، ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل^(٢).

وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس من أوّله إلى آخره، أفقه عند كل آية وأسأله عنها. وكان يقول: أنا من الراسخين في العلم الذين يعلمون تأويله^(٣).

وقال الراغب - في مقدمة تفسيره -: وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوماً، وإلا لأدّى إلى إبطال فائدة الانتفاع به، وحملوا قوله: «والراسخون» بالعطف على قوله: «إلا الله» وقوله: «يقولون» جملة حالية^(٤).

وذهب أبو الحسن الأشعري - شيخ الأشاعرة - إلى وجوب الوقف على «والراسخون في العلم» لأنهم يعلمون تأويل المتشابه. وقد أوضح هذا الرأي وانتصر له أبو إسحاق الشيرازي بقوله: ليس شيء استأثر الله بعلمه بل وقف العلماء عليه، لأن الله تعالى أورد هذا مدحاً للعلماء، فلو كانوا لا يعرفون معناه لشاركوا العامة^(٥).

وفيما نقلنا هنا من أقوال الأعلام كفاية في تزيف ما نسب جلال الدين إلى السلف، ولعلّ الباحث يجد من أقوال الأئمة أكثر.

والعمدة: أن منكري العطف استندوا إلى مزعومة مفضوحة، قالوا: لأنّ المتشابه هو ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل، ممّا استأثر الله بعلمه دون خلقه، وذلك نحو الخبر عن وقت

(١) نفل نفسير المنار: ج ٣ ص ١٧٤ - ١٧٥. (٢) جامع البيان للطبري: ج ٣ ص ١١٦.

(٣) نفسير المنار: ج ٣ ص ١٨٢. (٤) البرهان للزركشي: ج ٢ ص ٧٤.

(٥) الباحث لصبيحي الصالح: ص ٢٨٢.

مخرج عيسى بن مريم . ووقت طلوع الشمس من مغربها ، وقيام الساعة وفناء الدنيا وما أشبه ذلك ، لا يعلمه أحد^(١) .

وقالوا في تفسير الآيات : يعني جل ثناؤه بذلك : وما يعلم وقت قيام الساعة وانقضاء مدة أجل محمد وأُمَّته وما هو كائن إلا الله ، دون من سواه من البشر ، الذين أمَلُوا إدراك علم ذلك من قبل الحساب والتنجيم والكهانة . وأما الراسخون في العلم فيقولون آمَنَّا به كلُّ من عند ربِّنا لا يعلمون ذلك ، ولكن فضل علمهم في ذلك على غيرهم ، العلم بأنَّ الله هو العالم بذلك دون من سواه من خلقه^(٢) .

ولعلَّ هؤلاء قد غشيتهم غفلة ، فذهب عنهم أن آية آل عمران تقصد تنويع أي القرآن إلى محكمات ومتشابهات ، وأنَّ المحكمات هنَّ مراجع الأُمَّة بالذات ، أمَّا الآيات المتشابهات فيعتمد إلى تأويلها الباطل أهلُ الأهواء الفاسدة ، ولا يعلم تأويلها الصحيح سوى الله والراسخين في العلم . هذا هو فحوى الآية الكريمة ، الأمر الذي لا يرتبط والأمور السبعة التي استأثر الله بعلمها من نحو خروج الدجال ، ونزول المسيح وطلوع الشمس من المغرب . إنَّها من أشراف الساعة ، ولا مساس لها بموضوع آية آل عمران . إنَّها غفلة غريبة لاندرى كيف خفي عليهم ذلك ولم ينتبهوا إلى هذا الفضح الواضح؟!

من هم الراسخون في العلم؟

الراسخون في العلم هم من لمسوا من المتشابه وجه التشابه فيه أولاً ، ثمَّ تمكَّنوا من الوصول إلى وجه تخريجه الصحيح في نهاية الأمر . لأنَّ فهم السؤال نصف الجواب كما قيل . إذ الراسخون في العلم هم من عرفوا من قواعد الدين أسسها المكينة ، ودرسوا من واقع الشريعة أصول مبانيها الرصينة ، ومن ثمَّ إذا ما جوبهوا بما يخالفها في ظاهر اللَّفْظ عرفوا أنَّ

(١) راجع جامع البيان للطبري . ج ٣ ص ١١٦ .

(٢) المصدر السابق : ص ١١٢ . مجمع البيان : ج ٢ ص ٤١٠ . الفيضاني : ج ٢ ص ٥ .

له تأويلاً صحيحاً، يجب التوصل إليه في ضوء تلكم المعارف الأوتية، ومن جد في طلب شيء وكان من أهله تحصّله في نهاية المطاف، أما الجاهل الأعمى فلا يعرف من الدين شيئاً سوى ظواهره، من غير أن يميّز بين محكماته والمتشابهات.

والخلاصة: أنّ العلماء الصادقين - بما أنّهم وافقون على قواعد الشريعة وعارفون بموازن الشرع ومقاييسه الدقيقة - إذا ما عرضت عليهم متشابكات الأمور هم قادرون على استنباط حقائقها وعلى أوجه تخريجاتها الصحيحة.

ومن ثمّ فإنّهم يعلمون تأويل المتشابهات بفضل رسوخهم في فهم حقيقة الدين بعناية ربّ العالمين «والَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ لِمَنْ سُبُلَنَا»^(١)، «ويزيد الله الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى»^(٢)، «إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ»^(٣)، وقد قال تعالى: «وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِينَاهُمْ مَاءً غَدَقًا»^(٤)، أو ليس العلم بحقائق الشريعة البيضاء من الماء الغدق؟ إنها شربة حياة العلم، يفيضها الإله تعالى على من يشاء من عباده المؤمنين، ويطلعهم على أسرار الملك والملكوت في العالمين.

وأوّل الراسخين في العلم هو رسول الله ﷺ، قال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام: أفضل الراسخين في العلم رسول الله ﷺ، قد علم جميع ما أنزل الله في القرآن من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله^(٥).

ثمّ ياب مدينة علمه أمير المؤمنين عليه السلام، والأوصياء من بعده صلوات الله عليهم أجمعين، قال الإمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ عَلَّمَ نَبِيَّهَ التَّنْزِيلَ وَالتَّأْوِيلَ، فَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلِيًّا وَعَلَّمَنَا، وَاللَّهُ»^(٦).

وهكذا استمرّ بين أظهر المسلمين عبر العصور رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فثبتوا

(٢) مريم: ٧٦.

(١) التكبوت: ٨٩.

(٤) العن: ١٦.

(٣) فضلت: ٣٠.

(٦) مرآة الأنوار: ص ١٥.

(٥) بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٧٨.

واستقاموا على الطريقة فسقاهم ربهم ماءً غدقاً. قال رسول الله ﷺ: يحمل هذا الدين في كلِّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين^(١).

وقد جاء التعبير عن علماء أهل الكتاب الرِّبَانِيِّين بالراسخين في العلم «لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك»^(٢)، دليلاً على أنَّ العلماء العاملين الَّذِينَ ساروا على منهج الدين القويم وكملت معرفتهم بحقائق الشريعة الطاهرة هم راسخون في العلم ويعلمون التأويل.

قال الإمام الصادق عليه السلام: نحن الراسخون في العلم، فنحن نعلم تأويله^(٣).

وعن ابن عباس تلميذ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: أنا ممن يعلم تأويله^(٤) وفي وصية النبي ﷺ: فما اشتبه عليكم فاسألوا عنه أهل العلم يخبرونكم^(٥). فلولاً أنَّ في أئمة علماء عارفين بتأويل المتشابهات لما أوصى ﷺ بمراجعتهم في حلِّ متشابهات الأمور و«الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله»^(٦)، وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

(٢) النساء: ٦٦٢.

(١) سفينة البحار: ج ١ ص ٥٥.

(٤) الدرر المنتورة للسيوطي: ج ٢ ص ٧.

(٣) تفسير البرهان للبحراني: ج ١ ص ٢٧١.

(٦) الأعراف: ٤٣.

(٥) آلاء الرحمن للبلاغي: ج ١ ص ٢٥٨.